تاريخ
مختصر الدول

تأليف
العلامة أبي الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي
المعروف بابن العبري
المتوفى سنة ٦٨٥هـ

وضع حواشيه
خليل المنصور

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مصورات
مكتبة الصدوق

تاريخ
مختصر الدول

تأليف
العلامة أبي الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي
المعروف بابن العبري
المتوفى سنة ٦٨٥هـ

وضع حواشيه
خليل المنصور

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة **لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان** ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيـــاً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by **DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon.** No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١)٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg. 1st floor

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.25 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة ابْن العِبْريّ

هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري ولد سنة ١٢٢٦ للمسيح. وكانت ولادته في مدينة ملَطية قاعدة أرمينية الصغرى. وكان أبوه وجيهاً في قومه نافذ الكلمة في أهل بلده كريماً على عشيرته. فلما آنس من غريغوريوس حذقاً ورأى منه ذكاء وفقهاً دفعه من صغره إلى تلقّي الآداب والتخرّج في العلوم التي كانت لأهل ذلك العصر. فجدّ الولد في الحفظ وأقبل على ارتشاف سلافة العلم فدرس أوّلاً اليونانية والسريانية والعربية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت وقرأ الطب على أبيه وغيره من مشاهير أطباء زمانه.

إلاّ أنه بينما كان عاكفاً على التحصيل جادًّا في الطب انثالت المصائب على بلاده انثيالاً وأُفرغت النوائب إفراغاً وتعاقب عليها الخراب من جانب المسلمين والفرنج والروم ثم من التاتار المغول الذين أسرفوا في القتل والنهب والسبي والحريق حتى لم يُسمع في التاريخ عن جهة من الأرض أنها أصيبت بمثل ما نزل بهذه البلاد من المخاوف والجوائح والمقاتل. وعندها فر به والده إلى أنطاكية وكان ذلك سنة ١٢٤٣ فاختار أبو الفرج هنالك طريقة الزهد والنسك وانفرد في مغارة بالبرية. فلما انتهى خبر فضله إلى أغناطيوس سابا بطريرك شيعته خف لزيارته في تلك المغارة وأبدى له غاية التجلة والتكريم. ولم يلبث غريغوريوس برهة في المغارة المشار إليها حتى شخص إلى طرابس الشام وأكمل قراءة البيان والطب مع رفيق له يسمى صليبا وجيه على عالم اسمه يعقوب من مذهب النساطرة.

وفي تلك الأثناء استدعاه البطريرك أغناطيوس سابا إلى أنطاكية ورقاه في العشرين من سنه إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية ونصب رفيقه أسقفاً على كنيسة عكاء وكان ذلك في ١٤ أيلول من شهور سنة ١٢٤٦. وما أكمل السنة في تدبير تلك الأسقفية حتى أمر البطريرك بنقله إلى أسقفية لاقبين وهي قريبة من جوباس فأقام على تدبير شؤونها سبع سنوات. وتوفي حينئذ بطريرك اليعقوبية فوقع الشقاق بين أساقفتهم على انتخاب خلف له وانقسموا في ذلك حزبين. وتحزب ابن العبري لديونيسيوس عنجور على يوحنا ابن المعدني فنقله ديونيسيوس إلى أسقفية حلب سنة ١٢٥٣ إلا أن الأحوال لم تمكنه من القبض على زمامها لأن صليبا الذي تلقى الدروس معه في مدينة ملطية، وكان قد أقامه يوحنا بن المعدني مفرياناً على المشرق، حصّل من الملك الناصر صاحب حلب عهداً سلّطه به على الأسقفية المشار إليها. فاضطر غريغوريوس أن يلزم بيت أبيه الذي قد

انتقل حديثاً إلى حلب. ولما رأى أن لا سبيل إلى الفوز برغيبته شخص إلى دير برصوما بالقرب من ملطية وأقام هنالك عند بطريركه سنة أو سنتين. ثم قصد دمشق فحظي عند الملك الناصر ورفع مكانته وأعاده إلى كرسيه مكرّماً وأعطاه أيضاً براءة للبطريرك ديونيسيوس يسلّطه بها على المشرق كما كان سلّطه على المغرب عزّ الدين صاحب الروم.

ولما كانت سنة ١٢٥٨ استوى المغول تحت قيادة هولاكو على بغداد وقتلوا الخليفة وانقرضت دولة العباسيين فعم الخراب والدمار جميع بلاد ما بين النهرين وسورية. ثم خرجوا بالجيش على حلب فسار ابن العبري إلى هولاكو ليستعطفه على رعيته ولكن الجند قد توغلوا في المدينة وقتلوا من الروم واليعاقبة مقتلة كبيرة.

وفي سنة ١٢٦٤ انتخبه البطريرك الجديد أغناطيوس الثالث مفرياناً على جهات الشرق أي نواحي ما بين النهرين الشرقية والعراق العجمي واشور وكانت تلك الجهات قد حرمت هذا المنصب مدة ست سنوات بسبب توالي الحروب وتتابع الوقائع. وجرت حفلة إقامته على ذلك المقام في التاسع عشر من كانون الثاني في مدينة سيس مباءة الملك بقيليقية وشهد تلك الحفلة جميع أساقفة اليعاقبة وحاتم ملك الأرمن وأولاده وعظماؤه وجمهور غير يسير من الشعب مع أساقفة الأرمن وعلمائهم. وكان أوّل ما اهتم به أنه سار إلى هولاكو أيلخان ملك المغول فأنعم عليه بثلاث براءات واحدة له وأخرى للبطريرك والثالثة لأسقف قيسرية قبادوقية اليعقوبي. ومن ذلك الحين أخذ يتجول في أسقفيته المتسعة ويقوم بمهام منصبه ويسعى فيما يؤول إلى نجاح رعيته ويدأب في خيرهم حتى استتبت لهم الراحة التامة وشملهم الأمن فحسدهم سكان البطريركية في سورية وأرمينية وقيليقية. وقد أتى في مفريانيته أعمالاً خطيرة جداً وآثاراً مشكورة إذ عُني بإنشاء وتجديد كنائس وأديار كثيرة وأقام اثني عشر أسقفاً اختارهم ممن تميزوا بالعلم وحسن السيرة.

وعُمّر أبو الفرج ستين سنة وتوفي في ليلة الثلاثاء من تموز سنة ١٢٨٦ في مدينة مراغة من أعمال أذربيجان وكان قد انتقل إليها منذ برهة من الموصل. فلم يقتصر جماعة اليعاقبة القليلة في تلك المدينة على الاحتفال بمأتمه بل شاركهم في ذلك النساطرة والأرمن والروم على ما أخبر به أخوه برصوما.

كان أبو الفرج على بدعة اليعقوبية الذين يعتقدون طبيعة واحدة في السيد المسيح. ولكنك إذا طالعت قوله في قانون الإيمان: «إن في سيدنا يسوع المسيح طبيعتين هما اللاهوت و[illegible] إن اتحاد لاهوته مع ناسوته عجيب لا يستطاع وصفه وهو من غير امتزاج ولا [illegible] لا تحوُّل مع سلامة الفرق بين الطبيعتين في ابن واحد ومسيح واحد» حسبته [illegible] أن ناقض اعتقاده بقوله: «ذات واحدة وشخص واحد واقنوم

واحد ومشيئة واحدة وقوة واحدة وعمل واحد». ومن هنا تعلم أنه كان يقول بمذهب المشيئة الواحدة فوق مذهب الطبيعة الواحدة. وقد حاول إثبات معتقده هذا في كتاب له سماه منارة الأقداس. وخالف في الكتاب نفسه اعتقاد كنيسته بقوله: إن الروح القدس غير منبثق من الابن.

وكان ابن العبري رجل كد وعمل لم ينقطع حياته كلها عن المطالعة والتأليف فإنه ألف ما يزيد على الثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية ذكر العلامة السمعاني اسماءها ووصف أربعة عشر منها في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية من صفحة ٢٦٨ إلى ٣٢١ ومنها يتبين أنه اشتغل بجميع أصناف العلوم الأدبية إذ أنه كتب في المسائل اللاهوتية وشرح الكتاب المقدس والشرع الكنائسي والمدني والفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر والفكاهيات.

أما تأليفه لكتاب تاريخ الدول هذا فروى أخوه برصوما أنه لما فشت التعديات في نواحي نينوي ألحَّ عليه في الانتقال إلى مراغة. ومن حيث أنه كان هناك مكرَّماً من خاصة الناس وعامتهم تقدم إليه بعض وجهاء العرب في أن ينقل إلى اللغة العربية كتاب التاريخ الذي ألفه في السرياني. فلبى طلبتهم وأقبل على العمل فأتمه إلاّ بعض صفحات في نحو شهر بإنشاءٍ على جانب من التهذيب والفصاحة. وكان نقله لهذا التاريخ في أواخر حياته وقد ضمنه أموراً كثيرة لا توجد في المطول السرياني ولا سيما فيما يتعلق بدولتَي الإسلام والمغول وتراجم العلماء والأطباء.

وكان أبو الفرج مع كثرة علومه ماهراً في جميعها متقناً لكلها غير مكتفٍ بنُتف منها. وكان من المنشئين المجيدين في العربية أما في السريانية فإنه من أكابر كتبتها المبرزين ولذلك سماه العلامة السمعاني أمير الكتبة اليعاقبة. وإذا نظرت إلى خبرته في كثير من العلوم أيقنت أنه كان أعلم وأعلى جميع السريان الذين اشتهروا بالمعارف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال مولانا وسيدنا الأب القديس. الطاهر النفيس. العالم العلامة.
ملك العلماء. أفضل الفضلاء. قدوة الزمان. فريد الوقت
والأوان. إفتخار أهل الفضل والحكمة. المفريان
المؤيَّد ماركريغوريوس أبو الفرج ابن الحكيم
الفاضل أهرون المتطبِّب الملطّي تغمده
الله برحمته

الحمد لله الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، ذي الكلمة الأحدية، والحياة الأبدية، معبود العلّيين في الآفاق، ومسجود السَّفليّين في الأعماق، والسلام على ملائكته المقرَّبين، وأنبيائه المرشدين إلى طاعة الله وتقواه، والسلوك في حفظ مذاهبه ورضاه.

وبعدُ فهذا مختصر في الدول قصدت في اختصاره الاقتصارَ على بعض ما أُوتي في ذكره اقتصاصُ إحدى فائدتَي الترغيب والترهيب من أمور الحكام والحكماء خيرها وشرّها على سبيل الالتقاط من الكتب الموضوعة في هذا الفن بلغات مختلفة سريانية وعربية وغيرها مبتدئاً من أول الخليقة ومنتهياً إلى زماننا. وهو مرتَّب على عشر دول داولها الله تعالى بين الأمم فتداولتها تداولاً بعد تداول.

الدولة الأولى: دولة الأولياء من آدم أول البرنساء أي الناس.

الدولة الثانية: الدولة المنتقلة من الأولياء إلى القضاة قضاة بني إسرائيل.

الدولة الثالثة: الدولة المنتقلة من قضاة بني إسرائيل إلى ملوكهم.

الدولة الرابعة: الدولة المنتقلة من ملوك بني إسرائيل إلى ملوك الكلدانيين.

الدولة الخامسة: الدولة المنتقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك المجوس.

الدولة السادسة: الدولة المنتقلة من ملوك المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين.

الدولة السابعة: الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الإفرنج.

الدولة الثامنة: الدولة المنتقلة من ملوك الإفرنج إلى ملوك اليونانيين المتنصّرين.

الدولة التاسعة: الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين المتنصرين إلى ملوك العرب المسلمين.

الدولة العاشرة: الدولة المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول.

الدولةُ الأوْلىٰ
للأولياء قبْل الدّخول إلى أرض الميعَاد

قال من عُني بأخبار الأمم وبحث عن سيَر الأجيال أنَّ أصول الأمم من سالف الدهر سبعة: الفرس والكلدانيون واليونانيون والقبط والترك والهند والصين. ثم تفرّع كل واحدة من هذه الأمم إلى أمم وتشعبت اللغات وتباينت الأديان. وكانوا جميعاً صابئة يعبدون الأصنام تمثيلاً للجواهر العلوية والأشخاص الفلكية. وهم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتان: طبقة عنيت بالعلوم كالكلدانيين والفرس وسائر من يأتي ذكره في موضعه، وطبقة لم تُعنَ بهذا كأهل الصين والترك والصقالبة والبرابر والحبشة ومن اتصل بهم.

أما الصين فأكثر الأمم عدداً وأفخمهم مملكة وأوسعهم ديارا، ومساكنهم محيطة بأقصى مشارق المعمورة ما بين خط الاستواء إلى أقصى الأقاليم السبعة في الشمال وحظهم من المعرفة التي بزّوا فيها سائر الأمم اتقان الصنائع العملية وأحكام المهن التصويرية. وأما الترك فأمة كثيرة العدد أيضاً فخمة المملكة وفضيلتهم التي برعوا فيها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها. فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية وأما سائر هذه الطبقة التي لم تُعنَ بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس، لأن من كان موغلاً في الشمال فافراطُ بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد أمزجتهم وفجّج أخلاقهم فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم واستدلّت شعورهم فعدموا بهذا دقة الإفهام وثقوب الخواطر فغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم الغيّ والغباوة كالصقالبة ومجاوريهم. ومن كان منهم قريباً من معدّل النهار وخلفه إلى نهاية المعمورة في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم سخنت أمزجتهم واحترقت أخلاطهم فاسودت ألوانهم وتفلفلت شعورهم فعدموا بهذا الاناة وثبوت البصائر كالحبشة وباقي السودان إلا الهند فإن الله قد فضلهم على كثير من السمر والبيض وهم معدن الحكمة وينبوع العدل إلا أنهم يُثبتون أزل العالم ويُبطلون النبوّات ويحرمون ذبح الحيوان ويمنعون إيلامه.

(آدم) أبو البشر خلق يوم العَروبة[1] سادس الشهر الأول وهو نيسان سنة إحدى للعالم بعد

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ١٢٤ خلق آدم بعد العصر يوم العروبة ويوم العروبة يعني يوم الجمعة.

أن خلق الله تعالى في يوم الأحد وهو أول نيسان السماءَ العليا أي الفلك التاسع المتحرك بالحركة الأولى من المشرق إلى المغرب والأرضَ وتسعَ مراتب الملائكة والنورَ والأركان الأربعة. وخلق تعالى في يوم الإثنين الرقيع وهو السماء الدنيا أي الفلك الثامن وما في ضمنه من الأرقعة السبع المتحركة بالحركة الثانية من المغرب إلى المشرق. وفي يوم الثلاثاء أمر الله تعالى الماء فاجتمع إلى مكان واحد صائراً بحراً وأُظهرت الأرض منبتة عشباً وأشجاراً مثمرة وغير مثمرة. وفي يوم الأربعاء قال عزّ من قائل: لتكن مصابيح أي كواكب في علو الرقيع للفصل بين الليل والنهار ولدلالات الأوقات والأيام والأعوام فرُصّعت الثوابت بالفلك الثامن والنيّران والخمسة المتحيّرة كل بفلكه واستولت الشمس على سلطان النهار واستولى القمر على سلطان الليل وبقي الفلك التاسع وحده متطلّساً. وفي يوم الخميس خلق الله تعالى التنانين العظام وكل نفس متحركة في الماء وكل طائر ذي جناح. وفي يوم الجمعة أمر الله تعالى الأرض فأخرجت أنفساً حيوانية بهائم وسباعاً وحشرات. ثم خاطب ملائكته[١] قائلاً: هلمّوا نخلق إنساناً بصورتنا ومثالنا عارفاً بالخير والشر مستطيعاً لفعلهما. فظهرت يمين مبسوطة فيها أجزاء من العناصر الأربع ونفخ فيها نسيم الحياة فوُجد آدم شاباً. ثم ألقى الله عليه الرقاد وانتزع إحدى أضلاعه من جنبه الأيمن وخلق[٢] منها حواء أم البشر وأسكنهما فردوس عدن وهو الجنة ومستقرها نحو المشرق وأباحهما الأكل من جميع ثمار الجنة خلا شجرة معرفة الخير والشر. وأردف ذلك يوم السبت فلم يخلق فيه شيئاً.

ومن علمائنا مار غريغوريوس النوسويّ ويعقوب الرهاويّ يزعمان أن جميع المخلوقات إنما وجدت في آن واحد والكتاب الإلهي إنما خصص كون كل كائن بيوم لتعليمنا حسن الترتيب في الأمور وإن الله غير موجب بالذات بل فاعل بالاختيار له أن يبرأ ما شاء متى شاء.

وكان آدم وحواء عاريَين بغير لباس ولم يستحِ أحدهما من الآخر حتى دخل الشيطان في الحية وخدعت حواء فأكلت من الثمرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها وأعطت أيضاً آدم بعلها فأكل. فانفتحت أعين قلبيهما وأحسا بالعُري فاستحيا واتّزرا بورق التّين وأُهبط بهما من جنة عدن إلى الأرض على تسع ساعات من نهار الجمعة وكانت خلقتهما في الساعة الأولى[٣] من هذا النهار بعينه.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٠١ لما أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٠٣، لما أسكن آدم الجنة كان يمشي فيها ليس له زوج، وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير، فلما أسكن آدم الجنة كان يمشي فيها فرداً ليس له زوج ح ١ ص ٣٠.

(٣) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ١٢٤ خلق آدم بعد العصر يوم الجمعة.
وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٣٣ (آخر ساعة من النهار).

وقد اختلف علماؤنا في أمر الثمرة المنهي عنها فقال قوم إنها البُرّ وقال آخرون إنها العنب وقال الأكثرون إنها التين وغريغوريوس النوسويّ يزعم أنها رمز إلى القوة الشهوانية والنازينزيّ يرى أنها رمز إلى المراء في ذات الله وصفاته.

وعلى رأي مارثوديوس بعد ثلاثين سنة للانتفاء من الجنة باشر آدم حواء فولدت قايين وقليميا أخته توأمين. وبعد ثلاثين أخرى غشيها فولدت هابيل ولبوذا اخته توأمين. وبعد سبعين سنة أخرى حاول آدم تزويج واحد كل منهما بتوأمة أخيه. فأبى قايين طالباً توأمته ولأجل ذلك قرب قرباناً من ثمار أرضه لكونه فلاحاً فلم يُقبل لفساد طريقته. ورفع هابيل قرباناً من أبكار غنمه لكونه راعياً فقُبل لحسن سيرته. فأسرّ قايين عداوة أخيه فقتله غيلة واستوطن أرض نود[١] الخارجة عن حدود ولد أبيه. وحزن آدم على هابيل مائة سنة. ثم عاد مفضياً إلى حواء فولدت شيث والماضي من عمر آدم يومئذ على رأي الاثنين والسبعين حبراً الذين نقلوا التوراة وكتب الأنبياء لبطليموس ملك مصر قبل مجيء السيد المسيح لذكره التبجيل كما سيأتي شرح ذلك في موضعه مائتان وثلاثون[٢] سنة. وعلى رأي التوراة التي بأيدي اليهود بعد مجيئه مائة وثلاثون سنة. وجميع أيام آدم على الرأيين تسعمائة وثلاثون سنة.

(شيث بن آدم) يقال إنه أول من ابتدع الكتابة وشوق ولده إلى الحياة السعيدة التي كانت لأبويه في الجنة فانقطعوا إلى جبل حرمون[٣] متعكفين على العبادة والنسك والعفّة لا يطورون بجنبة النساء. فسمُّوا بذلك بنوا ألوهيم أي الإله. وأولد شيث أنوش وله حينئذٍ على الرأي السبعينيّ مائتان وخمس سنين وعلى رأي اليهود مائة وخمس سنين وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة واثنتا عشرة سنة.

(أنوش بن شيث) يقال هو أول من دعا اسم الرب ومنحه الله تعالى معرفة الأكوان ومسير الكواكب وهو وإن لم يجانب النساء لم يغفل التقرُّب إلى الله زُلفى. وأولد قينان ابنه وله يومئذ على الرأي السبعيني مائة وتسعون سنة وعلى رأي اليهود تسعون سنة وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة وخمس سنين.

(قينان بن أنوش) ولد له مهلالايل وعمره على الرأي السبعيني مائة وسبعون سنة وعلى رأي اليهود سبعون سنة وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة وعشر سنين.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٤٣ (قابيل بعد أن قتل أخوه هرب إلى اليمن).

(٢) في المنتظم لابن الجوزي: كانت ولادته بعد مضي مائة وعشرين سنة لآدم وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٤٣ (ولادة شيث كانت ولادته بعد مضي مائة وعشرين سنة لآدم).

(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٤٧ (أنه لم يزل مقيماً بمكة يحج ويعتمر إلى أن مات).

(مهلالايل بن قينان) ولد له يرد وعمره على الرأي السبعيني مائة وخمس وستون سنة وعلى رأي اليهود خمس وستون سنة وجميع أيامه على الرأيين ثمانمائة وخمس وتسعون سنة.

(يرد بن مهلالايل) ولد له حنوخ وعمره على الرأيين جميعاً مائة واثنتان وستون سنة وجميع أيامه تسعمائة واثنتان وستون سنة. وفي سنة أربعين ليرد هبط بنو ألوهيم من جبل حرمون متآيسين من العود إلى الفردوس ورغبوا في النساء فلم يزوجهم ذوو قرابتهم مستخفين لهم. فاختطبهم قوم قايين باذلين لهم بناتهم فنكحوهنَّ فولدن جبابرة مبرزين في الحروب والغارات. وقيل إن بنات قايين اخترعن آلات الملاهي زامرات بها ولذلك تسمي السريانية اللحن قِينة بالكسر وتسمي العرب الأمة المغنية قَينة بالفتح.

(حنوخ[1] بن يرد) ولد له متوشلح وعمره على الرأي السبعيني مائة وخمس وستون سنة وعلى رأي اليهود خمسة وستون سنة. هذا حنوخ تمسك بوصايا الله الطاهرة وعمل بها وتتبع الخير وصرف عن الشر مواظباً على العبادة ثلثمائة سنة فنقله الله إلى حيث شاء حياً وقيل إلى الفردوس.

(إدريس) والأقدمون من اليونانيين يزعمون أن حنوخ هو هرمس ويلقب طريسميجيسطيس أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الباري تعالى بثلاث صفات ذاتية هي الوجود والحكمة والحياة. والعرب تسميه إدريس. وقيل إن الهرامسة ثلاثة: الأول هرمس الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو أول من تكلم في الجواهر العلوية وأنذر بالطوفان وخاف ذهاب العلوم ودرس الصنائع فبنىٰ الأهرام وصور فيها جميع الصناعات والآلات ورسم فيها طبقات العلوم حرصاً منه على تخليدها لمن بعده. والثاني هرمس البابلي سكن كلواذا مدينة الكلدانيين وكان بعد الطوفان وهو أول من بنى مدينة بابل بعد نمرود بن كوش. والثالث هرمس المصري وهو الذي يسمى طريسميجيسطيس أي المثلث بالحكمة لأنه جاء ثالث الهرامسة الحكماء ونُقلت من صحفه نبذ وهي من مقالاته إلى تلميذه طاطي على سبيل سؤال وجواب بينهما وهي على غير نظام وولاء لأن الأصل كان بالياً مفرقاً والنسخة موجودة عندنا بالسريانية. وقيل إن هرمس الأول بنى مائة وثمانين مدينة صغراها الرها وسن للناس عبادة الله والصوم والصلاة والزكاة والتعييد لحلول السيّارة ببيوتها وإشرافها وكذلك كلما استهل الهلال وحلت الشمس برجاً من الاثني عشر. وان يقرّبوا قرابين من كل فاكهة باكورتها ومن الطيب والذبائح والخمور أنفسها. وحرَّم السكر والمآكل النجسة. والصابئة تزعم أن شيث بن آدم هو أغاثاديمون المصري معلم هرمس. وكان اسقلبياذيس الملك أحد من أخذ الحكمة عن هرمس وولاّه هرمس ربع الأرض المعمورة يومئذ وهو الربع الذي ملكه

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٤٧ (خنوخ) وهو إدريس النبي عليه السلام.

اليونانيون بعد الطوفان. ولما رفع الله هرمس إليه حزن اسقليبياذيس حزناً شديداً تأسفاً على ما فات الأرض من بركته وعلمه وصاغ له تمثالاً على صورته ونصبه في هيكل عبادته. وكان التمثال على غاية ما يمكن من إظهار اهبة الوقار عليه والعظمة في هيبته ثم صوره مرتفعاً إلى السماء وكان يمثُل بين يديه تارة ويجلس أخرى ويتذكر شيئاً من حكمه ومواعظه على العبادة. وبعد الطوفان ظن اليونانيون أن الصورة لاسقليبياذيس فعظموه غاية التعظيم. وكان أبقراط إذا عهد إلى تلامذته يقول: نشدتكم الله باري الموت والحياة وأبي وأباكم اسقليبياذيس. وكان يصوره وبيده نبات الخطميّ رمزاً منه إلى فضيلة الاعتدال في الأمور واللين والمؤاتاة والمطاوعة في المعاملة. وقال جالينوس: لا يجب أن يرفض الشفاء الذي يحصل عليه المرضى بدخولهم هيكل اسقليبياذيس. أقول كلما ورد من أخبار ما قبل الطوفان ولم يسند إلى نبإٍ نبوي فهو حدس وتخمين لعدم المخبر به على الوجه.

(متوشلح[١] بن حنوخ) ولد له لَمَكَ وعمره على الرأي السبعيني مائة وسبع وستون سنة وعلى رأي اليهود مائة وسبع وثمانون سنة وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة وتسع وستون سنة[٢].

(لمك بن متوشلح) ولد له نوح وعمره على الرأي السبعيني مائة وثماني وثمانون سنة وعلى رأي اليهود مائة واثنتان وثمانون سنة. وجميع أيامه على الرأيين سبعمائة وثلاث وسبعون سنة. ومات قبل أبيه.

(نوح بن لمك) ولد له شام[٣] وعمره على الرأيين خمسمائة سنة. وعلى الرأيين جميع أيامه تسعمائة وخمسون سنة. وفي سنة ستمائة[٤] لعمر نوح تهارج الناس وأباحوا المحظورات وارتكبوا المحارم. وكان نوح باراً صديقاً. وأخبره الله تعالى بحال الطوفان وأمره أن يصنع فلكاً طوله ثلثمائة ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً في عمق ثلاثين ذراعاً. ونزل إليه هو وزوجته وبنوه الثلاثة: شام وحام ويافث ونساؤهم وأدخل معهم من كل نوع من الطيور والحيوان الطاهر سبعة أزواج ذكوراً وإناثاً. ومن النجس زوجاً ومن الطعام ما يقوته ومن معه قوتاً ماسكاً للرمق. وقيل إن تابوت أبينا آدم أيضاً كان معهم في الفلك. ثم هطلت السماء انهطالاً وتواترت الأمطار واستنهرت المياه

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٣٥ متوشلح بن إدريس في الكامل ح ١ ص ٥١ متوشلح.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٥١ (كان كل ما عاش متوشلح تسعمائة سنة وسبعاً وعشرين سنة ثم مات).

(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٦١ (سام).

(٤) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٣٩.
وبعثه الله نبياً بعد أن تكامل له خمسون سنة (ثلاثمائة وخمسون).

أربعين يوماً أولها السابع والعشرون من شهر أيار[١] وتغشمرت السيول العمران وغشي الماء كل شيء وركب الجبال الشامخة وعلا عليها خمسة عشرة ذراعاً. ودام ذلك سنة كاملة ثم ذكر الله نوحاً ومن معه في الفلك فأمسك نزول الماء وعصفت الرياح فجففت الأرض واجتنح الفلك إلى جبل قرد ويعرف بالجوديّ[٢] وفي أثناء ذلك بعث نوح الغراب مستكشفاً عن حال الأرض. فلم يعُد لاشتغاله بأكل الجيف. واتبعه بحمامة فلم تجد موضعاً للوقوف فعادت إلى نوح. ثم صبر بعد ذلك سبعة أيام وسرح حمـ ـ آخر فرجع إليه مساءً وفي منقاره ورقة من شجرة الزيتون. فعلم أن الماء قد غاض. وبعد أيام ارسل طائراً آخر فلم يعد. فأقام تتمة سنة، وخرج هو وآله من الفلك في السابع والعشرين من السنة الثانية وبنى مذبحاً وقرّب قرباناً قبله الله وعهد إليه أن لا يورد على خلقه طوفاناً ولا يُبيد فيما بعد حيواناً وجعل آية رضوانه قوس قزح المرئية في السحاب. وأطلق الله لنوح أكل لحوم الغنم والمواشي وشرب الخمر ومما كان قد حرّم قبل الطوفان وابتدأ نوح بعمارة الأرض وغرس كرماً وشرب من عصيره وثمل يوماً في خيمته فانكشف. فشهده ابنه حام وهزىء منه. وعرف أخواه شام ويافث ذلك وأخذا إزاراً فغطيا أباهما ووليا يمشيان القهقرى حتى لا ينتبه.

ولما استيقظ نوح علم ما صنع به فلعن كنعان بن حام قائلاً: إنّ زرعه من بعده يكون لعبودية الأمم. وإنما لعنه نوح والذنب لأبيه لا له لأنه عرف بالوحي ما سيبدو منه من اتخاذ الملاهي وإنشاء الزمر وإفشاء الزنا وباقي الفواحش التي ارتكبها بنو قاين. وبعد الطوفان قسم نوح المسكونة بين بنيه عرضاً من الجنوب إلى الشمال فأعطى بلاد السودان حاماً وبلاد السمر شاماً وبلاد الشقر ليافث. ثم مات وله تسعمائة وخمسون سنة، فمن خلق العالم إلى ورود الطوفان على الرأي السبعيني ألفان ومائتان واثنتان وأربعون سنة وعلى رأي اليهود ألف وستمائة وست وخمسون سنة وعلى رأي السمرة ألف وثلثمائة وسبع سنين. وهذا إلى غاية الفساد لاقتضائه إدراك نوح آدمَ في قيد الحياة بمائتين وثلاث وعشرين سنة ولم يأت به خبر عن الله ولا عن أنبيائه. وقال انيانوس الراهب الاسكندري إن مدة ما بين ابتداء خلق آدم وبين ليلة الجمعة التي كان فيها الطوفان ألفان ومائتان وست وعشرون[٣] سنة وشهر وثلاثة وعشرون يوماً وأربع ساعات.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٤٢، وكان ذلك لثلاث عشر خلت من آب.

(٢) الجودي: في معجم البلدان ح ٣ ص ٢٣، ثمانين بليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر الثعلبي فوق الموصل. كان أول مكان نزل إليه نوح عليه السلام لما خرج من السفينة ومعه ثمانون إنساناً.

(٣) قال العلماء: ألفي سنة ومائتي سنة وست وخمسين سنة من لَدُن هبوط آدم المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٤٢.

(شام بن نوح) وُلد له أرفخشد وعمره مائة سنة وسنة[١] واحدة. وجميع أيامه ستمائة سنة. وقيل أن نوح أوصى إلى شام ابنه وقال له: إني إذا متُّ فأخرج تابوت أبينا آدم من الفلك وخذ معك من أولادك ملكيزدق[٢] لأنه كاهن الله تعالى وسيرا معاً بالتابوت إلى حيث يهديكما ملاك الرب. فعملا بهذه الوصية وهداهما الملاك إلى جبل بيت المقدس ووضعا التابوت على قلة هناك فغاص فيها. فعاد شام إلى أهله ولم يعد ملكيزدق لكنه بنى ثمّ مدينة اسمها أورشليم أي قرية السلام ولذلك تَسمَّى هو أيضاً مليخ شليم أي ملك السلام وسكنها باقي أيامه لهجاً بالعبادة وما غشي امرأة ولا أراق دماً وكان قربانه خبزاً وخمراً فقط. ولأن الكتاب الإلهي أبان عن عظم شأنه وأعرض عن إبانة نسبه وتاريخي ولادته ووفاته. قال الرسول المغبوط بولس: لا ابتداءَ لأيامه ولا انقضاء لسنته. وقد ضُرب مثلاً للمسيح في نبؤة داود حيث قال: أنت الكاهن إلى الأبد بهيئة ملكيزدق. وعلى تلك القلة التي فيها قبر آدم صلب السيد المسيح.

(ارفخشد بن شام) وُلد له قينان على الرأي السبعينيّ وعمره مائة[٣] وثلاثون سنة وجميع أيامه أربعمائة وخمس[٤] وستون سنة وليس لهذا قينان ذكر في التورية العبرية ولا في التي بيد السَمرة وهو مذكور في إنجيل لوقا.

(قينان بن ارفخشد) وُلد له شالح على الرأي السبعيني وعمره مائة وثلاثون سنة. وجميع أيامه أربعمائة وثلاثون سنة. وأما على رأي اليهود فارفخشد لما أتت عليه خمس وثلاثون سنة ولد له شالح. وكذلك السَمرة إنما تجعل شالح ابناً لارفخشد لا لقينان بن ارفخشد. وقيل إن هذا قينان اخترع علم الأفلاك بعد الطوفان وبنوه اتخذوه إلهاً وصاغوا له تمثالاً بعد وفاته وسجدوا له. وهو بنى مدينة حرّان على اسم هاران ابنه.

(شالح بن قينان) وُلد له عابر وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة. وجميع أيامه أربعمائة[٥] وستون سنة.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (أن أرفخشد ولد لسام بعد أن مضى من عمر سام مائة سنة وسنتان.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٤٨ أولاد سام فارس ـ طسم ـ عمليق ـ إرم ـ أرفخشد ولم يذكر اسم مليكزدق).

(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (ولد لأرفخشد قينان بعد أن مضى من عمر أرفخشد خمس وثلاثون سنة).

(٤) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (ولد له شالخ بعد أن مضى من عمره تسع وثلاثون سنة).

(٥) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (وكان عمره كله أربعمائة وثلاثاً وثلاثون سنة).

(عابر بن شالح) وُلد له فالغ وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلاثة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود أربع وثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلثمائة[١] وثلاثة وأبعون سنة. ومنه اشتق اسم العبريّ. وقيل من إبرهيم لعبوره الأنهار منزوحاً به من العراق إلى الشام.

ومن أئمتنا باسيليوس وافريم يزعمان أن من آدم إلى هذا عابر كانت لغة الناس واحدة وهي السريانية وبها كلم الله آدم وتنقسم إلى ثلاث لغات[٢] أفصحها الآرامية وهي لغة أهل الرُها وحرّان والشام الخارجة، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة. وأسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال أثور وسواد العراق. ويعقوب الرهاوي يقول: إن اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبلبلت الألسن ببابل.

(فالغ بن عَابر) وُلد لهُ أرغو وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلثمائة وثلاثة وأربعون سنة. وفي سنة مائة وأربعين لفالغ فُلغت الأرض أي قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح. فصار لبني شام وسط المعمورة فلسطين والشام واثور وسامر وبابل وفارس والحجاز. ولبني حام التيمن كله أي الجنوب: أفريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والهند. ولبني يافث الجربيا أي الشمال: الأندلس والافرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترك والأرمن. وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بني يقطان أخيه وشرع الناس في تشييد الحصون.

(ارعو بن فالغ) ولُد له ساروغ وعمره على الرأي السبعيني مائة واثنتان وثلاثون[٣] سنة وعلى رأي اليهود اثنتان وثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلثمائة وتسع وثلاثون سنة. وفي سبعين سنة لارعو قال الناس بعضهم لبعض: هلموا نضرب لبناً ونحرق آجراً ونبني صرحاً شامخاً في علوّ السماء ويكون لنا ذكراً كي لا نتبدد على وجه الأرض. فلما جدوا في ذلك بأرض شنعار وهي السامرة ونمرود بن كوش قات راصفي الصرح بصيده وهو أول ملك قام بأرض بابل وهو الذي رأى شبه إكليل في السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل إن إكليله (نزل من السماء). قال الله تعالى: ﴿هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون به سوف أفرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر﴾ فبدد الله شملهم على وجه الأرض وأرسل رياحاً عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت لغات الآدميين ولذلك دُعي اسم ذلك الموضع بابل. وبنى نمرود ثلاث مدن ارِخ وخيليا **(أي الرها ونصيبين)** والمدائن.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (وكان عمره أربعمائة وأربعاً وسبعين سنة).

(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (ثلاث لغات).

(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (وكان عمره مائتين وتسعاً وثلاثون سنة).

(ساروغ بن ارعو) وُلد له ناحُور وعمره[١] على الرأي السبعيني مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثين سنة. وجميع أيامه ثلثمائة وثلاثون سنة. ويقال إن ساروغ أظهر سكة الدراهم والدنانير. وفي أيامه أكثر الناس اتخاذ الأصنام وكان الشياطين يظهرون منها الآيات الباهرة. وسامبروس ملك الكلدانيين أبدع المكاييل والموازين ونسج الإبريسم واخترع الأصباغ. وقد جاء في الخرافات أنه كان له ثلاث عيون وقرنان. وفي هذا الزمان أوفيفانوس ملك مصر صنع سفينة وغزا سكان السواحل. وبعده قام فرعون بن سانس ومنه سُمّيت الفراعنة.

(ناحور بن ساروغ) وُلد له تَرح وعمره على الرأي السبعيني تسع وسبعون سنة وعلى رأي اليهود تسع[٢] وعشرون سنة. وجميع أيامه مائتان[٣] وسنة واحدة. وفي خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأي أروذ الكنعانيّ. وبنى ارمونيس ملك كنعان سذوم وغامورا على اسم ولديه ومدينة صاعر على اسم أمهما.

(ترَح[٤] بن ناحور) وُلد له ابرَهيم وعمره على الرأيين جميعاً سبعون سنة. وجميع أيامه مائتان وخمس وسبعون سنة، ومات بمدينة حرّان. وبنى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد ابرَهيم بعشرين سنة. ويوسيفوس يقول إن عوص بن أرام بناها ومن ها هنا يتفق التاريخان السبعيني والعبراني.

(ابرَهيم بن تَرح) وُلد له إسحق وعمرهُ مائة سنة. وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون[٥] سنة. ولما أتت عليه خمس عشرة سنة استجابه الله تعالى في العقاعق التي كانت تفسد في أرض الكلدانيين وتمحق زروعهم. واحرق ابرَهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفىء النار فاحترق ولذلك فر ابرَهيم وعمره ستون سنة مع أبيه ترح وناحور أخيه ولوط بن هاران أخيه المحترق إلى مدينة حرّان وسكنها أربع عشرة سنة. ثم خاطبه الله قائلاً: انتقل عن هذه الديار التي هي ديار آبائك إلى حيث آمرك. فأخذ سارا امرأته ولوط ابن أخيه وصعد إلى أرض كنعان وحارب ملوك كدُر لعُمر وقهرهم. وفي عَوده من المحاربة اجتمع بملكيزدق الكاهن الأعظم وخرّ على وجهه بين يديه وأعطاه عشراً من السلب وباركه ملكيزدق، وفي سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب التي في السماء وذريته كرمل البحار

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (وكان عمره مائتين وثلاثين سنة).
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (ولد لفاخور تارخ بعدما مضى من عمره سبع وعشرون سنة).
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ (وكان عمره كله مائتين وثمانياً وأربعون سنة).
(٤) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٦٣ تاريخ بن ناخور.
(٥) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٠٣ (اختلفوا في قدر عمر إبراهيم فقالوا مائتا سنة).

فوثق ابرَهيم بالله حق الثقة. وفي هذه السنة دخل إلى مصر ووُشي بحسن سارا امرأته إلى فرعون فسأل ابرَهيم عنها. فقال: هي اختي من أبي لا من أمي. ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه فأقام جدهما مكان أبيهما. فاختارها فرعون إلى نفسه مختلياً حتى حقق إنها زوجته فردها إليه مع هدايا جزيلة من جملتها هاجر المصرية أمة سارا وتقدم إليه بالانتزاح من بلده خوفاً من أن يهجس في صدره هاجس سوء ثانياً. ولأنه لم يكن لإبرَهيم ولد من امرأته سارا سمحت بجاريتها هاجر فوطئها إبرَهيم وولدت له إسماعيل. واستهانت هاجر بسارا مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارا من عندها إلى القفر بغيظة منها فتراءى ملك الرب لهاجر قائلاً: لا تيأسي من رحمة ربك فإن الله قد بارك على الصبي حين خاطب أباه ابرَهيم. وكان خاتمة البركة باللغة السريانية هكذا: واكبرته طب طب واعظمته جداً جداً.

أقول قد اتّفق في هذه الألفاظ سرٌّ عجيب لاح في عصرنا وهو أنّا إذا جمعنا حروفها بحساب الجمَّل كان الحاصلي ستمائة وستة وخمسون سنة وهي المدة من الهجرة إلى السنة التي قُتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزال الملك المعظم جداً عن آل اسماعيل. وبعد مائة سنة مضت من عمر ابرَهيم ولد له اسحق من سارا. ولما حصل لاسحق تسع عشرة سنة اصعده ابرَهيم لجبل نابو ليضحّي به ضحيَّة لله تعالى ففداه الله بحمَل مأخوذ من الشجرة وأنقذه. والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذي فدى العالم بنفسه ولذلك قال في انجيله المقدس: إن ابرَهيم كان يرجو أن يشاهد يومي فشاهد وسرَّ. وقيل في تلك السنة تمّ ملكيزدق بناء أورشليم. وفي ثماني وثلاثين سنة من عمر اسحق درجت سارا أمُّه وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة. وتزوج ابرَهيم قنطورا ابنة ملك الترك. ولما بلغ اسحق أربعين سنة نزل ايليعازر وليد بيت ابرَهيم إلى حرّان وجاء برفقا زوجة اسحق ولما توفي ابرَهيم دفن إلى جانب قبر سارا زوجته في المغارة المضاعفة التي ابتاعها من عفرون الحيثانّي. وفي زمن ابرهيم كانت ساميرم ملكة اثور وهي بنت التلالَ خوفاً من عود الطوفان.

(اسحق بن ابرهيم) وُلد له يعقوب وعمره ستون سنة. وجميع أيامه مائة وثمانون[١] سنة. وبعد عشرين سنة من تزوُّجه حبلت رفقا[٢] امرأته. ولأنها تألمت بالحبل مضت إلى ملكيزدق لتسأله عن حملها ودعا لها وبشّرها بأن أمّتين عظيمتين في أحشائِك وإن الكبير من توأميكِ يطيع الصغير يعني عيسو أبا الاذوميين وهم الافرنج الشقر ينقاد ليعقوب أبي الاسرائيليين. وقيل في ذلك الزمان بُنيت مدينة أربيل من أربول الملك ومدينة ايريحو من سبعة ملوك كلٌّ منهم بنى لها سوراً.

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٩٧ (مات إسحاق بالشام وعمره مائة وستون سنة).
وفي المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٠٨ (عاش إسحاق مائة وسبعين سنة).

(٢) في سفر التكوين ٢٥ـ ٢٠ (رفقة بنت مثوئيل الأرامي).

(يعقوب بن اسحق) وُلد له لاوي وعمره اثنتان[١] وثمانون سنة، وجميع أيامه مائة وسبع وأربعون سنة، وفي سبع وسبعين سنة من عمره أخذ من عيسو[٢] أخيه البكورة ومن اسحق أبيه تبريك البكورة بالحيلة المذكورة في التورية وهي أن اسحق لَمّا طعن في السن ذهب بصره. وكان عيسو ازبّ[٣] ويعقوب أجرد[٣]. فلبّسته أمه مسك جدي وقدمته إلى اسحق قائلة: هذا عيسو ابنك أعطه بركة بكورته. فجسّه اسحق وقال: مجسة عيسو وشمائل يعقوب. ومع ارتيابه بهِ لم يأبَ تبريكه. ولما حنق عليه عيسو أخوه هرب من قدامه إلى حرّان ورأى يعقوب في أول ليلة خرج من بيت أبيه فاراً من أخيه في منامه سلّماً منصوباً في الأرض ورأسه إلى السماء والملائكة يصعدون وينزلون عليه وعظمة الله ظاهرة في أعلاه. فانتبه يعقوب وقال: لا ريب إن هذا بيت الله. فأخذ الحجر اليذي كان فوق رأسه ونصبه مذبحاً وسكب عليه دهناً تمثيلاً بدهن الميرون الذي به تتقدس هياكل الله عندنا. ووصل يعقوب إلى بيت لابان خاله بحرّان واختطب راحيل ابنته الصغيرة وقبل أن يرعى غنمه سبع سنين حق المهر فلما تمت المدة زوّجه لابان ابنته الكبرى محتجاً بوجوب تزويج الكبرى قبل الصغرى وزف معها جارية اسمها زلفا. فقبل يعقوب ثانية الرعي سبعاً أخرى حق مهر راحيل. وعند تمام المدة زوجه راحيل ابنته الصغيرة وزف معها جارية اسمها بلها. ومال يعقوب إلى راحيل فمانعها الله الولاد برهة من الزمان. وولدت لايا ستة أولاد البكر روبيل أي العظيم لله ثم شمعون أي الطائع ثم لاوي أي التام ثم يهوذا أي الشاكر ومن ذريته ظهر الملك المسيح المدعوّ ابن داود بالجسد. ثم ايساخر أي الأجر. ثم زبولون أي النجارة من هول الليل، وولدت راحيل ابنين يوسف أي الزيادة ثم بنيامين أي ابن العزاء. وولدت زلفا ابنين جاذ أي الحظ ثم اشير أي المجد. وولدت بلها ابنين أيضاً دان أي الحكم ونفتالي أي المتضرع وابنة اسمها دينا أي العادلة. جملة البنين إثنا عشر وهم الأسباط أي قبائل بني إسرائيل. وبعد ميلاد لاوي بثلاث سنين ولدت راحيل يوسف وبِيعَ ابن سبعة عشرة سنة وبقي عبداً عشر سنين ومعتقلاً ثلاث سنين وأميناً على دار فرعون ثلاثين سنة ووزيراً ثمانين سنة وجميع أيامه مائة وأربعون سنة. وبعد وفاة اسحق حارب عيسو يعقوب أخاه فنصر الله يعقوب. ورماه بسهم فقتله وهزم من معه. وانحدر يعقوب إلى مصر وعمره مائة وثلاثون سنة بعد أن أقحط سنتين. ويهوذا بن يعقوب تزوج امرأة كنعانية اسمها شوع وولدت له ثلاث أولاد عير وأوانان وشيلا. وتزوج عير امرأة من بنات لاوي اسمها ثامر وكان يضاجعها مضاجعة قوم لوط ومات ولم يرزق ولداً فزوّجها يهوذا بولده الآخر وهو أونان ليقيم منها نسلاً لأخيه عير. وكان إذا باشرها سكب ماءه على الأرض فهلك هو أيضاً بغير

(١) ولد لاوي ليعقوب وهو ابن تسع وثمانين سنة. الكامل في التاريخ ح ١ ص ١٣٠.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي (العيص) ح ١ ص ٣٠٧.

(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ (العيص أزب أشعر ص ٩٦).

خلف. وأما شيلا الأخ الصغير لما رأى هلاك أخويه أبى قربها. والسر في ذلك أن يعقوب طلب من ربه أن لا يترك زرع كنعان الذي لعنه نوح يختلط مع نسله. فاحتالت ثامر كنّة يهوذا حتى باشرها يهوذا متنكرة عليه فحملت من حميها واتأمت بابنين هما فَرص وزرَح وداود النبيّ من نسل فرص بن يهوذا.

(لاوي بن يعقوب) وُلد له قاهاث وعمره[١] سبع وأربعون سنة. وجميع أيامه مائة وسبع وثلاثون سنة. وإنما ذكر لاوي في النسب وإن كان روبيل أكبر الأولاد يعقوب لأن من ذرّية لاوي وُلد موسى النبي المنقذ لآل إسرائيل من عبودية المصريين والسانّ لهم سنناً إلهية.

(قاهاث بن لاوي) وُلد له عمرم[٢] وعمره ستون سنة. وجميع أيامه مائة وثلاث[٣] وثلاثون سنة. وفي زمانه صار الطوفان المذكور في كتب الكلدانيين في العراق والملك باثور بالفُرُس. وقيل في أيام لاوي كان.

(عمرم[٤] بن قاهاث) وُلد له موسى وعمره خمس وثمانون سنة. وجميع أيامه مائة وسبع وثلاثون سنة. وعندما ولد موسى وضعه والداه في صندوق مقيَّر ورمياه في النيل خوفاً من فرعون[٥] أمونفائيس خانق مولودي العبرانيين فوجدته ابنة فرعون هذا واتخذته ولداً وسلمته إلى يانيس ويمبريس الحكيمين فعلماه الحكمة وقصة تعلّمه منهما غير مذكورة في التوراة وقد ذكرها الرسول بولس نقلاً عن ارسطامونيس.

(موسى بن عمرم) بعدما أتت عليه أربعون سنة من عمره وهو في بيت فرعون رأى شخصاً مصرياً يفتري على شخص اسرائيلي فالتفت إلى جوانبه فلم يرَ أحداً فضربه وقتله. وبعد أيام رأى اسرائيليين يتخاصمان فأخذ ينكر عليهما. فقال له أحدهما: من جعلك علينا والياً قد جئت تقتلنا كما قتلت بالأمس المصري. ففزع موسى لئلا يظهر ذلك لفرعون فهرب إلى أرض العرب وتزوج صافورا الزنجية ابنة يثرون بن رعوئيل المِدَينيّ ابن دادان بن يقش بن ابرهيم من قنطورا زوجته التركية. وولدت صافورا الزنجية لموسى ابنين أحدهما جرشون أي الغريب والآخر ايليعازر أي الله أعانني. ولما بلغ موسى ثمانين سنة وكان يرعى غنم يثرون حميه، تراءى له ملاك الرب في جبل

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ (ولد قاهش للاوي وهو ابن ست وأربعين سنة).
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ ولد له عمران ليصهر.
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ (جميع آيامه مائة وسبعاً وأربعين سنة).
(٤) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ (عمران بن فاهاث ولد موسى ولعمران سبعون سنة).
(٥) الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ (كان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني).

حوريب وهو طور سينا بلهيب النار في العوسج والعوسج لا يحترق فدعاه الله من العوسج قائلاً: يا موسى يا موسى. فقال: ها أنا. فقال له: حلّ نعليك من قدميك لأن المكان الذي أنت قائم عليه مقدس. ثم قال له الرب: قد سمعتُ استغاثة شعبي من المصريين ونزلت لخلاصهم على يدك. فقال موسى: من أنا حتى أمضي إلى فرعون رسولاً. فقال له الله: أنا أكون معك. قال موسى: فإن قالوا لي ما اسم ربك ماذا أقول لهم. قال: قل اهيا اشِراهيا اي الأزلي الذي لا يزال. فقال موسى: إن لساني ألثغ ثقيل النطق كيف يقبل مني فرعون. قال الله له: إني قد جعلتك إلهاً لفرعون وهَرون[1] أخاك نبياً بين يديك يقول لفرعون ما تقص عليه فيرسل ابني بكري إسرائيل وأنا أقسّي قلب فرعون فلا يطيعكما فأظهر آياتي بأرض مصر. فلما مضيا موسى وهارون إلى فرعون بالرسالة قال لهما: اصنعا لي آية. فألقى موسى عصاه فإذا هي تِنّين. فدعى فرعون السحرة ففعلوا كذلك فابتلعت عصا موسى عصيَّهم، ومع هذا أبى فرعون أن يرسلهم. فصنع الرب بمصر من الآيات ما قد شُرح في التوراة[2] من تغيُّر الماء دماً وإظهار الجراد والضفدع والظلام والحشرات والنار وغير ذلك. وفي الليلة التي قتل الله فيها جميع أبكار المصريين من بكر فرعون وما دون إذن فرعون لموسى وهارون أن يُخرجا بني إسرائيل من مصر ويمضون ويعبدون أمام الرب ثم يعودون إلى مصر. فاستعار بنو إسرائيل من جيرانهم حلي الذهب والفضة والملابس الفاخرة بحجة العَود وخرجوا من مصر ستمائة ألف رجل سوى الحشم والأثقال بعد أن تم لهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثون سنة. ولما لم يرجعوا لما أُمروا اتّبعهم فرعون وجنوده. فدمدم بنو اسرائيل على موسى قائلين: قد كان الأصلح أن نخدم المصريين ولا نهلك في البر فضرب موسى بعصاه البحر فانفلقي وعبر بنو اسرائيل فيه، ودخل فرعون وجنوده خلفهم فغرقوا. وسار بنو إسرائيل في البر أياماً. ثم ثاروا على موسى قائلين: كنا نؤثر الموت بمصر ولا نموت بالجوع في هذا البر. فأمطرهم الله تعالى الخبز من السماء وأنزل عليهم المن والسلوى وكان الغمام يظلهم نهاراً وعمود نار يضيئهم ليلاً سائراً بين أيديهم. وقال الله لموسى: اصعد إليَّ أنت وهارون وناذاب وابيهو ولداه وسبعون شيخاً، ففعلوا ذلك ودنا موسى وحده والباقون وقفوا اسفل الجبل فعرَّفهم موسى وصايا الله ثم نزلوا وأقام موسى بالجبل أربعين يوماً صائمين. وتقدم الله إليه بالفرائض مكتوبة في لوحين من حجر. ولما استبطأ بنو اسرائيل مجيء موسى قالوا لهارون: قم إعمل لنا إلهاً يمضي أمامنا لأن أخاك ما نعلم ما كان منه. وأحضروه حلي الذهب التي لنسائهم وأولادهم وصاغ منها عجلاً[3] وقال: هذا إلهك يا إسرائيل الذي أخرجك من مصر. ولما عاد موسى

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ هارون.

(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٣٠ التوراة.

(٣) أنظر قصة العجل في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ١٤٦.

وعرف فعلهم غضب غضباً شديداً وضرب باللوحين سفح الجبل وكسرهما وألقى العجل في النار وبرد سبيكته بالمبارد ناعماً وألقاه في البحر وأمر بني إسرائيلي أن يشربوا منه جميعهم وقال لبني لاوي: الرب يأمركم أن يقتل الرجل منكم أخاه ونسيبه. فقتل منهم ثلاثة آلاف رجل.

ثم رقي موسى للجبل مرة ثانية ومعه لوحان آخران من حجر وأقام فيه أربعين يوماً صائماً طاوياً لياليها وعاد نازلاً وبيده اللوحان مكتوباً فيهما العشر وصايا وهي: الرب إلهك واحد. لا تحنث في يمينك. احفظ يوم السبت. اكرم والديك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تتمنَّ منزل أخيك. لا تتمنَّ قنية رفيقك. وقال الله: ملعون من يشتم والديه. ملعون من يظلم جاره. ملعون من يُضل الأعمى عن السبيل. ملعون من يحيف في القضاء على اليتيم والمسكين. ملعون من يضاجع اخته ومن يلامس امرأة أبيه ومن يضرب صاحبه غيلة ومن يرشو في قتل نفس. ملعون من لا يثبت على هذه السنن. فإن أنتم خالفتموها تزرعون ويأكل زرعكم أعداؤكم وتنهزمون من غير أن يطردكم أحد وأُرسل عليكم الوحوش فتفنيكم ولا تشبعون طعاماً ولا تروَون ماءً ولا تُقبل لكم صلاة واخرّب ارضكم وابدّدكم بين الأمم المبغضة لكم واختسُّ قدركم. وقال الله لموسى: قل لبني إسرائيل يفردون لي ذهباً وفضة ونحاساً وثياب ارجوان وقزاً وإبريسماً ومِرعزّى وأديماً وخشب شمشار ويعملون لي مسكناً بينهم زمانَ تقلُّبهم خارج أرض الميعاد ويكون أخوك هارون وبنوه يلهبون السرج فيه من العِشاء إلى الصباح. فعلموا كما أمرهم الله تعالى وسار بنو إسرائيل وموسى أمامهم يُعدُّ لهم منزلاً. وتغطرس هارون ومريم على موسى لأجل زوجته الزنجية وقالا: ألعلّ موسى وحده كلمة الله فمعنا أيضاً ند تكلم. فقال لهما الله: إن تَمت نبوؤَتكما فإني سراً أتجلى عليكما وأما موسى فقد ائتمنته على بيتي ومن فم لفم أكلّمه. وعند ذلك برصت مرْيم وابيض جسمها كالثلج. وتضرع موسى إلى الله أن يطهّرها. فقال الله: لو أن أباها تفل في وجهها لكان يجب أن تستحيي منه فلتنعزل عن الحِلّة سبعة أيام ثم تدخل. ففعلت وطهرت. فجاء بنو إسرائيل إلى البرّ المعروف بصين. وماتت هناك مريم اخت موسى وهارون ودفنت حيث توفيّت. ثم جاءوا إلى جبل هور ومات هناك هارون وولي مكانه ايليعازر ابنه. ولما عبر بنو إسرائيلي نهر الأردن قال الله: يا إسرائيل إن عملت بوصايا إلهك بوركت في قريتك بوركت في حقلك بورك ثمار كرومك وولد بعيرك يسلم الله عدوك في يديك ويجيئك من طريق واحد ويهرب في سبع طرق يبارك الله الأرض التي يعطيك ويجعلك له شعباً مقدساً كوعده لك. وإن خالفت هذه الوصايا تنقلب بركاتك لعنات ويبددك الله في جميع الأمم ويعطيك قلباً فزِعاً ووجع العين ورماك بالنَّيْط وتكون مرعوباً بالليل والنهار.

أقول تأمل أيها القارىء كيف جعل الله وعده ووعيده لبني إسرائيل مقصورَين على ما يرونه في دنياهم من غير أن يذكر لهم شيئاً من أحوال الآخرة وأمور المعاد وذلك لغلظ طباعهم وقصورهم عن النظر إلى العالم الروحانيّ.

ثم أوحى الله إلى موسى قائلاً: ها أنت ماضٍ في طريق آبائك فادعُ يوشع بن نون تلميذك وأوصه بأن يقوم بتدبير هذا الشعب فإني أعلم أنه يضل بعد موتك ويتخذ الأصنام ويعبدها فيحل غضبي بهم فيلحقهم بؤس وذل. ولست أورثم أرض الجبابرة المغلة عسلاً ولبناً من قِبل ورعهم وصلاحهم لكن لسوء أعمال سكانها قبلهم ولما وعدت به أباءهم ابرهيم واسحق ويعقوب. فلما فرغ موسى مما أوصى به يوشع بن نون خاصة وبني إسرائيل عامة اصعده الله إلى جبل نابو وأراه أرض كنعان وهي أرض الميعاد التي سيورثها لبني إسرائيل. ومات هناك ودفنته الملائكة من غير أن يعرف له قبر إلى آخر الدهر. وكانت سنُه مائة وعشرين سنة ولم يضعف بصره ولم تتشنج وجنتاه. ويوشع بن نون امتلأ روح الحكمة بوضع موسى يده عليه وأطاعه بنو إسرائيل. فمن آدم إلى وفاة موسى على الرأي السبعيني ثلاثة آلاف وتسعمائة وإحدى وخمسون سنة وعلى رأي اليهود الفان وأربعمائة وإحدى وتسعون سنة.

وقيل في زمان موسى صار طوفان[1] ثالث في تاساليا. وانونيوس الحكيم أوجد علم السيميا. وخيرون اخترع الطب. وما يندروس استنبط نوعاً من الشعر يسمى قوموذياًي وفيه يذكر الرذائل والأهاجي والقبائح المشتركة بين الناس والبهائم. واستنبط آخر نوعاً آخر من الشعر يسمَّى طراغوذيا وفيه يذكر الفضائل والمدائح والمراثي المشتركة بين الناس والملائكة. وزعم المعنيون بتعريف طبقات الأمم أنه كان بمصر بعد الطوفان علماء بضروب علوم الفلسفة من الرياضية والطبيعية والإلهية وخاصة بعلم الكيمياء والطلسمات والنيرنجيات والمراءي المحرقة. وتصديق ذلك قول الله في التوراة عن موسى أنه حذق جميع حكم المصريين. وكانت دار الملك والعلم بمصر في قديم الدهر مدينة منف. فلما بنى الاسكندر الاسكندرية رغب الناس في عمارتها لحسن هوائها وطيبي مائها وكانت دار العلم والحكمة بمصر إلى أن تغلّب عليها المسلمون واختط عمرو بن العاص على نيل مصر المدينة المعروفة بفسطاط عمرو فانسرب العرب والعجم لسكناها فصارت قاعدة مصر.

(١) أنظر الطوفان في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٧٧.

الدَولةُ الثانية
المنتقلة مِن الأولياء إلى القضَاة
قضَاة بني إسْرائيل

العبرانيُّون لمفارزتهم باقي الأمم حُرموا تعلّم الحكمة مقتصرين على علوم الشرائع وسيَر الأنبياء. فكان أحبارهم أعلم الناس بأخبار الأنبياء وبَدْو الخليقة ومنهم أخذ ذلك غيرهم. وكانت مساكنهم بلاد الشام وبها كان ملكهم الأول والآخر إلى أن أجلاهم عنها بعد مجيء السيد المسيح حقاً أنكروه طيطوس ابن الملك اسفسيانوس الروميّ وفرّق ملكهم وبدّد جمعهم. فتقطعوا في البلاد أيدي سبا وتفرقوا في أقطارها شذَر مذَر. فليس في معمور الأرض إلا وفيها منهم في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها إلا ما كان من جزيرة العرب وهي الحجاز ونجد وتهامة واليمن. فإن عمر بن الخطاب أجلاهم عنها. فلما تفرقوا في البلاد وداخلوا الأمم تحركت همم قليل منهم لطلب العلوم النظرية واكتساب الفضائل العقلية فنال أفراد منهم ما شاءُوا من فنون الحكمة.

(أيشوع[1] بن نون) خليفة موسى ووصيُّه دبّر نبي إسرائيل سبعاً وعشرين سنة وأدخل أولاد الأمّة الخارجة من مصر إلى أرض الميعاد دون الآباء كما قال الله لموسى: قل لبني إسرائيل: يا شعب السوء حيٌّ أنا إلى الأبد ستضلّون ضالّين مذبذبين أربعين سنة حتى تقع أجسادكم وتبلى في هذا البر وأولادكم هم يدخلون أرض الميعاد. وأما أنتم فلا تطأونها سوى كلاب[2] بن يوفنيا وأيشوع بن نون. وقهر أيشوع سبع أمم من الكنعانيين وقتل ملوكهم وأخرب إحدى وثلاثين مدينة وقسم الأرض التي أخذها بين الأسباط وأمرهم أن يهدموا بيوت الأوثان وأن لا يتزوجوا بنساء الأمم الغريبة ولا يأكلوا من ذبائحهم وأن يجتمعوا كل عام إلى البيت المقدس ليقرأ عليهم فينحاس بني اليعازر الكاهن كتاب الله. فخالفوا جميع ذلك وعصوا الله. فجمعهم أيشوع بن نون في بعض البقاع وظهر لهم ملاك الله في صورة إنسان قائلاً بصوت عالٍ: اسمعوا يا بني إسرائيل

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٧٧ (هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب).
(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٧٧ (يوشع وكالب).

قول الله فإنه يقول: أنا ربكم خلصتكم من عبودية المصريين وفلقت لكم البحر ودبّرتكم في البر أربعين سنة وأطعمتكم المن والسلوى واحييتكم عيشاً طيباً. لم يَبلَ لكم لباس ولم يشعث لكم رأس ولم يتسخ لكم ثوب. ثم إني كلمتكم من النار وأنزلت لكم كتاباً وأورثتكم أرضاً تدرّ اللبن والعسل دروراً. فعصيتموني ونقضتم عهدي ونسيتم آياتي. فباسمي أقسم أن لا أبيد هذه الأمم من بين أيديكم لكن أقرّهم بين ظهرانيكم فيكون ذلك سبب بواركم. ولما سمعوا ذلك جلسوا يبكون ولذلك سميت تلك البقعة بقعة البكاء. ثم صرفهم أيشوع إلى منازلهم وتوفي ابن مائة وعشرة[١] سنين.

(فينحاس بن اليعازر بن هارون الكاهن) دبّر الأمة أربعاً وعشرين سنة على رأي انيانوس. وقال أفريقيانوس: والمشايخ ساسوا ثلاثين سنة. والكتاب الإلهي لم يعيّن هذه السنين. وفي هذا الزمان زاد بنو إسرائيل في طغيانهم. فقال ملاك الرب لفينحاس: إن هذه الأمة ليست بأهل أن تسمع كلام الله. فاصنع حُبًّا من نحاس واجعل فيه خمسة أسفار التوراة واللوحين وعصا موسى وقضيب هارون الذي أورق وهو يابس وما استُبقي من المن تذكاراً وسُدَّه برصاص. وعمل فينحاس كما أُمر وحمل الحب وسار الملاك بين يديه حتى أنزله مغارة في بيت الله الذي بناه سليمان بن داود فانفجرت له صخرة ووضع الحبّ فيها وأخفي مكانه.

(كوشن[٢] الأثيم المتغلّب) بعد أن طغى بنو إسرائيل وجاوزوا الحد في العصيان اسلمهم الله في يدي كوشن المارد من الأمم الغريبة فعذبهم وجار عليهم ثمان سنين.

(عثنائيل[٣]) لما اجهد كوشن بني إسرائيل استغاثوا إلى الله. فأنشأ لهم رجلاً من سبط يهوذا اسمه عثنائيل ابن أخي كلاب[٤] بن يوفنيا فقتل كوشن وولي أمر الأمة أربعين سنة وردَّهم إلى عبادة الله تعالى ثم مات.

(عجلون) بعد موت عثنائيل بن قيناز طغا بنو إسرائيل وعبدوا الأوثان. فأسلمهم الله في يد عجلون ملك موآب فاستعبدهم ثمان عشرة سنة. ثم ابتهلوا إلى الله. فأنشأ لهم رجلاً من سبط أفريم اسمه أهور[٥] فقتل عجلون الموآبيّ وأنقذهم من عبوديته.

(أهور بن جارا) هذا كان أعشم قد شلت يمينه واحتال بأن مثل بين يدي عجلون المتغلب

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ١٧٩ (توفي يوشع بن نون وعمره مائة وعشرين سنة).
(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (كوشان من قوم لوط).
(٣) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ١٦٣ (عتنيل).
(٤) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٧٧ (كالب).
(٥) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (آهوذ).

وقال له: كلمة الله معي أريد استكتامها. فصرف عجلون كل من كان عنده وقام يدخل إلى خزانة له ليسمعها هناك. فتناول أهور سيفاً صغيراً كان قد شده على فخذه اليمنى بيده اليسرى وضرب به على وسط عجلون فبرز مراق بطنه ومات. وخرج أهور وأغلق الباب عليه ومضى إلى بني إسرائيل وعرفهم الحال. فسُرُّوا بذلك وتولى أمرهم أهور اثنتين[١] وستين سنة. ومنهم من قال ثمانين سنة يضيف إليها سني عجلون المتغلب أيضاً. وفي هذا الزمان بنيت مدينة حلب بأمر بتحوس ملك أثور. وشيدت محكمة أريوس فاغوس بمدينة اثيناس. وقتل أهور من بني موآب عشرة آلاف رجل.

(شمغر بن عناث) هذا نشأ في أيام وقتل من الفلسطينين ستين رجلاً؛ بمنخسة الفدان وحكم ثمان عشرة سنة ومات. فطغى بنو إسرائيل بعد وفاته وعبدوا الأوثان. فأسلمهم الله بيدي يابين ملك حاصور من جملة ملوك الكنعانيين.

(يابين ملك حاصور) تغلب على الأمة عشرين سنة وكان لقائد جيشه واسمه سيسرا تسع مائة مركب من حديد تجر كل واحدة منها أربعة أفراس تحمل نفراً من الرجال المقاتلين. وكانت الأمّة معه في ضنك شديد. فاستغاثوا إلى الله فأنشأ لهم امرأة نبيّة اسمها دبورا فأنقذتهم منه.

(دبورا النبيّة وبارق) لما تولت دبورا النبية وهي من سبط أفريم أمر بني إسرائيل أشركت معها في التدبير رجلاً اسمه بارق[٢] من سبط نفتالي ووليا الأمر أربعين سنة. وجيَّش بارق من بني إسرائيل عشرة آلاف رجل مقاتل والتقى عساكر سيسرا الجمَّة فانكسر الكنعانيون ونزل سيسرا عن فرسه ملتجئاً إلى امرأة من بني إسرائيل اسمها عنائيل. فعرفته وحوته في منزلها وسقته عوض الماء الذي طلبه لبناً ودثرته فنام وحيث ثقل في نومه أخذت سكة من حديد وسمرتها في صماخه حتى مات. ثم خرجت إلى باب منزلها فرأت بارق مجداً في طلب سيسرا فقالت له: هلمَّ أريك من تريد. فدخل ورأى سيسرا ملقى ميتاً والسكة في أذنه. وما زال بارق في طلب يابين ملك حاصور حتى ظفر به فقتله.

(المذيانيون) وبعد موت دبورا وبارق توثَّن بنو إسرائيل كعادتهم وأُسلموا في يدي بني مذيان فاستعبدوهم سبع سنين وهرب بنو إسرائيل من شدة ما قاسوا من المذيانيين واتخذوا لهم بيوتاً في الكهوف والمغارات وسكنوها. وصار كلما زرعوا زرعاً صعدت العمالقة والمذيانيون ورعوه وقرفوه واقحلوا وجه الأرض من كل نبات بكثرة أنعامهم وماشيتهم وأغنامهم.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (أهوذ قام بأمرهم ثمانين سنة).

(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (باراق).

(جذعون)[١] لما رأى الله ذل بني إسرائيل رحمهم وأرسل ملاكاً إلى رجل اسمه جذعون ابن يواش وأمره أن يتولى خلاص الإسرائيليين. فولي تدبيرهم أربعين سنة وقتل ملوك الأعراب مضطهديهم. وولد له سبعون ولداً ذكوراً. وفي زمانه كان أبولون ملك الزنوج الذي بزمره انخدعت له الصخور أي أطاعته القلوب القاسية.

(أبيملك[٢]**) بن جذعون)** الذي ولَدت له سرّيته وولي بعد أبيه ثلاث[٣] سنين وقتل أخوته التسعة والستين.

(تولع بن فوا[٤]**)** من سبط أيساخر ساس بني إسرائيل عشرين سنة[٥]. وفي زمانه بُنيت مدينة طرسوس وخربت مدينة ايليون الخراب الذي هو من أعظم الرزايا عند قدماء اليونانيين وقد رثاها أميروس الشاعر في كتابين نقلهما من اليوناني إلى السرياني ثاوفيل المنجّم الرهاوي.

(يائير الجلعدي) ولي تدبير بني إسرائيل اثنتين وعشرين سنة.

(العمونيُون) لما طغى بنو إسرائيل في عبادة الأوثان أسلمهم الله في أيدي بني عمون فنكد بهم عيشة الأمة ثمان عشرة سنة.

(يفتاح) هذا قتل ملك بني عمُّون وهم بنو لوط. وكان قد نذر على نفسه أنه إن ظفر بالعدو وكرّ منتصراً أول من لمح من ذوي قرابته قرّبه لله تعالى قرباناً. فلما انتصر وعاد دانياً من منزله أقبلت عليه ابنته العذراء تهنئه بالنصر. فقال لها: كبًّا كببتني لوجهي يا ابنتي وأنا اليوم أكببت على وجهي بك. فعلمت ما به واستمهلته شهراً أن تنوح على بكارتها مع أقرانها وترثي على روحها دائرة في الصحاري. فأذن لها في ذلك. وعند تمام المدة ضحّى بها ضحية بموجب نذره المكروه. وكان مدة ولايته ست سنين. ومن جعلبها أربع وعشرين سنة فإنه يضيف إليها ثماني عشرة سنة التي لولاية العمونيّين.

(ابيصان) من أهل بيت لحم حكم سبع سنين وجماعة من المؤرخين لم يتعرضوا لذكر هذا الاسم.

(الون) من سبط زبولون ساس الأمة عشر سنين. وهو غير مذكور في نقل السبعين.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (جدعون بن يواش).
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (أبيمالخ).
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (ثلاث).
(٤) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ فولغ بن فوا.
(٥) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (ثلاثاً وعشرين سنة).

(أبدون[١] بن هليان) حكم ثماني سنين وفي زمانه فارق قوم من ولد عيسو ابن اسحق بني ابرهيم بني إسرائيل وساروا إلى أرض الافرنجة نازلين في بيوت شعر ثم حصلوا تحت يد ملك يسمى لاطين وبعده ملكهم رومالوس الملكي الذي بنى مدينة رومية فسمّي سكانها روماً ولاطينيين.

(الفلسطينيون) ثم تغلب أهل فلسطين على بني إسرائيل على رأي انيانوس الراهب الاسكندري أربعين سنة. وعلى رأي اندرونيقوس عشرين سنة. وأما أوسابيوس فلم يثبت في الخرونيقون شيئاً من هذه السنين.

(شمشون الجبّار المتقشف) حكم عشرين سنة وقهر الفلسطينيين وكان له قوة عجيبة في البطش.

(مشايخ الأمّة) حكموا عشرين سنة. وعلى رأي اندرونيقوس عشر سنين. وعلى رأي افريقيانوس أربعين سنة. هؤلاء هادنوا الأمم التي حواليهم فلم ينصبوا قائد جيش وكان لهم عنه غنى.

(عالي الكاهن) حكم على الرأي السبعيني عشرين سنة وعلى رأي اليهود أربعين سنة.

(شموايل[٢] النبيّ) نذره أبوه لله وهو ابن سنتين فلما ترعرع أتاه الوحي وخدم عالي الكاهن في هيكل الرب من سن الطفولية إلى أن توفي عالي الكاهن فولي هو أمر بني إسرائيل عشرين سنة.

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ١٦٤ (لترون ويسميه بعضهم عكرون).
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٣ (اشمويل).

الدَولَةُ الثَالِثَة

المنتَقلة مِن قضاة بني إسْرائيل إلى مُلوكِهم

لما بلغ شموايل النبيّ من العمر سبعاً وسبعين سنة قال له بنو إسرائيل: انصب لنا ملكاً منّا كسائر الأمم. فعلم الله بذلك فأوحى إليه قائلاً: إن بني إسرائيل لم يعصوك أنت لكن إيّاي عصوا فأخبرهم أني إن نصبت لهم ملكاً استعبدهم وجعل عليهم رؤوسَ ألوف ومئين ويحرثوا حرثه ويحصدوا حصاده ويعملوا أدوات قتاله ومراكبه. ويتسخر بناتهم كسّاحات وطحّانات وخبّازات ويختلس مزارعهم وكرومهم ويعطيها لعبيده ويعشّر أموالهم وأغنامهم ودوابهم فيستغيثون منه إليَّ فلا أجيبهم يومئذٍ فاعلمهم شموايل بجميع ذلك فلم يقبلوا منه ولكن ألحوا عليه قائلين: لا بد لنا من ملك يسوسنا. فقال الله: سوف أملّك عليهم ملكاً.

(**شاول**[1]) من سبط بنيامين وتسمّيه العرب طالوت كان شاباً لم يكن في بني إسرائيل أتم منه خلقة. فضلّت أُتُن لأبيه قيش فخرج مع غلام له طائفَين عليها وانتهيا إلى القرية التي فيها شموايل النبيّ. وقال الغلام لشاول: ها هنا رجل عظيم نذهب إليه لعله يدلنا على الأُتُن. وعند ما همّا بذلك خرج إليهم شموايل فقالا له: دلنا على بيت النظار. لأن في ذلك الزمان كانت تسمّى الأنبياء نظارة. فقال لهما: أنا النظار ادخلا إلى منزلي وكلا معي طعاماً وأنبئكما عن بغيتكما. فلما دخلا معه البيت قال لهما: لا تهتما بأمر الأُتُن فقد وُجدت ولم تكن لذة بني إسرائيل إلا لك يا شاول ولآل أبيك. فقال له شاول مستعفياً: قبيلتي أقلّ سبط بنيامين. وأخذ شموايل قرن الدهن وأفاضه على رأس شاول قائلاً: إن الله اصطفاك لتكون ملكاً لميراثه. وسيلقاك في مضيك زمرة من الأنبياء ويتنبأون وتتنبأ معهم. فمضى شاول حتى لقي الأنبياء وبين أيديهم صنوج ودفوف فنزل عليه روح الربّ وتنبأ معهم. فقال الناس: وشاول أيضاً من الأنبياء. وصار ذلك مثلاً سائراً بينهم. وبعد قليل أقبل ملك العمونيين وهو منوط بجيوش عظيمة طالباً قتال بني إسرائيل. فأرسلوا إليه قائلين: صالحنا على ما نؤديه إليك وتنصرف عنا. فقال لهم: أصالحكم على أن يفقأ كل رجل منكم عينه اليمنى. فسمع ذلك شاول واشتد غضبه وجمع من بني إسرائيل ثلثمائة ألف مقاتل ومن بني يهوذا ثلاثين ألف مقاتل وسار نحو العمونيين وقاتلهم وهزمهم وحينئذ أذعن له بنو

---

(١) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ١٦٥ (شاول ـ طالوت).

إسرائيل بالملك. ثم قال له شموايل: ربك يقول لك أن تقاتل العمالقة وتبيدهم وتقتل رجالهم ونساءهم وولدانهم وماشيتهم. فسار شاول نحو العمالقة وأبادهم وأسر ملكهم ولم يقتله وأبقى أيضاً نقاوة ماشيتهم. فأوحى الله إلى شموايل يقول له: إني قد رذلت شاول لمخالفته إياي. فاشتد ذلك على شموايل وقال لشاول: ما لي أسمع ثغاء الغنم وخوار البقر. فأجابه شاول قائلاً: إن بني إسرائيل أقبلوا بها ليذبحوها لله ربك. فقال له شموايل: أولم تعلم أن الله لا يرضى بالذبائح كمرضاته عمَّن يطيع أمره قد أسخطت ربك ورذلك من الملك بمعصيتك له. فقال شاول: استغفر الله فقد أخطأت وأريد أن ترجع معي حتى أسجد له وأتوب إليه. فأبى عليه شموايل وجلس حزيناً. فأوحى الله إليه: حتّامَ تحزن على شاول قم وانطلق إلى شخص اسمه ايشي من قرية بيت لحم فقد ارتضيت من بنيه ملكاً. فمضى إليه شموايل وقال له: أريد أن أمسح أحد أولادك ملكاً. فقال له ايشي: أنَّى لي بذلك. وأحضر ابنه الكبير فأعجبه حسنه. فأوحى الله إليه أن نظري ليس كنظر البشر فأعرض عنه. ووقف شموايل حتى عرض عليه سبعة من بنيه. فلم يفض القرن على أحدهم. فقال لأيشي: هل بقي من بنيك أحد. قال له: بقي غلام هو أصغرهم سنًّا يرعى الغنم. فقال: ائتني به. فأحضره وأفاض عليه القرن ومسحه ملكاً ومضى إلى منزله.

وفي تلك الأيام ظهر علج من الفلسطينيين اسمه جولياذ والعرب تسميه جالوت وكان يسب بني إسرائيل ويستهين بهم. فدنا منه داود قائلاً: أنت أتيتني بالسيف والدرقة وأنا أتيتك باسم الرب الذي عيَّرت صفوفه. وتناول داود حجراً من خريطته فوضعه في مقلاعه ثم رماه فغيبه في جبهة العلج فوقع على وجهه فسل داود سيفه وقطع به رأسه. وأتى بداود إلى شاول فقال له: من أنت يا غلام. قال: ابن عبدك ايشي من بيت لحم. وكان شاول قد أصابه ريح سوء فقيل له: ليكن عندك إنسان جيد الضرب بالصنج ذي الأوتار ليلهيك عما بك. ووُصف له داود أنه ماهر في ذلك. فطلبه من أبيه وكان يلهيه. وكانت بنات إسرائيل بعد قتل داود جولياذ يغنين ويفرحن ويقلن: قتل شاول ألوفاً وداود عشرات ألوف. فحسد شاول داود. وزج يوماً برمح لطيف كان عنده بيده نحوه. فارتاع لذلك داود. فخافه شايول ورأسه على ألف رجل. وقال يوماً: من أتاني بغرلة مائتي فلسطيني زوجته ابنتي ملكيل فخرج داود وقتل منهم مائتي رجل وأتاه بغرلهم فزوجه إياها فأحبت داود حباً شديداً وكذلك أخوها يوناثان وجميع بني إسرائيل. وحذر يوناثان داود من أبيه وهربه إلى بعض الجبال. وخرج شاول في طلبه حتى أتى مع أصحابه إلى مغارة في ذلك الجبل وباتوا فيها. فسار داود ليلاً وأتى إلى المغارة وصادف شاول نائماً فقطع قطعة من ردائه ورجع إلى أصحابه. ولما أصبح النهار وخرج شاول من المغارة ناداه داود وقبل الأرض بين يديه وقال له: لا تسمع فيَّ سيدي قول واشٍ فقد أسلمك الله في يدي اليوم ولم يدنُك مني سوء وهذا طرف ردائك معي. قال له شاول: جزاك الله خيراً. إنك ستملك. فاحلف لي أنك لا تهلك ذريتي. فحلف له. ومضى شاول إلى منزله. ومات شموايل النبي.

وخرج شاول في طلب داود مرة ثانية ونام في بعض الطريق ليلاً مع أصحابه فأتاه داود وهو نائم ورام أصحاب داود قتله فمنعهم قائلاً: لا يحلّ لأحد أن يمد يده إلى مسيح الرب اتركوه ليومه. ثم أخذ رمحه وكوز الماء وانطلق. فعلم ذلك شاول وقال: أخطأت في طلبك يا داود ولست بعائد. وقاتل الفلسطينيون بني إسرائيل وقُتل يوناثان وأخوته وهرب شاول وخاف أن يدركوه فتحامل على سيفه حتى خرج من ظهره وأدركه القوم فقطعوا رأسه وأنقذوه إلى بيوت أصنامهم وصلبوا جسده على سور مدينتهم.

وجاء شخص من بني إسرائيل وادعى أنه قتل شاول. فقال له داود: كيف طاوعتك نفسك أن تقتل مسيح الله فقتله. وناح داود وأصحابه على شاول ويوناثان ابنه ورثاهما قائلاً: إن حجَفة شاول مصبوغة بدم القتلى وقوس يوناثان لم تكن تنثني إلى ورائها وحربة شاول لم تكن تنثني. لقد كان أخف من النسور سيراً وأشجع من الأسد بطشاً. يا بنات إسرائيل أبكينان شاول الذي كان يكسوكن الأرجوان والبهرمان. وكانت مدة ملكه على رأي أوسابيوس أربعين سنة وعلى رأي أنيانوس[١] عشرين سنة.

(داود بن أيشي[٢]) لما قُتل شاول استقام داود في ملكه وقال لناثان النبي يومئذٍ: أنا ساكن في بيوت الأرز وسكينة الرب **(يعني مسكن الزمان)** في الخيَم. أفلا أبني له بيتاً. فأوحى الله إلى ناثان النبي وقال له: قل لعبدي داود: لا تبني لي بيتاً لأن ابنك الذي أقيمه مكانك هو يبني بيتاً على اسمي. ثم تقدم داود إلى يوآب قائد جيشه ليحصي عدد مقاتلة بني إسرائيل. فغاب يوآب عنه في مدن بني إسرائيل وقراهم تسعة أشهر وعشرين يوماً. ثم أتاه وقال له: وجدت عدَّة مقاتلة بني إسرائيل ثمانمائة ألف رجل وبني يهوذا خمسمائة ألف نفس. فأوحى الله إلى جاد النبيّ قائلاً: قل لداود: قد رأيتَ الغلبة بكثرة جيوشك ولم تعلم أني الناصر. فها أنا مبتليك عن ذلك بإحدى ثلاث. فاختر واحدة منهنَّ أما قحط سبع سنين وأما استيلاء عدو ثلاثة أشهر وأما موتان ثلاثة أيام. فقال داود: أن تكون يد الله مؤدّبتنا خير لنا. فأختار الموت. فمات من الصبح إلى ثلاث ساعات من النهار سبعون ألفاً من رجال بني إسرائيل. فقال داود: إلهي وسيدي إن كنتُ أخطأتُ فما ذنبُ هذه الغنم. أحلل عقوبتك بي وببيت أبي. فرفع الله الموت عنهم. وأتاه مع الملك النبوءة وتلا الزبور وانتخب من سبط لاوي ثماني وثمانين ومائتي شيخ يرتّلبون المزامير ترتيلاً كل اسبوع أربعة وعشرون منهم إثنا عشر في صف وإثنا عشر في آخر. ثم إن داود كبر وبردت حرارة جسمه

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ١٦٨ (كانت مدة ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة).

(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٦٩ (هو داوود بن إيشا بن عونين بن ياعذين سلمون بن نخشون بن عميوذب بن رام بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق.

فطلبوا له فتاة عذراء اسمها ابيشاع الشيلومية، فكانت تحتضنه وتدفّئه ليلاً. ولما حضرت وفاته عه إلى سليمان ابنه وملّكه في حياته وقال له: تشجَّع وتقوَّ وكن رجلاً واحفظ نواميس ربّك وصدا قول الله الذي قال لي: إن حفظ بنوك وصاياي لا يزال رجل من نسلك يجلس على كرسيك إل انقضاء العالم. وكان عمر داود حين ملك ثلاثين سنة وعاش في الملك أربعين سنة وتزوج ثلاث[1] نسوة سواء امرأة أوريا[2] أم سليمان وكان له سبعة عشر ولداً. ومات[3] ودُفن في أورشليم

وفي سنة ثمان وعشرين من ملك داود بُنيت مدينة أفسوس ومدينة ساموس. وفي زما كان أمبيذقليس الحكيم أحد الأساطين الخمسة أعنيه وفيثاغورس وسقراط وفلاطو وارسطوطاليس. وهو أول من نفى الصفات عن ذات الباري تعالى قائلاً: ذاته وجود ووجوده ذاته وأما حياته وحكمته فمعنيان إضافيان لا يوجبان اختلافاً في الذات. وله كتاب في بطلان المعاد الروحاني فضلاً عن الجسماني. وقد انتحل مذهبه سليمان بن داود في كتابه الذ يسمّي فيه نفسه قوهلاث أي الجامع الذي ذهب فيه مذهب الدهرية واعلم أنه قد يوجد فيما يفتش عنه من الكتب اختلاف كثير من تواريخ سني الفلاسفة. فذكر في بعضها أن ثاليس الملطيّ هو أو من تفلسف من اليونانيين وأن الشعر ظهر في أمّة يونان قبل الفلسفة بمائتين من السنين وأبدء أوميروس. وذكر كيريلوس في كتابه الذي ردَّ فيه على يوليانوس فيما ناقض به الإنجيل أن كو ثاليس قبل ابتداء ملك بختنصر بثمان وعشرين سنة. وقال فرفوريوس: إن ثاليس ظهر بع بختنصر بمائة سنة وثلاث وعشرين سنة. وقال آخر: إن أول من تفلسف فيثاغورس. وقا بعض الإسلاميّين: إن أول من وُصف بالحكمة كان لُقمان وكان في زمان داود النبيّ ومنه أخ أمبيذوقليس. ولأن غرضنا ههنا ليس تحقيق سني الفلاسفة ولكن ذكر بعض أحوالهم المتشبهة ب يُحمَد من سيرهم والتذاذ النفس بسماع بعض نكتهم التي جمعت إلى الحكمة والفكاهة وإلى الفائد المؤانسة وإلى الجد المهازلة وإلى الوقار التبسُّم وهي أنفاس تهادت بين نفوس كريمة وسحائب درَّ عن عقول شريفة فلا علينا أكانت الأزمنة التي أورد فيها ذكرهم هي أزمنتهم بأعيانها أو لم تكن والذي أثبتناه ههنا من أوقات هذه الفلاسفة المتقدمين هو ما نقلناه من كتابَي أوسابيوس واندرونيقوس المؤرخَين لما رأيناه من موافقة أفضل المجتهدين يعقوب الرهاوي المبرّز في اللغا الثلاث العبرانية واليونانية والسريانية.

(سُليمان بن داود) ولي الملك وهو ابن اثنتي[4] عشرة سنة وعند ذلك أوحى الله إليه ف

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٧٧ وكان له تسع وتسعون امرأة.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٧٠.
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٧٤ كان عمر داود لما توفي مائة سنة.
(٤) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ١٧٥ (لما توفي داوود ملك بعده ابنه سليمان على بني إسرائيل وك ابن ثلاث عشرة سنة).

المنام وقال له: سلني ما أحببت حتى أعطيكه. فقال سليمان: يا ربي قوّني تعجز عن التدبير ولا علم لي بالقضاء بين شعبك فامنحني قلباً فهماً وعقلاً رزيناً. فقال له: سأعطيك ما لم يكن لأحد من الملوك. وإن سلكت سبيلي أطلت عمرك ولا أزلت الملك عن بنيك. فأصبح سليمان مسروراً. وجلس على كرسي الملك فأتته امرأتان تختصمان إليه في صبي تدّعي كل واحدة منها أنه ولدها. فقال سليمان لسيافه: اقطع الصبي بنصفين وأعطِ لكل واحدة نصفه. فقالت الواحدة: نعم حتى لا يكون لي ولا لها. وقالت الأخرى: ادفعه إليها أيها الملك ولا تقتله. فعلم سليمان أنه ابنها فدفعه إليها. فرأى بنو إسرائيل ذلك وتحققوا أن الله قد آتى سليمان حكمة وعلماً. وخضع الملوك له وهادنوه وكان ارتفاع مملكته التي هي أربعمائة فرسخ في مثلها في عام ستمائة ألف وستمائة وستين قنطاراً ذهباً سوى الهدايا وأرباع المتاجر. والقنطار وهو الككر على ما في التوراة ثلاثة آلاف مثقال بمثاقيل القدس كل مثقال خمسة مثاقيل بمثقالنا. وكان ما يحتاج إليه سليمان لمائدته في كل يوم من الدقيق مائة كرّ. ومن الثيران ثلاثين رأساً. ومن الغنم مائة رأس. سوى الظباء والأيائل وأنواع الطيور. وكان له سبعمائة زوجة[1] من الحرائر وثلثمائة جارية من السراريّ وأربعون ألف رأس من الخيل. وفي أربع سنة لملكه شرع في بنيان بيت المقدس وهو المعروف بالمسجد الأقصى في جبل الأموريين في اندر اران اليبوسي وطوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وعلوه ثلاثون ذراعاً. وتممه في سبع سنين. وفي سنة أربع وعشرين من ملكه خرب مدينة أنطاكية وبنى سبع مدن من جملتها تذمر.

ولما شيَّد سليمان بيت الرب شكر الله ودعا لبني إسرائيل بالبركة وجثا على ركبتيه وبسط يديه إلى السماء وقال: اللهم إله إسرائيل ليس مثلك في السموات العُلى ولا في الأرضين السُفلى قد وفيت لعبدك داود بالوعد الذي وعدته فأسألك أنه إن أثم بنو إسرائيل وانهزموا من أعدائهم ودعوك في هذا البيت فاستجب واغفر خطاياهم وأنصرهم على أعدائهم وإنا أثموا فاحتبسَ عنهم المطر فأتوا هذا البيت فاهطل لهم مطراً وارو أرضهم بغيثك. وإذا كان في الأرض جوع أو جراد أو موت أو مرض فاستغاثوا إليك فاستجب لهم. وإذا أتى أحد الأمم الغريبة إلى هذا البيت ودعاك فاستجب له لتعلم شعوب الأرض أنك أنت الله وحدك فيخافوك.

ثم قرّب قرابين من الذبائح اثنين وعشرين ألف ثور ومائة وعشرين ألف رأس غنم وجعل ذلك عيداً لله سبعة أيام. فكان الملوك يقصدونه ليسمعوا حكمته ويأتونه بالهدايا النفيسة من الذهب والفضة والجواهر والثياب والطيب والسلاح والخيل. واتته ملكة التيمن[2] وقدمت له مائة

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ١٧٦ وكان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة سرية.
(٢) أنظر الكامل في التاريخ ح ١ ص ١٧٦.

وعشرين قنطاراً من الذهب وطيباً وجواهر ثمينة وقالت له: يا سليمان لقد زاد خُبْرك على خَبرَك. طوبى نسائك طوبى عبيدك السامعين حكمتك. يكون الرب إلهك مباركاً. وأعطاها سليمان من جميع الألطاف أحسنها وعادت إلى بلدها.

ولسليمان كتاب في الغزل ومراودة النساء يسمى شيرث شيرين أي مدحة المدائح ظاهره ينبىء أنه يغازل فيه ابنة فرعون السمراء وتغازله. والعلماء منا أوّلوه فقالوا إن العاشقة النفس الناطقة التي حال حسنها بالشوائب البدنية ومعشوقها باريها المعشوق لذاته من ذاته ومن المبتهجين به. وله أيضاً كتاب الأمثال في الحكمة العملية ناهيك من كتاب ومات سليمان[1] ودفن في تربة أبيه داود.

(رحبعم بن سليمان) لم يخلف سليمان ولداً سوى هذا رحبعم. فأجلسه بنو إسرائيل مكان أبيه في الملك وقالوا له: إن أباك جَفا علينا في المعاملة فخفّف أنت عنا. فأجابهم بعد ثلثة أيام شاور فيها أقرانه قائلاً: إن خنصري أغلظ من إبهام أبي وإن كان أبي أدّبكم بالقضبان فأنا أعاقبكم بالسياط. فقال بنو إسرائيل: لا سهم لنا مع بيت داود ولا قسمة لنا مع آل ايشي عليكم بمنازلكم يا بني إسرائيل. فمضى كلِ إنسان إلى بيته. وانفذ رحبعم رسوله إلى قرى بني إسرائيل يستعطفهم فرجموه بالحجارة ومات.

وكان لسليمان غلام شجاع نجيب اسمه يوربعام بن ناباط فملكته العشرة الأسباط عليهم بارض السامرة. وبقي لرحبعم بن سليمان سبطا يهوذا وبنيامين وجعل كرسي مملكته بأورشليم فحاول يوربعام تزهيد بني إسرائيل عن زيارة بيت المقدس واتخذ عجلين من ذهب ونصبهما بمدينة دان وهي بانياس وقال لهم: اغتنموا قرب الطريق وترك الكلفة في السفر إلى أورشليم فهذان إلاهاك يا إسرائيل اللذان أخرجاك من مصر. فأرسل الله نبياً اسمه شمعي إلى يوربعام. فسار إليه وصادفه يبخر قدام عجليه بخوراً. فحلت روح الله على النبي وقال: أيها المذبح انصت لقول الرب. سيولد لآل داود ابن اسمه يوشيا يذبح عليك كهنتك ويحرق عظام قوّامك عليك. وآية ذلك أنك تنصدع الآن وينزل الرماد عنك. فصار كما قال.

وأما رحبعم بن سليمان فإنه ملك على السبطين سبع عشرة سنة وفعل كل قبيح. وفي السنة الخامسة من ملكه صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وسلب جميع الآلات وتِرَسَة الذهب التي عملها سليمان لبيت الرب. وصاغ رحبعم عوضها نحاساً. ومات رحبعم ودفن في تربة بيت داود.

---

(١) أنظر الكتاب المقدس عن سليمان في سفر الملوك الثالث الفصل الحادي عشر.

(أبيّا بن رحبعم) في السنة الأولى لجلوسه حاربه يوربعام ابن ناباط ملك العشرة الأسباط بثمانين ألفاً من الجند. والتقاه بأربعة آلاف وهزمه. وهلك من بني إسرائيل الذي مع يوربعام في ذلك اليوم خمسون ألفاً من المقاتلة. وكان لأبيًا أربع عشرة زوجة وولد له ستة وعشرون ولداً ذكراً وست عشرة بنتاً. وملك ثلاث سنين ومات. وكان يتنبأ في زمانه أحيًا وشمعيًا النبيّان.

(آسا بن أبيًا) ملك إحدى وأربعين سنة. وكان جميل الطريقة. وفي السنة الثانية لملكه مرض يوربعام بن ناباط ملك العشرة الأسباط ومات بعد أن ملك اثنتين وعشرين سنة. وولى بعده ناداب ابنه مدة سنتين. ثم انتقل ملك الأسباط إلى رجل من سبط أيساخر اسمه بعشا بن أحيًا وملك أربعاً وعشرين سنة. وفي السنة العاشرة لملك آسا ملك السبطين حاربه زرح ملك الزنوج بألف ألف وستمائة ألف رجل من البربر والحبشة والنوبة. فالتقاه آسا بفلاة جادر وهزمه. وبعد خمس سنين أحرق الأصنام وخلع أمّه الوثنية من الملك ونفى كل زان وزانية من أرضه.

(يوشافاط[1] بن آسا) ملك خمساً وعشرين سنة على السبطين. وفي زمانه مات بعشا ملك الأسباط العشرة وملك بعده آلا ابنه سنتين ثم اغتاله زمري عبده وقائد جيشه وقتله وملك بعده سبعة أيام. ولما رأى مثاورة بني إسرائيل به طالبين ثأر ملكهم أضرم النار في داره وأحرقها ونفسه وذريته. وملك بعده عمري وبنى بالشام مدينة عمورية. ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة ومات. وملك بعده أحاب ابنه ثلاثة وعشرين سنة وتزوج امرأة وثنية اسمها إيزبيل ابنة ملك صور. وجدد بناء مدينة أريحا التي لعنها ايشوع ابن نون. ووبخه اليًا النبي لعبادة الأصنام وهرب إلى البادية وكان الغراب يجيئه بالقوت. وامتنع المطر بدعائه ثلاث سنين ونصف. وأنزل النار من السماء وأحرقت مائة نفس في مرتين. ثم دعا إلى الله ونزل المطر وأروى الأرض. وهرب من شرّ ايزبل امرأة أحاب إلى القفر وصام أربعين يوماً بلياليها. ومضى بعد ذلك مع تلميذه اليشع وشق نهر الأردن وجاز في قعره. وارتفع في السحاب ومضى حياً إلى حيث شاء الله تعالى. وفي هذا الزمان كان من أنبياء الحق أليًا وتلميذه اليشع وعوبذيا وابيهوذ وعوزيل وميخا بن يمشي. ومن الكذّابين صدقيا واليعازر مع أربعمائة أُخر. ومات احاب وملك بعده أحاز ابنه سنة واحدة. ووقع من روشن دار له ومات. وملك بعده يورم أخيه اثنتي عشرة سنة.

(يورم بن شافاط) ملك ثماني سنين. وتزوج أخت أحاب ملك العشرة الأسباط اسمها عثليا وقتل أخوته كلهم. فنزلت عليه البلوى ومات مبطوناً.

(أحزيا بن يورم) ملك سنة واحدة. وفي زمانه انتقل ملك العشرة الأسباط من بيت احاب

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٣ يوشافاظ في تاريخ الطبري ح ١ ص ٥٣٠ يوشافاظ.

إلى رجل اسمه ياهو بن نمشي. هذا قتل يورم بن احاب وجميع أهل بيته مع ايزبل امرأته مدخصاً أثرهم.

(عثليا أم احازيا[١]) ملكت سبع سنين. هذه اباحت الزنا للرجال والنساء متظاهرين في مدينة القدس وأبادت ذرّية المملكة لتستبد وحدها بها ولا يبقى من ينافسها عليها. ولم ينج سوى يواش حافدها أي ابن ابنها الذي سرقته عمته يوشبع امرأة يوياذع رئيس الكهنة وربّته سرًا.

(يواش بن احزيا) ملك أربعين سنة. ولي الملك وله يومئذ سبع سنين وذلك لأن يوياذع رئيس الكهنة قتل عثليا الباغية جدته وقلده الملك. ولم يعترف له بجميله لكنه بعد وفاة يوياذع قتل جميع أولاده. ثم اغتاله مماليكه. ومات أيضاً ياهو بن نمشي ملك العشرة الأسباط وكان مدة ملكه ثماني وعشرين سنة. وملك بعده ياهو احاز ابنه سبع عشرة سنة ومات. وملك بعده يهواش ابنه ثلاث عشرة سنة. وفي سنة ست وثلاثين ليواش بن احزيا توفي اليشع النبي. وكان يتنبأ زخريا النبي.

(أموصيا[٢] بن يواش) ملك تسعاً وعشرين سنة. هذا أباد جميع أعداء أبيه الأذوميّين وأهل ساعير ونقل آلهتهم إلى أورشليم وعبدها. وغزاه يهواش ملك العشرة الأسباط وثلم في سور أورشليم ثلمة قدرها أربعمائة ذراع ودخلها وسلب مال هيكل الله ودار الملك وعاد إلى شمرين. وقُتل أموصيا في الحرب. ومات يهواش وملك بعده يوربعام ابنه إحدى وأربعين سنة.

(عوزيا بن أموصيا) ملك اثنتين وخمسين سنة. وفي أيامه كان يونس بن متى المبعوث إلى نينوا. وفي سنة أربع وعشرين من ملكه تعدّى طوره ودخل محراب البخور في هيكل الله ليعمل أعمال الكهنة. فبرص جسده كله دفعة ولم يطهر حتى مات. ولما لم ينهه اشعيا النبي ارتفع عنه الوحي ثماني وعشرين سنة حتى مات عوزيا ثم ردت عليه النبوة إحدى وستين سنة أخرى وكان قد تنبّأ قبل أربعاً وعشرين سنة. وفي سنة ثماني وأربعين لملك عوزيا اغار ثغلثفلسر ملك اثور على أورشليم وجميع أرض بني إسرائيل وجلا منهم كثيرين. وفي سنة تسع وعشرين لعوزيا مات يوربعام ملك العشرة الأسباط وملك بعده زخريا ابنه ستة أشهر. وقتله رجل اسمه شالوم وملك بعده شهراً واحداً. ثم قتله رجل اسمه مخيم وملك بعده عشر سنين ومات. وجلس مكانه فقحيا ابنه سنتين ثم قتله فقاح بن روملیا وجلس مكانه عشرين سنة. قالب فرفوريوس المؤرخ أن أوميروس الشاعر وأيسيدوس في هذا الزمان كانا.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٤ (عزليا بنت عمرم وفي الطبري ح ١ ص ٥٣١ عثليا وتسمى غزليا ابنة عمرم.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٤ (أمصيا).

(يوثم[١] بن عوزيا) ولي الملك ست عشرة سنة وسلك السبيل المستقيم قدام ربه ورمم أورشليم وقهر العمونيّين وأخذ منهم الجزية.

وفي هذا الزمان كان أوميروس الشاعر على ما نقل عن فرفوريوس. هذا عانى الصناعة الشعرية من أنواع المنطق وأجادها وهو معدود في زمرة الحكماء لعلو مرتبته. وقد وضع كتابين في الحروب التي جرت بين اليونانيين على مدينة إيليون ونسختاهما موجودتان عندنا بالسريانية وهما مشحونتان بالألغاز والرموز. وقيل إن أنلينيا الماجن جاءه فقال له: اهجني لأفتخر بهجائك إذ لم أكن أهلاً لمديحك. فقال له: لست فاعلاً ذلك أبداً قال: فإني أمضي إلى رؤساء اليونانيين فأشعرهم بنكولك. قال أوميروس مرتجلاً: بلغنا أن كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص. فامتنع عليه انفة. فقال له الكلب: إنني أمضي إلى السباع فأشعرهم بضعفك. قال له الأسد: لأن تعيّرني السباع بالنكول عن مبارزتك أحبّ إليَّ من أن ألوث شاربي بدمك.

(أحاز بم يوثم) ملك ست عشرة سنة وأساء السيرة وقرب الذبائح للجن. حاربه فقاح بن روملیا مستنجداً برصبان ملك الشام وأهلك من آل يهوذا مائة وعشرين ألفاً. ومات فقاح وملك بعده هوشع بن آلا تسع سنين. وفي سنة ثماني لملك أحاز غزاه شلمانعسر ملك بابل. وكتب أحاز نفسه عبداً له. وأخذ جميع ما وجد في بيت الرب والملك من الذهب والفضة والآنية. وحاصر مدينة شمرين ثلاث سنين وفتحها وقتل هوشع وسبى العشرة الأسباط وفرقهم في جبال أثور وأراضي بابل وبلاد الفرس. ومن أفلت من هذا السبي انضاف إلى ملك السبطين يهوذا وبنيامين وبطل بذلك ملك العشرة الأسباط. وفي هذا الزمان عمرت جزيرة رودس وبقيت ألفاً وأربعمائة وخمس سنين إلى أن أخربها المسلمون. وبنيت في بلد فونطوس مدينة طرابيزونطا.

وفي هذا الزمان اشتهر في الفلسفة ثاليس الملطي على ما ذكره أوسابيوس القيصري في تاريخه المسمى خرونيقون. وقيل هو أول يوناني صار إلى أرض مصر وأخذ الحكمة من القبط ثم رجع إلى ملطية. وكان أول ما أظهر لقومه من الحكمة أنه أنذرهم بكسوف الشمس أنه سيقع في ساعة معيّنة من نهار معيّن. فلما صح حكمه مثل عندهم واستطرفوا إنذاره وتلمذ له جماعة منهم. والقبط أخذوا الحكمة من الكلدانيين. ولم يكن لليونانيين قبل ثاليس شيء من الحكمة وإنما كانت حالهم كحال العرب لم يعرفوا غير علم اللغة وتأليف الأشعار والأمثال والخطب. وقيل أول من قال بالاطوماطون هو ثاليس أي أن الوجود لا موجود له واحتجّ بما شاهد في هذا العالم من الشرور. وهكذا يعتقد أهل الهند. وبعد ثاليس اشتهر في العلوم الرياضية خاصة أبولونيوس

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٤ يوثام.

النجار وله كتاب المخروطات المؤلف في علم أحوال الخطوط التي ليست بمستقيمة ولا مقوّسة بل منحنية. أُخرج منه إلى العربية في زمان المأمون سبع مقالات. ومقدمته تدل على أنه ثماني مقالات. وهذا الكتاب مع كتاب آخر من تصنيف أبولونيوس كانا السبب في تصنيف أوقليدس كتابه بعد زمان طويل. وأما أوقليدس النجار فهو من مدينة صور له يد طولى في علم الهندسة. وكتابه المعوف باسطوخيا أي الأركان كتاب جليل القدر عظيم النفع لم يكن لليونان كتاب جامع في هذا الشأن ولا جاء بعده إلا من دار حوله وقال قوله وما في القوم إلا من سلَّم إلى فضله وشهد بغزير نيله. وله في هذا النوع أيضاً كتاب المفروضات وكتاب المناظر وكتاب تأليف اللحون وغير ذلك. ومن مشاهير الرياضيين ارشيميديس وهو يوناني أخذ الحكمة من المصريين. وقيل إن الذي أردم أراضي أكثر قرى مصر وأسس الجسورة المتوصل بها من قرية إلى قرية في زيادة النيل ارشيميديس. وله مصنفات عدة مثل كتاب الكرة والأسطوانة والمسبَّع في الدائرة. وقيل إن الروم أحرقت من كتبه خمسة عشر حملاً. وبعده عُرف منالاوس المتصدر لإفادة العلوم الرياضية. وله كتاب معرفة تمييز الاجرام المختلطة.

(حزقيا بن احاز) ملك تسعاً وعشرين سنة وأطاع الله وأزال الأصنام. فظفره الله بأعدائه تظفيراً. وفي السنة الرابعة من ملكه صعد شلمانعسر ملك بابل إلى أرض السامرة مرة ثانية وسبى جميع من تبقى من العشرة الأسباط. وفي السنة الثامنة من ملكه أنفذ شلمانعسر قوماً من الأثوريين إلى أرض شمرين ليحرثوها فكانت تخرج عليهم السباع وتقتلهم. فقيل لشلمانعسر: إنما ابتلوا بذلك لأنهم لا يعرفون سنّة إله تلك الأرض. فأرسل إليهم عوزيا الكاهن ليعلّمهم التوراة. فلما تعلّموها وعملوا بسنّتها أمسكت السباع عن الإضرار بهم. ومن ذلك الزمان صار السمرة لا يقبلون من الكتب الإلهية سوى التوراة. وفي السنة العاشرة من ملك حزقيا غزا سنحاريب[١] ملك اثور ديار القدس وبصلاة حزقيا خلصت أورشليم. ومرض حزقيا ليموت فبكى بكاءً شديداً وناح قائلاً: إن البركة التي جعلها الله في ذرّية داود انقطعت مني وعندي تنقضي سلالة ملك ابن ايشي. فزاد الله في حياته خمس عشرة سنة. وولد له ابن فسمّاه مناشا. وعلى هذا الولد تحمل اليهود نبؤة أشعيا النبي حيث يقول: هوذا العذراء تحبل وتلد إبناً ويُدعى اسمه عمنوئيل. قالوا وإنما سمّى النبي امرأة حزقيا عذراء لصدور النبوّة قبل أن[٢] يماسّها بعلها وكان سنحاريب عند نزوله يرسل إلى حزقيا فيقول له: لا تغترّ بربك فسأهلكك. فذُعر منه حزقيا وأنفذ إلى اشعيا النبي يقول له: هذا يوم بلاء فادعُ إلى ربك. فأوحى الله إلى اشعيا قائلاً: قل لحزقيا: لا تخف من

(١) سنحاريب: سمي سنحاريب تفاؤلاً بكثرة الأخوة وسنحاريب معناه القمر يكثر الأخوة.
(٢) ورد في نبؤة أشعيا المتضمنة هذه الأيسة (هوذا العذراء تحبل وتلد إبناً).

سنحاريب فإني رادّه في الطريق الذي جاء فيه. وبعث الله ملاكاً فقتل في معسكر سنحاريب مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً من الجند. فعاد منهزماً إلى أثور وهنالك قتله ابناه وهو ساجد في بيت صنمه. ويقال إن هذا سنحاريب جدد عمارة مدينة طرسوس. وعمل حزقيا بحيرة ماء خارج أورشليم وأدخل إليها الماء بالقناة وحفر لها خندقاً. وكان حزقيا لما أتاه رسول سنحاريب أطلعه على جميع ما في بيته. فغضب الله لذلك وقال له: إن جميع ما رأى الأثوريون في بيتك يكون لملك بابل وستكون بنوك خصياناً له. فقال حزقيا: ليت أمناً كان في أيامي. وفي زمانه كان طوبيث الصديق من جالية بني إسرائيل قاطناً بنينوا. وقصة مناولة ملاك الرب إياه مرارة داوى بها عينه وبرئه من عماه مذكورة في كتابه.

(منشّا بن حزقيا) ملك خمساً وخمسين سنة واجتمع له ملك الأسباط الإثني عشر بعد سبي شلمانعسر. وارتكب كل محظور ومحرَّم وعمل صنماً ذا أربعة أوجه وأمر بالسجود له. ونشر اشعيا النبي ناهيه عن المنكر بمنشار مشدوداً بين دفَّتين. وكان عمر اشعيا مائة وعشرين سنة منها في النبؤة خمس وثمانون سنة. فرذل الله مناشا وأسلمه إلى الأثوريين فأسروه وأخذوه مسلسلاً إلى أثور وسجنوه في برج النحاس بمدينة نينوا. وعند ذلك تاب إلى الله ودعا دعاءه المشهور. فتاب الله عليه وردَّه إلى ملكه. وحال وصوله إلى أورشليم أخرج الصنم ذا الوجوه الأربعة من الهيكل وطهَّره وبنى سور أورشليم الجنوبي.

وفي سنة إحدى وعشرين لملك مناشا بُنيت مدينة خلقذونيا. والصقالبة ملكوا إلى أرض فلسطين. وولي مدينة رومية الكبرى أوسطيليوس وهو أول من اختص بالحلى الأرجوانية والقضيب السلطاني. وبنى بوزوس مدينة بوزنطيا. وبعد تسعمائة وسبعين سنة عظمها قوسطنطينوس وسمّاها قوسطنطينوفوليس.

(أمون بن مناشا) ملك اثنتي عشرة سنة وعلى رأي اليهود سنتين. هذا سلك الطريقة القبيحة وعبد آلهة الأمم الخارجة وقتله عبيده في الحرب.

وفي هذا الزمان اشتهرت في الحكمة بجزيرة رودس امرأة تسمَّى سيبولاّ. وبجزيرة سقيليا ارخيلوخوس الخطيب الملقَّب بالغراب. وسار إليه الطلبة لاستفادة الخطابة منه. وكان من جملة قاصديه فتى من اليونان يقال له ثيسناس ورغب إليه في تعليم هذا الفن وضمن له عن ذلك مالاً معيَّناً. فأجابه برغبته وعلمه. فلما لقنها حاول الغدر به ورام فسخ ما وافقه عليه فقال له: يا معلم ما حدّ الخطابة. فقال: إنها المفيدة للإقناع. قال: إني أناظرك الآن في الاجرة فإن أقنعتك بأنني لا أدفعتها إليك لم أدفعها إذ قد أقنعتك بذلك. وإن لم أقدر على ذلك فلست أعطيك شيئاً لأنني لم أتعلم منك الخطابة التي هي مفيدة للإقناع. فأجابه المعلم وقال: وأنا أيضاً أناظرك فإن أقنعتك بأنه

يجب لي أخذ حقي منك أخذته أخذ من أقنع. وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك إذ قد نشأت تلميذاً يستظهر على معلّمه. فقيل: بيض رديء لغراب أي تلميذ نكد ومعلم نكد.

(يوشيا بن أمون) ملك إحدى وثلاثين سنة. وجلس في الملك وله ثماني سنين. وكان جميل المذهب حسن الطريقة. وأمر حلقيا الكاهن أبا أرميا النبي بأن يدخل هيكل الرب ويرمّمه. وفي ترميمه وجد سفر الناموس وتلاه على يوشيا. فغار على نفسه وأمته وكسر أصنام أبيه وقتل خدمها وأحرق عظام قُوَّامها على مذبحها كما تنبأ شمعي النبي أيام يوربعام ابن ناباط وجدد عيد الفصح باورشليم. وفي سنة إحدى وثلاثين من ملكه نزل فرعون نخاوث أي الأعرج على الفرات بقرب مدينة منبج طالباً حراب ملك أثور. فسار إليه يوشيا بجيوشه ليمنعه من العبور. فانتصر عليه فرعون وقتله. وحُمل ميتاً إلى أورشليم. وكان له أربعة بنين يهواحاز وصدقيا ويوخنيا أبو أب دانيال النبي ويوياقيم أبو الفتيان الثلاثة حننيا وعزريا وميشائل. وفي زمانه كان صفنيا النبي وارميا وحولذى النبيَّة.

(يهواحاز بن يوشيا) ملك ثلاثة أشهر. وكان فاسد الطريقة فسباه فرعون الأعرج في عوده وواثقه بالحديد وأنفذه إلى مصر ومات هناك. ونصب يوياقيم أخاه مكانه.

(يوياقيم[1] بن يوشيا) ملك اثنتي عشرة سنة. وكان قبيح المذهب مذموم الطريقة. وقبل عليه الجزية لملك مصر كل سنة مائة قنطار ذهباً. وفي السنة الثالثة من ملكه صعد بختنصّر ملك بابل إلى بيت المقدس وسباها وجلا أكثر أهلها إلى بابل ومعهم دانيال النبي والفتية الثلاثة أولاد يوياقيم أعمام دانيال النبي ووضع الجزية على يوياقيم ورجع عنه. ثم وصل فرعون الأعرج إلى الفرات مرة ثانية والتقاه بختنصر هناك وقتله. وفي السنة الثامنة من ملك يوياقيم نزل بختنصر على أورشليم نزولاً ثانياً وأخذ مالاً من يوياقيم وعاد. وبعد ثلاث سنين مات يوياقيم.

(يوياخين[2] بن يوياقيم) وهو المسمَّى في إنجيل متى يوخنيا. ولما مضت عليه ثلاثة أشهر من ملكه قصده بختنصر وحاصر بيت المقدس. فخرج يوياخين إليه مستأمناً مع أمه وحشمه وعبيده. فجلاهم كلهم إلى بابل ولم يترك في أورشليم إلا شيخاً مسناً وعجوزاً ضعيفة. وولي على من تخلف بأورشليم صدقيا بن يوشيا عم يوياخين وبقي يوياخين معتقلاً في بابل سبعاً وثلاثين سنة.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٩ (يوثاقيم بن ياهوا احاذ).

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٦ (يوثاحين).

(صدقيا[١]) بن يوشيا) كان اسمه مثنيا ويختنصّر سمّاه صدقيا. ملك إحدى عشرة[٢] سنة. ثم عصى ومنع الجزية التي كان يؤديها إلى بختنصر. فعاد إليه وأسره وذبح أولاده بين يديه وسمل عينيه وسار به إلى أثور وجعله يدير الرحى مثل الحمار. وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة. ولما مات رميت جثته وراء السور فأكلته الكلاب. وفي هذه المرة دخل بختنصر إلى مصر وجزائر البحر وهدم مدناً كثيرة وأحرق مدينة صور وقتل حيرم ملكها وكان عمره كما يقال خمسائمة سنة. وبعث بختنصر نبوزردن القائد إلى أورشليم فدعثر سورها وأحرق الهيكل. وكان لشمعون رئيس الكهنة عند هذا القائد منزلة فسأله في أمر كتب الوحي فلم يحرقها فجمعها هذا شمعون باتفاق أرميا النبي ووضعاها مع لوحَي الناموس وعصا موسى ومجمرة البخور وباقي آلات القدس في تابوت العهد ورميا بها في بعض الآبار ولم يعرف مكانها إلى الآن. وجلس ارميا النبي ينوح على أورشليم عشرين سنة. ثم انتقل إلى مصر فقبض عليه قوم من اليهود وحبسوه في جب ثم أخرجوه ورجموه ومات ودُفن في مصر. ثم الإسكندر في زمانه نقل تابوته إلى الإسكندرية فدفن هناك. وكان حزقيال النبي في جملة من سبي إلى بابل. فقتله اليهود لأجل توبيخه لهم. فمن السنة الرابعة من ملك سليمان التي كان فيها الشروع في بنيان هيكل الرب إلى خرابه الكلي وحريقه أربعمائة واثنتان وأربعون سنة. وعلى رأي من جعل مدة ملك صدقيا تسعاً وستين سنة تكون مدة الهيكل عامراً خمسمائة سنة.

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٩٦ (صديقيا).

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٤٠٠ (جميع ما ملك صديقيا إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر.

الدَولةُ الرّابعَة

المنتَقلة مِن ملوك بني إسْرائيل إلى مُلوك الكلدَانيّين

الكلدانيُون أمَّة قديمة الرئاسة نبيهة الملوك وكان منهم النماردة الجبابرة الذين كان أولهم نمرود بن كوش من بني حام باني المجدل. وكان من ولد نمرود بختنصَّر الذي غزا بني إسرائيلي وقتل منهم خلقاً كثيراً وسبي بقيتهم وغزا مصر وافتتحها ودوَّخ كثيراً من البلاد. ولم يزل ملك الكلدانيين ببابل إلى أن ظهر عليهم الفرس وغلبوهم على مملكتهم وأبادوا كثيراً منهم. فدرست أخبارهم وطمست آثارهم. وكانت من الكلدانيين حكماء متوسعون في فنون المعارف من المهن التعليميَّة والعلوم الرياضيَّة والإلهيَّة وكانت لهم عناية بأرصاد الكواكب وتحقيق بعلم أسرار الفلك ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها. وهم نهجوا لأهل الشقّ الغربي من معمور الأرض الطريق إلى تدبير الهياكل لاستجلاب قوى الكواكب وإظهار طبائعها وطرح شعاعاتها عليها بأنواع القرابين الموافقة لها وضروب التدابير المخصوصة بها. فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة والنتائج الشريفة من إنشاء الطلسمات وما أشبهها. ولم يصل إلينا من مذاهب الكلدانيين في حركات النجوم ولا من أرصايدهم غير الأرصاد التي نقلها عنهم بطليموس القلوذي في كتاب المجسطي. فإنه اضطرّ إليها تصحيح حركات الكواكبي المتحيِّرة إذ لم يجد لأصحابه اليونانيين أرصاداً يثق بها.

(**بختنصَّر بن نبوفلسَّر**) ملك قبل إحراقه هيكل الرب وإخرابه أورشليم تسع عشرة سنة وبعده أربعاً وعشرين سنة. واسمه بالسريانية نبوخذنصر أعني عطارد ينطق. وإنما سمِّي بذلك لأنه نطق بالعلوم والآداب المنسوبة إلى عطارد. وفي السنة الثالثة من قمعه ملك اليهود رأى مناماً راعت روحه منه واقتضّه على علماء بابل. فقالوا: هذا خطب عسير لا يكشفه للملك إلا آلهة السماء الذين ليس مسكنهم مع الأرضيين. فاحتدم صدره لذلك غيظاً وتقدم إلى أريوخ صاحب شرطه بأهلاك المنجمين والسحرة وأصحاب الرقي والزجر والفأل. فقال دانيال لأريوخ: مهلاً اتئد ولا تقتل حكيماً ولكن أوصلني إلى الملك. فلما مثل بين يديه مثولاً قال له: أقادر أنت على أن تخبرني بالرؤيا التي رأيت وتعبيرها. فأجابه دانيال قائلاً: إله السماء والأرض هو الذي يبدي السرائر. وأنت أيها الملك رأيت صنماً عظيماً ذا منظر رائع رأسه من الذهب الإبريز وصدره وذراعاه من فضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه حديد ورجلاه خزف. ورأيت حجراً انقطع من

غير قاطع وضرب رجلي الصنم فهشمها هشماً شديداً. فهذه الرؤيا. وأما التعبير فأنت رأس الذهب بما منحك الله ملكاً عزيزاً وكرامة وجلالة. ويقوم بعدك ملك يكون دونك في العزّة. والثالث الممثَّل بالنحاس يكون دون الثاني. والرابع الممثّل بالحديد دون الثالث فيهشم ويدقّ كثيراً من مجاوريه. أما الأرجل والأصابع التي من حديد وخزف فدليل ممالك مختلفة قوية وواهية. وأما الحجر المنقطع من جبل من غير يد قاطعة فدليل ملك روحاني مُبيد كل معبود سوى الواحد الحقّ يظهر في آخر الأيام. فخرّ بختنصر ساجداً لدانيال وأعطاه الألطاف والهدايا ورأّسه على جميع حكماء بابل. وولّى أعمامه حنيناً وعزريا وميشائل أمر مدينة بابل وسمّاهم بأسماء نبطيّة أعني شدراخ وميشاخ وعبدناغو. ثم اتّخذ بختنصر صنماً من ذهب طوله ستون ذراعاً في عرض ستة أذرع. وتقدم إلى جميع عظماء دولته أن يوافوا عيد الصنم. وأنهم إذا سمعوا صوت القرن وباقي أنواع الزمر يخرّون سُجّداً للصنم. فامتثل الجميع أمره ما عدا حننيا وعزريا وميشائل. فسعى بهم قوم إلى بختنصر أنهم لا يعتدّون بأمره. فاستشاط من ذلك غضباً وأمر أن يُسجَر الآتون فوق ما كان يُسجَر سبعة أضعاف الوقود وإن يُكتّفوا بسراويلهم وقلانيسهم وبرانسهم وباقي ثيابهم ويُزجُّوا في اتون النار.

فلما فعل بهم ذلك أحرقت النار الذين سعوا بهم. فأما هم فمكثوا في النار ممجّدين لله وملاك الطلّ نزل عليهم وأمال عنهم لهيب النار فلم تنك فيهم ولا في ثيابهم ولا في لباسهم. فلما شاهد الملك ذلك بُهت تعجباً وقال: أرى الرابع منهم شبيه المنظر ببني الآلهة يعني الملاك. وناداهم بأسمائهم قائلاً: يا عباد الله العليّ اخرجوا. فخرجوا من النار ولم يشِط شيءٌ من ثيابهم ولا شعورهم. فرفع بختنصّر درجاتهم. ثم رأى بختنصر رؤيا ثانية كأنّ شجرة في سواء الأرض قد علت حتى بلغت إلى السماء ولها ورق أنيق وثمار كثيرة فيها مطعم لكل بشر. وجميع حيوانات البرّ وطيور الجوّ تأوي إلى ظلّها. وكأنّ ملاكاً قدّيساً نزل من السماء وقال: اقلعوا هذه الشجرة وجذُّوا أغصانها وانثروا أوراقها وبدّدوا ثمارها وتتفرّق عنها حيوانات البرّ وطيور الجوّ وذَروا عروقها في الأرض إلى أن يحول عليها سبعة أحوال. فاقتصّ بختنصّر هذه الرؤيا أيضاً على دانيال وقال له: أنت قادر على تعبيرها لأنّ فيك روح الآلهة القديسين. فقال دانيال: أيها الملك الرؤيا لمن يشنأك وتعبيرها على اعدائك. أما الشجرة الموصوفة بتلك الصفات الجليلة فإنك أنت الذي عززت حتى ارتفع اسمك إلى السماء. وأما الملاك القديس الذي رأيت وأقواله تلك فتدلّ على أنّ الناس يُخرجونك من بينهم ليصير لك تعمُّر مع الوحوش وتُطعم العشب طعماً كالثور ويبلّك قطر السماء حتى تحول عليك سبعة أحوال. ثم يثوب عقلك إليك وتستوي على كرسي ملكك. فكفّر خطاياك بالصدقات وآثامك بالترحُّم معلى الضعفاء لتبعد عنك هفواتك.

ومن بعد سنة لما رأي بختنصّر أن رقاب أمم المسكونة قد خضعت له ودانت له ملوكها هيبة

له وخوفاً من شدَّة بأسه طغى بقلبه وشمخ بأنفه وأخذته العزَّة في نفسه. فسمع صوت هاتف يهتف به هتافاً. ويقول: لك يقولون يا بختنصَّر لقد لفظتك مملكتك وسيهيج عليك الناس[١]. فتمَّت الكلمة عليه في تلك الساعة وطرده الناس ورعى العشب كالثور. وطال شعره وصارت أظافيره كمخاليب سباع الطيور حتى أتت عليه سبع سنين. ثم راجعه عقله وطلبه قادته واستوى على سرير مملكته ومنح مزيداً من العظمة وحمد الله وعلم أن سلطانه إلى دهر الداهرين يهب الملك لمن يشاء ويجعله في سفلة الناس وسُقَّاطهم.

وجدت في كتاب عتيق سرياني مجهول أنَّ أوطولوقيوس المهندس اليوناني عرف في زمان بختنصَّر وكان مشهوراً في وقته. والموجود من كتبه الآن كتاب الكرَّة المتحرّكة إصلاح الكندي وكتاب الطلوع والغروب ثلاث مقالات. وأما ثاوذوسيوس فلم نقف له على زمان معيَّن وهو من حكماء اليونان المشهورين وله تصانيف حسان. له كتاب الأكر الذي هو أجلّ الكتب المتوسطات بين كتاب أوقليدس والمجسطي.

وفي هذا الزمان كان فورون الفيلسوف الكلدي. وكانت حكمته هي الحكمة الأولى التي لم تستقرّ. وكان صاحب فرقة وله جمع يتعلمون منه الفلسفة الطبيعية وذهب إليها فيثاغوروس وثاليس الملطيّ وعامَّة الطلبة من اليونانيّين والمصريّين. وكانت هذه الفلسفة شائعة في يونان إلى قبل زمان سقراطيس. ثم مال الناس عنها وقد انتصر لها أناس من المتأخرين منهم محمد بن زكريا الرازي لأنه لم يتوغل في العلم الإلهي ولا فهم غرض ارسطوطاليس فيه فاضطرب رأيه وتقلَّد آراء سخيفة وانتحل مذهباً خبيثاً مذهب فورون وذمّ أقواماً لم يفهم عنهم ولا هُدِي سبيلهم. وفرقة فورون يُعرفون بأصحاب اللّذة لأنهم كانوا يرون أن الغرض المقصود إليه في تعلم الفلسفة اللذة الحاصلة للنفس بمعرفتها وهي مع البدن لانجائها من عذاب الجهل في الآخرة كما هو رأي ارسطو لأن النفس لا بقاء لها بعد البدن عندهم.

(أوِل مرودخ[٢] بن بختنصر) ملك ثلاث[٣] سنين. هذا أخرج يوياخين بن يوياقيم من السجن وأكرمه وآكله مؤاكلة بعد سبع وثلاثين سنة وكان فيها معتقلاً. وقُتل مردوخ وملك بعده أخوه بلطشاصر.

(بلطشاصر بن بختنصّر) ملك سنتين. ثم عمل وليمة عظيمة لألف رجل من أكابر دولته

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٠٣ (إن بعوضة دخلت منخرة وصعدت إلى رأسه فمات.

(٢) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٠٤ (المردج).

(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٠٤ (ملك ثلاثاً وعشرون سنة ثم هلك).

وكان يشرب الخمر بإزائهم. وأمر وهو يشرب أن يؤتى بآنية هيكل الرب التي سباها أبوه من أورشليم وشرب فيها مع عظمائه. فظهرت قبالته كفُّ يدٍ كاتبة عقابه في ضوء المصباح على الحائط. فرابته الكتابة وأحضر حكماء بابل ليترجموا الكتابة. فعجزوا عن حلّها. فامتعض لذلك امتعاضاً شديداً. فأخبرته أمّه عن دانيال النبي أنه درّاك غيب وحلاّل عُقد. فاستدعاه وضمن له أن يلبسه الأرجوان وأن يولّيه ثلاث الملك إن أوّل الكتابة. فقال دانيال: لتكن مواهبك لك واجعل ذخائر بيتك لغيري. أما الكتابة فقراءتها أُحصي احصاءً وزن وأُعري. وتأويلها: إن الله أحصى ملكك واستلبه. ووزنك زنة فوجدك شائلاً فلذا أعراك من ملكك فأنت عارٍ عُرْية. وفي تلك الليلة اغتاله داريوش المادي وقتله.

الدَولَةُ الخامِسَة

المنتَقلة من مُلوك الكلدَانيّين إلى مُلوك الفُرس

أمّا الفرس فأهل ـِف الشامخ فأهل الشرف الشامخ. العزّ الباذخ. وأوسط الأمم دارايّ. وأشرفهم إقليماً. واسوسهم ملوكاً. تجمعهم وتدفع ظالمهم عن مظلومهم. وتحملهم من الأمور على ما فيه حظهم على اتصال ودوام. وأحسن التئام وانتظام. وخواصّ الفرس عناية بالغة بصناعة الطبّ ومعرفة ثاقبة بأحكام النجوم. وكانت لهم أرصاد قديمة. وقال بعض علماء العجم: أوّل من ملك بعد الطوفان كيومرت من بني سام بن نوح وكان ينزل فارس. واتخذ الآلات لاصلاح الطرق وحفر الأنهار وذبح ما يؤكل من الحيوان وقتل السباع. وما زال الملك في ولده إلى أن ملك داراً بن داراً الذي غزاه الاسكندر وقُتل في المعركة. ثم ملكت الاشكانية أولهم اشك. ثم اشك بن اشك وهو أول من تسمّى بالشاهيَّة. ودام الملك فيهم إلى أن ظهرت المملكة الساسانية أولهم اردشير بن بابك بن ساسان من بني كشتاسب. فأحسن السيرة وبسط العدل. وتوارث بنوه الملك إلى أن ملك يزجرد ابن شهريار بن قباذ بن فيروز بن هرمز بن كسرى أنوشروان المعروف بالعادل. وهو آخر ملوك الفرس. فلما ملك انتقضت عليه الدولة وتفاقمت أمورها وطلعت أعلام الإسلام بالنصرة وقُتل كما يأتي شرح ذلك في موضعه.

(داريوش المادي) واليونانيُون يسمُّونه نابونبذس. ملك سنة واحدة. وقيل تسع سنين. وبه بطلت مملكة النبط الكلدانيين منتقلة إلى الفرس المجوس. وهذا الملك استولى على الملك وهو من أبناء اثنتين وستين سنة. وحسنت منزلة دانيال النبي عنده. وأقام في ولايته مائة وعشرين قائداً ورأس عليهم ثلاثة رجال أحدهم دانيال. وكان يرجع في سرائره إليه. فساء ذلك أرباب الدولة وجعلوا يطلبون عليه حجة يوقعونه بها عن مرتبته. فلم يظفروا منه بهفوة غير أنه يدين بغير دين الملك. فساروا إلى الملك وقالوا: إن دانيال يعبد إلهاً غريباً. وفي سنّتنا إن من دان في أرضنا بدين غير ديننا وتعدّى سنّة أهل ماه وفارس قذف به في جبّ الأسد. فلما لم يقدر الملك على إبطال شريعة قومه تقدَّم بقذف دانيّال في جب الأسد وقال له: إلهك ينجيك. وانصرف إلى منزله وبات طاوياً وطار عنه نومه إشفاقاً على دانيال. وكان حبقوق النبي في الشام قد طبخ طبيخاً ومضى يطعم الحوَاصيد فأخذه ملاك الرب بشعر رأسه ووضعه في بابل على فم الجبّ فقال: دانيال دانيال

قم خذ الطعام الذي أنفذ لك ربّك. فقال دانيال: ذكرني الله ولم يهملني. وأخذ الملاك لحبقوق ووضعه في موضعه. وجاء الملك داريوش بعد سبعة أيام ليبكي على دانيال لكثرة اهتمامه له. فلما دنا من الجبّ ناداه: يا دانيال هل قدر معبودك أن ينجيك من السباع. أجابه دانيال قائلاً: أيها الملك عِشْ خالداً إن إلهي بعث لي ملاكه وسدّ أفواه الأسد فلم تهلكني. فحسن موقع ذلك من الملك جدًّا وأخرج دانيال من الجب وألقى وشاته فيه مع نسائهم وبنيهم وذريتهم. فما استقرّوا في قرار الجبّ إلاّ ومزّقتهم الأسد ورضّت عظامهم رضاً.

وفي هذا الزمان اشتهر **فراخوديس مصنف القصص معلم فيثاغورس** .

(كورش الفارسي) ملك إحدى وثلاثين سنة واستولى على ملك العراق وخراسان وأرمينية والشام وفلسطين وغزا بلاد الهند وقتل ملكها. هذا كورش تزوّج أخت زوربابيل ابن شلاثيل بن يوياقيم ملك يهوذا. ولما دخل بها ارتفعت عنده وقال لها: اطلبي مني ما شئتِ. فطلبت منه عَود بني إسرائيل إلى أورشليم وأن يأذن لهم بعمارتها. فجمعهم كورش الملك وخيَّرهم قائلاً: من اختار الصعود فليصعد ومن أَباه فليقم. فكان عدد مؤثري الصعود خمسين ألفاً من الرجال غير النساء والأولاد. فحصل زوربابيل ملكهم ويشوع بن يوزاداق كاهنهم. وعنهما قال ملاك الرب لزخريا النبي: إن هَذين إبنا الدلال وهما يقومان بين يدي ربّ العالمين. فصعدت هذه الشرذمة من بني إسرائيل في السنة الأولى من ملك كورش إلى أورشليم وهُموا بعمارتها. ولأن الفلسطينيين مجاوريهم اعنتوهم كان تشييدهم الهيكل على التراخي في ستّ وأربعين سنة كما قال يوحنا الإنجيلي. ولاختلاط كورش بنسل داود قال عنه اشعيا النبي قبل ولاده: قال الله لمسيحه كورش الذي عضدت بيمينه. وعظم كورش أيضاً شأن دانيال وفوّض إليه سياسة ملكه. فغار لله غيرة وكسر الصنم المسمّى بيل وقتل التنين معبود البابليّين. فمُقت ورُمي في جب فيه سبعة أُسود ونجا منها وهلك مبغضوه. ثم رأى الرؤيا على نهر الفرات وعرّفه ملاك يالرب مدّة السنين التي بقيَ من السبي ومن ظهور السيد المسيح وآلامه وموته. ومات دانيال ودُفن في قصر شوشن أعني مدينة ششتر.

(قمباسوس بن كورش) ملك ثماني سنين. وفي أيامه كانت يهوديث المرأة العبرية التي احتالت على الفرنا الماجوجي صاحب جيش قمباسوس وقطعت رأسهي وأمّنت اليهود بأسه.

(زرادشت) وفي هذا الزمان كان زرادشت معلم المجوسية وأصله من بلد أذربيجان[1]. وقيل: من بلاد أثور. وقيل: إنه من تلامذة اليًا النبي. وهو عرَّف الفرس بظهور السيد المسيح

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٤١٣ (جاء زرادشت من بلخ).

وأمرهم بحمل القرابين إليه وأخبرهم أن في آخر الزمان بكراً تحبل بجنين من غير أن يمسها رجل وعند ولادته يظهر كوكب يضيء بالنهار ويرى في وسطه صورة صبية عذراء. وأنتم يا أولادي قبل كل الأمم تحسّون بظهوره. فإذا شاهدتم الكوكب امضوا حيث يهديكم واسجدوا لذلك المولود وقرّبوا قرابينكم فهو الكلمة مقيمة السماء.

(**داريوش بن بشتسب**): ملك ستاً وثلاثين سنة على رأي قليميدس وأوسابيوس واندرونيقوس. وفي السنة الأولى من ملكه بالقرب من نجاز بنيان هيكل الرب باورشليم أعني قبله بست سنين تمّت السبعون سنة التي للسبي كما أوحى الله إلى أرميا النبي أن تبقى الأمّة جالية ببابل. ويؤكد ذلك حجي وزخريا النبيّان بابتهالهما إلى الله قائلين: حتّامَ لا ترحم أورشليم وقد أتى على خرابها سبعون سنة. وذلك إذا عددناها مبتدئين من آخر ملك صدقيا وهي السنة الرابعة والعشرون من ملك بختنصّر التي فيها احترق الهيكل وخربت أورشليم وجُلي اليهود عن أوطانهم إلى بابل الجلاء الكلي. وأما أفريقيانوس فإنه يعدّها مبتدئاً من أول ملك صدقيا ليتم في أول ملك كورش عند إرساله الجماعة من بني إسرائيل إلى أورشليم وتقدمه إليهم بعمارتها.

وفي هذا الزمان توفي فيثاغورس الحكيم ابن خمس وتسعين سنة. هذا وجعل مبادىء الأكوان الأعداد بدليل أن المركبات مبايدئها البسائط. ولا أبسط من الأعداد إذ كل ما عداها يلزمه التركيب من إضافة العدد إليه. واشتهر في الفلسفة ديموقراطيس وهو القائل بانحلال الأجسام إلى أجزاء لا تتجزأ. وديوجانيس الكلبي وكان قد راض أصحابه رياضة فارق فيها اصطلاح أهل المدن من إطراح التكليف. وكان أحدهم يتغوط غير مستتر عن الناس . . . . . ويقول فيما يأتيه من ذلك: لا يخلو إما أن يكون ما يفعله قبيحاً على الإطلاق فلا يحسن في موضع دون موضع وعلى صورة دون صورة. وإن كان ممّا يحسن في موضع دون موضع وعلى صورة دون صورة فهذا أمر اصطلاحي فلا أقف معه. وكانوا يحبون من قرب منهم ويكرهون من بعد عنهم. فقال أهل زمانهم: هذه الأفعال تشبه أفعال الكلاب فسمّوهم الكبليّين.

ومن مشاهير هذا الزمان انكساغورس الطبيعي وفينذارس وسيموندس الموسيقيّان وفروطوغورس واسوقراطيس السفسطانيان واريسطوفنيس واقحاليس الشاعران الهاجيان.

وفي هذا الزمان أيضاً **عُرف ابقراط الطبيب**. هذا كان يسكن مدينة حمص ويتردد إلى مدينة دمشق ويأوي إلى بستان كان له فيها ومكانه معروف إلى يومنا هذا في واد هناك يسمّى النَّيرب. وكان رجلاً إلهياً يداوي المرضى مجاناً. وقد أحسن جالينوس في وصفه له حيث قال: إن جالينوس أدّبه الدرس وابقراط أدّبته الطبيعة. وقال أيضاً: إن ابقطراط انغمس في الطبيعة وسرى معها حتى انتهى إلى أعماقها وأخبر عمّا شاهد هناك. وله من الكتب كتاب أفوريسمون أي

الفصول وكتاب بروغنوسطيقون أي تقدمة المعرفة وكتاب أبيذيميا أي الأمراض الوافدة وكتاب ماء الشعير وكتاب الأخلاط وكتاب قسطرات أي كتاب المدن والماء والهواء وكتاب طبيعة الإنسان وكتاب شجاج الرأس وكتاب دياثيقي أي العهد.

ومن الحكماء المعاصرين لأبقراط فيليمون وكان عالماً في فنّ من فنون الطبيعة أعني الفراسة إذا رأى شخصاً استدلّ بتركيب أعضائه على أخلاقه. وله فيها كتاب عندنا نسخته بالسريانيّ. وحُكي أنه اجتمع تلاميذ أبقراط وقال بعضهم لبعض: هل تعلمون في زماننا هذا اعلم من هذا الرجل يعنون أبقراط. فقالوا: لا. فقالوا: نمتحن به فيليمون فيما يدَّعي من الفراسة. فصوروا صورة أبقراط ثم نهضوا إلى فيليمون. وكانت يونان تحكم الصورة بحيث تحكيها على الوجه في قليل أمرها وكثيرها لأنهم كانوا يعبدون الصور فأحكموا لذلك التصورَ ويظهر التقصير في التصوير من غيرهم ظهوراً بيّناً. فلما أنهم حضروا عند فيليمون وقف على الصورة وتأملها وأنعم النظر فيها ثم قال: هذا رجل يحب الزنا. وهو لا يدري من هو المصوَّر. فقالوا: كذبت هذه صورة أبقراط. فقال: لا بد لعلمي أن يصدق فاسألوه. فلما رجعوا إلى أبقراط وأخبروه الخبر قال: صدق فيليمون أحبّ الزنا ولكن أملك نفسي.

(احشيرش بن داريوش) ملك إحدى وعشرين سنة. وفي السنة الثانية من ملكه استولى على مصر. وبعد تسع سنين فتح مدينة اثيناسي وأحرقها. وقيل في زمانه كانت قضية استير العفيفة ومردخاي البارّ من أهل يهوذا وهذا القول غير سديد وإلا لما أهمل ذكرها في كتاب عزرا المستوعب جميع ما جرى لليهود في زمان هذا الملك. والصحيح أنها جرت في أيام ارطحششت المدبّر.

(ارطبانس) ملك سبعة أشهر معدودة مع سني احشيرش.

(ارطحششت الطويل اليدين) ويسمى أيضاً اريوخ. ملك إحدى وأربعين سنة. وفي سنة سبع من ملكه أمر عزرا الحبر وهو الذي تسميه العرب العُزَير أن يصعد إلى أورشليم ويجتهد في عمارتها. وفي سنة عشرين من ملكه أرسل نحميا الساقي الخصيّ أيضاً ليجد في ترميمها.

وفي هذا الزمان لم يكن لليهود نار قدس لأنهم رموها في بئر وقت جلائهم. فأتوا بحمأة منها ووضعوها على حطب القربان فاشتعلت بأمر الله بعد أن طفئت مائة سنة وأربعين سنة بالتقريب. ولما رأى عزرا المعجز استف من سفساف تلك البئر ثلاث سفّات فأعطي منحة روح القدس وأنطقه الله بجميع كتب الوحي وأعادها كما كانت.

(احشيرش الثاني) ويسمى اردشير. ملك شهرين. ثم قتله سغدينوس وملك بعده مدة يسيرة.

(سغدينوس) ملك سبعة أشهر وهي مع الشهرين المتقدمين معدودة مع سني اريوخ.

(داريوش نوثوش) أي ابن الأمَة. ملك تسع عشرة سنة. وفي سنة خمس عشرة من ملكه خلع المصريون ربقة طاعة الفرس من أعناقهم ونصبوا لهم ملكاً بعد مائة وأربع وعشرين سنة لتسلط الفرس عليهم.

(ارطحششت الثاني) المعروف بالمدبِّر واليونان يسمونه ارطاكسراكسيس. ملك أربعين سنة وتزوَّج باستير العبرية الصالحة وصلب هامان العملقي الذي زاول زوال الجالية من بني إسرائيل. وذلك بدعاء استير ومردخاي الصدّيق صاحبها. وفي سنة خمس عشرة من مملكة هذا ارطحششت أخرب أفريقيانوس قائد الافرنج مدينة قرخيذونيا وسُمي بلدها باسمه افريقية.

وفي هذا الزمان كان ميطن واقطمين وهما إمامان في علوم الفلك اجتمعا بالاسكندريَّة على أحكام آلات الأرصاد ورصدا ما أحبًا من الكواكب. وقيل إن بين زمانهما وبين بطليموس صاحب المجسطي خمسمائة سنة وسبعين سنة.

(ارطحششت الثالث) المعروف بالأسود. واليونان يسمونه اوخوس. ملك سبعاً وعشرين سنة واستعاد ملك مصر وهزم نقطابيوس ملكها وصار يسيح في بلاد اليونانيين بزيّ منجِّم لأنه كان ماهراً في علم الفلك وأسرار الحركات السماوية. وقيل إنه تلطف لمجامعة أُلُومفيذا امرأة فيليفوس ملك مقدونيا في تنجيمه لها. فحملت منه بالاسكندر ذي القرنين.

(ارسيس بن اوخس) ملك أربع سنين. وفي زمانه اشتهر سقراطيس الحكيم المتألِّه. هذازهد في الدنيا ومتاعها إلى حد أنه سكن الحبّ. وقيل له: إن انكسر الحبّ ماذا تعمل. فقال: إن انكسر الحب لم ينكسر مكانه. وكان يقول: حسن الظاهر تابع للحسن الباطن فيُستدل على حسن النفس بحسن البدن. ولأنه كان يختار للتعليم الأحداث الوسام نسبه الأثنيُّون إلى الفحشاء. ولكثرة تقييده الملك المشتهر بالفجور علم ابنيه انطوس وميليطوس الإفساد عليه وأماته مسموماً.

وبعد موت سقراط[1] صار الصيت لأفلاطون[2]. هذا كان شريف الوالدين نَسب إليه يرتقي إلى فوسيديون ونسب أمّه إلى سولون واضع النواميس للأثنيِّين. وقيل: إنه تميز في حداثته

---

(١) سقراط: ٤٦٩ـ ٣٩٦م فيلسوف يوناني من أثينا لم يترك أثراً مكتوباً لكن سجل حياته وتعاليمه تلميذة أفلاطون.

الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٢٤.

(٢) أفلاطون: حوالي ٤٢٧ق.م ـ ٣٤٧م فيلسوف يوناني تتلمذ على يد سقراط وله عدة مؤلفات / عبارة عن محاورات من أشهر مؤلفاته الجمهورية الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٢٤.

في علم الشعر. فلما رأس سقراط يهجن هذا الفن من جملة العلوم أحرق كتبه الشعرية وتلمذ له خمسين سنة ومنه اقتبس الحكمة الفيثاغورية وقال: إن المبادىء ثلاثة الإله والهيولي والصورة. واثبت وجود الأمثال النوعية في الخارج مجرَّدة عن الموادّ. وادَّعى تناسخ النفوس وإن وجودها قبل وجود الأبدان. وكان يأذن لمن عجز عن مكابدة العزوبة من تلامذته أن يشاركه النفر منهم في زوجة واحدة لما في ذلك من قلة المؤنة وكثرة المعونة. وقد عدّ له ثاون الاسكندريّ ثلاثة وثلاثين كتاباً. والموجود منها الآن كتاب فادنُ وكتاب طيماوس وكتاب النواميس وكتاب سياسة المدن. ومات وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة. وخلّف بستانين ومملوكين وكأساً واحداً وقرطاً كان معلَّقاً في شحمة أُذنه شعاراً بشرفه. وباقي ماله كان قد أخرجه على تزويج بنات أخيه. وكتب على قبره: ها هنا وُضع رجُل إلهي فاق الناس كلهم في العلم والعفة والنباهة والأخلاق العادلة. فكل مَن مدح الحكمة فقد مدحه إذ فيه أكثرها. وكتب في الجانب الآخر من التربة: يا أيتها الأرض وإن كنت مخفية جسد أفلاطون لكنَّك لا يمكنك الدنوّ من نفسه التي لا تموت. وتولَّى بعده مدرسته سفوسيفوس ابن عمه.

وفي هذا الزمان اشتهر في الطب روفس وتصدر للتعليم وله في ذلك تصانيف. إلاّ أنه كان ضعيف النظر مدخول الأدلّة ردّ على أكثر أقواله ارسطوطاليس في كتبه الطبيعيات. وردّ عليه جالينوس أيضاً مثل ذلك وأقاما الحجج الواضحة على غلطه. ولم تكن الصناعة تحققت في زمانه تحققها في زمان هَذين الفاضلين.

(داريوش بن ارشك) هو دارا بن دارا. ملك ست سنين[١]. ولما بلغه خروج الاسكندر بن فيليفوس اليوناني المقدونيّ جيَّش والتقاه في الشام. فانتصر اليونانيون على الفرس وانهزم داريوش طالباً الثغور. فأدركه الاسكندر عند مدينة إياس التي هي فرضة البحر ببلد قيليقيا وقتله وتزوَّج ابنته المسماة روشنك. وبطلت وقتئذ مملكة الفرس باستيلاء الاسكندر على الأرض.

وفي هذا الزمان اشتهر في الفلسفة ارسطوطاليس[٢] بن نيقوماخس الطبيب من قرية طاجيرا من أعمال مقدونيا. ونسبه من والديه يرتقي إلى اسقليبياذيس. وأخذ الحكمة من أفلاطون وهو ابن سبع عشرة سنة ولازمه عشرين سنة. وكان إذا لم يحضر في الدرس يقول أفلاطون: العقل لم يحضر. كأنّ الغافلين عن الحق صمٌّ هم عمًا هم سامعوه. وصار له منزلة عظيمة عند الملوك. وبرأيه كان يسوس الاسكندر ملكه ويتوجه إلى محاربة ملوك الأرض. وتفرّغ ارسطوطاليس لتصنيف الكتب المنطقية والحكمة العلمية والعملية. ويُسمَّى معلماً أولَ لا لأنه

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٤٢٢ (كان ملك دارا أربع عشرة سنة.
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص . أرسطاطاليس ح ١ ص ٢٢٤.

اخترع المنطق اختراعاً كما ظُنّ. لكن لأنه جمع أشتاته ورتبه ترتيباً كما قال حاكياً عن نفسه: إنه قد كان لنا في الصنائع المنطقية أصول مأخوذة ممّن سبقنا مستعملة في جزئيات برهانية مثلاً في الهندسة جدلية وخطابية في السؤال والجواب. وأما في صورة القياس وصورة قياس القياس فأمر قد كددنا في طلبه مدة من العمر حتى استنبطناه. وكان لا يفتر عن الدرس والمطالعة إلاّ عسى عند النوم. وكان إذا سُئل لا يبادر الجواب إلا بعد الفكر. ولا قصد في البحث إلا الحق دون الغلبة. وكان يقول في إبطاله التناسخ: أفلاطون صديق والحق أيضاً صديق فإذا لحظتهما كان اختياري وإكرامي للحق. وكان إذا شعر بتقصير من نفسه لم يستنكف من أن يدفعه. وكان معتدلاً في الملابس والمأكل والمشرب والمنكح والحركات. ومات وله ثمان وستون سنة. وخلّف إبناً وإبنة صغيرة وخلف مالاً كثيراً.

واعلم وفّقك الله أن الحكماء الذين نظروا في أصول الموجودات دهريّون وطبيعيّون وإلهيّون. فأما الدهريون فهم فرقة قدماء جحدوا الصانع المدبّر للعالم وقالوا إن العالم لم يزل موجوداً بنفسه لم يكن له صانع صنعه. والطبيعيون فهم قوم بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من الموجودات حيوان ونبات. وفحصوا عن خواص النبات وتركيب أعضاء الحيوانات فمجدوا الله وتحققوا بمخلوقاته أنه قادر حكيم عظيم. إلاّ أنهم رأوا أن النفس تهلك بهلاك الجسد وأن لا بقاء لها بعده. وأما الآلهيون فهم المتأخرون من حكماء يونان مثل سقراط وهو شيخ أفلاطون. وأفلاطون شيخ ارسطوطاليس. وارسطو هو مرتّب هذه العلوم ومحرّرها ومقرّر قواعدها ومزيّن فوائدها ومحمّر فطيرها ومنضّج قديرها وموضّح طرق الكلام وتحقيق قوانينه والرادّ على الدهرية والطبيعة والمندّد عليهم والقائم بإظهار فضائحهم. وهذّب كلام أفلاطون وسقراط وحقّقه ونمّقه ورتّبه فجاء كلامه أبضع كلام وأحكم معاني. وكل من نقل كلامه من اليوناني إلى لغة أخرى حرّف وجزّف وما أنصف. وأقرب الجماعة حالاً في تفهُّمه الفارابي وابن سينا فإنهما تحمّلا علمه على الوجه المقصود. واعذبا منه لوارد منهله المورود. وكان لأرسطو ابن أخ اسمه ثاوفريسطس وهو أحد تلاميذه الآخذين الحكمة عنه وهو الذي تصدّر بعده للإقراء بدار التعليم. وكان فهماً عالماً مقصوداً لهذا الشأن. وقرئت عليه كتب عمه وصنّف التصانيف الجليلة واستفيدت منه ونقلت عنه. فمنها كتاب الآثار العلوية وكتاب الأدب وكتاب ما بعد الطبيعة نقله من السرياني إلى العربي يحيى بن عدي. وكتاب الحسّ والمحسوس نقله أيضاً إبراهيم بن بكوس. وكتاب أسباب النبات نقله أيضاً إبراهيم المذكور. وأما نيقوماخس والد ارسطوطاليس فكان متطبباً لفيليفوس أبي الاسكندر وكان حكيماً فيثاغوريّ المذهب وله من التصانيف كتاب الأرثماطيقي وكتاب النغم.

الدَولةُ السَّادِسَة
المنتَقلة مِن مُلوك الفرس المجُوس
إلى ملوك اليونانيّين الوثنيّين

أما اليونانيون فكانوا أمّة عظيمة القدر في الأمم طائرة الذكر في الآفاق فخمة الملوك. منهم الاسكندر بن فيلفوس المقدوني الذي أجمع ملوك الأرض طراً على الطاعة لسلطانه. وكان من بعده من ملوك اليونانيين البطالسة دامت لهم الممالك وذلّت لهم الرقاب. ولم يزل ملكهم متصلاً إلى أن غلب عليهم الروم وهم الافرنج. وكانت بلاد اليونانيين في الربع الغربي الشمالي من الأرض. ويحدها من جهة الجنوب البحر الرومي ومن جهة الشمال بلاد اللان ومن جهة المغرب تخوم بلاد الأمانية ومن جهة المشرق بلاد أرمينية وباب الأبواب. ويتوسط بلاد اليونانيين الخليج المعترض ما بين بحر الروم وبحر نيطس الشمالي فيصير القسم الأعظم منها في حيّز المشرق والقسم الأصغر منها في حيّز المغرب. ولغة اليونانيين تسمّى الأطيقيّة وهي أوسع اللغات وأجلّها. وكانت عامة اليونانيين صابئة معظمة للكواكب دائنة بعبادة الأصنام. والفلاسفة منهم من أرفع الناس طبقة وأجلّ أهل العلم منزلة لما ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضية والمنطقية والمعارف الطبيعية والإلهية والسياسات المنزلية.

(الاسكندر بن فيليفوس[1]): ملك ست سنين بعد قتله داريوش. وكان قد ملك قبل ذلك ستاً أخرى. وفتح بلاداً كثيرة حتى بلغ ملكه إلى أقصى الهند وأوائل حدود الصين. وسُمّي ذا القرنين لبلوغه قرنَي الشمس وهما المشرق والمغرب. وقَتل خمسةً وثلاثين ملكاً وبنى اثنتي عشرة مدينة منها اثنتان في بلد خراسان وهما هراة ومرو. وواحدة في بلد السغد وهي سمرقند. وأخرى في بلد القبط وهي الاسكندرية. وفي عودته من الهند ووصوله إلى بابل مات[2] مسموماً ووضع في تابوت ذهب وحُمل على أكتاف الملوك والأشراف إلى اسكندرية القبط ودُفن بها. وكان لما

---

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢١٤ (الاسكندر المعني هنا هو الإسكندر الأكبر الاسكندر الثالث ٣٥٦ـ ٣٢٣ق.م. ملك مقدونيا).

(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢١٤ في سنة ٣٢٣ أصيب بالحمى ومات وعمره ٣٣ سنة.

احتُضر أمر أن يكتب إلى أمّه بالتعزية وأن تتخذ طعاماً وتأمر أن لا يدخل إليه إلاّ من لم تصبه مصيبة. ففعلت كذلك فرجع جميع الخلق وحسُن بذلك عزاؤها. وبعد موت الاسكندر تقاسم الممالك أربعة من عبيده وهم بطليموس بن لاغوس واريذاوس وانطيوخوس وسلوقوس.

سئل الاسكندر بناء السدّ سدّ يأجوج فبناه بحجارة الحديد والنحاس وأضرم عليه صخراً واحداً طوله إثنا عشر ذراعاً وعرضه ثمانية أذرع. ولما فرغ من بناء سد يأجوج جاء إلى موضع السد الأعظم وهو المكان الذي يعرف بالباب والأبواب في مروج بلدان القفجان فحفر موضع الأساس ومدّه في الجبال حتى ألحقه بحر الروم. فلم تزل ملوك فارس في طلب هذا الأساس فتجشموا معرّة في الترك والخزر من بلاد العراق والجبل واذربيجان وأرّان وارمينية حتى وجد الأساس يزدجرد بن بهرام جور بن يزدجرد ابن سابور. فابتدأ ببناء السد من حجارة ونحاس ورصاص ولم يتمّمه. وكان أكثر همّ ملوك الفرس بعده في بنائه فما اتفق لهم الفراغ منه حتى سهل الله ذلك على يدي كسرى أنوشروان فأحكم بناءه وأصله برؤوس الجبال ثم مدّه في البحر على ميل ثم غلق عليه أبواب الحديد وأقام على بنائه سنة وأكثر. فصار يحرسه مائة رجل بعد أن لم تكن تطيقه مائة ألف رجل من الجند. وأذن للمرزبان الذي يقيم هناك بالجلوس على سرير الذهب ولذلك يسمّى ملك تلك الناحية ملك السرير.

وفي زمان الاسكندر كان اندروماخس الطبيب الذي زاد في معجون المثروديطوس لحوم الأفاعي فصار نافعاً من نهوشها.

(بطلميوس بن لاغوس) أي ابن الأرنب. ولي مصر وجميع أرض القبط والنوبة أربعين سنة[1]. ومنه سمّوا ملوك مصر البطالسة. وهو جلا اليهود إلى مصر في أيام حونيا رئيس الكهنة. وحصل لاريذاوس وهو فيليبوس المذكور في السونطاكسيس أي المجسطي مقدونيا وجميع بلاد اليونانيين. ولانطيوخس سوطير أي المخلص انطاكية وجميع بلاد الشام. وبعد اثنتي عشرة سنة من موت الاسكندر حصل لسلوقوس المسمّى نيقاطور أي القاهر مُلك بابل وكل العراق وخراسان إلى الهند. ومن أول ولايته يبتدىء هذا التاريخ المعروف بتاريخ الاسكندر وهو الذي يورّخ به السريان والعبريون. ومن آدم إلى أول هذا التاريخ على رأي ثاوفيل الرهاوي خمسة آلاف ومائة وسبع وتسعون سنة. فإذا زدنا على سني الاسكندر التامة أعني سني سلوقوس هذا المبلغ وعلى الشهور التامة من السنة المنكسرة التي أولها تشرين الأول شهراً واحداً حصل لنا سنون تامة وشهور من السنة المنكسرة التي أولها شهر أيلول وبهذا التاريخ يؤرّخ الروم في زماننا هذا.

(١) في الكامل ح ١ ص ٢٢٣ (وكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة).

(بطلميوس فيلاذلفوس) أي مُحب أخيه. ملك[١] ثماني وثلاثين سنة. وفي زمانه خلع الأرمن طاعة ملوك اليونان ونصبوا لهم ملكاً ارشك. ومن هنا سمّوا ارشكونية. ولما ملك هذا بطلميوس حُبّب إليه العلم والعلماء وسمع أن في السند والهند وفارس وجرجان وبابل وأثور فنوناً من الحكمة غير التي عند اليونان فتقدم إلى وزيره بالاجتهاد في جمع كتب هذه الأمم وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب التجار في جلبها. ففعل ذلك فاجتمع من ذلك في مدة قريبة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً. فلما علم الملك باجتماعها قال لوزيره: أترى بقي في الدنيا شيء من كتب العلوم لم يكن عندنا. فقال له الوزير: بقي عند اليهود كتب إلهيّة أوحى الله بها إلى الأنبياء فنطقوا بها. فأمر أن يجدّ في طلبها. فأطلق سبيل جالية اليهود وطلب من اليعازر رئيس الكهنة أن يسيِّر إليه جماعة من أحبار اليهود المتبحّرين في لغتي العبريين واليونانيين لينقلوا له كتب الوحي من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية. فأرسل إليه اثنين وسبعين حبراً ذوي مهارة في النقل من كل سبط ستاً. فرتب الملك كل اثنين منهم في بيت في جزيرة فوروا وأمرهم أن ينقل كل اثنين منهم كلّ واحد واحد من الكتب الإلهية. وعند الفراغ قولبت النسخ الستة والثلاثون فوجدت مطابقة لم تتخالف لفظاً ولا معنى فاعتمد على صحة النقل. وهذا النقل السبعينيّ هو المعتبر عند علمائنا وهو الذي بأيدي الروم وباقي فِرَق النصارى خلا السريان وخصوصاً المشارقة فإن نسختهم المسماة بسيطة لترك البلاغة في نقلها تطابق نسخة اليهود. وأما المغاربة فلهم النقلان البسيط المنقول من العبري إلى السرياني بعد مجيء السيد المسيح في زمان ادي السليح. وقيل قبله في زمان سليمان بن داود وحيرم صاحب صور. والسبعيني المنقول من اليوناني إلى السرياني بعد ظهور المخلص بزمان طويل.

وفي هذا الزمان كان طيموخاريس الحكيم الرياضي. وكان عالماً بهيئة الفلك وصناعة آلات الأرصاد. وقد ذكر بطلميوس الحكيم في المجسطي أن وقته كان متقدماً لوقته بأربع مائة وعشرين سنة.

(بطلميوس[٢] اورغاطيس) أي الصانع ملك ستاً[٣] وعشرين سنة. وفي زمانه بنيت قرقيسياء وقالونقوس وهي الرقّة. وحونيا رئيس كهنة اليهود منع الجزية التي كان يعطيها لملوك مصر. فغضب اورغاطيس وهم باستئصال اليهود. فأرسل إليه يوسيفوس الحكيم العبري وهادنه فتهادنت أمور اليهود.

(١) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٢٣ (كان ملكه أربعين سنة).
(٢) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٢٣ ذكر بعض العلماء أن بطليموس كان أيام ملوك الروم.
(٣) في الكامل ح ١ ص ٢٢٣ أربعاً وعشرين سنة.

(بطلميوس فيليفاطور[١]) أي محب أبيه. ملك سبع عشرة[٢] سنة واضطهد اليهود. وفي آخر ولايته قهره انطيوخس الكبير صاحب الشام. وهذا أيضاً اعتسف اليهود وعنف عليهم وجرت الوقائع المذكورة في القصة الأولى من كتاب المقبانيين.

(بطلميوس افيفانوس[٣]) أي المظهَر. ملك إحدى[٤] وعشرين سنة وأرسل جيشاً مع اسقافوس قائده إلى بلد يهوذا والشام. فحاربه انطيوخس الكبير وانتصر عليه وهزمه واستولى على مدن كثيرة كانت للمصريين. وحينئذ أخلص له اليهود في الطاعة فأحسن إليهم ورصف الحجارة في الطرق المؤدية إلى انطاكية وعقد القناطر على أكثر أنهار الشام. وفي سنة إحدى عشرة من ملك هذا انطيوخس قهره الافرنج وكان يعطيهم الجزية كل سنة ألف قنطار ذهباً وسلم إليهم ولده رهينة. وصالح أيضاً بطلميوس افيفانوس وتزوج ابنته قلاوفطرا. ثم مات وقام بعده ابنه المسمى باسمه انطيوخس وهو الصغير الملقب بأفيفانوس وهو لقب صاحب مصر. هذا وردَّ البيت المقدس ونجس الهيكل بنصبه صنم زاوس وهو المشتري فيه. وألزم اليعازر الكاهن أن يضحّي للصنم الأضحية. ولأنه أبى أماته بالعقاب. ثم سُعي إليه بامرأة اسمها اشموني مع سبعة بنيها أنهم يسبّون الأصنام. فأحضرهم بين يديه وأمر بقطع لسان الأول وأطراف جميع أعضائه وألقائه في الطاجن وسلخ جلدة رأس الثاني. وكذلك أمات الباقين وبعدهم أمهم بأنواع العذاب. ودُفنوا في أورشليم. ثم بعد مجيء المخلص نقل مؤمنوا النصارى أجسادهم إلى مدينة انطاكية وبنوا عليهم كنيسة.

(بطلميوس فيلوميطور) أي محب أمّه. ملك خمساً وثلاثين سنة. وفي السنة السادسة عشرة من ملكه مات انطيوخس الصغير غازياً بالفرس. وملك بعده انطيوخس أوفاطور سنتين واضطهد اليهود اضطهاداً شديداً وولي اليهود يهوذا المقبي وجمع بين الملك والكهنوت ونفى نوّاب انطيوخس من أرض يهوذا وطهّر الهيكل وصار اليهود يحاربون ملوك الروم.

وفي هذا الزمان بنى حونيا رئيس كهنة اليهود هيكلاً بأرض مصر كالذي بأورشليم. وبعد أوفاطور ولي الشام ديميطريوس سوطير وهو ابن سلوقوس. وملك اثنتي عشرة سنة ثم قتله الاسكندروس وقام بعده عشر سنين وأطاعه فيلوميطور صاحب مصر وزوجه ابنته قلاوفطرا. وتمّت نبوءة دانيال حيث قال: إبنة ملك التيمن تعطى لملك الجربياء. وقيل بالأخرى التي تزوجها انطيوخس الكبير تمّت هذه النبوءة.

---

(١) في الكامل ح ١ ص ٢٢٣ فيلا فطر.
(٢) في الكامل ح ١ ص ٢٢٣ (إحدى وعشرين سنة).
(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ أبيفانس ص ٢٢٣.
(٤) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٢٣ (أثنين وعشرين سنة).

(بطلميوس أورغاطيس الثاني) ويعرف بابن الهشيم. ملك تسعاً وعشرين سنة. وفي السنة الثالثة من ملكه مات الاسكندروس. وولي الشام بعده ديميطريوس الثاني ثلاث سنين ثم خُلع وولي مكانه انطيوخس سيذيطوس سبع سنين ومات. وعاد ديميطريوس إلى الملك أربع سنين. ثم مات وقام بعده انطيوخس اغريباس اثنتي عشرة سنة وحاصر أورشليم في ولاية هورقانس الملك الكاهن. ولأنه ضيّق عليها فتح هرقانوس قبر داود النبي ووجد فيه ثلاثة آلاف قنطار من الذهب كان قد خزنها القدماء هناك. فأعطى منها ثلثمائة قنطار لاغريباس فرحل عنه. وفي هذا الزمان أخرب هورقانس مدينة شمرين وهي نابلس وعصى جماعة من العبيد بجزيرة سقليا فحوصروا في بعض مدنها حتى أكل بعضهم بعضاً.

(بطلميوس فيسقوس) ويُسمّى أيضاً سوطير[1]. ملك سبع عشرة سنة. وفي السنة الرابعة من ملكه ولي الشام انطيوخس قوزيقوس ثماني عشرة سنة. وفي السنة الحادية عشرة من ملك سوطير مات هورقانس ملك اليهود. وقام بعده اريسطابولس بن يونثان سنة واحدة متتوّجاً. ثم اغتاله أخوه انطيغونيس واغتيل من يوحنا أخيه الآخر الذي سُمّي الاسكندر وولي سبعاً وعشرين سنة وكان ذا بأس. وأما بطلميوس فيسقوس فعزلته أمه قلاوفطرا وفرّ منها إلى جزيرة قبرس.

وفي هذا الزمان اشتهر ديسقوريدوس وهو حكيم فاضل حشائشيّ من أهل مدينة عين زربة. قال جالينوس: تصفحت أربعة عشر مصحفاً في الأدوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب ديسقوريدوس. ويحيى النحوي الاسكندري يمدحه في كتابه في التاريخ ويقول: تقدمة الأنفس صاحب النفس الزكية النافع للناس المنفعة الجليلة المنعوت المنصوب السائح في البلاد المقتبس العلوم والأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار والمصوّر لها.

وقد جاء في كتاب المجسطي أن بين رصَدَي ايبرخس وبطلميوس للاستواء الربيعي مائتين وخمساً وثمانين سنة. وهذا يدل على أنه كان معاصراً لديسقوريدوس. وفاق المتقدمين والمتقدمين والمتأخرين وعلاهم بعلم الأرصاد. ومن كتبه أخذ بطلميوس القلوذي وعلى أرصاده بنى. ولم يصل إلينا من كتبه سوى كتاب واحد في أسرار الكواكب ومنه يُعرف تحدّد الممالك في العالم.

(بطلميوس الاكسندروس) هو أخو فيسقوس الفارّ إلى قبرس. ملك عشر سنين. وفي السنة الرابعة من ملكه ظفر بقوزيقوس ملك الشام وأحرقه بالنار حيًّا وولي في الشام سنة واحدة. ثم قام بالشام ملكاً فيليفوس سنتين ورذلته الرعية بسبب إعانته على هلاك قوزيقوس. ودخل الشاميون في طاعة ملوك رومية قبل أن يسمّوا قياصرة ولم يدخلوا في طاعة البطالسة نفوراً منهم بما فعلوا بملكهم قوزيقوس.

---

(١) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٢٣ (ساطر).

(بطلميوس فيسقوس) هو المسمّى سوطير هذا عاد من قبرس إلى مصر ونازع أخاه الاكسندروس فاعتقله وملك بعده ثماني سنين أخرى. ثم مات وأقيم بعده ذيانوسيوس ابنه.

(بطلميوس ذيانوسيوس) ملك ثلاثين سنة. وفي سنة خمس من ملكه مات يوحنا الاسكندر ملك اليهود وخلف ولدين هورقانس واريسطابولوس مسمَّيين باسمَي عمَّيهما. وكانت أمهما سلينا أي القمر ذات سطْو. فنصَّبت هورقانس ابنها رئيس الكهنة واريسطابولوس ابنها الآخر ملكاً. وبعد قليل جلاه بومبيوس قائد جيش قيصر إلى رومية واستقام هورقانس أخوه ملكاً لليهود أربعاً وثلاثين سنة.

(قلاوفطرا) ابنة ذيانوسيوس ملكت اثنتين وعشرين سنة. وفي سنة ثلاث من ملكها ولي رومية الكبرى غابيوس الملقب يوليوس وهو أول من دُعي قيصراً وتأويله السليل. وإنما سُمّي بذلك لأن أمّه وهي حامل به ماتت حين ولدت فشقّوا احشاءها وسلّوه منها. ثم صار هذا الإسم نبزاً لكل من ولي رومية. وسُمّي شهر تمّوز يوليوس باسمه وكان يُسمّى أولاً قنطاليس. وبعد أربع سنين مات. وقام بعده اغوسطس قيصر ستاً وخمسين سنة. وفي سنة ست من ملك اغوسطس سُبي هورقانس ملك اليهود إلى فارس ووليهم هيروذيس بن انطيفطروس العسقلانيّ من قبل قيصر وهدم سورَي أورشليم واحتجز على تركة الكهنوت ولم يترك أحداً يتولى رئاسة الكهنة إلا سنة واحدة. وفي السنة الثالثة عشرة من ملك اغوسطس تمرد عليه انطونيوس قائد جيشه وانهزم منه إلى مصر بسبب عشقه قلاوفطرا الملكة. فسار نحوه اغوسطس وأسر ولدَي قلاوفطرا المسمى أحدهما شمساً والآخر قمراً وقتلهما. ولما سمع انطونيوس وقلاوفطرا بقتل الولدين وكانا محاصرين في بعض الحصون شربا سمًّا وماتا.

وكان في آخر مملكة البطالسة فطون الفيلسوف ذو باسطة في نوعي العدد والمساحة وله كتاب في الحساب إلى قلاوفطرا الملكة. وقلاوفطرا هذه كانت حكيمة تنصف الكتب في أنواع الحكمة ولها القانون المنسوب إليها المختصر وهو قانون مبسوط سهل قريب المأخذ ويقال إنه من تصانيف فطون لها ونحلها إياه فادّعته. والله اعلم.

الدَولةُ السَابِعَة
المنتَقِلة مِن اليُونانِيّين الوثنِيّين
إلى مُلوكِ الإفرَنج

الروم هم الافرنج بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين ولغتهم مخالفة للغتهم. فلغة اليونانيين الأطيقية ولغة الروم اللاطينية. وحدّ بلاد الروم من جهة الجنوب البحر الرومي الممتدّ طولاً في المغرب إلى المشرق ما بين طنجة إلى الشام. وحدها من جهة الشمال بعض ممالك الأمم الشمالية من الروس وغيرها. وحدّها من جهة المشرق تخوم بلاد اليونانيين. وحدّها من جهة المغرب إلى أقصى الأندلس البحر المغربي المحيط المعروف باوقيانوس. وهذه المملكة ثلاثة قطع أولها من جهة المشرق بلاد الأمانيّة ثم وسطها بلاد افرنسة ثم آخرها بلاد الأندلس. وقاعدة هذه المملكة كلها كانت مدينة رومية العظمى من بلاد الأمانيّة إلى أن تغلّب أغوسطس أول القياصرة على ملوك اليونانيين وأضاف إلى مملكتهم مملكته فصارت مملكة واحدة روميّة عظيمة الشأن كما فعلت الفرس بمملكة الكلدانيين حتى استولت عليها وصيّرت المملكتين مملكة واحدة فارسية. وصارت رومية قاعدة هاتين المملكتين إلى أن قام قسطنطينوس بن هيلاني بدين المسيح ورفض دين الصابئة وبنى مدينة بوزنطيا وعظّمها وسماها باسمه القسطنطينية واستوطنها فصارت حينئذ قاعدة ملك الروم إلى سنة ألف ومائتين واثنتين وستين للاسكندر حتى قوي العامل على رومية وكثرت جموعه التاج وسمي ملكاً بكافة ملك قسطنطينية ورضي بسلمه وتميّزت مذ ذاك مملكة اللاطينيين من مملكة الاطيقيين من جهة مغاربها. وبعدت أعمالهم من أعمال رومية بمن توسط بينهما من فرق الترك المخيّمة هنالك والمخربة لكثير من عمائرها. فلا يصل أحد اليوم من القسطنطينية إلى رومية إلا في البحر. وكان للروم بمدينة رومية وغيرها علماء بأنواع الفلسفة إلا أن لليونانيين من المزية في ذلك والفضل ما لا ينكره الروميون ولا سواهم.

(اغوسطس قيصر) ملك ستاً وخمسين سنة. وباسمه سمي شهر آب اغوسطس وكان يسمى أولاً سجاسطيلوس. وفي أيامه جدّد هيروذيس مدينة نابلس وعظم قصر اسطراطون وسمّاها قيصرية وهي المعروفة بفيليبوس. وبنى أيضاً مدينة جبلة.

وفي السنة الثالثة والأربعين من ملك اغوسطس قيصر وهي سنة تسع وثلثمائة من تأريخ

(بطلميوس فيسقوس) هو المسمّى سوطير هذا عاد من قبرس إلى مصر ونازع أخاه الاكسندروس فاعتقله وملك بعده ثماني سنين أخرى. ثم مات وأقيم بعده ذيانوسيوس ابنه.

(بطلميوس ذيانوسيوس) ملك ثلاثين سنة. وفي سنة خمس من ملكه مات يوحنا الاسكندر ملك اليهود وخلف ولدين هورقانس واريسطابولوس مسمَّيين باسمَي عمَّيهما. وكانت أمهما سلينا أي القمر ذات سطْو. فنصَّبت هورقانس ابنها رئيس الكهنة واريسطابولوس ابنها الآخر ملكاً. وبعد قليل جلاه بومبيوس قائد جيش قيصر إلى رومية واستقام هورقانس أخوه ملكاً لليهود أربعاً وثلاثين سنة.

(قلاوفطرا) ابنة ذيانوسيوس ملكت اثنتين وعشرين سنة. وفي سنة ثلاث من ملكها ولي رومية الكبرى غابيوس الملقب يوليوس وهو أول من دُعي قيصراً وتأويله السليل. وإنما سُمّي بذلك لأن أمّه وهي حامل به ماتت حين ولدت فشقّوا احشاءها وسلّوه منها. ثم صار هذا الإسم نبزاً لكل من ولي رومية. وسُمّي شهر تمّوز يوليوس باسمه وكان يُسمّى أولاً قنطاليس. وبعد أربع سنين مات. وقام بعده اغوسطس قيصر ستاً وخمسين سنة. وفي سنة ست من ملك اغوسطس سُبي هورقانس ملك اليهود إلى فارس ووليهم هيروذيس بن انطيفطروس العسقلانيّ من قبل قيصر وهدم سورَي أورشليم واحتجز على تركة الكهنوت ولم يترك أحداً يتولى رئاسة الكهنة إلا سنة واحدة. وفي السنة الثالثة عشرة من ملك اغوسطس تمرد عليه انطونيوس قائد جيشه وانهزم منه إلى مصر بسبب عشقه قلاوفطرا الملكة. فسار نحوه اغوسطس وأسر ولدَي قلاوفطرا المسمى أحدهما شمساً والآخر قمراً وقتلهما. ولما سمع انطونيوس وقلاوفطرا بقتل الولدين وكانا محاصرين في بعض الحصون شربا سمًّا وماتا.

وكان في آخر مملكة البطالسة فطون الفيلسوف ذو باسطة في نوعي العدد والمساحة وله كتاب في الحساب إلى قلاوفطرا الملكة. وقلاوفطرا هذه كانت حكيمة تنصف الكتب في أنواع الحكمة ولها القانون المنسوب إليها المختصر وهو قانون مبسوط سهل قريب المأخذ ويقال إنه من تصانيف فطون لها ونحلها إياه فادّعته. والله اعلم.

الدَولةُ السَابِعَة
المنتَقِلة مِن اليُونانِيّين الوثنِيّين
إلى مُلوكِ الإفرَنج

الروم هم الافرنج بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين ولغتهم مخالفة للغتهم. فلغة اليونانيين الأطيقية ولغة الروم اللاطينية. وحدّ بلاد الروم من جهة الجنوب البحر الرومي الممتدّ طولاً في المغرب إلى المشرق ما بين طنجة إلى الشام. وحدها من جهة الشمال بعض ممالك الأمم الشمالية من الروس وغيرها. وحدّها من جهة المشرق تخوم بلاد اليونانيين. وحدّها من جهة المغرب إلى أقصى الأندلس البحر المغربي المحيط المعروف باوقيانوس. وهذه المملكة ثلاثة قطع أولها من جهة المشرق بلاد الأمانيّة ثم وسطها بلاد افرنسة ثم آخرها بلاد الأندلس. وقاعدة هذه المملكة كلها كانت مدينة رومية العظمى من بلاد الأمانيّة إلى أن تغلّب أغوسطس أول القياصرة على ملوك اليونانيين وأضاف إلى مملكتهم مملكته فصارت مملكة واحدة روميّة عظيمة الشأن كما فعلت الفرس بمملكة الكلدانيين حتى استولت عليها وصيّرت المملكتين مملكة واحدة فارسية. وصارت رومية قاعدة هاتين المملكتين إلى أن قام قسطنطينوس بن هيلاني بدين المسيح ورفض دين الصابئة وبنى مدينة بوزنطيا وعظّمها وسماها باسمه القسطنطينية واستوطنها فصارت حينئذ قاعدة ملك الروم إلى سنة ألف ومائتين واثنتين وستين للاسكندر حتى قوي العامل على رومية وكثرت جموعه التاج وسمي ملكاً بكافة ملك قسطنطينية ورضي بسلمه وتميّزت مذ ذاك مملكة اللاطينيين من مملكة الاطيقيين من جهة مغاربها. وبعدت أعمالهم من أعمال رومية بمن توسط بينهما من فرق الترك المخيّمة هنالك والمخربة لكثير من عمائرها. فلا يصل أحد اليوم من القسطنطينية إلى رومية إلا في البحر. وكان للروم بمدينة رومية وغيرها علماء بأنواع الفلسفة إلا أن لليونانيين من المزية في ذلك والفضل ما لا ينكره الروميون ولا سواهم.

(**اغوسطس قيصر**) ملك ستاً وخمسين سنة. وباسمه سمي شهر آب اغوسطس وكان يسمى أولاً سجاسطيلوس. وفي أيامه جدّد هيروذيس مدينة نابلس وعظم قصر اسطراطون وسمّاها قيصرية وهي المعروفة بفيليبوس. وبنى أيضاً مدينة جبلة.

وفي السنة الثالثة والأربعين من ملك اغوسطس قيصر وهي سنة تسع وثلثمائة من تأريخ

الاسكندر وُلد السيد المسيح من مريم العذراء ليلة الثلاثاء في الخامس والعشرين من كانون الأول. وفي تلك السنة كان قد أرسل قيصر الملك قورينوس القاضي مع أصحاب الجزية إلى أورشليم. فصعد يوسف خطيب مريم من الناصرة مدينته إلى أورشليم ليثبت اسمه. وعند موافاتهم قرية بيت لحم وَلدت مريم. وأتى المجوس بألطافهم من المشرق فأهدوها إلى المسيح وهي ذهب ومر ولبان. وكانوا قد مروا أولاً بهيروذيس وسألهم عن أمرهم. فقالوا له: إن عظيماً كان لنا وهو قد أنبأنا بكتاب وضعه ذاكراً فيه: سيولد في فلسطين مولود أصله من السماء ويتعبد له أكثر العالم. وآية ظهوره أنكم ترون نجماً غريباً وهو يهديكم إلى حيث هو. فإذا رأيتموه فاحملوا ذهباً ومرًا ولباناً وانطلقوا إليه وألطفوه بها واسجدوا له وانصرفوا لئلاّ ينالكم بلاء عظيم. والآن قد ظهر لنا النجم وأتينا لنتمّ ما أمرنا به. فقال لهم هيروذيس: قد اصبتم الرأي فانطلقوا وابحثوا عن الصبي نعّما. فإذا وجدتموه فأعلموني لأنطلق أنا أيضاً فأسجد له. فمضوا ولم يعودوا إليه. فغضب غضباً شديداً وأمر بذبح جميع أطفال بيت لحم من ابن سنتين وما دون لعدم علمه بوقت ولادة المخلّص. وكانت مريم يومئذ ابنة ثلاث عشرة سنة وعمّرت إحدى وخمسين سنة. وكتب اوتغنيوس الفيلسوف إلى قيصر يعلمه عن مجيء المجوس قائلاً في رسالته: أن فرس المشرق دخلوا سلطانك وقرّبوا القرابين لصبي وُلد بأرض يهوذا. فأمّا من هو وابن من هو فلم يبلغنا بعد. فأجابه قيصر: إن هيروذيس عاملنا على اليهود هو يعلمنا ما أمر هذا المولود وقَضيته. وكتب قيصر إلى هيروذيس يستعلمه الخبر. فكتب إليه وعرفه قول المجوس له وأنه ذبح أطفال بيت لحم أجمعين ليكون قد أتى على نفس الصبي معهم. وفي تلك الليلة التي أتت المجوس هرب يوسف مع مريم والمولود إلى مصر ولبثوا بها سنتين. ولما بلغهم موت هيروذيس عادوا إلى الناصرة مدينتهم. وقبل أن يموت هيروذيس قتل امرأته مريم التي كانت ابنة يوحنا الاسكندر ملك اليهود وأخاها وأمها وبالجملة كل من وجد من نسل الملوك. ثم حدث له استسقاء زقيّ ونقرس شديد وبقي في عذاب أليم مدة سنتين ثم مات. وولي مكانه ارخيلاوس ابنه تسع سنين. ثم اعتقله اغوسطس وجعل ملك اليهود ارباعاً وولىّ في الثلاثة الأرباع ثلاثة من أخوة ارخيلاوس وهم هيروذيس وانطيفطرس وفيليفوس. وفي الربع الرابع لوسانيا.

(طيباريوس قيصر) ملك[1] اثنتين وعشرين سنة. وفي السنة الأولى من ملكه عرضت زلزلة عظيمة وسقط فيها مواضع كثيرة ومات خلق من الناس والمواشي. وفي السنة السابعة بنى هيروذيس بن هيروذيس مدينة طبريّة على اسم طيباريوس الملك. وفي السنة الرابعة عشرة ولي فيلاطوس القضاء على اليهود ونصب تمثال قيصر في الهيكل واضطرب لذلك اليهود. وبعد ثلاث

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٩ وكان ملك طيباريوس ثلاثاً وعشرين سنة.

سنين اعتمد المسيح من يوحنا بن زكريا يوم الأربعاء وقيل: يوم الأحد لستّ خلَون من كانون الأخيرة. وكان ابن ثلاثين سنة. ومن ها هنا بدأ بإظهار الآيات الباهرة وإفشاء سر ملكوت الله والحث على العمل بسنّة الفضيلة فضلاً عن سنّة العدالة. وفي السنة التاسعة عشرة من ملك طيباريوس وهي سنة ثلثمائة واثنتين وأربعين من تاريخ الاسكندر أرسل ابجر ملك الرّها[1] فيجاً اسمه حنان إلى المسيح بكتاب يقول فيه: من ابجر الأسود إلى ايشوع المتطبب الظاهر بأورشليم. أمّا بعد فإنه بلغني عنك وعن طبّك الروحاني وأنّك تبرىء الأسقام من غير أدوية فحدست أنك أمّا إلاه نزلت من السماء أو ابن الإله. فأنا أسألك أن تصير إليَّ لعلّك تشفي ما بين من السقم. وقد بلغني أن اليهود يرومون قتلك. ولي مدينة واحدة نزهة وهي تكفيني وإياك نسكن فيها في هدو. والسلام. فأجابه المسيح بكتاب قائلاً: طوباك أنك آمنت بي ولم ترني. وأما ما سألتني من المصير إليك فإنه يجب أن أتمم ما أُرسلت له واصعد إلى أبي. ثم أرسل إليك تلميذاً لي يبرىء سقمك ويمنحك ومن معك حياة الأبد. فلما أخذ حنان الجواب من المسيح جعل ينظر إليه ويصوّر صورته في منديل لأنه كان مصوراً وأتى به إلى الرّها ودفعه إلى ابجر الأسود. وقيل إن المسيح تمندل بذلك المنديل ماسحاً به وجهه فانتقشت فيه صورته. وبعد صعود المسيح إلى السماء أرسل أدي السِلّيح أحد الاثنين والسبعين إلى الرّها وابرأه من سقامه.

وفي هذه السنة تمّت الأربعمائة والتسعون سنة التي أوحى الله إلى دانيال النبي أن سبعين اسبوعاً تطمئنُّ أمّتك ثم يأتي الملك المسيح ويُقتَل. وهذا إذا ابتدأنا بتعديدها من آخر سنة عشرين لملك ارطحششت الطويل اليدين وهي السنة التي أُرسل فيها نحميا الساقي إلى أورشليم وجدّد العهد بتقريب القرابين وكتب عزرا كتب الوحي. وفي هذه السنة أعني التاسعة عشرة من ملك طيباريوس قيصر صُلب المسيح يوم الجمعة في الثالث والشعرين من آذار وكان فصح اليهود يوم السبت وإنما أكله المسيح مع تلاميذه ليلة الجمعة لتعذر إتمامه في وقته بسبب صلبه نهار الجمعة. وكان الصعود يوم الخميس لثلاث خلون من أيّار. وصار الفنطيقوسطي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من أيّار.

وفي هذا اليوم سمع كهنة اليهود من داخل الهيكل صوت هاتف يهتف بهم قائلاً: قد ازمعنا على الانتقال من ها هنا. فراعهم ذلك جداً.

فمن بدء العالم إلى مجيء المسيح بمقتضى التوراة التي بأيدي اليهود أربعة آلاف ومائتان وعشر سنين بالتقريب. وبمقتضى التوراة السبعينية التي بأيدي الروم وسائر فرق النصرانية خلا السريان خمسة آلاف وخمسمائة وست وثمانون سنة بالتقريب. ينقص التاريخ الأول من الثاني ألف

(١) الرّها: مدينة مشهورة في الجزيرة.

وثلثمائة وخمس وسبعون سنة. وهذا النقص منسوب إلى أحبار اليهود لأن البشارة بالمسيح قد تقدمت في التوراة والأنبياء أنه يُبعث في آخر الأزمان ولم يكن لمن سلف من رباني اليهود حيلة في دفع مجيء المسيح غير أن يبدلوا أعمار الآدميّين التي منها يوقف على تاريخ العالم فنقصوا من عمر آدم إلى أن ولد شيث مائة سنة وزادوها في باقي عمره. وكذلك عملوا في إعمار باقي وُلد آدم إلى ابرَهيم. فصار تاريخهم يدل على أن المسيح ظهر في الألف الخامس وهذا قريب من توسط سني العالم التي هي جميعها عندهم سبعة آلاف سنة. فقالوا: نحن بعد في توسط الزمان فلم يحن حين مجيء المسيح. وأما التاريخ السبعيني فيدل على أن المسيح ظهر في الألف السادس فيكون قد حان حينه.

(غابيوس[١] قيصر) ملك اربع سنين. وفي السنة الأولى من ملكه ولي هيروذيس اغريباس على اليهود سبع سنين. وفي هذه السنة قتل فنطيوس فيلاطوس نفسه وأُرسل فيليكوس قاضياً إلى أورشليم وملأ محاريب اليهود أصناماً. فأرسلوا رسولَين حكيمَين هما فيلون ويوسيفوس العبريان إلى قيصر يتضوّرون من صنيع الناظر. فمضيا واستعطفاه متقدماً بإزالة ما كره اليهود عنهم. وفي السنة الرابعة ورد فطرونيوس الناظر من رومة إلى أورشليم ونصب صورة زاوس أي المشتري في هيكل الرب. وتمّت نبوءة دانيال النبي الذي قال: علامة نجسة قائمة حيث لا ينبغي.

(قلوذيوس[٢] قيصر) ملك خمس[٣] عشرة سنة. وفي السنة الثانية من ملكه ظهر رجل مصري بأرض يهوذا وادعى النبوءة وأفسد خلقاً من الناس وأراد أن يكبس أورشليم قهراً. فتوجه إليه فيليكوس البطريق فقتله وقتل عامة أتباعه. وظهر أيضاً رجل يُسمى قورينثوس وكان يقول: إن في ملكوت الله أكلاً وشرباً ونكاحاً.

وفي هذا الزمان أمر قلوذيوس قيصر بإحصاء اليهود الذي في سلطانه. فبلغ عددهم ستمائة وأربعاً وتسعين ربوة وأربعة آلاف نفس.

وفي يوم عيد الفصح وقع اليهود في الخُلَّيطى وضغط الناس بعضهم بعضاً فمات في الزحام ثلاثون ألف نفس. وكان اليهود متفرقين على سبعِ فرق.

(الأولى): الربّانيون وهم كتاب الناموس ومعلّموه.

(والثانية): اللاويُّون الذين لم يفارقوا خدمة الهيكل.

---

(١) في الكامل في التاريخ جاليوس ح ١ ص ٢٤٧.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ قلوديوس.

(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ (أربع عشرة سنة).

(والثالثة): المعتزلة الذين يؤمنون بقيامة الموتى ويقولون بوجود الملائكة ويصومون يومين في الأسبوع.

(والرابعة): الزنادقة الذي يجحدون القيامة والملائكة.

(والخامسة): المغتسلون الذين يقولون لا يُثاب أحد إن لم يغتسل كل يوم.

(والسادسة): النسَّاك الذين لا يأكلون شيئاً فيه روح.

(والسابعة): السمرة الذين لا يقبلون من الكتب إلاّ التوراة وهي المجسَّمة.

(نارون[1] قيصر) ملك أربع عشرة سنة. وفي السنة الثالثة عشرة من ملكه اضطهد النصارى وضرب عنق فطروس وبولوس وصلبهما منعكسين. وعصى اليهود عليه فغزاهم اسفسيانوس القائد مع جيوش كثيرة وحاصر أورشليم زماناً طويلاً. فلما دنا من فتحها أتاه الخبر بموت نارون وإنه اعتراه جنون في مرضه وقتل نفسه وابنه وزوجته. فنصب اسفسيانوس ابنه طيطوس مكانه في محاربة اليهود ونهض راجعاً إلى رومية وغزا الاسكندرية وفتحها وركب في البحر وسار إلى رومية وملكها.

(اسفسيانوس قيصر) ملك عشر سنين. وهو بنى قوقلس أي منارة الاسكندرية وطولها مائة وخمس وعشرون خطوة وفي السنة الثانية من ملكه افتتح طيطوس ابنه مدينة أورشليم وقتل فيها زهاء ستين ألف نفس وسبى نيفاً ومائة ألف نفس. ومات فيها من الجوع خلق كثير والباقون تشتتوا في البلاد. ودعثرها وأخرب هيكلها. وتمّت نبوءة يعقوب حيث قال: لن تفقد هراوة الملك من يهوذا ولا المنذر أي النبي من ذريته حتى يأتي من له الغلبة وإياه تتوقع الشعوب. وتم أيضاً ما أنذر به المخلص مخاطباً لأورشليم: إنه سيأتي أيام تحيط بك أعداؤك ويكبسونك وبنيك فيك. وكان ذلك بعد أربعين سنة من صلب المسيح. وذكر يوسيفوس العبري أنه ظهر قبل خراب أورشليم علامات فظيعة. وذلك أنه ظهر فوق المدينة نجم طويل كسيفٍ من نار يلمع. وفي عيد الفصح جاءوا ببقرة الذبيحة فولدت حملاً في وسط الهيكل. وأبواب النحاس التي كانت على باب الهيكل ولم تكن تُغلق وتُفتح دون اجتماع عشرين رجلاً وجدت نصف الليل مفتوحة من غير علة. وكانوا عامة السنة يسمعون في الهيكل أصواتاً مختلفة تقول: أنّا سننتقل من ها هنا.

(طيطوس قيصر) ملك سنتين. وفي السنة الثانية لملكه انشق جبل بالروم وخرج منه شهب نار أحرقت مدناً كثيرة. ووقع برومية حريق كثير. وخطب بعض الخطباء ذات يوم خطبة في حفل

---

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ (نيرون).
وإن نيرون هذا قتل بطرس وبولس فصلبهما منكسين أربع عشرة ساعة.

من الناس وفي جملة الانباز التي نبزها طيطوس اشتق له اسماً من أسماء الله تعالى. ولأنه سر بذلك فجأه الموت فجأة.

(ذوميطيانوس[١] قيصر) ملك ستّ عشرة سنة. ونفى من رومية المنجمين وأصحاب الزجر والفأل والعيافة والطيرة. وأمر أن لا يغرس برومية كرم البتة. وفي السنة التاسعة لملكه اضطهد النصارى اضطهاداً شديداً ومع هذا كان الناس يدخلون في دين المسيح أفواجاً ويتمسكون به تمسكاً أشد. فقال فطروفيلس المحصل لأرسنيوس الحكيم معلمه ما الذي الجأ ديونوسيوس رئيس حكماء اثيناس وافريقيانوس الاسكندري ومرطيانوس الباذوي إلى أن يسجدوا لرجل مصلوب. فأجابه قائلاً: إن آلهة السماء اقتضوا هذا. فاستنار واختار اتّباع النصارى بالسيرة الحسنة وترك الدنيا وملاذّها يفيدهم الأيدَ بالقول والعمل.

وفي هذا الزمان عُرف افولونيوس الطلسماطيقي وكان يضادّ التلاميذ بأفاعيله المخالفة لأفاعيل المسيح ويقول: الويل لي إن سبقني ابن مريم. وهذا الملك نفى يوحنا الانجيلي إلى بعض الجزائر. وكتب إليه ديونوسيوس اسقف اثيناس كتاباً يقول فيه: لا يعترينّك الضجر والملل فإنه لا يطول سجنك فالمسيح يعمل لك الخلاص فألهم نفسك بالصبر. وبعد قليل قُتل دوميطيانوس قيصر على بساطه في مجلسه.

(نارون[٢] قيصر الصغير) ملك سنة[٣] واحدة. وأمر أن يُردّ المنفيون. ورجّع يوحنا الانجيلي إلى مدينة افسوس بعد ست سنين لنفيه. ثم جُذم نارون ومات في بستان خارج رومية.

(طريانوس[٤] قيصر) ملك تسع عشرة سنة. وفي السنة العاشرة لملكه اضطهد النصارى. واستشهد شمعون بن قليوفا اسقف أورشليم ويوحنا السلّيح وايغناطيوس النورانيّ اسقف أنطاكية رمي للسباع فافترسته. وفيلنيوس صاحب الشرط لما عجز من قتل النصارى لكثرتهم طالع قيصر أن أهل المذاهب عاملون بجميع سنين الفلاسفة غير أنهم لا يكرمون الأصنام فأمر قيصر أن لا يجدّ في أذاهم إلا إذا وجد منهم من يتفوه بسبب الآلهة فليُدَن. وفي آخر سنة من ملكه عصت اليهود الذين بجزيرة قبرس والشام والحبشة. ويهود مصر أيضاً نصبوا لهم ملكاً اسمه لومينوس. فجيّش وتوجه إلى فلسطين. فطلبته جيوش الروم وقتلته مع ربوات من اليهود في كل مكان.

---

(١) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٤٧ (ثم ملك أخوه ذومطيانوس ست عشرة سنة).
(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ثم ملك بعده نارواس ست سنين.
(٣) في المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٣٧ ستة سنين وكذلك الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٤٧.
(٤) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٤٧ طرايانوس.

وفي هذا الزمان ظهر بأنطاكية رجل اسمه سوطرنينوس وكان يقول: أن سبعة من الملائكة خلقوا العالم وإياهم عني الله بقوله هلموا نخلق إنساناً بشبهنا وصورتنا. وقال: إن التزويج وهيئة أعضاء البضاع للرجال والنساء من فعل الشيطان ولهذا يستقبح الناس كشفها. وظهر أيضاً بسيليذيس القائل بإكرام الحية وتعظيمها لأنه المشيرة على حواء بالمجامعة ولولاها لما تناسل الناس. وظهر أيضاً رجل اسمه قورنثوس وكان يقول: إن العالم خلق الملائكة وإن المسيح وُلد من المباضعة. وقيل: إن بيعة الله إلى هذه الغاية التي ظهر فيها هؤلاء المخالفون كانت عذراء من مثل هذه العلوم الشيطانية وخرافات البدع.

(اذريانس[1] قيصر) ملك إحدى وعشرين سنة وفي أول سنة من ملكه أطلق الديون وأمر المديونين أن لا يقضوا مما عليهم شيئاً البتة وأطلق للناس الأخاريج والأتاوي الديوانية أيضاً. وفي السنة الرابعة بطل الملك من الرها وولي أمرها القضاة من قبل الروم. وأمر اذريانس ببناء مدرسة بمدينة اثيناس ورتب فيها قوماً من الحكماء وحمل إليهم نواميس سولون وذراقون ومن هنالك فاضت الحكم في اثيناس.

وفي هذه السنة ظهر بأورشليم رجل يقال له ابن الكوكب وأضل اليهود مدعياً أنه نزل من السماء كالكواكب ليخلصهم من عبودية الروم. فتبعه خلق كثير منهم. وبلغ الخبر إلى اذريانس فوجّه إليه جيوشاً فقتلوه وغزوا أورشليم وأهلكوا اليهود وخربوا أورشليم غاية الخراب وبنوا قريباً منها مدينة سموها هيليا اذريانس وأسكنوها قوماً غرباء. وأمر اذريانس بصرم آذان الذين خلق من اليهود وسنّ لهم أن لا ينظروا إلى أورشليم ولا من بعيد.

(طيطوس انطونيانس قيصر) المسمى اوسابيوس ويسمى أيضاً بارًا وأب البلد. ملك وعشرين سنة وأزال عن النصارى والاضطهاد وأباح للناس أن يتديّنوا بأيّ دين شاءوا.

وفي هذه الزمان نبغ في البيعة من المخالفين شخص اسمه ولنطيانوس وكان يقول المسيح أنزل معه جسداً من السماء واجتازه بمريم كاجتياز الماء بالميزاب أي لم يأخذ منها شيئاً. وظهر أيضاً رجل يسمى مرقيون وقال: إن الآلهة ثلاثة عادل وصالح وشرير وإن العادل أفاعيله في الشرير وهو الهيولي فخلق منها العالم ولما رأى الصالح العالم قد انجذب إلى جهة الشرير أرسل ابنه ليدعو الناس إلى عبادة أبيه الصالح. فأتى ونسخ التوراة المتضمّنة سنّة العدل بالإنجيل الذي هو متضمن سنّة الفضل. فهيج العادل عباده عليه فأمكنهم من نفسه حتى قتلوه وبثّ الخلاف بين الأموات سبى الناس وأصارهم إلى عبادة أبيه. فلما أظهر مرقيون هذه الخزعبلة بين الأساقفة زماناً طويلاً فلم يرجع عن خزعبلته وتمادى في أباطيله فنفوه الجماعة وصار نعت

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٢٤٧ هدريانوس.

وفي هذا الزمان اشتهر جالينوس في الطب ووضع فيه كتباً كثيرة. والموجود في أيدي الناس منها الآن زهاء مائة كتاب. وكان شيخه في الطب طبيباً اسمه اليانوس. وهو الذي توجه إلى مدينة انطاكية في السنة التي وقع الموتان في أهلها ومعه ترياق الفاروق فمن شرب منه قبل أن يمرض نجا والذين شربوه بعد المرض بعضهم نجا وبعضهم هلك. وكان أصل جالينوس من مدينة برغاموس[1]. وكان اشتغاله في الاسكندرية. والدليل على أنه لم يكن في زمان المسيح كما ظُن ولكن بعده قوله في المقالة الأولى من كتاب التشريح أنه صنفه في مبدإ ملك انطونيانس في أول مرة صعد إلى رومية. فمن صعود المسيح إلى هذه الغاية ما ينيف على مائة سنة. وقال أيضاً في شرحه لكتاب أفلاطون في الأخلاق وهو المسمى فادُن: إن هؤلاء القوم الذين يسمَّون نصارى تراهم قد بنوا مذهبهم على الرموز والمعجزات وليسوا بأقل من الفلاسفة الحقيقيين بأعمالهم. يحبون العفة ويدمنون الصوم والصلاة ويجتنبون المظالم. وفيهم أناس لا يُدنَّسون بالنساء. أقول: يريد بالرموز الأمثال المضروبة لملكوت السماء في الإنجيل الطاهر. ومات جالينوس بجزيرة سيقيليا وقد بلغ من العمر ثمانياً وثمانين سنة.

وقد دلت التواريخ أن بطلميوس القلوذي الرياضي كان في هذا الوقت. وهو أول من سطح الكرة واخترع خط الاسطرلاب الذي بأيدي الناس. وكتبه المشهورة في زماننا أربعة: الكتاب الكبير المسمى سونطاكسيس وهو المجسطي. وكتاب جاوغرافيا في صورة الأرض وأطوال وعروض البلدان. وكتاب الأربع مقالات في أحكام النجوم. وكتاب الثمرة منها أيضاً.

ومن ورود ذكر ثاون الرياضي الاسكندري في المجسطي وذكر بلطلميوس في القانون يستدل على أنهما كانا متعاصرين. ولثاون من الكتب الزيج المسمى بالقانون. وكتاب ذات الحلق وهي الآلة التي بها ترصد حركات الكواكب. وكتاب الاسطرلاب وكتاب المدخل إلى المجسطي.

وممن اشتهر عند الناس فضيلته في هذا الزمان الاسكندر الافروديس شارح كتب ارسطاطاليس المنطقية والحكمية. وقد جرى بينه وبين جالينوس محاورات عديدة. وكان يسمى جالينوس رأس البغل لقوة رأسه في البحث.

(مرقوس أورليوس قيصر) ملك تسع عشرة سنة وأشرك معه في الملك ولديه انطونيانس ولوقيوس. وفي أول ملكهم ولكش ملك الأرمن أخرب بلاداً كثيرة من أعمال اليونانيين فغزاهم ابنا مرقوس قيصر وانتصرا عليهم وأطاعوهما. وغزا أيضاً لوقيوس الصقالبة والترك وقهرهم. ولذلك يسمى أوطوقراطور أي ضابط الكل. ومات بعد تسع سنين. وولي مكانه قومذوس ابنه ومات مختنقاً.

(١) برغاموس: لم نجدها في معجم البلدان.

وفي هذا الوقت ظهر رجل اسمه طيطيانوس وكان يقول بوجود عوالم كثيرة كعالمنا هذا. وإن التزويج كله زنى وشر. وإن بعد الموت أكلاً وشرباً ونكاحاً.

وظهر أيضاً في بلد آسيا مونطانس القائل عن نفسه أنه الفارقليط الذي وعد المسيح أن يوجهه إلى العالم.

وظهر أيضاً رجل يسمى ابن ديصان لأنه وُلد على نهر ديصان فوق مدينة الرُّها. وكان يسمي الشمس اب الحياة والقمر أم الحياة وأن في أول كل شهر تخلع أم الحياة النور الذي هو لباسها وتدخل على أب الحياة فيجامعها فتلد أولاداً يمدون العالم السفلي بالنمو والزيادة.

(فرطيناخس[١] قيصر) ملك ستة أشهر وقُتل غيلة في مجلسه.

(سوريانس[٢] قيصر) ملك ثماني[٣] عشرة سنة. وفي السنة الأولى من ملكه ثارت فتنة عظيمة بين اليهود والسمرة فتحاربوا وقُتل من الفريقين خلق كثير. ومن السنة التاسعة من ملكه إلى آخر عمره اضطهد النصارى اضطهاداً شديداً واعتسفهم بالسجود للأصنام والأكل من ذبائحهم. ثم قُتل في غزو الصقالبة.

(انطونياس[٤] قيصر) ملك سبع[٥] سنين وأزال عن النصارى الاضطهاد وغزا ما بين النهرين وقُتل بين الرُّها وحرّان.

(ماقرينوس قيصر) ملك سنة واحدة. وفي زمانه وقع حريق فظيع في رومية. ووثب عليه غلمانه وقتلوه.

(انطونيانس قيصر المعروف باليوغالي) ملك أربع سنين. وفي زمانه بنيت مدينة نيقوبوليس. وهي التي يسميها الكتاب الإلهي عماوس. وكان يتولى بنيانها افريقيانوس المؤرخ.

(الاسكندروس قيصر[٦]) ملك ثلاث عشرة سنة. وكان اسم أمّه ماما. هذه آمنت بالمسيح وكان منها معونة كثيرة للمؤمنين. وفي السنة الثالثة من ملك هذا الاسكندروس قيصر وهي سنة

---

(١) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٤٧ فرطيناجوس ملك ستة أشهر.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص٢٤٧ سيواروش وفي المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٤٧ سيروس.

(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ملك أربع عشرة سنة.

(٤) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ثم ملك بعده إنطانيوس سبع سنين.

(٥) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ثم ملك بعده مرقيانوس ست سنين.

(٦) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ثم ملك الخسندروس ثلاث عشرة سنة.

خمسمائة واثنتين وأربعين للاسكندر ابتدأت مملكة الفرس الأخيرة المعروفة ببيت ساسان. ودامت أربعمائة وثماني عشرة سنة أعني إلى ظهور الإسلام وملكهم.

(مكسيميانوس قيصر) ملك ثلاث سنين واضطهد النصارى وقتل سرجيس وباخوس الشاهدَين وقوفريانوس الأسقف مع جماعة من المؤمنين.

(غورديانس قيصر) ملك ست سنين. وغزا بلاد فارس وقُتل هناك. وفي هذا الوقت افريقيانوس المؤرخ وضع كتباً كثيرة في الأزمنة وسير الملوك والفلاسفة.

(فيليبوس[١] قيصر) ملك سبع سنين وأحسن إلى النصارى ورام الاجتماع مع المؤمنين. فقال له الأسقف: لا يمكنك الدخول إلى البيعة تنتهي عن المحارم وتقتصر على زوجة واحدة من غير ذوات القربى. فكان يحضر وقت الصلاة ويقف خارج البيعة مع الذين أَلِفوا الدين ولم يكملوا فيه بعد. وفي أول سنة من ملك هذا فيليبوس ملك بفارس سابور بن اردشير إحدى وثلاثين سنة. وفي السنة الثانية ظهر قوم من أصحاب البدع قائلين: إن من كفر بلسانه وأضمر الإيمان بقلبه فليس بكافر. وفي هذا الزمان بدأت أعمال الرهبان على يدي انطونيوس فولى المصريَّين. وهما أول من أظهر لبس الصوف والتخلّي في البراري.

(ذوقيوس[٢] قيصر) ملك سنة[٣] واحدة. ولبغضه فيليبوس قيصر المحسن إلى النصارى عاداهم وشدد عليهم جداً. فكفر كثيرون من المؤمنين إلى أن قُتل فقدموا التوبة. وكان ناباطيس القسيس لا يقبل توبتهم قائلاً: إنه لا مغفرة لمن أخطأ بعد المعمودية. فوعظه الآباء كثيراً وسألوه الرجوع إلى رأي الجمهور. فلم يقبل. فاجتمع عليه ستون أسقفاً وأبعدوه عن البيعة وزيفوا تعليمه.

وفي زمان ذوقيوس كان الفتية السبعة أصحاب الكهف الذين هربوا منه واختفوا في مغارة فوق الكهف. ورفع خبرهم إليه فأمر أن يُسَد باب المغارة عليهم. فألقى الله عليهم سباتاً إلى يوم انبعاثهم من رقادهم.

(غالوس[٤] قيصر) هذا أشرك معه في الملك رجلاً يسمى ولسيانوس وملكا سنتين[٥]. ثم قُتلا في سوق من أسواق رومية يسمى فلامنيوس.

---

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ فيلفوس.
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ داقيوس.
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ست سنين.
(٤) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ قالوس.
(٥) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ملك ست سنين.

وفي هذا الزمان ظهر في مدينة بوزنطيا قسيس اسمه سابيليوس وقال إن الأقانيم الثلاثة هي الوجود والحكمة والحياة ليست معاني زائدة على ذات الله تعالى بل هي صفات اعتبارية لا مسمى لشيء منها في الخارج إذا الباري تعالى موجود لا بوجود وحكيم لا بحكمة وحيّ لا بحياة. أقول هذا مذهب انبيذوقليس بعينه في الصفات وقد انتحله فرقة من علماء الإسلامية أيضاً وهي نفاة الصفات.

(أولارينوس قيصر) ملك تسع سنين وشدد على النصارى وعسفهم جداً. ثم غزاه سابور بن اردشير بن بابك ملك فارس ومصر وأسره في المعركة وحدره إلى بابل وسجنه هناك وملك غالوس ابنه مكانه.

(غالوس قيصر الثاني) ملك ست سنين وأزال الاضطهاد عن النصارى خوفاً مما نزل بأبيه من العقوبة.

وفي هذا الزمان ظهر من المبتدعة فولى الشميشاطيّ وكان يقول: إن جميع معلولات الله تعالى إرادية وليس له معلول ذاتي بتةً ولذلك لم يلد ولم يولد. ولهذا لم يكن المسيح كلمة الله ولا أيضاً ولد من عذراء كما ورد في ظاهر المذهب وإنما حصل له الكمال بالاجتهاد. فكل من تعاطى رياضيته نال درجته. وذكر اوسابيوس المؤرخ عن هذا فولي أنه استعان بامرأة يهودية رأسها غالوس قيصر على الشام وكانت تستحسن علمه وكلامه. وفوضت إليه بطركية انطاكية. فكان يجلس على سرير عال وصبايا حسنات النغمة يزمّرنَ زبور داود بين يديه. وكان متهماً بالزنى معهنَّ. فاجتمع عليه عدة من الأساقفة وحرموه وأتباعه.

(قلوذيس[1] قيصر) ملك سنتين[2]. وفي أول سنة من ملكه ظهرت في السماء آية إكليل من نار.

(اورلينوس قيصر) ملك ست[3] سنين وهادن سابور ملك فارس وزوَّجه ابنته. فبنى لها سابور بفارس مدينة شبه بوزنطيا وسماها جنديسابور. وكان قد أرسل اورلينوس في خدمة ابنته جماعة من الأطباء اليونانيين وهم بثوا الطب البقراطي بالمشرق. وفي السنة السادسة لأورلينوس همَّ بالتضييق على النصارى. وبينا هو يفكر بذلك برق فاستظلمه ومات. وفي هذه السنة ملك بفارس هرمزد سنة واحدة.

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ قلوديوس.
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٧ ملك سنة.
(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ خمس سنين.

وفي هذا الزمان عُرف ماني الثنوي. هذا كان أول أمره يظهر النصرانية وصار قسيساً بالأهواز وكان يعلّم ويفسر الكتب ويجادل اليهود والمجوس والوثنيين. ثم مرق من الدين وسمى نفسه مسيحاً واتخذ اثني عشر تلميذاً وأرسلهم إلى بلاد المشرق بأسرها حتى الهند والصين وزرعوا فيها علم الثنوية وهو أن للعالم إلهين أحدهما خير وهو معدن النور والآخر شر وهو معدن الظلمة. وإنهما تمازجا فانتصر الخير على الشر فانتقل الشر إلى جهة الجنوب ليعمل هناك عالماً ويتسلط عليه. ولما شرع وعمل بنات نعش حول القطب الجنوبي كهذه التي حول القطب الشمالي أصلحت الملائكة بينهما بأن ألقى الخير شيئاً من نوره على الهيولي فوُجد عالَم قابل للكون والفساد وتسلط عليه الشر. ولأن الخير إنما فعل ذلك مكرهاً ومجبراً خلق في السماء سفينتين كبيرتين هما الشمس والقمر وصار يجمع فيهما أنفس الناس ويسترجع نصيبه الذي صار إلى الشر ليخلو الهيولي رويداً رويداً من آثار الخير فيبطل سلطان الشر. وكان يقول بالتناسخ وإن في كل شيء روحاً مستنسخة. وكان يفرط في تمجيد النار وتعظيم شأنها ويؤهلها للتقديس والتسبيح كل ذلك لنورها وإضاءتها وتوسطها في المكان بين الفلكيات والعنصريات. وأقل الأرض للتحقير لكونها مظلمة لا يستضيء باطنها بالفعل ولا بالقوة. وهذا المذهب قد كان قديماً للفرس ولم يبتدعه ماني ولكن شيَّده بالحجج الاقناعية. ونعم ما أجاب عنه الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا إذ قال: كيف السبيل إلى أن يوجد في النار كل معنى واقع في حيّز الخير وفي الأرض كل معنى واقع في حيّز الشر. فإن الأرض حيز البقاء والحياة للحيوان والنبات. والنار مفرطة الكيفية مفسدة بتفريق أجزاء المركّب وتشتيتها. وقيل إن سابور ملك الفرس قَتل ماني وسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه على سور المدينة لأنه كان يدّعي العظيمة وعجز عن إبراء ابنه من مرض عرض له.

(ططقيطوس[١] قيصر) ملك ستة أشهر وقتل في المركب وملك بفارس هرمزد.

(فلوريانس[٢] قيصر) ملك شهرين[٣] وقُتل بمدينة طرسوس[٤].

(فرويوس قيصر) ملك سبع[٥] سنين. وفي أول سنة من ملكه ملك بفارس ورهران ثلاث سنين وبعده ورهران ابنه سبع عشرة سنة. ثم أن فروبوس قيصر قُتل في الحرب بمدينة سرمين.

(قاروس قيصر) ملك سنتين ومات ما بين النهرين. وقُتل نوميروس ابنه في الحب ببلد

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ طيقطوس.
(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ فلوردنوس.
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ خمسة وعشرين يوماً.
(٤) طرسوس: مدينة على الثغور الشامية الرومية تقع على الساحل.
(٥) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ ست سنين.

أفريقية. وقورينوس ابنه الآخر قُتل أيضاً في حرب الجرامقة وهم قوم بالموصل أصلهم من الفرس. وفي السنة الثانية لملك قاروس قُتل قوزما ودوميانى الشهيدان.

(ذيوقليطيانوس[1] قيصر) ملك عشرين سنة وأشرك معه في الملك ثلاثة نفر أُخر. أحدهم مكسانطيس ابنه وهو كان مقيماً برومية. وقسطنطينوس ببوزنطيا. ومكسيميانوس ختن ذيوقليطيانوس بمصر والشام.

وفي هذا الزمان عصى أهل مصر فأرسل إليهم ذيوقليطيانوس جيوشاً فأهلكوهم. وفي السنة الحادية عشرة له ملك بفارس نرسي سبع سنين. وملك بعده هرمزد خمس سنين. وفي السنة التاسعة عشرة أمر بهدم كنائس النصارى فهدمت كلها. وضيَّق عليهم جداً وقتل منهم خلقاً كثيراً وأحرق كتبهم. وفي هذه السنة عرض جوع عظيم حتى بلغ المُدْي أعني القفيز الشامي من الحنطة ألفين وخمسمائة درهم. ثم أن ذيوقليطيانوس اعتزل من الملك وخلط نفسه. بالعامة إلى وقت وفاته. وفعل مكسيميانوس ختنه أيضاً كذلك. وبقي في الملك مكسانطيس وقسطنطينوس. ومن أول سنة ملك ذيوقليطيانوس وهي سنة خمسمائة وست وتسعون للاسكندر يبتدىء تاريخ ذيوقليطيانوس الذي يؤرخ به القبط ويسمونه تاريخ الشهداء أي الذين استشهدوا في هذه السنة.

وفي دولة ذيوقليطيانوس هذا اشتهر في علم الفلسفة فرفوريوس الصوري وله النباهة فيه والتقدم. ولما صعب على صديق له يسمى خروساوريوس معرفة كلام ارسطاطاليس شكا إليه ذلك. فقال: كلام الحكيم يحتاج إلى مقدمة قصّر عن فهمها طلبة زماننا لفساد أذهانهم. وشرع في تصنيف كتاب ايساغوجي ومعناه المدخل. فأخذ عنه وأُضيف إلى كتاب ارسطو وجعل أولاً لها وسار مسير الشمس إلى يومنا هذا، فمن تصانيفه هذا الكتاب وكتاب المدخل إلى القياسات الحمْلية. وكتابان له إلى رجل اسمه لبانوا. وكتاب في الرد لمحيوس في العقل والمعقول تسع مقالات توجد سريانياً. وكتاب أخبار الفلاسفة وجد منه المقالة الرابعة بالسرياني. وكتاب الاسطقسات مقالة توجد سريانياً.

(قسطنطيس قيصر الكبير) ملك اثنتي عشرة سنة أخرى بعد موت ذيوقليطيانوس. وكان به برص فأشار عليه خدم الأصنام أن يذبح أطفال المدينة ويغتسل بدمائهم فيبرأ من مرضه. فأخذ جماعة من الأطفال ليذبحهم فصارت مناحة عظيمة في المدينة فأحجم عن قتلهم. وفي تلك الليلة رأى في منامه فطروس وفولوس يقولان له: وجه إلى سيليبطريس أسقف رومية فجيء به فهو يبرىء مرضك. فلما أصبح وجه في طلبه. فأتوه به ووعظ الملك وأوضح له سر النصرانية دفعا

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ دقلطيانوس.

له. وتعمّد فذهب مرضه وأمر ببناء كنائس النصارى المهدومة. ومع هذا كان تمسكه بالدين واهياً.

(قسطنطينوس قيصر القاهر) ملك اثنتين[١] وثلاثين سنة. وفي السنة الثانية له ملك على الفرس سابور بن هرمزد تسعاً وستين سنة. وفي السنة الثالثة لملكه أمر فبُني لبوزنطيا سور فزاد في ساحتها أربعة أميال وسماها قسطنطينية[٢] ونقل الملك إليها. وفي السنة السابعة استعد لغزو مكسانطيس ابن بنت ذيوقليطيانوس لأنه عصى ولم يبايعه وغلب على رومية. وكان قسطنطينوس يفتكر إلى أي الآلهة يلجئ امره في هذا الغزو. فبينما هو في هذا الفكر رفع رأسه إلى السماء نصف النهار فرأى راية الصليب في السماء مثال النور وكان فيه مكتوب أن بهذا الشكل تغلب. فصاغ له صليبا من ذهب وكان يرفعه في حروبه على رأس الرمح. ثم أنه غزا رومية فخرج إليه مكسانطيس ووقع في نهر فاختنق. فافتتح قسطنطينوس مدينة رومية. واعتمد في هذا الوقت برومية من اليهود وعبدة الأصنام زهاء اثني عشرة ألف خلا النساء والصبيان. ثم تنصرت هيلاني أمه بعد ذلك واعتمدت وشخصت إلى أورشليم حاجّة وطلبت صليب المسيح بعناية وأمرت ببناء كنائس المسيح فيها وأخذت الصليب وحملته إلى قسطنطينية. ولم يزل دين النصرانية يظهر ويقوى إلى أن دخل فيه أكثر الأمم المجاورة للروم من الجلالقة والصقالبة وبرجان والروس واللان والأرمن والكرج وجميع أهل مصر من القبط وغيرهم وجمهور أصناف السودان من الحبشة والنوبة وسواهم. وآمن بعد هؤلاء أصناف من الترك أيضاً. وبنى قسطنطينوس بيعة عظيمة بالقسطنطينية وسماها أجيا سوفيا أي حكمة القدوس. وبيعة أخرى على اسم السلّيحين. وبنى بيعة بمدينة بعلبك وكان أهلها يتشاركون في النساء ولم يخلص لأحدهم نسب فكفّهم عن ذلك فكفّوا. وبنى بأنطاكية هيكلاً ذا ثماني زوايا على اسم السيدة. وفي أيامه حاصر سابور ملك الفرس مدينة نصيبين[٣] ثلاثين يوماً. وبدعاء مار يعقوب اسقفها ومار أفريم تلميذه رحل عنها خائباً. وفي عودته غزا ما بين النهرين. فنهض قسطنطينوس لمحاربته وعند وصوله إلى نيقوموذيا ادركته المنية سنة اثنتين وأربعين وستمائة للاسكندر وذلك يوم الأحد لثمانٍ بقينَ من أيار وكان عمره خمساً وستين سنة. وفي مرضه قسم الملك على أولاده الثلاثة وملّك الكبير المسمى باسمه قسطنطينوس على قسطنطينية. ورتّب الآخر المسمى قسطنطيس على مصر والشام وما بين النهرين وارمينية. ورتب الصغير المسمى قوسطوس على رومية واسفانيا وما يليها من ناحية المغرب.

وفي هذا الزمان ظهر آريوس المبتدع. هذا كان قسيساً خطيباً بالاسكندرية. فعلا ذات يوم

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ ثلاثين سنة.

(٢) قسطنطينة: سميت باسم بانيها الامبراطور قسطنطين وهي فر تركيا حالياً.

(٣) نصيبين: وهي مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام.

مشهود المنبر ليخطب كعادته وابتدأ بخطبته من كلام سليمان بن داود وهو قوله: الرب خلقني في أول خلائقه. وأخذ يقرر أنه عنى بذلك كلمة الله فهي مخلوقة مباينة بالجوهر لذات الله لأنها عبارة عن العقل الذي هو المعلول الأول وهو أول ما خلق الله. فكتب الملك كتاباً إلى جميع الأساقفة وقال فيه: إنه لا شيء آثر عندي ولا أزين في عيني من خشية الله ومراقبته. وقد رأيت الآن أن تعزموا على القدوم إلى مدينة نيقيا من غير وني لكي تفحصوا عن أمر دينيّ دعت الحاجة إلى تحقيقه. فاجتمع ثلثمائة و ثمانية عشر أسقفاً ونظروا فيما تفوه به آريوس فوجدوه مخالفاً لأصل المذهب فزيّفوا علمه الفاسد ورتبوا الأمانة المشهورة واجتمعت الفرَق المسيحية كلها على صحتها إلى يومنا هذا. وكان اجتماعهم سنة ستمائة وست وثلاثين للاسكندر. وكان في هذا المجمع اسقف يرى رأي ناباطيس. فقال له الملك: لِمَ لا توافق الجمهور في قبول من تاب عن معاصيه منيباً إلى الله. فأجابه الأسقف: أنه لا مغفرة لمن فرطت منه كبيرة بعد الإيمان والعماد بدليل قول فولوس الرسول حيث يقول: لا يستطيع الذين ذاقوا كلمة الله أن يدَّنَّسوا بالخطيئة ليطهروا بالتوبة ثانية. فقال له الملك هازئاً به: إن كان الأمر كما تزعم فانصب لك سلماً لترقى فيه وحدك إلى السماء. ونهض بعض الأساقفة فرفع إلى الملك كتاباً فيه سعاية ببعض الأساقفة. فلما قرأه الملك أمر أن يحرق الكتاب بالنار وقال: لو وجدت أحداً من الكهنة في ريبة لسترته بأرجوانيَّتي.

(قسطنطينوس وقسطوس وقسطنطيس) بنو القاهر ملكوا خمساً وثلاثين[1] سنة ثم أن قسطنطينوس صار إلى نيقوموذيا فأخذ جسد أبيه فحنطه ووضعه في صندوق ذهب وحمله إلى قسطنيطينة ووضعه في هيكل السليحين. وفي هذه السنة صعد سابور ملك الفرس فغزا نصيبين لما بلغه وفاة قسطنطينوس القاهر فحاصرها ثلاثين يوماً ورجع عنها إلى مملكته خائباً وذلك بدعاء القديس مار افريم. فإن الله استجاب دعاءه وأرسل على جيش الفرس بقًّا وهمجاً هزم فيَلتهم وخيلهم. ثم أن سابور اضطهد النصارى الذين في سلطانه جداً. وفي هذه السنة مات مار يعقوب اسقف نصيبين وقام مكانه بابويهِ.

وفي هذا الزمان عُرف الحكيم الفارسي ووضع كتباً كثيرة في تشييد مذهب النصارى ونقض مذهب المجوس. وفي السنة السادسة لملك هؤلاء عرض بأنطاكية رجفات وزلازل كثيرة ولم تزل الأرض ترتجّ عامّة السنة مع سلامة من الفساد. ثم أن قسطنطينوس صاحب القسطنطينية وهو الأخ الكبير قُتل في حرب وقعت بينه وبين أخيه الصغير وهو قسطوس صاحب رومية. وخلف ابنين غالوس ويوليانوس. ثم أن قسطنطيس وهو الأخ الأوسط صاحب مصر والشام نصب غالوس ملكاً على القسطنطينية مكان أبيه. فعصى على عمه الذي نصبه. فسيَّر عمُّه عليه

(١) في الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٤٨ لابن الأثير ج ١ ثم ملك قسطنطين ثلاثين سنة.

جيشاً وقتله ونصب أخاه يوليانوس مكانه. وبعد قليل قُتل قسطوس صاحب رومية. ومات أيضاً قسطنطيس صاحب مصر والشام. واستقل يوليانوس بجميع الممالك.

(يوليانوس[1] قيصر) ملك سنتين بعد موت عمِّيه وسمي بارابطيس أي المارق لأنه خلع ربقة النصرانية من عنقه وعبد الأصنام. ولذلك وثب الوثنيون على النصارى ووقع بينهم بلاء عظيم بالاسكندرية وقُتل من الجانبين خلق كثير. ثم أن يوليانوس الملك منع النصارى من الاشتغال في شيء من كتب الفلسفة وسلب آنية الكنائس والديورة واستصفى مال من لم يطعه من النصارى في أكل ذبائح الأصنام وأهلك كثيرين منهم. ثم أنه عزم على غزو الفرس ودخل على أفولون الحبر الخادم للصنم ليستعلم منه هل ينجح في غزوه أم لا. فحكم له أنه يقهر أعداءه على نهر دجلة. فاستكبر لذلك يوليانوس وصال جداً وجمع جيوشه وغزا الفرس. فلما وصل إلى حرّان وأراد الخروج منها نكّس رأسه ساجداً لآلهة الحرّانيين. فسقط تاجه عن رأسه وصُرع فرسه الذي كان تحته. فقال له خادم الصنم: إن النصارى الذين معك هم جلبوا عليك هذه البلايا. فأسقط منهم يومئذ زهاء عشرين ألف رجل. وسار حتى وافى المدائن. ولما نشب الحرب بينه وبين الفرس على دجلة صار يسير في صفوف مقاتيله وينشطهم للحرب. فرماه بعض الفرس بسهم فأصاب جنبه فسقط عن دابته. وبينما هو يتعذب إذ أخذ ملء حفنته دماً من دمه فرشّه في الجو نحو السماء وقال: إنك غلبتني يا ابن مريم فرِثْ مع ملك السماء ملك الأرض أيضاً. فمات وحمل إلى مدينته طرسوس ودفن بها.

وكان ليوليانوس هذا كاتب اسمه ثامسطيوس فيلسوف مشهور في زمانه فسّر أكثر كتب ارسطوطاليس وصنّف كتاباً ليوليانوس في التدبير وسياسة الممالك ورسالة له أيضاً تتضمن الكف عن اضطهاد النصارى وذكر فيها أن الله عزّ وجلّ يحب أن يعبد بوجوه مختلفة فإن الفلاسفة أيضاً متشعبة إلى ثلثمائة مذهب. فأقنعه كلامه فيها وكفه عن أذيتهم فانكف. ومن الفلاسفة القريبة العهد من هذا الزمان نيقولاوس قد تقدم في معرفة الحكمة. وله من التصانيف كتاب من حُمل فلسفة ارسطوطاليس ولنا نسخته بالسرياني نقل حُنين بن اسحق. وكتاب النبات. وكتاب الرد على جاعل العقل والمعقولات شيئاً واحداً. قال ابن بطلان: أن أصله من اللاذقية وبها وُلد. ومنهم دوروثيوس وهو رياضي له اليد الطولى في علم الفلك والأحكام النجومية. وتصانيفه مشهورة عند أهل هذا العلم في المواليد والأدوار. ومنهم ديوفنطس وكتابه اب اسمه في الجبر والمقابلة مشهور وإذا تبحر فيه الناظر رأى بحراً في هذا النوع.

---

(١) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٤٨ ثم ملك يوليانوس/ يليانوس سنيتن.

(يوينيانس[١] قيصر) لما قُتل يوليانوس المارق بقي عسكر الروم بغير ملك. فاختاروا صاحب جيشه وهو يوينيانس المؤمن بمشورة سابور ملك الفرس. فامتنع وقال: إنني نصراني لا أرضى أن أكون ملكاً للوثنيين. فأعلموه أنهم أيضاً نصارى ومن خوفهم من المارق لم يظهروا أديانهم. فأخرج لهم صليبا من الخزانة ونصبه لهم في العسكر. وجرى الصلح بينهم وبين الفرس فشيعه سابور إلى نصيبين ووهبها له. ونقل من كان بها من الروم إلى آمد. ومن هذا اليوم صارت نصيبين للفرس. ثم أن يوينيانس توفي بعد أن ملك سنة واحدة.

(اولنطيانس[٢] قيصر) ملك ثلاث عشرة سنة. وولّى واليس أخاه على المشرق وخرج على واليس رجل خارجي بقسطنطينية يسمى فروقرينوس. فلزمه واليس وأمر بشد رجليه بشجرتين أدنيت أحداهما من الأخرى فانفسخ بينهما. وسقط برد بقسطنطينية كالحجارة وعرضت رجفات وزلازل وخسُف في مواضع كثيرة وانخسفت مدينة نيقيا أيضاً. وظهر قوم يُعرفون بالمصلّين وكانوا يقولون: كل من صلّى وصام اثنتي عشرة سنة يأمر الجبل ينتقل من مكانه فينتقل كما جاء في الإنجيل المقدس. فكان إذا تعبد أحدهم هذه المدة خرج فقال للجبل: إيّاك آمر انتقل عن مكانك. فإذا لم يكن ذلك يئس من قبول عبادته وأخذ في الأكل والشراب والفساد. وفي السنة الثالثة عشرة لاولنطيانس تجاوز الناموس وتزوّج بامرأة حسنة الصورة في حال حياة زوجته الناموسيّة وأطلق للناس أن يجمعوا بين زوجتين إن أرادوا الجمع بينهما. وفي تلك السنة مات.

(واليس قيصر) لما مات أخوه اولنطيانس استقلّ هو وحده بالملك واستعدّ لغزو الفرس. فبينا هو يحاربهم إذ دخل إلى قرية كانت إلى جانبه مع نفر من أصحابه. فأُخبر الأعداء أنه هناك فأحاطوا بالقرية وألقوا فيها ناراً. فاحترق واليس ومن كان معه من أصحابه بعد أن ملك سنتين بعد أخيه.

(غراطيانس قيصر) هو ابن اولنطيانس. ملك سنة واحد. وفي هذه السنة مات سابور ملك الفرس بعد أن ملك سبعين سنة. وقام بعده اردشير أخوه اربع سنين. ثم غراطيانس اشرك معه في ملكه رجلاً يقال له ثاوذوسيوس وكان وثنياً وآمن بالمسيح واعتمد. وتوفي غراطيانس.

(ثاوذوسيوس[٣] قيصر الكبير) ملك سبع عشرة سنة وأمر أن يلزم كل أحد دينه. وفي السنة الخامسة خرج برومية خارجي يسمى مكسيموس. فوجّه إليه ثاوذوسيوس جيوشاً فقُتل. وفي السنة السادسة وُلد له ولد فسمّاه انوريس. وفي هذه السنة ظهرت في السماء آية كعمود من

(١) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ ثم ملك يويانوس سنة.
(٢) في الكامل في التاريخ ح ١ ص ٢٤٨، ثم ملك والنطانيوس وغرطيانوس عشر سنين.
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ ثم ملك تيداسيس الأكبر سبع عشرة سنة.

نار ولبثت شهراً. وفيها عرضت ظلمة شديدة نصف النهار في شهر آذار. ثم أن ثاوذوسيوس مرض فوجّه في طلب انوريس ابنه وبايع له ووجهه إلى المغرب. وبايع لارقاذيوس ابنه الآخر ووجّهه إلى المشرق. وتوفي وعمره ستون سنة.

(ارقاذيوس قيصر) ملك ثلاث[١] عشرة سنة. وفي هذه السنة قام يوحنّا فم الذهب بطركاً على قسطنطينية ووضع تفسير الإنجيل وهو ابن ثماني وعشرين سنة. ومنع الكهنة من أمور كثيرة من الفساد. فحسدوه وجعلوا يطلبون عليه عثرة. ونهى الملكة أودكسيا امرأة ارقاذيوس عن اختلاسها كرم امرأة ارملة. ولأنها أبت رشقَها في بعض خطبه ذات يوم وشبهها بازبيل امرأة ارملة احاب ملك يهوذا التي أخذت كرماً أيضاً من أرملة. فركبت يوماً من الأيام وأخذت معها تسعة وعشرين أسقفاً ممَّن عادى يوحنا فم الذهب واجتمعوا بمدينة خلقيذونيا وحرموه وأسقطوه من مرتبته بحجّة أنه لم يدَع النظر في كتب اوريغانيس المخالف. فاضطرب أهل القسطنطينية لذلك وهمّوا بإحراق دار الملك. فخافهم الملك و بعث إلى فم الذهب وردّه إلى مرتبته. فلما رجع رفع تمثالاً كان للملكة بالقرب من الكنيسة. وخطب ذات يوم وسمّى الملكة الملكة هيروذيا أي الملكة التي قتلت يحيى بن زكريا المعمدان. فغضبت غضباً شديداً ووجّهت إلى افيفانوس اسقف جزيرة قبرس وسائر الأساقفة فجمعتهم كلهم إلى قسطنطينية. فحرموه ثانيةً ونفوه وكان ذلك في السنة الثامنة لارقاذيوس. فنفي إلى جزيرة في بحر نيطوس وتوفي هناك. وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة. وثارت الفتن بين الروم والمصريين بسبب عظام يوحنا فم الذهب حتى أتوا بها بعد ثلاث وثلاثين سنة لموته فدفنوها بقسطنطينية وأثبتوا اسمه في سفر الحياة مع باقي الآباء القديسين. وفي السنة الخامسة لارقاذيوس ملك على الفرس يزدجرد ابن سابور إحدى وعشرين سنة. ثم أن ارقاذيوس مات وهو ابن ثلاثين سنة وخلّف ابنه ثاوذوسيوس ا بن ثماني سنين.

(ثاوذوسيوس قيصر الصغير) ملك اثنتين وأربعين سنة. وفي هذا الزمان كثر النصارى في سلطان الفرس وظهرت النصرانية جداً على يدي مروثا اسقف ميّافارقين الذي أرسله ثاوذوسيوس الصغير إلى الفرس. ثم إن يزدجرد ملك الفرس مات. وملك بعده ورهران ابنه وتشدّد على النصارى. وتواقع الروم والفرس وقُتل من الفريقين خلق كثير وكانت الهزيمة على الفرس. وزال التشديد عن النصارى. وفي السنة العاشرة لثاوذوسيوس الصغير عُرف شمعون صاحب العمود بأنطاكية وكان يُظهر الآيات والعجائب وكان في هذا الزمن من العلماء قوريلوس بطريرك الاسكندرية ونسطوريوس بطريرك القسطنطينية القائل باتّحاد المشيئة دون نفس الكلمة. فأُسقط لذلك. ومار اسحق تلميذ مار افريم صاحب الميامر المنظومة.

---

(١) ثم ملك ارقاديوس ونوريوس عشرين سنة الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨.

وفي هذا الزمان انبعث أصحاب الكهف من رقدتهم التي رقدوا على عهد ذاقيوس الملك بعد مائتين وأربعين سنة بالتقريب. فخرج ثاوذوسيوس الملك مع أساقفة وقسيسين وبطاركة فنظروا إليهم وكلموهم. فلما انصرفوا من عندهم ماتوا في مواضعهم. وكانت في هذه السنة زلزلة عظيمة بقسطنطينية فهرب عامّة الناس إلى خارج المدينة وسقطت بها مواضع كثيرة. وفي سنة ثلاث وثلاثين لثاوذوسيوس مات ورهران ملك الفرس وملك بعده يزدجرد ثماني سنين. وفي هذا الزمان خطب يهيبا أسقف الرُّها ذات يوم خطبة وقال فيها: إني لست أحسد المسيح على تألّهه لأن كل ما صار فيه فأنا مثله. فحُرم ونُفي من كرسيّه. وفي سنة إحدى وأربعين لثاوذوسيوس وُجد رأس يوحنا المعمدان بحمص. وتوفي ثاوذوسيوس وعمره خمسون سنة.

(مرقيانوس[١] قيصر) ملك سبع سنين وتزوَّج فوليخريا اخت ثاوذوسيوس الصغير التي كانت راهبة لأن جماعة من الأساقفة المرائين أفتوها في أمر الزواج وقد كانت قبل ذلك متهمة بالزناء معه. وفي السنة الثانية لمرقيانوس اجتمع ستمائة وثلاثون أسقفاً بمدينة خلقيذونيا وحرموا ديوسقوروس بطرك الاسكندرية وقالوا بالطبيعتين والأقنوم الواحد على ما هم عليه الروم والإفرنج. ولما ملك مرقيانوس سبع سنين مات وعمره خمس وستون سنة.

(لاون[٢] قيصر) ملك ثماني عشرة سنة. وفي أول ملكه ملك على الفرس فيروز ابن يزدجرد سبعاً وعشرين سنة. وفي هذه السنة التي ملك فيها لاون وهي سنة تسع وسبعين وثمانمائة للاسكندر صارت زلزلة قوية بمدينة انطاكية وخسف بها مواضع كثيرة. وفي السنة التاسعة له انكسفت الشمس وظهرت النجوم نهاراً. وبعد ذلك بسنة غزا الفرس آمد وخربوها بعد ما حاصروها. ولما مرض لاون بايع لاونطيوس ابن ابنته وعمره ست سنين.

(لاونطيوس قيصر) ملك سنة واحد. هذا لكونه صبياً خدعته أمه قائلة: إذا حضر زينون أبوك في الخدمة يجب عليك أن تكرمه وتجلسه معك على السرير وتضع تاجك على رأسه. فلما عمل الصبي بقول أمه صار يجلس زينون معه على السرير. وبعد أيام قلائل مرض الصبي ومات. واستراب الناس بأبوَيه إنهما قتلاه مستبدَّين بالمملكة.

(زينون قيصر) ملك خمس عشرة سنة[٣]. وفي آخر أيامه عصى السمرة بنابلس ونصبوا لهم ملكاً قتل جمعاً كثيراً من النصارى. فسيَّر عليه زينون جيشاً وقتل الخارجي السامري. ثم مرض زينون ومات وعمره إحدى وستون سنة.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ثم ملك مرقيانوس سبع سنين ح ١ ص ٢٤٨.

(٢) في الكامل لابن الأثير ثم ملك لاوست عشر سنين ح ١ ص ٢٤٨.

(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ثم ملك زانون ثماني عشرة سنة ح ١ ص ٢٤٨.

(انسطس[١] قيصر) ملك سبعاً وعشرين سنة. وفي أول ملكه قتل كثيرين من صبيان المكتب لأنهم هجوه. وفي السنة الثالثة له بُنيت داراً التي فوق نصيبين. ثم أن انسطس الملك أراد أن يوضع في البيعة قول المؤمنين في صلواتهم إنك صُلبت من أجلنا. فاضطرب أهل القسطنطينية كلهم وأخذوا الحجارة ليرجموه بها. فهاله أمرهم وجبن عنهم فوضع تاجه عن رأسه قائلاً: إني انتهي إلى أمركم فيما تريدون. فكفّ الشعب عنه. وفي السنة الحادية عشرة له عرض في بلاد الروم جوع شديد وظهر جراد كثير وأفسد عامّة غلاّتهم. ووضع يعقوب السروجي ميامر على ذلك.

وفي هذا الزمان عُرف ساويروس بطرك انطاكية ووضع كتباً كثيرة في تصحيح القول بالطبيعة الواحدة من طبيعتي اللاهوت والناسوت بغير امتزاج ولا اختلاط وفساد بل مع بقائهما على ما كانتا عليه ككون طبيعة الإنسان من طبيعتَي النفس والبدن وطبيعة الجسم من طبيعتَي الهيولي والصورة من غير انقلاب النفس بدناً ولا الهيولي صورة وبالعكس.

(يوسطينيانس[٢] قيصر) ملك تسع سنين. وكان أصله من رومية. هذا أصلح جميع البيع وردَّ كل من نفاه من الملوك قبله. وفي السنة السابعة لملكه اقتتل الروم والفرس على شاطىء الفرات وغرق من الروم خلق كثير. وفي هذه السنة سقط ثلج كثير وجليد وأفسد عامّة الأشجار مع الكروم. وبعد سنة قلّت الأمطار وعزت الغلات ونقص الماء في الينابيع ثم تبع ذلك حرّ قوي ووباء شديد ودام ست سنين. وفي هذه السنة وجه يوسطينيانس وفداً إلى المنذر ملك العرب ليصالحه لأنه كان غزا الروم وخرب وسبى. وكان سبب الفتنة بين العرب والروم اضطهاد الملك يوسطينيانس الآباء القائلين بالطبيعة الواحدة لأن النصارى العرب يومئذ إنما كانوا يعتقدون اعتقاد اليعقوبية لا غير. وفي هذا الوقت غزا كسرى ملك الفرس مدينة الرها وقتل فيها خلقاً كثيراً. فظهر نجم ذو ذؤابة وثبت أربعين ليلة. وفي السنة التاسعة لملكه أشرك معه في الملك يوسطينيانس الصغير وكان ابن اخته. وبعد ثلاث أشهر مات.

(يوسطينيانس قيصر الصغير) ملك ثمان[٣] وثلاثين سنة وأمر أن يجتمع جميع أساقفة أصحاب ساويروس القائلين بالطبيعة الواحدة إلى قسطنينية. فلما اجتمعوا وعظهم وعظاً كثيراً وسألهم أن يوافقوا مجمع خلقيذونيا بالقول بالطبيعتين والأقنوم الواحد. فلما لم يقبلوا قوله صرفهم إلى مواضعهم. وفي السنة التاسعة له انكسفت الشمس وثبت كسوفها السنة كلها وزيادة

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ إنسطاس.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨ يوسطانيوس.

(٣) تم ملك يوسطينايوس الشيخ عشرين سنة. الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨.

شهرين ولم يكن يظهر من نورها إلا شيء يسير. وكان الناس يقولون أنه قد دخل عليها عرض لا يزول عنها أبداً. وفي هذه السنة ظهر جراد كثير في عامة الأرض وكان الشتاء صعب البرد غزير الثلج ومات فيه خلق كثير. وبعد سنة ظهرت في السماء آية عجيبة وبردت حرارة الشمس السنة بأسرها ولم تنضج الثمار في تلك السنة.

وفي هذا الزمان عُرف سرجيس الرأس عينيُّ الفيلسوف المترجم الكتب من اليوناني إلى السرياني ومصنفها. وكان على مذهب ساوري. وفي السنة الرابعة عشرة ليوسطينيانس غزا كسرى ابن قباذ انطاكية وافتتحها وسبى أهلها وحدرهم إلى بابل وبنى لهم مدينة وسمّاها انطاكية وتعرف اليوم بالماحوزى الجديدة. وفتح أيضاً فامية والرقّة ودارا وحلب. وكان الروم مشتغلين مع الصقالبة المتاخين لرومية. فلما فرغوا من مجاهدتهم عطفوا على الفرس وبقيت الحرب بينهم سنتين. وعرض في المشرق جوع شديد ووباء عظيم في الناس والبقر حتى صار الناس يحرثون أرضهم بالحمير والخيل. وفي السنة الثامنة والعشرين ليوسطينيانس اصطلح الروم والفرس. وفي السنة الخامسة والثلاثين له كتب إلى جميع الأساقفة أن يعلموا عيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الأول. والدنح لستة أيام من كانون الأخير. فامتثلوا أمره خلا الأرمن فإنهم داموا على العادة الأولى في تعييد العيدَين في يوم واحد. وفي هذا الوقت ظهر يولياني القائل أن جسد المسيح غير مخلوق وهو جوهر لطيف روحاني لم يصلب بالحقيقة ولم يمت وإنما كان ذلك كله خيالاً. ومع هذا كان يقول بالطبيعة الواحدة.

(يوسطينيانس[1] قيصر الثالث) ملك ثلاث عشرة سنة. وهو ابن اخت الذي قبله. وفي السنة الثانية لملكه ظهر في السماء نار تضطرم من ناحية القطب الشمالي وثبتت السنة كلها. وكانت الظلمة تغشي العالم من تسع ساعات من النهار إلى الليل حتى لم يكن أحد يبصر شيئاً. وكان ينزل من الجو شبه الهشيم والرماد. وفي السنة الثالثة له قلت الأمطار وصار الشتاء كالصيف وصار زلزلة شديدة ووباء عظيم. وفي السنة الرابعة له غزا كسرى دارا وأقام عليها ستة أشهر وافتتحها. واستعد يوسطينيانس لغزو الفرس فمرض مرضاً اختلط به عقله فبطل الغزو. ثم تعالج فبرىء وبايع رجلاً يونانياً يسمى طيباريوس وكان من خاصته وجعله قيصراً بعده.

(١) ثم ملك يوسطينيس اثنتي عشرة سنة الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨.

الدَولةُ الثَامِنَة
المنتَقِلة مِن ملوك الإفرَنج
إلى مُلوك اليُونانيين المتنصِّرين

من عهد اغسطوس قيصر إلى أن أقام طيباريوس قيصر والمدة قريبة من ستمائة سنة كان الملوك على القسطنطينية والبطارقة وجلّ الجند رومين أعني افرنجاً. غير أن الوزراء والكتّاب والرعايا كافة كانوا يونانيين. ثم صارت المملكة أيضاً يونانية. والسبب في ذلك أن يوسطينيانس الأخير لما ابتُلي بالمرض الشديد ويئس من حياته لم يرَ في أهل بيته وخاصته من يفي بسياسة الملك غير وزيره طيباريوس وهو رجل يوناني فبايعه ووضع له التاج بيده. ومن حينئذٍ صارت مملكة القسطنطينية يونانية. إلى أن استعادها الافرنج في سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة للاسكندر وهي سنة ستمائة للهجرة. ثم فتحها اليونانيون في أيامنا سنة ألف وخمسمائة وثماني وستين للاسكندر وهي سنة خمس وخمسون وستمائة للهجرة.

(طيباريوس قيصر) ملك اربع[1] سنين. وغزت الفرْس رأس العين فوجّه إليهم طيباريوس كبير بطارقته المسمى موريقي. فلقيهم هناك فهزمهم. ثم لحق طيباريوس موريقي مع أجناده فغزا الفرس وسبى منهم زهاء ألف نفس ومضى بهم فأسكنهم جزيرة قبرس. وعرضت في هذه السنة زلزلة عظيمة. وعرض في الصيف أمطار كثيرة وبرد شديد وأظلم الجوّ وظهر جراد كثير فأكل عامَّة الزروع والعنب والبقول. وفيها عرض وباء شديد. ووجد أناس يعبدون الأوثان فقتلوا. وفي السنة الرابعة لطيباريوس زوّج ابنته لموريقي عظيم قوّاده وبايع له بالعهد وملّكه وتوفي.

(موريقي[2] قيصر) ملك عشرين سنة. وكان حسن السيرة سهل المعاملة كثير الصدقة. وكان في كل سنة يهيىء طعاماً للفقراء والمساكين ستّين مرّة ويقوم هو وزوجته من ملكهما فيتولّيان خدمتهم وإطعامهم وإسقاءهم. وفي السنة الرابعة لموريقي عرض وباء شديد بقسطنطينية ومات من أهلها زهاء اربعمائة ألف نفس. وفي السنة الثامنة لموريقي وثب الفرس على هرمز ملكهم

---

(١) ثم ملك طيباريوس ست سنين الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ثم ملك مريقيش وتاداسيس ابنه عشرين سنة.

فسملوا عينيه ثم قتلوه وملّكوا عليهم بهرام المرزبان. وكان لهرمز ابن حدث اسمه كسرى وهو المعروف بأنوشروان العادل فتنكّر كأنه سائل وشقّ سلطان الفرْس حتى جاء نصيبين وصار إلى الرها ومنها إلى منبج وكتب إلى موريقي كتاباً نسخته: للأب المبارك والسيِّد المقدّم موريقي ملك الروم من كسرى بن هرمز ابنه السلام. أما بعد فإني أُعلم الملك أن بهرام ومن معه من عبيد أبي جهلوا قدرهم ونسوا أنهم عبيد وأنا مولاهم وكفروا نعم آبائي لديهم فاعتدوا عليّ وأرادوا قتلي. فهممت أن أفزع إلى مثلك فأعتصم بفضلك وأكون خاضعاً لك لأنّ الخضوع لملك مثلك وإن كان عدواً ايسر من الوقوع في أيدي العبيد المرَدة ولأن يكون موتي على أيدي الملوك أفضل وأقل عاراً من أن يجري على أيدي العبيد. ففزعت إليك ثقةً بفضلك ورجاء أن تترأف على مثلي وتمدني بجيوشك لأقوى بهم على محاربة العدو وأصير لك ولداً سامعاً ومطيعاً إن شاء الله تعالى. فلما قرأ موريقي كتاب كسرى بن هرمز عزم على إجابة مسئلته لأنه لجأ إليه وأنجده بعشرين ألفاً وسيَّر له من الأموال أربعين قنطاراً ذهباً. وكتب إليه كتاباً نسخته: من موريقي عبد ايشوع المسيح إلى كسرى ملك الفرس ولدي وأخي السلام. أما بعد فقرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه من أمر العبيد الذين تمرّدوا عليك وكونهم غمطوا أُنعم آبائك وأسلافك غمطاً وخروجهم عليك ودحضهم إيّاك عن ملكك. فداخلني من ذلك أمرٌ حرّكني على الترأف بك وعليك وإمدادك بما سألت. فأما ما ذكرت من أن الاستتار تحت جناح ملك عدوّ والاستظلال بكنفه آثر من الوقوع في أيدي العبيد المرَدة والموت على أيدي الملوك أفضل من الموت على أيدي العبيد. فإنّك اخترت افضل الخصال ورغبت إلينا في ذلك. فقد صدقنا قولك وقبلنا كلامك وحقّقنا أملك وأتممنا بغيتك وقضينا حاجتك وحمدنا سعيك وشكرنا حسن ظنّك بنا ووَجهنا إليك بما سألت من الجيوش والأموال وصيَّرتك لي ولداً وكنت لك أباً. فاقبض الأموال مباركاً لك فيها وقُد الجيوش وسِر على بركة الله وعونه. ولا يعترينّك الضجر والهلع بل تشمّر لعدوّك ولا تقصّر فيما يجب لك إذا تطأطأت من درجتك وانحططت عن مرتبتك. فإني أرجو أن يُظفرك الله بعدوّك تعالى. ويكبّه تحت موطئ قدميك ويردّ كيده في نحره ويعيدك إلى مرتبتك برجاء الله تعالى. فلما وردَت الجيوش على كسرى وقبض الأموال وتشجّع بقراءة كتاب موريقي سار مع جيوش الروم نحو بهرام فلقيه بين المدائن وواسط. فصارت الهزيمة على بهرام وقُتل أصحابه كلّهم. واستباح كسرى عساكر بهرام ورجع إلى مملكته فجلس فيها وبايعه الناس كلهم. ودعا بالروم فأحسن جائزتهم وصرفهم إلى صاحبهم. وبعث إلى موريقي من الألطاف والأموال أضعاف ما كان أخَذ منه. وردّ دارا وميّافارقين إلى الروم وبنى هيكلين للنصارى بالمدائن وجعل احدهما باسم السيدة والآخر باسم مار سرجيس الشهيد.

وفي السنة السادسة عشرة لموريقي كان مطر شديد غرقت به مدن كثيرة مع أهلها ودوابها ومواشيها. ولأن موريقي بعد مصالحته للفرس قطع أرزاق جنوده فاجتمع عظماءُ الروم إلى مدينة

هرقلة وأردوا تمليك فطري أخي موريقي. فهرب منهم ومضى إلى قسطنطينية. وهرب أيضاً موريقي إلى خلقيذونية. فلحقته الروم فألقوه وعليه خلقان في ذي الفقراء والسؤال فقتلوه وملّكوا عليهم رجلاً من بطارقتهم يقال له فوقا.

(فوقا قيصر) ملك ثماني[1] سنين. ولم يكن من بيت الملك. فلما بلغ كسرى بن هرمز قتل موريقي نقض العهد وغزا دارا فافتتحها وافتتح أيضاً آمد وحلب. ثم عطف على قنّسرين ورجع إلى الرها. وفي السنة الثامنة لفوقا خرج عليه خارجيّان أحدهما هرقل والآخر غريغور بافريقية ووجّها جيوشاً مع ابنيهما وهما هرقل بن هرقل ونقيطا بن غريغور وتقدّما إليهما بقتل فوقا وتعاقدا بينهما أن الملك للسابق إلى قسطنطينية إذا قتل فوقا. فركب هرقل البحر وسار نقيطا في البرّ والفى هرقل البحر هادئاً ساكناً فسبق ودخل المدينة وقتل فوقا وملك.

(هرقل قيصر) ملك إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر. وفي أول سنة من ملكه أرسل وفداً إلى ملك الفرس ليصالحه. فلم يجبه إلى ذلك بل غزا انطاكية وفامية وحمص وقيسارية وافتتحها. وفي هذه السنة عرض بالروم جوع شديد حتى أكل الناس الجيَف وجلود البهائم. وقصد نقيطا بن غريغور مدينة الاسكندرية فاستولى عليها. وفي السنة الرابعة لهرقل ملكت العرب وهي سنة تسعمائة وخمس وثلاثين الاسكندر. وفي السنة الخامسة لهرقل افتتح الفرس البيت المقدس. وبعد ثلاث سنين افتتحوا الاسكندرية ومصر ووصلوا إلى النوبة وغزوا خلقيذونيا فافتتحوها. وفي السنة العاشرة لهرقل تحرّكت العرب بيثرب. وفي السنة الخامسة عشرة لهرقل غزا الفرس جزيرة رودس فافتتحوها. وأمر كسرى أن يؤخذ رخام الكنائس التي في جميع المدن التي فتحها وتحدر إلى المدائن. ولقي فيه الناس جهداً جهيداً. وفي هذه السنة غزا أهل هرقل الفرس فافتتحوا مدينة كسرى وسبوا منها خلقاً كثيراً وانصرفوا. وفي السنة السابعة عشرة لهرقل انكسف نصف جرم الشمس وثبت كسوفها من تشرين الأول إلى حزيران ولم يكن يظهر من نورها إلاّ شيء يسير.

وفي هذا الزمان كان الحَرث بن كلدة طبيب العرب أصله من ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطبّ عن أهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية قبل الإسلام وطبّب بأرض فارس وحصّل مالاً. ثم أن نفسه اشتاقت إلى بلاده فرجع إلى الطائف واشتهر وأدرك الإسلام. وكان النبيّ عليه السلام يأمر من كان به علّة أن يأتيه فيستوصفه. وكان الحَرث يقول: من سرّه البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دَين وقيل مات الحَرث في أول الإسلام ولم يصحّ إسلامه. وفي هذا الزمان كان يُعرف اهرون القسّ الاسكندري. وكنّاشهُ في الطبّ موجود عندنا بالسريانية وهو ثلاثون مقالة. وزاد عليها مقالتين أُخرَيين.

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٢٤٨. ثم ملك فوقا الذي قتل سبع وستة أشهر.

الدَولةُ التَاسِعَة
المنتَقلة مِن مُلوك اليُونانيّين المتنصِّرين
إلى مُلوك العَرَب المسلمينُ

قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي صاحب قضاء مدينة طليطلة: إن العرب فرقتان فرقة بائدة وفرقة باقية. أما الفرقة البائدة فكانت أمماً ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس. ولتقادم انقراضهم ذهبت عنّا حقيقة أخبارهم وانقطعت عنّا أسباب العلم بآثارهم. وأما الفرقة الباقية فهي متفرّعة من جذمَين قحطان وعدنان. ويضمّهما حالان حال الجاهلية وحال الإسلام. فأما حال العرب في الجاهلية فحالٌ مشهور عند الأمم من العزّ والمنعة وكان ملكهم في قبائل قحطان وكان بيت الملك الأعظم في بني حَمير وكان منهم الملوك السادة الجبابرة التبابعة. وأما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين أهل مدَر وأهل وبَر. فأمّا أهل المدَر فهم الحواضر وسكّان القرى. وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. وأما أهل الوبَر فهم قطّان الصحارى. وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها منتجعين بمنابت الكلإ مرتادين لمواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب الشعب وابتغاء المياه فلا يزالون في حلّ وتَرحال كما قال بعضهم عن ناقته:

تـقـولُ إذا درأتُ لـهـا وضـيـنـي ... أهـذا ديـنـهُ ابـداً وديـنـي
أكـلَّ الـدهـر حـلٌ وارتـحـالٌ ... أمـا يُـبـقـي عـلـيَّ ولا يـقـيـنـي

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع. فإذا جاء الشتاء واقشعرّت الأرض انكمشوا إلى ارياف العراق وأطراف الشام. فشتّوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش. وكانت أديانهم مختلفة. فكانت حَمير تعبد الشمس. وكنانة القمر. وميسم الدبَران. ولخم وجُذام المشتري. وطيّء سهيلاً. وقيس الشعرى العبور. وأسد عطارد. وثقيف بيتاً بأعلى نخلة يقال لها اللاّت. وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد أن من نُحرت ناقته على قبره حُشر راكباً ومن لم يفعل ذلك حُشر ماشياً. فأما علم العرب الذين كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب. وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلمٌ بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك

في أسباب المعيشة لا على طريق تعلّم الحقائق. وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه ولا هيأ طبائعهم للعناية به. فهذه كانت حالهم في الجاهلية. وأما حالهم في الإسلام فعلى ما نذكره بأوجز ما يمكننا وأقصر إن شاء الله.

(محمد بن عبد الله عليه السلام) ذكر النسّابون أن نسبته ترتقي إلى إسماعيل ابن إبرهيم الخليل الذي ولدت له هاجر أَمَة سارة وزوجته. وكان ولاده بمكة سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للاسكندر[١]. ولما مضى من عمره سنتان[٢] بالتقريب مات عبد الله أبوه وكان مع أمّه آمنة بنت وهب ست سنين. فلما توفيت أخذه إليه جدُّه عبد المطلب وحنا عليه. فلما حضرته الوفاة أوصى ابنه أبا طالب بحياطته فضمه إليه وكفله. ثم خرج به وهو ابن تسع سنين إلى الشام. فلما نزلوا بُصرى خرج إليهم راهب عارف اسمه بحيرا من صومعته وجعل يتخلل القوم حتى انتهى إليه فأخذه بيده وقال: سيكون من هذا الصبي أمر عظيم ينتشر ذكره في مشارق الأرض ومغاربها فإنه حيث أشرف أقبل وعليه غمامة تظلله. ولما كمل له من العمر خمس وعشرون سنة عرَضت عليه امرأة ذات شرف ويسار اسمها خديجة أن يخرج بمالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره. فأجابها إلى ذلك وخرج. ثم رغبت فيه وعرضت نفسها عليه فتزوجها وعمرها يومئذ أربعون سنة. وأقامت معه إلى أن توفيت بمكة اثنتين وعشرين سنة. ولما كمل له أربعون سنة أظهر الدعوة. ولما مات أبو طالب عمُّه وماتت أيضاً خديجة زوجته اصابته قُرَيش بعظيم أذًى. فهاجر عنهم إلى المدينة وهي يثرب. وفي السنة الأولى من هجرته احتفل الناس إليه ونصروه على المكيّين أعدائه. وفي السنة الثانية من هجرته إلى المدينة خرج بنفسه إلى غزاة بدر وهي البطشة الكبرى وهزم بثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المسلمين ألفاً من أهل مكة المشركين. وفي هذه السنة صُرفت القبلة عن جهة البيت المقدس إلى جهة الكعبة. وفيها فرض صيام شهر رمضان. وفي السنة الثالثة خرج إلى غزاة أُحُد. وفيها هزم المشركون المسلمين وشُجّ في وجهه وكسرت رباعيته. وفي السنة الرابعة غزا بني النُضير اليهود وأجلاهم إلى الشام. وفيها اجتمع أحزاب شتى من قبائل العرب مع أهل مكة وساروا جميعاً إلى المدينة فخرج إليهم. ولأنه هال المسلمين أمرُهم أمر بحفر خندق وبقوا بضعةً وعشرين يوماً لم يكن بينهم حرب. ثم جعل واحد من المشركين يدعو إلى البراز. فسعى نحوه عليُّ بن أبي طالب وقتله وقتل بعده صاحباً له. وكان قتلهما سبب هزيمة الأحزاب على كثرة

---

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٣٥٥، ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول.

(٢) في الكامل لابن الأثير ح ١ ص ٣٦١، هلك عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ وأم رسول الله حامل به.
وفي المنتظم لابن الجوزي ح ١ ص ٢٤٣ تزوج آمنه فلما حملت برسول الله توفي.

عددهم ووفرة عُدَدهم. وفي السنة الخامسة كانت غزاة دومة الجندل وغزاة بني لحيان. وفي السنة السادسة خرج بنفسه إلى غزاة بني المصطلق وأصاب منهم سبياً كثيراً وفي السنة السابعة خرج إلى غزاة خيبَر مدينة اليهود. وينقل عن عليّ بن أبي طالب أنه عالج باب خيبر واقتلعه وجعله مجناً وقاتلهم. وفي الثامنة كانت غزاة الفتح فتح مكة وعهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا فيها إلا من قاتلهم وأمَّن من دخل المسجد ومن أغلق على نفسه بابه وكفَّ يده ومن تعلّق بأستار الكعبة سوى قوم كانوا يؤذونه. ولما أسلم أبو سفيان وهو عظيم مكة من تحت السيف ورأى جيوش المسلمين قال للعبَّاس يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال له: ويحك إنها النبوَّة. قال نعم إذن. وفي السنة التاسعة خرج إلى غزاة تبوك من بلاد الروم ولم يحتجْ فيها إلى حرب. وفي السنة العاشرة حجّ حجَّة الوداع. وفيها تنبأ باليمامة مسيلمة الكذَّاب وجعل يسجع مضاهياً للقرآن فيقول: لقد أنعم الله على الحبلى أخرج منها نسمةً تسعى من بين صفاق وحشاً. وفي هذه السنة وعك عليه السلام ومرض وتوفي يوم الإثنين[١] لليلتين بقيتا من صفر. وكان عمره بجملته ثلاثاً وستين سنة منها أربعون سنة قبل دعوة النبوّة ومنها بعدها ثلاث عشرة سنة مقيماً بمكة ومنها بعد الهجرة عشر سنين مقيماً بالمدينة. ولما تُوفي أراد أهل مكة من المهاجرين ردَّه إليها لأنها مسقط رأسه. وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه بالمدينة لأنها دار هجرته ومدار نصرته. وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس لأنه موضع دفن الأنبياء. ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة فدفنوه بحجرته حيث قُبض. واختلفوا عن عدد أزواجه. وأكثر ما قالوا سبع عشرة[٢] امرأة سوى السراري. ووُلد له سبعة أولاد ثلاثة بنين وأربع بنات كلهم من خديجة إلاّ ابرهيم ابنه فإنه من ماريّة القبطية التي بعث بها المقوقس إلى الإسكندرية مع اختها شيرين. ولم يمت من نسائه قبله إلاّ اثنتان. ولم يعش من أولاده بعده إلاّ ابنة واحدة هي فاطمة زوجة عليّ بن أبي طالب وتُوفيت بعد أبيها بثلاثة[٣] أشهر.

وقد وقع في الإسلام اختلافات شتى كما وقع في غيره من الأديان بعضها في الأصول وهي موضوع علم الكلام وبعضها في الفروع وهي موضوع علم الفقه. والخلاف في الأصول

(١) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٦ توفي رسول الله ص ٤٦ يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول.
وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٤ ص ١٨٧ وكان موته يوم الاثنين لاثنين عشرة خلت من ربيع الأول.

(٢) في مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ٢٩٠ وكان عدد من تزوج من النساء خمسة عشرة دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل بأربع.

(٣) في البداية والنهاية لابن كثير (توفيت فاطمة بعد رسول الله بستة أشهر على أشهر الأقوال/ في البداية والنهاية لابن كثير ح ٥ ص ٢٦٧.

فينحصر في أربع قواعد الأولى الصفات والتوحيد. الثانية القضاء والقدَر. الثالثة الوعد والوعيد. الرابعة النبوَّة والإمامة.

وكبار فرَق الأصوليِّين ستّ. المعتزلة ثم الصفاتية وهما متقابلتان تقابُل التضادّ. وكذلك القدريَّة تضادّ الجبريَّة. والمرجئة الوعيديَّة. والشيعيَّة الخوارج. ويتشعَّب عن كل فرقة أصناف فتصِل إلى ثلاث وسبعين فرقة. أما المعتزلة فالذي يعمُّهم من الاعتقاد القول بنفي الصفات القديمة عن ذات الباري تعالى هرباً من أقانيم النصارى. فمنهم من قال إنه تعالى عالم لذاته لا بعلم وكذلك قادرٌ وحيّ. ومنهم من قال إنه عالم بعلم وهو ذاته وكذلك قادرٌ وحيّ. فالأول نفى الصفة رأساً والثاني أثبت صفةً هي بعينها ذات. واتَّفقوا على أنّ كلامه تعالى محدث بخلقِه في محلّ وهو حرف وصوت وكتب مثاله في المصاحف. وبالجملة نفي الصفات مقتبس من الفلاسفة الذي اعتقدوا أن ذات الله تعالى واحدة لا كثرة فيها بوجه. وبازاء المعتزلة الصفاتيَّة وهم يثبتون لله صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة وغيرها. وبلغ بعضهم في إثبات الصفات كالسمع والبصر والكلام إلى حدِّ التجسيم فقال: لا بدّ من إجراء الآيات الدَّالَّة عليها كالاستواء على العرش والخلق باليد وغيرهما على ظاهرها من غير تعرُّض للتأويل. إلاّ أن قوماً منهم كأبي الحسن الأشعريّ وغيره لَمّا باشروا علم الكلام منعوا التشبيه وصار ذلك مذهباً لأهل السنَّة والجماعة وانتقلت سنَّة الصفاتيَّة إلى الأشعريَّة.

وأمّا القدريّة فهم معتزلة أيضاً وإنما لُقِّبوا بالقدريَّة لنفيهم القدَر لا لإثباتهم إيّاه فإنهم يقولون أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرّها مستحقّ على ما يفعله ثواباً وعقاباً. فالرَّب تعالى منزَّه عن أن يضاف إليه شرّ وظلم. وسمَّوا هذا النمط عدلاً. وحدّه بأنه إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة لمقتضى العقل من الحكمة. وبازاء القدريّة الجبريّة الذين ينفون الفعل والقدرة على الفعل عن العبد ويقولون إن الله تعالى يخلق الفعل ويخلق في الإنسان قدرة متعلّقة بذلك الفعل ولا تأثير لتلك القدرة على ذلك الفعل. ومنهم من يُثبت للعبد قدرة ذات أثر ما في الفعل ويقولون إن الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشاء ولا يُسأل عمَّا يفعل. فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنَّة لم يكن حيفاً. ولو أدخلهم بأجمعهم النار لم يكن جوراً بل هو في كل ذلك عادل لأنَّ العدل على رأيهم هو التصرُّف فيما يملكه المتصرِّف.

وأما المرجئة فهم يقولون بارجاء حكم صاحب الكبيرة من المؤمنين إلى القيامة أي بتأخيره إليها. فلا يقضون عليه بحكم ما في الدنيا من كونه ناجياً أو هالكاً ويقولون أيضاً أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وبازاء المرجئة الوعيدية القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار وإن كان مؤمناً لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفّار. وأما الشيعة

فهم الذين شايعوا عليّ بن أبي طالب وقالوا بإمامته بعد النبيّ. وإن الإمامة لا تخرج من أولاده إلا بظلم. ويجمعهم القول بثبوت عصمة الأئمّة وجوباً عن الكبائر والصغائر. فإن الإمامة ركن من أركان الدين لا يجوز للنبي إغفاله ولا تفويضه إلى العامّة. ومن غلاة الشيعة النصيريّة القائلون بأن الله تعالى ظهر بصورة علي ونطق بلسانه مخبراً عمّا يتعلّق بباطن الأسرار. وقوم منهم غلوا في حق أئمّتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيهم بأحكام الاهية. وبازاء الشيعة الخوارج فمنهم من خطّأ عليّ بن أبي طالب فيما تصرّف فيه ومنهم من تخطّى عن تخطئته إلى تكفيره ومنهم من جوّز أن لا يكون في العالم إمام أصلاً وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حرًا أو نبطيًا أو قرشيًا إذا كان عادلاً. فإن عدل عن الحق وجب عزله وقتله. فهذا اقتصاص مذهب الأصوليين على سبيل الاختصار.

وأما مذاهب الفروعيّين المختلفين في الأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية فالمشهورة منها أربعة: مذهب مالك بن أنس. ومذهب محمد بن ادريس الشافعي. ومذهب أحمد ابن حنبل. ومذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت. وأركان الاجتهاد أيضاً أربعة: الكتاب والسنّة والإجماع والقياس. وذلك لأنه إذا وقعت لهم حادثة شرعيّة من حلال وحرام فزعوا إلى الاجتهاد وابتدأوا بكتاب الله تعالى. فإن وجدوا فيه نصًا تمسّكوا به وإلا فزعوا إلى سنّة النبي فإن رأوا لهم في ذلك خبراً نزلوا إلى حكمه وإلا فزعوا إلى إجماع الصحابة لأنهم راشدون حتى لا يجتمعون على ضلال. فإن عثروا بما يناسب مطلوبهم أجروا حكم الحادثة على مقتضاه وإلا فزعوا إلى القياس لأن الحوادث والوقائع غير متناهية والنصوص متناهية فلا يتطابقان فعلم قطعاً أن القياس واجب الاعتبار ليكون بصدد كل حادثة شرعية اجتهاد قياسيّ. ومن الأئمة داود الأصفهاني نفى القياس أصلاً. وأبو حنيفة شديد العناية به وربما يقدّم القياس الجليّ على آحاد الأخبار. ومالك والشافعي وابن حنبل لا يرجعون إلى القياس الجلي ولا الخفيّ ما وجدوا خبراً أو أمراً. وبينهم اختلاف في الأحكام ولهم فيها تصانيف وعليها مناظرات ولا يلزم بذلك تكفير ولا تضليل. وبالجملة أصول شريعة الإسلام الطهارة في حواشي الإنسان وأطرافه لإرسالها وملاقاتها النجاسات. والصلاة وهي خضوع وتواضع لرب العزّة. والزكاة وهي مؤاساة ومعونة وإفضال. والصيام وهو رياضة وتذليل وقمع الشهوة تحصل به رقة القلب وصفاء النفس. والحجّ وهو مثال الخروج عن الدنيا والإقبال على الآخرة وأكثر ما فيه من المناسك امتحان وابتلاء العبد بامتثاله ما شرع له وذلك كالسعي والهرولة في الطواف ورمي الجمار. وأما الجمعة والأعياد فجعلت مجمعاً للأمّة يتلاقون ويتزاورون ويستريحون فيها عن كدّ الكدح. وأما الختان فهو سنّة فيه ابتلاء وامتحان وتسليم. وأما تحريم الميتة والدم ففي كراهية النفس ونفار الطبع ما يوجب الامتناع منها.

(أبو بكر الصديق) أعظم خلاف بين الأئمّة الإسلامية خلاف الإمامة وعليه سلّ السيوف.

وقد اتفق ذلك في الصدر الأول فاختلف المهاجرون والأنصار فيها. فقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فاستدركهم أبو بكر وعمَر في الحال. وقبل أن يشتغلوا بالكلام مد عمر يده إلى أبي بكر فبايعه وبايعه الناس وسكنت الثائرة. وبُويع له في شهر ربيع أول سنة إحدى عشرة يوم[١] توفي النبي عليه السلام في سقيفة بني ساعدة. وقيل لما بلغ ذلك عليّ بن أبي طالب لم ينكره. وأكثر ما رُوي أنه قال: ما شاورتني. فقال له أبو بكر: ما اتسع الوقت للمشورة وإنا خفنا أن يخرج الأمر منا. ثم صعد المنبر فقال: أقيلوني من هذا الأمر فلست بخيركم. فقال عليّ: لا نقيلك ولا نستقيلك. فأجمع المهاجرون والأنصار على خلافته. ولما ذاع خبر وفاة النبي عليه السلام ارتدّ خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لإطباقهم على الردة. فأوَوا الذراي والعيال إلى الشعاب. فأمّر أبو بكر خالد بن الوليد على الناس وبعثه في أربعة آلاف وخمسمائة. فسار حتى وافى المرتدة وناوشهم القتال وسبى ذراريهم وقسم أموالهم. وضجّ أيضاً المسلمون إلى أبي بكر فقالوا: ألا تسمع ما قد انتشر من ذكر هذا الكذاب مسيلمة بأرض اليمامة وادعائه النبوّة. فأمر خالد بن الوليد بالمسير إلى محاربته. فسار بالناس حتى نزل بموضع يسمى عقرباء. وسار مسيلمة في جمع من بني حنيفة فنزل حذاء خالد. وكان بينهما وقعات واشتدت الحرب من الفريقين واقتحم المسلمون بأجمعهم على مسيلمة وأصحابه فقاتلوهم حتى احمرت الأرض بالدماء. ونظر عبد أسود اسمه وحْشي إلى مسيلمة فرماه بحربة فوقعت على خاصرته فسقط عن فرسه قتيلاً. ومن هناك توجه خالد إلى أرض العراق فزحف إلى الحيرة ففتحها صلحاً. وكان ذلك أول شيء افتتح من العراق. وقد كان أبو بكر وجّه قبل ذلك أبا عبيدة بن الجرّاح في زهاء عشرين ألف رجل إلى الشام. وبلغ هرقل ملك الروم ورود العرب إلى أرض الشام فوجه إليهم سرجيس البطريق في خمسة آلاف رجل من جنوده ليحاربهم. وكتب أبو بكر إلى خالد عند افتتاحه الحيرة يأمره أن يسير إلى أبي عبيدة بأرض الشام. ففعل والتقى العربُ الرومَ فانهزم الروم وقتل سرجيس البطريق وذلك أنه في هربه سقط من فرسه فركبه غلمانه فسقط فركّبوه ثانياً فهبط أيضاً وقال لهم: فوزوا بأنفسكم واتركوني أُقتل وحدي. وفي سنة ثلاث عشرة للهجرة مرض أبو بكر خمسة عشرة يوماً ومات رحمه الله يوم الإثنين[٢] لثمان خلونَ من جمادي الآخرة وهو ابن ثلاثة وستين سنة. وكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا[٣] ثمانية أيام. وفيها وهي سنة تسعمائة وستّ

(١) في مروج الذهب للمسعودي ح ٤ ص ٣٠٤ بايع الناس أبي بكر في سقيفة بني ساعدة في يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله.

(٢) في مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ٣٠٤ توفي أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة وكذلك الكامل في التاريخ.

(٣) في مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ٣٤٠ وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

وأربعين للاسكندر خالف هرقل الناموس وتزوّج مرطياني ابنة أخيه وولدت منه ابناً غير ناموسي وسماه باسمه مصغّراً هريقل.

(**عُمر بْنُ الخطاب**) ويكنى أبا حفص. قيل إنّ أبا بكر لما دنا أجله قال لعثمان بن عفان كاتبه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عمد عبد الله بن أبي قحافة وهو في آخر ساعات الدنيا وبأول ساعات الآخرة. ثم غمي عليه. فكتب عثمان: إلى عمَر بن الخطاب. فلما أفاق قال: من كتبت. قال: عمر. قال: قد أصبتَ ما في نفسي. ولو كتبتَ نفسك لكنتَ أهلاً له. واجمعوا على ذلك. وكان يُدعى خليفةَ خليفةِ رسول الله. قالوا: هذا يطول. فسمّي أمير المؤمنين. وهو أول من سمّي بذلك. ولما استخلف قام في الناس خطيباً فقال بعد الحمدلة: أيها الناس لولا ما أرجوه من خيركم وقوامكم عليه لما أوليتكم إلى غير ذلك. فلما ولي الأمر لم يكن له همة إلاّ العراق. فعقد لأبي عبيد بن مسعود على زُهاء ألف رجل وأمره بالمسير إلى العراق ومعه المثنّى بن حارثة وعمرو بن حزم وسليط بن قيس. فساروا حتى نزلوا الثعلبية. فقال سليط: يا أبا عُبيد إياك وقطع هذه اللجة فإني أرى للعجم جموعاً كثيرة. والرأي أن تعبر بنا إلى ناحية البادية وتكتب إلى أمير المؤمنين عُمَر فتسأله المدد. فإذا جاءك عبرت إليهم فتناجزهم الحرب. فقال أبو عبيد: جبنتَ والله يا سليط. فقال المثنى: والله ما جبن ولكن أشار عليك بالرأي فإياك أن تعبر إليهم فلتقي نفسك وأصحابك وسط أرضهم فتنشب بك مخاليبهم. فلم يقبل منهما أبو عُبيد وعقد الجسر وعبر بمن معه على كره منهما.

فعبرا معه. وعبّى أبو عُبيد أصحابه ووقف هو في القلب. فزحف إليه العجم فرشقوهم بالنشاب حتى كثرت في المسلمين الجراحات. فحمل العرب حملة رجل واحد وكشفوا العجم. ثم إن العجم ثابوا وحملوا على المسلمين. فكان أبو عُبيد أول قتيل وقُتل من المسلمين عالم. فولّى الباقون مارّين نحو الجسر والمثنى يقاتل من ورائهم لجميعهم حتى عبروا جميعاً وعبر المثنى في آخرهم وقطعوا الجسر. وكتب إليه عُمر أن يُقيم إلى أن يأتيه المدد. وكانت هذه الوقعة في شهر[1] رمضان يوم السبت سنة ثلاث عشرة من التاريخ. ثم إن عُمر أرسل رسله إلى قبائل العرب يستنفرهم. فلما اجتمعوا عنده بالمدينة ولّى جرير بن عبد الله البجلي أمرَهم. فسار بهم حتى وافى الثعلبية. وانضم إليه من هناك. ثم سار حتى نزل دير هند. ووجه سراياه للغارة بأرض السواد مما يلي الفرات. فبلغ ذلك ازرميدخت ملكة العجم فأمرت أن ينتدب من مقاتليها إثنا عشر ألف فارس من أبطالهم. فانتدبوا وولت عليهم مهران بن مهرويه عظيم المرازبة. فسار بالجيش حتى وافى الحيرة. ورجعت سرايا العرب واجتمعوا وتهيأ الفريقان للقتال وزحف بعضهم إلى بعض

(١) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٦٦ وكانت هذه الوقعة في آخر شهر رمضان وأول شهر شوال.

وتطاعنوا بالرماح وتضاربوا بالسيوف. وتوسط المثنى العجم يجالدهم بسيفه. ثم رجع منصرفاً إلى قومه. وصدقهم العجم القتال فثبت بعض العرب وانهزم البعض. فقبض المثنى على لحيته ينتفها. فحملت قبائل العرب وحملت عليهم العجم فاقتتلوا من وقت الزوال إلى أن توارت الشمس بالحجاب. ثم حملوا على العجم. وخرج مهران فوقف أمام أصحابه. فحمل عليه المثنى. فضربه مهران فنبا السيف عن الضربة. وضربه المثنى على منكبه فخرّ ميتاً وانهزم العجم لاحقين بالمدائن. وثاب المسلمون يدفنون موتاهم ويداوون جرحاهم. فلما نظرت العجم إلى العرب وقد أخذت أطراف بلادهم وشنّوا الغارة في أرضهم قالوا: إنما أوتينا من تمليكنا النساء علينا. فاجتمعوا على خلع ازرميدخت بنت كسرى وتمليك غلام اسمه يزدجرد وقد كان نجم من عقب كسرى بن هرمز. فأجلسوه وبايعوه على السمع والطاعة. فاستجاش يزدجرد جنوده من آفاق مملكته وولى عليهم رجلاً عظيماً من عظماء مرازبته له سنٌّ وتجربة يقال له رستم. فوجهه إلى الحيرة ليحارب من ورد عليه هناك من العرب. وعقد أيضاً لرجل آخر من حرّ سادات العجم يسمى الهرمزان في جنود كثيرة ووجهه إلى ناحية الأهواز لمحاربة أبي موسى الأشعري ومَن معه. وعند الالتقاء قتل هاذان المرزبانان العظيمان. ومرّت العرب في أثر العجم يقتلون من أدركوا منهم.

وفي خلافة عُمَر فتح أبو عُبيدة دمشق[١] بعد حصار سبعة أشهر. وصالح أهل مَيْسان وطبرية وقيسارية[٢] وبعلبك. وفتح حمص بعد حصار شهرين. وفيها كتب عمر إلى معاوية بن أبي سفيان بولاية دمشق. وفيها دخل ميسرة بن مسروق العبسي أرض الروم في أربعة آلاف وهو أول جيش دخل إلى الروم. وفيها فتح عمرو بن العاص مصر عنوةً وفتح الاسكندرية صلحاً. وفيها دخل عياض بن غنم سروج والرها صلحاً. وفيها افتتح أيضاً الرقة وآمد ونصيبين وطور عبدين وماردين صلحاً. وفتح حبيب بن مسلمة قرقيسياء[٣] صلحاً. وفيها فتح عُتبة بن غزوان قرى البصرة ثم سار حتى وافى الأبلّة فافتتحها عنوة. ثم صار إلى المدائن فحارب مرزبانها وضرب عنقه وقتل من جنوده مقتلة عظيمة. ثم أن عُتبة كتب إلى عمر يستأذنه في الحج. فاستعمل عمر على عمله المغيرة بن شُعبة. ثم عزله واستعمل على أرض ميسان أبا موسى الأشعريّ وأمره أن يبتني بأرض البصرة خططاً لمن عنده من العرب ويجعل كل قبيلة في محلّة. وابتنوا لأنفسهم المنازل. وبنى بها مسجداً جامعاً متوسطاً. وعند فراغه من بناء مدينة البصرة أسكن فيها ذرية من كان بها من العرب وسار في جنوده إلى جميع كوَر الأهواز فافتتحها إلاّ مدينة تستر فإنهم امتنعوا لحصانتها.

(١) أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٢ ص ٢٧٨.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٢ ص ٢٨١ فتح بيسان وطبرية.

(٣) أنظر الكامل في التاريخ ح ٢ ص ٣٧٠.

وفيها رحل هرقل من أنطاكية إلى القسطنطينية وهو يقول باليونانية سوزه سورية. وهي كلمة وداع لأرض الشام وبلادها. ثم مات هرقل وقام ابنه قسطنطين مكانه وبعد أربعة أشهر قتلته مرطياني امرأة أبيه بالسم وأقامت ابنها هريقل وسمته داود الحديث. فنقم أرباب الدولة أمره وخلعوه وملكوا قسطوس ابن القتيل. وفيها افتتح عبد الله بن بديل اصفهان[١] صلحاً. وفيها فتح جرير البجليّ همذان. وفيها كانت وقعة نهاوند[٢]. وفيها افتتح معاوية عسقلان بصلح في شهر رمضان. ومات عمر يوم الأربعاء لخميس[٣] بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة وعمره ثلاثة وستون سنة. وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وسبعة[٤] عشر يوماً. قتله أبو لؤلؤة فتى المغيرة بن شعبة في صلاة الفجر. وكان السبب في ذلك أن أبا لؤلؤة جاء إليه يشكو ثقل الخراج وكان عليه كل يوم درهمان. فقال له عمر: ليس بكثير في حقك فإني سمعت عنك إنك لو أردتَ أن تدير الرحى بالريح لقدرتَ عليه. فقال: لأديرنّ لك رحىً لا تسكن إلى يوم القيامة. فقال: إن العبد أوعد ولو كنت أقتل أحداً بالتهمة لقتلت هذا. ثم أن الغلام ضربه بالخنجر في خاصرته طعنتين. فدعا عمر طبيباً لينظره فسقاه لبناً فخرج اللبن بيّناً. فقال له: أعهد يا أمير المؤمنين.

وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أي النحويّ. وكان اسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة ساوري. ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث. فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه. فلم يرجع. فأسقطوه عن منزلته. وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية. ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها انسة ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه.

ومن الأطباء المشهورين في هذا الزمان بولس الأجانيطي طبيب مذكور في زمانه وكان خيراً خبيراً بعلل النساء كثير المعاناة لهنّ. وكانت القوابل يأتينه ويسألنه عن الأمور التي تحدث للنساء عقيب الولادة فينعم بالجواب لهنّ ويجيبهنّ عن سؤالهنّ بما يفعلنه. فلذلك سمّوه بالقوابلي. وله كتاب في الطب تسع مقالات نقل حُنين بن اسحق. وكتاب في علل النساء. ومنهم مغنوس له ذكر بين الأطباء ولم نرَ له تصنيفاً.

---

(١) أصفهان مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها وأصبهان اسم للإقليم بأسره في بلاد فارس.

(٢) نهاوند: مدينة عظيمة في همذان ببلاد فارس وهي أقدم مدينة في الجبل وكان في وسطها حصن عجيب البناء.

(٣) في مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ح ١ ص ٣١٢ قتله فيروز أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين.

(٤) في مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ٣١٢ «وأربع ليال».

(عثمان بن عفّان) ويكنى أبا عمرو. بويع له لليلتين بقيتا من ذي[١] الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة. قيل لما ضرب أبو لؤلؤة عمر بالخنجر وشرب اللبن فخرج من جراحته فقالوا له: اعهد إلى من تكون الخلافة بعدك. قال: لو كان سالم حياً لم أعدل به. قيل له: هذا عليّ بن أبي طالب وقد تعرف قرابته وتقدمه وفضله. قال: فيه دعابة أي مزاح. قيل: فعثمان بن عفّان. قال: هو كلف بأقاربه. قيل: فهذا الزُبير بن العوام حواريّ النبي عليه السلام. قال: بخيل. قيل: فهذا سعد. قال: فارس مقنَب. والمقنب ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل. قيل: فهذا طلحة ابن عم أبي بكر الصديق. قال: لولا بأوٌ فيه أي كبر وخيلاء. قيل: فابنك. قال: يكفي أن يُسأل واحد من آل الخطاب عن امرأة أمير المؤمنين. ولكن جعلت هذا الأمر شورى بين ستة نفر وهم عثمان وعليّ وطلحة والزبير وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص إلى ثلاثة أيام. فلما دُفن عمر جاء أبو عُبيدة إلى عليّ بن أبي طالب فقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه وسنّة الشيخين. قال: أما كتاب الله وسنّة نبيه فنعم. وأمّا سنّة الشيخين فأجتهد رأيي. فجاء إلى عثمان فقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه وسنّة الشيخين. قال: اللهمّ نعم. فبايعه أبو عبيدة والجماعة ورضوا به. وأول ما فتح في خلافته ماهُ البصرة وما كان بقى من حدود أصفهان والرَيّ على يد أبي موسى الأشعريّ. ثم بعث عثمان عبد الله بن عامر إلى اسطخر[٢] وبها يزدجرد فخرج إلى دارابجرد فأرسل عبد الله مشاجع مسعود في أثر يزدجرد. فركب المفازة حتى أبي كرمان وأخذ على طريق سجستان[٣] يريد الصين. وجاء مجاشع إلى سجستان. ثم انصرف لّما لم يدرك يزدجرد وعاد إلى فارس. فاشتد خوف يزدجرد واستمدّ طرخان التركي لنصرته. ولما ورد استخف به وطرده لكلام تكلم به بعض الترك. وعند انصرافهم أرسل ماهويه مرزبان مرو وكان قد خامر على يزدجرد إلى طرخان أن: كرّ عليه فإني أظاهرك. فكرّ طرخان على يزدجرد. فولّى يريد المدينة. فاستقبله ماهويه فمزقه كل ممزق. وقيل إن يزدجرد انتهى إلى طاحونة بقرية من قرى مرو فقال للطحان: اخفني ولك منطقتي وسواري وخاتمي. فقال الرجل: إن كرى الطاحونة كل يوم أربعة دراهم. فإن أعطيتنيها عطلتها وإلا فلا. فبينا هو في راجعته إذ غشيته الخيل فقتلوه. وانتزع عثمان عمرو بن العاص عن الاسكندرية وأمّر عليها عبد الله بن مسعود أخاه لأمّه. فغزا افريقية وغزا معاوية قبرس[٤] وانقرة فافتتحها صلحاً. ثم أن الناس نقموا على عثمان أشياء منها كلفه بأقاربه.

(١) في الكامل في التاريخ ح ٢ ص ٤٧٥ لثلاث مضين منه بويع عثمان عام الرعاف (وفي مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ٣٤٠ بويع عثمان يوم الجمعة غرة المحرم لليلة بقيت من ذي الحجة.

(٢) اصطخر: بلدة بفارس يقال إن كورفارس خمسة أكبرها اصطخر.

(٣) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة وهي أرض واسعة لا يرى بها جبل.

(٤) قبرس: وهي جزيرة في البحر الأبيض المتوسط.

فآوى الحكم بن العاص بن أُميّة طريد النبي عليه السلام. وأعطى عبد الله بن خالد أربعمائة ألف درهم. وأعطى الحكم مائة ألف درهم. ولما ولي صعد المنبر فتسنم ذروته حيث كان يقعد النبي عليه السلام. وكان أبو بكر ينزل عنه درجة وعمر درجتين. فتكلم الناس عن ذلك وأظهروا الطعن. فخطب عثمان وقال: هذا مال الله أعطيه من شئت وامنعه ممن شئت. فارغم الله أنف من رغم أنفه. فقام عمّار بن ياسر فقال: أنا أول من رُغم أنفه. فوثب بنو أمية عليه وضربوه حتى غشي عليه. فحنقت العرب على ذلك وجمعوا الجموع ونزلوا فرسخاً من المدينة وبعثوا إلى عثمان من يكلمه ويستعتبه ويقول له: إما أن تعدل أو تعتزل. وكان أشد الناس على عثمان طلحة والزُبير وعائشة. فكتب عثمان إليهم كتاباً يقول فيه: إني أنزع عن كل شيءٍ أنكرتموه وأتوب إلى الله. فلم يقبلوا منه وحاصروه عشرين يوماً. فكتب إلى عليّ: أترضى أن يُقتل ابن عمك ويُسلب ملكك. قال عليّ: لا والله. وبعث الحسن والحسين إلى بابه يحرسانه. فتسوّر محمد بن أبي بكر مع رجلين حائط عثمان فضربه أحدهم بغتةً بمشقص في أوداجه وقتله الآخر والمصحف في حجره وذلك لعشر[1] مضينَ من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة بالتقريب وعمره نيف وثمانون سنة[2].

(عليّ بن أبي طالب) لما قُتل عثمان اجتمع الناس من المهاجرين والأنصار فأتوا عليًا وفيهم طلحة والزبير ليبايعون. فقال عليّ لطلحة والزُبير: إن احببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما. قالا له: لا بل نبايعك. فخرجوا إلى المسجد وبايعه الناس يوم الجمعة لخمس بقينَ من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة. وكان أول مبايعيه طلحة. وكان في إصبعه شلل فتطيَّر منها حبيب بن ذؤيب وقال: يد شلاء لا يتمّ هذا الأمر ما أخلقه إن ينتكث. وتخلّف عن بيعة عليّ بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة. ولم يبايعه العثمانية من الصحابة وكانت عائشة تؤلّب على عثمان وتطعن فيه وكان هواها في طلحة. فبينا هي قد أقبلت راجعة من الحج استقبلها راكب. فقالت: ما وراءك. قال: قُتل عثمان. قالت: كأني أنظر الناس يبايعون طلحة. فجاء راكب آخر. فقالت: ما وراءك. قال: بايع الناس عليًا. قالت: وا عثماناه ما قتله إلاّ عليّ. لاصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم. فقال لها رجل من أخوالها: والله أوّل من أمال حرفه لأنتِ. ولقد كنت تقولين: اقتلوا نَعْثَلاً فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. ونعثل اسم رجل كان طَويل اللحية وكان عثمان إذا نيل منه وعُيّب شُبّه به لطول لحيته. ثم انصرفت عائشة فقال له المغيرة بن شعبة: أقرر معاوية على الشام فإنه يرضى بذلك. وسأل طلحة والزُبير أن

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٣ ص ٦٨ قتل عثمان لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة. إلا اثني عشر يوماً.

(٢) في مروج الذهب للمسعودي قتل وهو ابن اثنين وثمانين عاماً.

يولّيهما البصرة والكوفة. فأبى وقال: تكونان عندي أتجمّل بكما فإني استوحش لفراقكما. فاستأذناه في العُمرة فأذن لهما. فقدما على عائشة وعظّما أمر عُثمان. ولما سمع معاوية بقول عائشة في عليّ ونقض طلحة والزبير البيعة ازداد قوة وجراءة وكتب إلى الزُبير: إني قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق. وأعانهما بنو أُميّة وغيرهم وخرجوا بعائشة حتى قدموا البصرة فأخذوا ابن حنيف أميرها من قِبل عليّ فنالوا من شعره ونتفوا لحيته وخلّوا سبيله فقصد عليًا وقال له: بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد. قال: أصبت أجراً وخيراً. وقتلوا من خَزَنة بيت المال خمسين رجلاً وانتهبوا الأموال. وبلغ ذلك عليًا فخرج من المدينة وسار بتسعمائة رجل. وجاءه من الكوفة ستة آلاف رجل. وكانت الوقعة بالخُرَيْبة[1]. فبرز القوم للقتال وأقاموا الجمل وعائشة في هودج ونشبت الحرب بينهم فخرج عليّ ودعاء الزُبير وطلحة وقال للزُبير: ما جاء بك. قال: لا أراك لهذا الأمر أهلاً. وقال لطلحة: أجئتَ بعرس النبي تقاتل بها وخبّيت عرسك في البيت. أما بايعتماني. قالا: بايعناك والسيف على عنقنا. وأقبل رجل سعديّ من أصحاب عليّ فقال بأعلى صوته: يا أمّ المؤمنين والله لقتل عُثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون أنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترِك وأبحت حرمتك. ثم اقتتل الناس. وفارق الزُبير المعركة فاتبعه عمرو بن جرموز وطعنه في جُرُبّان درعه فقتله. وأمّا طلحة فأتاه سهم فأصابه فأردفه غلامه فدخل البصرة وأنزله في دارٍ خربة ومات بها. وقتل تسعون رجلاً على زمام الجمل. وجعلت عائشة تنادي: البقيّة البقيّة. ونادى عليّ: اعقروا الجمل[2]. فضربه رجل فسقط. فحمل الهودج موضعاً وإذا هو كالقنفذ لما فيه من السهام. وجاء عليّ حتى وقف عليه وقال لمحمد بن أبي بكر: انظر أحيّة هي أم لا. فأدخل محمد رأسه في هودجها. فقالت: من أنت: قال: أخوكِ البرّ. فقالت: عُقَق. قال: يا أُخيّة هل أصابك شيء. فقالت: ما أنت وذاك. ودخل عليّ البصرة ووبخ أهلها وخرج منها إلى الكوفة. ولما بلغ معاوية خبر الجمل دعا أهل الشام إلى القتال والمطالبة بدم عثمان.

فبايعوه أميراً غير خليفة. وبعث عليّ رسولاً إلى معاوية يدعوه إلى البيعة. فأبى. فخرج عليّ من الكوفة في سبعين ألف رجل. وجاء معاوية في ثمانين ألف رجل فنزل صفّين وهو موضع بين العراق والشام فسبق عليًا على شريعة الفرات. فبعث عليّ الأشتر النخعي فقاتلهم وطردهم وغلبهم على الشريعة. ثم ناوشوا الحرب أربعين صباحاً حتى قُتل من العراقيين خمسة وعشرون ألفاً ومن الشاميّين خمسة وأربعون ألفاً. ثم خرج عليّ وقال لمعاوية: علامَ تُقتل الناس بيني وبينك. أحاكمك إلى الله عزّ وجلّ فأيُنا قتل صاحبه استقام الأمر له. فقال معاوية لأصحابه: يعلم أنه لا

(١) الخُريبةُ موضع بالبصرة معجم البلدان ياقوت الحموي ح ٢ ص ٤١٥.
(٢) أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٣ ص ٩٩.

يبارزه أحد إلاّ قتله. فأمرهم أن ينشروا المصاحف وينادوا: يا أهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله ندعوكم إليه. قال عليّ: هذا كتاب الله فمن يحكم بيننا. فاختار الشاميّون عمرو بن العاص والعراقيّون أبا موسى الأشعري. فقال الأحنف: إن أبا موسى رجلٌ قريب القعر كليل الشفرة اجعلني مكانه آخذ لك بالوثيقة واضعك من هذا الأمر بحيث تحبّ. فلم يرضَ به أهل اليمن. فكتبوا القضية على أن يحكم الحكمان بكتاب الله والسنّة والجماعة وصيّروا الأجل شهر رمضان. ورحل عليّ إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام. فلما دخل عليّ الكوفة اعتزل إثنا شر ألفاً من القرّاء وهم ينادونه: جزعت من البليّة ورضيت بالقضيّة وحكمت الرجال والله يقول: إن الحكم إلاّ لله. ثم اجتمع أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص للتحكم بموضع بين مَكّة والكوفة والشام بعد صِفّين بثمانية أشهر وحضر جماعة من الصحابة والتابعين. فقال ابن عباس لأبي موسى: مهما نسيت فلا تنسَ أن عليًا ليست فيه خلّة واحدة تباعده من الخلافة وليس في معاوية خصلة واحدة تقرّبه من الخلافة. فلما اجتمع أبو موسى وعمرو للحكومة ضرباً فسطاطاً. وقال عمرو: يجب أن لا نقول شيئاً إلا كتبناه حتى لا نرجع عنه. فدعا بكاتب وقال له سراً: ابدأ باسمي. فلما أخذ الكاتب الصحيفة وكتب البسملة بدأ باسم عمرو. فقال له عمرو: امحه وابدأ باسم أبي موسى فإنه أفضل مني وأولى بأن يُقدَّم. وكانت منه خديعة. ثم قال: ما تقول يا أبا موسى في قتل عثمان. قال: قُتل والله مظلوماً. قال: اكتب يا غلام. ثم قال: يا أبا موسى إن إصلاح الأمة وحقن الدماء خير ممّا وقع فيه عليّ ومعاوية فإن رأيت أن تخرجهما وتستخلف على الأمة من يرضى به المسلمون فإن هذه أمانة عظيمة في رقابنا. قال: لا بأس بذلك. قال عمرو: اكتب يا غلام. ثم ختما على ذلك الكتاب. فلما قعدا من الغد للنظر قال عمرو: يا أبا موسى قد أخرجنا عليًا ومعاوية من هذا الأمر فسمِّ له ما شئت. فسمّى عدّة لا يرتضيهم عمرو. فعرف أبو موسى أنه يتلعّب به.

ثم قال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أيضاً خلعته كما خلعت هذا الخاتم من يدي. وافترقا. وعزم عليّ المسير إلى معاوية. وبايعه ستون ألفاً على الموت. فشغلته الخوارج وقتالهم. وأخذ معاوية في تسريب السرايا إلى النواحي التي يليها عمّال عليّ وشنّ الغارات وبعث جيشاً إلى المدينة ومكّة. فبايعه بقية أهلها. ثم تعاقد ثلاثة نفر من الخوارج داود والبرك وابن ملجم أن يقتلوا عمرو بن العاص ومعاوية وعليًا ويريحوا العباد من أئمّة الضلال. أما داود فإنه أتى إلى مصر ودخل المسجد وضرب خارجة ابن حذافة فقتله وهو يظنه عمراً. وأُخذ داوديه فقُتل. وأما البرك فإنه مضى إلى الشام ودخل المسجد وضرب معاوية فقطع منه عرقاً فانقطع منه النسل. فأخذ البرك فقُطعت يداه ورجلاه وخلّي عنه. فقدم البصرة ونكح امرأة فولدت له. فقال له زياد: يولد لك ولا يولد لمعاوية. فضرب عنقه. وأما ابن ملجم فإنه أتى إلى الكوفة وسمَّ سيفه وشحذه وجاء فبات بالمسجد. فدخل عليّ المسجد ونبّه النيام فركل ابن ملجم برجله وهو ملتفّ بعباءة وفتح

ركعتي الفجر. فأتاه ابن ملجم فضربه على ضلعه ولم تبلغ الضربة مبلغ القتل ولكن عمل فيه السمّ. فثار الناس إليه وقبضوا عليه. فقال عليّ: لا تقتلوه فإن عشت رأيت فيه رأيي وإن متُّ فشأنكم به. فعاش ثلاثة أيام ثم مات يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان. فقُتل ابن ملجم.

(الحسن بن عليّ بن أبي طالب) ثم بُويع الحسن بن عليّ بالكوفة. وبُويع معاوية بالشام في مسجد إيليا. فسار الحسن عن الكوفة إلى لقاء معاوية. وكان قد نزل مسكن من أرض الكوفة. ووصل الحسن إلى المدائن وجعل قيس بن سعد على مقدمته في إثني عشر ألفاً. وقدّم معاوية على مقدّمته بشر بن ارطاة. فكانت بينه وبين قيس مناوشة. ثم تحاجزوا ينتظرون الحسن. **(قالوا)** فنظر الحسن إلى ما يُسفك من الدماء وينتهك من المحارم فقال: لا حاجة لي في هذا الأمر وقد رأيت إن أسلّمه إلى معاوية فيكون في عنقه تباعته وأوزاره. فقال له الحسين: انشدك الله أن تكون أول من عاب أباه ورغب عن رأيه. فقال الحسن: لا بدّ من ذلك. وبعث إلى معاوية يذكر تسليمه الأمر إليه. فكتب إلى معاوية: أما بعد فأنت أولى مني بهذا الأمر لقرابتك وكذا وكذا. ولو علمت أنك اضبط له وأحوط على حريم هذه الأمّة وأكيد للعدو لبايعتك. فاسأل ما شئت. فكتب الحسن أموالاً وضياعاً وأماناً لشيعة عليّ وأشهد على ذلك شهوداً من الصحابة. وكتب في تسليم الأمر كتاباً. فالتقى معاوية مع الحسن على منزل من الكوفة ودخلا الكوفة معاً. ثم قال: يا أبا محمد جدتَ بشيء لا تجود بمثله نفوس الرجال فقم وأعلم الناس بذلك فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الله عزّ وجل هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا. وإن معاوية نازعني حقاً لي دونه فرأيت أن أمنع الناس الحرب وأسلمّه إليه. وإن لهذا الأمر مدة. والدنيا دُوَل. فلما قالها قال له معاوية: اجلس. وحقدها عليه. ثم قام خطيباً فقال: إني كنت شرطت شروطاً اردت بها نظام الألفة: وقد جمع الله كلمتنا وأزال فرقتنا. فكل شرط شرطته فهو مردود. فقام الحسن وقال: ألا وأنا اخترت العار على الناس. وسار إلى المدينة وأقام بها إلى أن مات سنة سبع[1] وأربعين من الهجرة. وكانت خلافته خمسة[2] أشهر.

(معاوية بن أبي سفيان) وصار الأمر إلى معاوية سنة أربعين من الهجرة. وكان وليَ لعمر وعثمان عشرين سنة. ولّما سلّم الحسن الأمر إليه ولى الكوفة المغيرة بن شعبة وولّى البصرة وخراسان عبد الله بن عامر وولى المدينة مروان بن الحكم. وانصرف معاوية إلى الشام فولى عبد الله بن حازم. ومات عمرو بن العاص بمصر يوم عيد الفطر فصلّى عليه ابنه عبد الله ثم صلى بالناس صلاة العيد. وكان معاوية قد أذكى العيون على شيعة عليّ فقتلهم أين أصابهم.

---

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٣ ص ٣١٥ توفي الحسن سنة تسع وأربعون سمته زوجته جعدة بنت الأشعث.

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٢٣، كانت ولاية الحسن بن علي سبعة أشهر وسبعة أيام.

وفي سنة ست وأربعين من الهجرة وهي سنة تسعمائة وسبع وثمانين للاسكندر أرسل سابور المتغلب على ارمانيا إلى معاوية رسولاً اسمه سرجي يطلب منه النجدة على الروم. وأرسل قسطنطين الملك أيضاً رسولاً إلى معاوية لاندرا الخصيّ وهو من أخص خواصه. فأذن معاوية لسرجي أن يدخل أولاً فدخل ثم دخل اندرا. فلما رآه سرجي نهض له لأنه كان عظيماً. فوبّخ معاوية لسرجي وقال: إذا كان العبد هالَكَ فكيف مولاه. فقال سرجي: خدعت من العادة. ثم سأل معاوية لاندرا: لماذا جئت. فقال: الملك سيّرني لئلاّ تصغوا إلى كلام هذا المتمرد ولا يكون الملك والمملوك عندك بالسواء. فقال معاوية: كلّكم أعداء لنا. فأيكم زاد لنا من المال راعيناه. فلما سمع ذلك اندرا خرج. ومن الغد حضر وسرجي قد سبقه بالدخول. فلما دخل اندرا لم ينهض له. فشتمه اندرا فقال له: يا يؤوس استخففت بي. فقذفه سرجي قذف المخانيث. قال اندرا: سوف ترى. ثم أعاد كلامه الأول على معاوية فقال له معاوية: إن اعطيتمونا كل خراج بلادكم نبقي لكم اسم المملكة وإلا أزحناكم عنها. قال اندرا: كأنك تزعم أن العرب هم الجسم والروم الخيال. نستعين بربّ السماء. ثم استأذن للرحيل وسار مجتازاً على ملَطِية[1]. وتقدّم إلى مستحفظي الثغور أن يكمنوا لسرجي في الطريق ويلزموه ويحملوه إلى ملطية وينزعوا خصيتيه ويعلقوهما في رقبته ثم يسمروه. ففعلوا به كذلك.

وقيل إن معاوية أول من خطب قاعداً لأنه كان بطيناً بادناً. وأول من قدّم الخطبة على الصلاة خشية أن يتفرق الناس عنه قبل أن يقول ما بدا له. ثم أخذ بيعة أهل المدينة ومكة ليزيد ابنه بالسيف وبايعه الشاميّون أيضاً. ثم مات معاوية بدمشق في رجب سنة ستين[2] وهو ابن ثمانين سنة. وبايع أهل الشام يزيد بن معاوية.

(يزيد بن معاوية) لما مات معاوية استدعى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهو على المدينة الحسينَ بن عليّ وعبدَ الله بن الزبير في جوف الليل ونعى إليهما معاوية وأخذهما بالبيعة لابنه يزيد. فقالا: مثلنا لا يبايع سراً ولكن إذ نُصبح. وانصرفا من عنده وخرجا من تحت الليل إلى مكة وأبيا أن يبايعا. وبلغ أهل الكوفة امتناعهما عن بيعة يزيد فكتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم. فأرسل الحسينُ مُسْلِم بن عَقيل بين أبي طالب إلى الكوفة ليأخذ بيعة أهلها. فجاء واجتمع إليه خلق كثير من الشيعة يبايعون الحسين. وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد وهو بالبصرة فتمّ إلى الكوفة فسار إليه الشيعة وقاتلوه حتى دخل القصر وأغلق بابه. فلما كان عند المساء وتفرق الناس عن

(١) ملطية: مدينة على الثغور الشامية الرومية من جهة الروم.

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٤٠ مات معاوية بدمشق يوم الخميس لثمان بقين من رجب. سنة ستين وخمسين، مات وهو ابن اثنين وثمانين سنة.

مسلم بعث ابن زياد خيلاً في خفية فقبضوا عليه ورفعوه بين شرف القصر ثم ضربوا عنقه. ولما بلغ الخبر الحسين هم بالرجوع إلى المدينة. وبعث إليه ابن زياد الحرب بن يزيد التميمي في ألف فارس. فلقي الحسين بزبالة وقال له: لم أُؤمر بقتالك إنما أمرت أن أقدمك إلى الكوفة. فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك إلى الكوفة ولا يردك إلى المدينة حتى اكتب إلى ابن زياد. فتياسر عن طريق العذيب والقادسية والحرُّ يسايره حتى انتهى إلى الغاضرية فنزل بها. وقدم عليه عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ومعه شَمِر ذو الجيوش فنزلوا بين نهري كربلاء وجرت الرسل بينهم وبين الحسين ومنعوه ومن معه الماء أن يشربوا وناهضهم القتال يوم عاشوراء وهو يوم الجمعة ومعه تسعة عشر إنساناً من أهل بيته فقُتل الحسين عطشاناً وقُتل معه سبعة من ولد عليّ بن أبي طالب وثلاثة من ولد الحسين. وتركوا عليّ ابن الحسين لأنه كان مريضاً. فمنه عقبُ الحسين إلى اليوم. وقتل من أصحابه سبعة وثمانون إنساناً. وساقوا عليّ بن الحسين مع نسائه وبناته إلى ابن زياد. فزعموا أنه وضع رأس الحسين في طست وجعل ينكُت في وجهه بقضيب ويقول: ما رأيت مثل حسن هذا الوجه قط. ثم بعث به وبأولاده إلى يزيد بن معاوية. فأمر نساءه وبناته فأقمن بدرجة المسجد حيث توقف الأساري لينظر الناس إليهم. وقُتل[1] الحسين سنة إحدى وستين من الهجرة يوم عاشوراء وهو يوم الجمعة. وكان قد بلغ من السن ثمانياً وخمسين سنة. وكان يخضب بالسواد. ثم بعث يزيد بأهله وبناته إلى المدينة. وللروافض في هذه القصة زيادات وتهاويل كثيرة. ولما احتُضر يزيد بن معاوية بايع ابنه معاوية ومات وهو ابن ثماني وثلاثين سنة. وكان ملكه ثلاثة سنين وثمانية أشهر[2].

(معاوية بن يزيد) ولما مات يزيد صار الأمر إلى ولده معاوية وكان قدريًّا لأن عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه. فلما بايعه الناس قال للمقصوص: ما ترى. قال: إما أن تعتدل أو تعتزل. فخطب معاوية بن يزيد فقال: إن جدّي معاوية نازع الأمر من كان أولى به وأحق. ثم تقلده أبي. ولقد كان غير خليق به. ولا أحبُّ أن ألقى الله عزّ وجلّ بتبعاتكم. فشأنكم وأمركم ولّوه من شئتم. ثم نزل وأغلق الباب في وجهه وتخلّى بالعبادة حتى مات بالطاعون. وكانت ولايته عشرين يوماً[3]. فوثب بنو أميّة على عمر المقصوص وقالوا: أنت أفسدته وعلّمته. فطمروه ودفنوه حيًّا. وأما ابن الزبير فلما مات يزيد دعا الناس إلى البيعة لنفسه وادّعى الخلافة فظفر بالحجاز والعراق وخراسان واليمن ومصر والشام إلاّ الأردنّ.

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في تاريخ الطبري ح ٤ ص ٣٠١.

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٥٨ كانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر وعشرين يوماً.

(٣) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٥٨ كانت ولايته نحواً من شهر ونصف مات معاوية بعد أبيه يزيد بأربعين يوماً وهو ابن ثمان عشرة سنة.

(مروان بن الحكم) بويع بالأردن سنة أربع وستين للهجرة وهو أول من أخذ الخلافة بالسيف. وسار إليه الضحاك بن قيس فاقتتلوا بمرج راهط[١] من غوطة دمشق. فقُتل الضحاك. وخرج سليمان بن صرد الخزاعيّ من الكوفة في أربعة آلاف من الشيعة يطلبون بدم الحسين فبعث إليه مروان بن الحكم عبيد الله بن زياد فالتقوا برأس العين فقُتل سليمان وتفرق أصحابه. ومات مروان بدمشق وكانت ولايته سبعة أشهر وأياماً. وبايع أهل الشام عبد الملك بن مروان.

قال ابن جلجل الأندلسي أن ماسرجويه الطبيب البصري سريانيّ اللغة يهودي المذهب. وهو الذي تولى في أيام مروان تفسير كناش اهرون القس إلى العربي. وحدّث أبوب بن الحكم أنه كان جالساً عند ما سرجويه إذ أتاه رجل من الخوز فقال: إني بُليت بداء لم يُبلَ أحد بمثله. فسأله عن دائه. فقال: أُصبح وبصري مظلم عليَّ وأنا أصيب مثل لحس الكلاب في معدتي فلا تزال هذه حالي إلى أن أطعم شيئاً فإذا طعمت سكن ما أجد إلى وقت انتصاف النهار. ثم يعاودني ما كنت فيه. فإذا عاودت الأكل سكن ما بي إلى وقت صلاة العتمة. ثم يعاودني فلا أجد له دواء إلا معاودة الأكل. فقال له ماسرجويه: على دائك هذا غضب الله. فإنه أساء لنفسه الاختيار حين قرنه بسفلة مثلك ولوددت أن هذا الداء تحوّل إليَّ وإلى صبياني فكنت أعوّضك مما نزل بك مثل نصف ما أملك. فقال له الخوزيّ: ما أفهم عنك. قال ماسرجويه: هذه صحة لا تستحقها أسأل الله نقلها عنك إلى من هو أحقُّ بها منك.

(عبد الملك بن مروان) بويع سنة خمس وستين بالشام. وأما ابن الزبير[٢] فبعث أخاه مصعباً على العراق. فقدم البصرة وأعطاه أهلها الطاعة واستولى مصعب على العراقَين. فسار إليه عبد الملك بن مروان فالتقوا بسَكِن. وقُتل مصعب واستقام العراق لعبد الملك. وكان الحجّاج بن يوسف على شرطه. فرأى عبد الملك من نفاذه وجلادته ما أُعجب به ورجع إلى الشام ولا همَّ له دون ابن الزبير. فأتاه الحجّاج فقال: ابعثني إليه فإني أرى في المنام كأني أقتله وأسلخ جلده. فبعثه إليه. فقتله وسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه. وكانت فتنة ابن الزبير تسع سنين منذ موت معاوية إلى أن مضت ست سنين من ولاية عبد الملك. وولي الحجاج الحجاز واليمامة. وبايع أهل مكة لعبد الملك بن مروان. وزعم قوم أن الحجاج بلاءٌ صبّه الله على أهل العراق. ولما قدم الكوفة دخل المسجد وصعد يوماً المنبر وسكت ساعة ثم نهض وقال: والله يا أهل العراق إني أرى رؤوساً قد

---

(١) راهط: موقع في الفوطة من دمشق في شرقية بعد مرج عذراء، ياقوت الحموي معجم البلدان. ح ٣ ص ٢٣.

أنظر تاريخ خليفة بن خياط ص ١٦١.

(٢) عبد الله ابن الزبير ابن العوام بن خويلد بن أسد بن العزى بن قصي بن كلاب أول مولود في الإسلام بالمدينة. أمه أسماء بنت أبي بكر وابن تغري يردى النجوم الزاهرة ح ١ ص ٢٤٤.

أينعت وحان قطافها وإني لَصاحبها. فكأني انظر إلى الدماء من فوق العمائم واللحى. وفي سنة سبعين للهجرة وهي سنة ألف للاسكندر استجاش يوسطينيانوس ملك الروم على من بالشام من المسلمين. فصالحه عبد الملك على أن يؤدّي إليه كل يوم جمعة ألف دينار. وقيل كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً. وفي سنة ثلاث وثمانين بنى الحجّاج مدينة واسط. وفي سنة ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان. وكان يقول: أخاف الموت في شهر رمضان. فيه ولدت وفيه فطمت وفيه جمعت القرآن وفيه بايع لي الناس. فمات في النصف من شوال حين أمن الموت على نفسه. وكان ابن ستين[١] سنة وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزُبير ثلاث عشرة سنة.

واختصّ بخدمة الحجاج بن يوسف تياذوق وثاودون الطبيبان. أما تياذوق فله تلاميذ أجلاّء تقدموا بعده ومنهم من أدرك الدولة العباسية كفُرات بن شحناثا في زمن المنصور. وأما ثاودون فله كناش كبير عمله لابنه. وقيل دخل إلى الحجاج يوماً فقال له الحجاج: أي شيء دواء أكل الطين. فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير. فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إلى أكله بعدها.

(الوليد بن عبد الملك[٢]) لما ولي الأمر أقر العمال على النواحي. وفي ولايته خرج قتيبة بن مسلم إلى ما وراء النهر. فجاشت الترك والسغد والشاش وفرغانة وأحدقوا به أربعة أشهر. ثم هزمهم وافتتح بخاراً. ثم مضى حتى أناخ على سمرقند فافتتحها صلحاً. وفي أيامه مات الحجاج. ذكروا أنه أخذه السل وهجره النوم والرقاد. فلما احتُضر قال لمنجم عنده: هل ترى ملكاً يموت. قال: نعم أرى ملكاً يموت اسمه كُليب. فقال: أنا والله كليب بذلك سمتني أمي. قال المنجم: أنت والله تموت كذلك دلّت عليه النجوم. قال له الحجاج: لأقدمنّك أمامي. فأمر به فضُرب عنقه. ومات الحجاج وقد بلغ من السن ثلاث وخمسين سنة. وولي الحجاز والعراق عشرين سنة وكان قتل من الأشراف والرؤساء مائة ألف وعشرين ألفاً سوى العوام ومَن قتل في معارك الحروب. وكان مات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة. ومات الوليد سنة ست وتسعين وكانت ولايته تسع سنين وثمانية[٣] أشهر. وبنى مسجد دمشق وكان فيه كنيسة فهدمها. وبنى مسجد المدينة والمسجد الأقصى. وأعطى المجذّمين ومنعهم من السؤال إلى الناس. وأعطى كل مُقعد خادماً وكل ضرير قائداً. ومنع الكتّاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية لكن بالعربية. وفتح في ولايته الأندلس وكاشغر والهند. وكان يمرُّ بالبقّال فيقف عليه يأخذ منه

(١) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٨٥ توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٩٠ بويع الوليد بن عبد الملك في النصف من شوال سنة ست وثمانين.

(٣) في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٩٧ وكانت ولايته تسع سنين وخمسة أشهر وأياماً.

حزمة بقل فيقول: بكم هذا. فيقول: بفلس. فيقول: زدْ فيها. وكان صاحب بناء واتّخاذ للمصانع والضياع. وقيل إنه كان لحّاناً لا يحسن النحو. دخل عليه إعرابيّ فمتَّ إليه بصهر له. فقال له الوليد: مَن ختَنَك بفتح النون. فقال: بعضُ الأطباء. فقال سليمان: إنما يُريد أمير المؤمنين من ختَنُك وضمَّ النون. فقال الإعرابي: نعم فلان. وذكر ختَنه. وعاتبه أبوه عبد الملك على ذلك وقال له: لا يلي العربَ إلاّ مَن يُحسن كلامهم. فجمع أهل النحو ودخل بيتاً ولم يخرج منه ستة أشهر. ثم خرج وهو أجهل منه يوم دخله. فقال عبد الملك: قد أعذَرَ.

(سليمان بن عبد الملك) وفي سنة ستّ وتسعين بُويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي فيه مات الوليد أخوه. قالوا إنه كان خيّراً فصيحاً نشأ بالبادية عند أخواله بني عبس. وردّ المظالم وآوى المشترين وأخرج المحبسين. وفي سنة ثماني وتسعين من الهجرة وهي سنة ألف وسبعة وعشرين للاسكندر جهز سليمان جيشاً مع أخيه مسلمة ليسير إلى القسطنطينية. وسار حتى بلغها في مائة ألف وعشرين ألفاً وعبر الخليج وحاصر المدينة. فلما برَّح بأهلها الحصار أرسلوا إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً. فأبى أن يفتتحها إلاّ عنوةً. فقالت الروم للاون البطريق: إن صرفتَ عنّا المسلمين ملّكناك علينا. فاستوثق منهم وأتى مسلمة وطلب الأمان لنفسه وذويه ووعده أن يفتح له المدينة غير أنه ما يتهيأ ذلك ما لم يتنحَّ عنهم ليطمئنوا ثم يكرّ عليهم. فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق. ودخل لاون فلبس التاج وقعد على سرير الملك. واعتزل الملك ثاوذوسيوس ولبس الصوف منعكفاً في بعض الكنائس. ولأنّ مسلمة لما دنا من القسطنطينية أمر كل فارس أن يحمل معه مدَّين من الطعام على عجز فرسه إلى القسطنطينية لما دخل لاون المدينة وتنحى مسلمة أعدَّ لاون السفن والرجال فنقلوا في ليلةٍ ذلك الطعام ولم يتركوا منه إلاّ ما يُذكر وأصبح لاون محارباً وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت امرأة لعيِّبت بها. وبلغ الخبر لمسلمة فأقبل راجعاً ونزل بفناء القسطنطينية ثلاثين شهراً فشتا فيها وصاف وزرع الناس. ولقي جنده ما لم يلقهُ جيش آخر حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من العسكر وحده من البلغاريين الذين استجاشهم لاون ومن الإفرنج الذين في السفن ومن الروم الذين حاربوهم من داخل. وأكلوا الدوابّ والجلود واصول الشجر والورق. وسليمان بن عبد الملك مقيم بدابق[1] ونزل الشتاء فلم يقدر أن يمدهم حتى مات[2] لعشرٍ بقينَ من صفر سنة تسع وتسعين. فرحل مسلمة عن القسطنطينية وانصرف وكانت خلافته أعني سليمان سنتين وثمانية أشهر. وكان بايع ابنه أيوب فمات قبله

(١) دابق: قرية قرب حلب من أعمال أعزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ معجم البلدان ياقوت الحموي ح ٢ ص ٤٧٥.

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٢ (مات سليمان بدابق يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين وهو ابن ثلاث وأربعين سنة).

فاستخلف عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ولما احتُضر سليمان قيل له: أوصِ. قال: إن بنيَّ صبية صغار. افلح مَن كانت له كبار.

(عمر بن عبد العزيز) لما استخلف عمر بن عبد العزيز وبُويع له صعد المنبر وأمر بردّ المظالم ووضع اللعنة عن أهل البيت وكانوا يلعنونهم على المنابر وحضَّ على التقوى و التواصل وقال: والله ما أصبحت ولي على أحد من أهل القبلة موجدة إلاّ على إسراف ومظلمة. ثم تصدّق بثوبه ونزل. وتوفي عمر بن عبد العزيز في رجب لخمس بقينَ منه سنة إحدى ومائة. وكانت شكواه عشرين يوماً. ولما مرض قيل له: لو تداويت. فقال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها نعم المذهوب إليه ربي. وكان موته[١] بدير سمعان ودُفن به. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر. وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة[٢]. قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر أعوده فإذا هو على فراش من ليف وتحته وسادة من أديم مسجّى بشملة ذابل الشفة كاسف اللون وعليه قميص وسخ. فقلت لأختي فاطمة وهي امرأته: اغسلوا ثِياب أميرِ المؤمنين. فقالت: نفعل. ثم عدت فأذن القميص على حاله. فقلتُ: ألم آمركم أن تغسلوا قميصه. فقالت: والله ما له غيره. فسبّحت لله وبكيت وقلت: يرحمك الله لقد خوَّفتنا بالله عزّ وجلّ وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين. قيل وكانت نفقته كل يوم درهمين. وفي أيامه تحركت دولة بني هاشم.

(يزيد بن عبد الملك) يكنى أبا خالد. عاشر بني مروان. ولما ولي الأمر استعمل على العراقين وخراسان عمر بن هبيرة الفزاريّ وبعث مسلمة بن عبد الملك لقتال يزيد بن المهلب فقتله وبعث برأس يزيد وكان يزيد بن عبد الملك صاحب لهوٍ وقصفٍ وشُغف بِحبّابة المغنية واشتهر بذكرها. وقيل كان يزيد قد حجّ أيام سليمان أخيه فاشترى حبابة بأربعة آلاف دينار فقال سليمان: لقد هممت أن أحجر على يزيد. فلما سمع يزيد ردَّها فاشتراها رجل من أهل مصر. فلما أفضت الخلافة إليه قالت له امرأته سعدة: هل بقي من الدنيا شيء تتمناه. فقال: نعم حِبّابة. فأرسلت فاشترتها وصنعتها وأتت بها يزيد وأجلستها من وراء الستر فقال: يا أمير المؤمنين أبقي من الدنيا شيء تتمناه. قال: قد أعلمتك. فرفعت الستر وقالت: هذه حبّابة. وقامت وتركتها عنده. فحظيت سعدة عندُه وأكرمها. وقال يوماً وقد طرب بغناء حبّابة: دعوني أطير. وأهوى ليطير. فقالت: يا أمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرنَّ. فقالت: فعلى مَن تدع الأمّة والملك. قال لها: عليكِ والله. وقبّل يدها. فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك ما

(١) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠١ (مات عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لخمس بقين من رجب بدير سمعان من أرض حمص).

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٦ وهو ابن تسع وثلاثين سنة وستة أشهر.

أسخفك. وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان. فرماها بحبة عنب فاستقبلتها بفيها فدخلت حلقها فشرقت ومرضت بها وماتت. فتركها ثلاثة أيام لا يدفنها حتى نتنت وهو يشمّها ويقبّلها وينظر إليها ويبكي. فلما دُفنت بقي بعدها خسمة عشر يوماً ومات ودُفن إلى جانبها سنة خمس ومائة. وكانت ولايته أربع سنين وشهراً وله أربعون[١] سنة.

(هشام بن عبد الملك) وفي هذه السنة استخلف هشام بن عبد الملك لليالٍ بقينَ من شعبان. وكان عمره يومئيذ أربعاً وثلاثين سنة. أتاه البريد بالخاتم والقضيب وسلّم عليه بالخلافة وهو بالرصافة. فركب منها حتى أتى دمشق. وفي أيامه خرج زيد بن عليّ ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب فقدم الكوفة وأسرعت إليه الشيعة وقالوا: لنرجوا أن يكون هذا الزمان الذي تهلك فيه بنو أميّة. وجعلوا يبايعونه سراً. وبايعه أربعة عشر ألفاً على جهاد الظالمين والرفع على المستضعفين. وبلغ الخبر يوسف بن عمر وهو أمير البصرة فجدّ في طلب زيد. وتواعدت الشيعة بالخروج وجاءوا إلى زيد فقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر. قال: ما أقول فيهما إلا خيراً. فتبرأوا منه ونكثوا بيعته وسعوا به إلى يوسف. فبعث في طلبه قوماً. فخرج زيد ولم يخرج معه إلا أربعة عشر رجلاً. فقال: جعلتموها حُسينية. ثم ناوشهم القتال. فأصابه سهم بلغ دماغه فحمل من المعركة. ومات تلك الليلة ودُفن. فلما أصبحوا استخرجوه من قبره فصلبوه. فأرسل هشام إلى يوسف: أحرق عجل العراق. فأحرقه. وهرب ابنه يحيى حتى أتى بلخ. قيل كان هشام محشوًّا عقلاً. وتفقد هشام بعض ولده فلم يحضر الجمعة. فقال: ما منعك من الصلاة. قال: نفقت دابتي. قال: أفعجزتَ عن المشي. فمنعه الدابة سنة. وأتي هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط. فقال: اكسروا الطنبور على رأسه. فبكى الرجل لما ضربه. فقيل: عليك بالصبر. فقال: أتراني أبكي للضرب بل إنما أبكي لاحتقاره البربط إذ سمّاه طنبوراً. وقيل: وكتب إليه بعض عماله: قد بعثت إلى أمير المؤمنين بسلة دراقن. فكتب إليه: قد وصل الدراقن فأعجبنا فزد منه واستوثق من الوعاء. وكتب إلى عامل آخر قد بعث بكمأة: قد وصلت الكمأة وهي أربعون وقد تغير بعضها. فإذا بعثت شيئاً فأجد حشوها في الظرف بالرمل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعضها بعضاً. وقيل له: أتطمع في الخلافة وأنت بخيل جبان. قال: ولَم لا أطمع فيها وأنا حليم عنيف. ومات هشام بالرصافة سنة خمس[٢] وعشرين ومائة. وكانت ولايته عشرين سنة وعمره خمساً وخمسين سنة وكان مرضه الذبحة.

---

(١) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٢١٣، مات بأربد من بلاد البلقاء يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وهو ابن أربع وثلاثين سنة وكانت ولايته أربع سنين وشهراً.

(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٤ ص ٤٦٥، مات هشام بن عبدالملك بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحد وعشرين يوماً.

قيل أول من قدم خراسان من دعاة بني العبّاس سنة تسع ومائة زيادة في ولاية أسد بعثه محمد الإمام ابن عليّ بن عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب وقال له: الطف بمصر ونهاه عن رجل من نيسابور يقال له غالب لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة. فلما قدم زياد دعا إلى بني العباس وذكر سيرة بني أميّة وظلمهم. وقدم عليه غالب وتناظرا في تفضيل آل عليّ وآل العباس وافترقا. وأقام زياد بمرو. ورُفع أمره إلى أسد وخوّف من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة. وفي سنة ثماني عشرة ومائة توجه عمّار ابن يزيد إلى خراسان ودعا إلى محمد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس. فأطاعه الناس وتسمى بخداش وأظهر دين الخُرَّميَّة ورخّص لبعضهم في نساء بعض وقال لهم: أنه لا صوم ولا صلاة ولا حج. وإن تأويل الصوم أن يصام عن ذكر الإمام فلا يباح بأسمه. والصلاة فالدعاء له والحجّ فالقصد إليه.

(الوليد بن يزيد بن عبد الملك) كان يزيد أبوه عقد ولاية العهد له بعد أخيه هشام ابن عبد الملك. فلما ولي هشام أخو يزيد أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب وتهاون بالدين واستخف به. فتنكّر له هشام وأضرّ به وكان يعتبه ويتنقصه ويقصر به. فخرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالأزرق. وكان يقول لأصحابه: هذا المشؤوم قدّمه أبي على أهل بيته فصيَّره ولي عهده ثم يصنع بي ما ترون لا يعلم أن لي في إحدى هوًى إلاّ عبث به. ولم يزل الوليد مقيماً في تلك البريّة حتى مات هشام. وأتاه رجلان على البريد فسلما عليه بالخلافة. فوجم ثم قال: أمات هشام. فقالا: نعم. فأرسل إلى الخُزّان فقال: احتفظوا بما في أيديكم. فأفاق هشام فطلب شيئاً. فمنعوه. فقال: إنّا لله كأنّا كنّا خُزّاناً للوليد. ومات في ساعته. وخرج عياض كاتب الوليد من السجن فختم أبواب الخزائن وأنزل هشاماً عن فراشه. وما وجدوا له قمقماً يسخن له فيه الماء حتى استعاروه. ولا وجدوا كفناً من الخزائن. فكفّنه غالب مولاه. وضيّق الوليد على أهل هشام وأصحابه وكان يقول: كِلناهُ بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به اصبعاً. فلما ولي الوليد أجرى على زمن أهل الشام وعميانهم وكساهم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد الناسَ في العطاء عشرات ولم يقل في شيء يُسأله: لا. ثم عقد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليَيْ عهده أحدهما بعد الآخر. وفي هذه السنة أعني سنة خمس وعشرين ومائة قُتل يحيى[1] بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بجرجان وصُلب ثم أنزل وأحرق ثم رُضَّ وحمل في سفينة وذُرَّ في الفرات. وفيها قُتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتله ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان سبب قتله ما تقدم من خلاعته ومجانته. فلما ولي الخلافة ولم يزدد من الذي كان فيه من اللهو والركوب للصيد وشرب الخمر ومنادمة الفساق إلا

(١) أنظر الكامل في التاريخ ح ٤ ص ٤٧١.

تمادياً ثقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره. ولما حاصروه في قصره دنا من الباب وقال لهم: ألم أزذ في أعطياتكم ألم ارفع المؤن عنكم. ألم أُعطِ فقراءكم. فقالوا: إنّا ما ننقم عليك في أنفسنا إنما ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك. قال: حسبكم فلعمري لقد أكثرتم وأغرقتم والله لا يرتقُ فتقكم ولا يُلمّ شعثكم ولا تجمع كلمتكم. فنزل من الحائط إليه عشرة رجال فاحتزُّوا رأسه وسيَّروه إلى يزيد. فنصبه على رمح وطاف به بدمشق. وسجن ابنيه الحكم وعثمان. وكان قتله[١] لليلتين بقيتا من جمادي الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة.

وفي هذه السنة وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا الهاشم بُكير إلى خراسان. فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة فنعى لهم محمد الإمام ودعاهم إلى ابنه إبراهيم الإمام. فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة شيعة بني العباس.

(يزيد بن الوليد بن عبد الملك) سُمّي الناقص لأنه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في عطيّات الجند. وكان محمود السيرة مرضيّ الطريقة. أمر بالبيعة لأخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك. وتوفي بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة. وكانت خلافته ستة أشهر. وكان عمره ستاً وأربعين سنة. وكانت أمّه أمّ ولد اسمها شاه فرند[٢] ابنة فيروز ابن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وهو القائل:

أنـــا ابـــن كـــســـرى وأبـــي مـــروانُ وقـــيـــصـــر جـــدّي وجـــدّي خـــاقـــانُ

وإنما جعل قصير وخاقان جدَّيه لأن أمّ فيروز ابنة كسرى وأمّها ابنة قيصر وأم كسرى ابنة خاقان ملك الترك.

(إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك) فلما مات يزيد بن الوليد قام بالأمر أخوه إبراهيم بعده غير أنه لم يتم له الأمر وكان يسلّم عليه تارةً بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلّم عليه بواحدة منهما. فمكث سبعين[٣] يوماً ثم سار إليه مروان بن محمد فخلعه. ثم لم يزل حيًّا حتى أصيب سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(مروان بن محمد بن مروان بن الحكم) لما مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك سار مروان في جنود الجزيرة إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك. ولما دخل دمشق أتى بالغلامين الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك مقتولَين فدفنهما وبايعه الناس. فلما

(١) أنظر الكامل في التاريخ ح ٤ ص ٤٧٩.
(٢) في تاريخ الطبري شاه فريد ولعله الصواب.
(٣) في الكامل لابن الأثير ح ٤ ص ٤٩٩ مكث أربعة أشهر.

استقرّ له الأمر رجع إلى منزله بحرّان فطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام بن عبد الملك فأمنهما وفي هذه السنة أعني سنة سبع وعشرين ومائة حارب سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد وانهزم أصحاب سليمان وقُتل منهم نحو ستة آلاف. وفيها توجه سليمان بن كثيرَ ولاهز بن قريط وقحطبة إلى مكة فلقوا إبراهيم بن محمد الإمام بها وأوصلوا إلى مولىً له عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً. وكان معهم أبو مسلم. فقال سليمان لإبراهيم: الإمام هذا مولاك. فأمّر إبراهيم أبا مسلم على خراسان. وفي سنة تسع وعشرين ومائة بعث إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم بلواء يدعى الظل وراية تُدعى السحاب فعقدهما على رمحين واظهر الدعوة العباسية بخراسان وتأوّل الظل والسحاب إن السحاب يطبق الأرض وكما أن الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي آخرَ الدهر. وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة حجّ إبراهيم بن محمد الإمام ومعه أخواه أبو العبّاس وأبو جعفر وولده وعمّه ومواليه على ثلاثين نجيباً عليهم الثياب الفاخرة والرحال والأثقال. فشهره أهل الشام وأهل البوادي والحرمين معما انتشر في الدنيا من ظهور أمرهم. وبلغ مروان خبر حجّهم فكتب إلى عامله بدمشق يأمره بتوجيه خيل إليه. وكان مروان بأرض الشام. ووجه العامل خيلاً فهجموا على إبراهيم فأخذوه وحملوه إلى سجن حران فأثقلوه بالحديد وضيقوا عليه الحلقة حتى مات. ولما أحس إبراهيم بالطلب أوصى إلى أخيه أبي العبّاسي ونعى نفسه إليه وأمره بالمسير إلى الكوفة بأهل بيته. فسار معه أخوه أبو جعفر وعمه وستة رجال حتى قدموا الكوفة مستخفين.

بداية الدولة العباسية

(أبو العباس السفاح) وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة خرج أبو العباس بن محمد الإمام بن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لية الجمعة لاثنتي عشرة[1] خلت من ربيع الأول من دار أبي مسلمة بالكوفة فصلى المغرب في مسجد بني أيوب ودخل منزله. فلما أصبح غداً عليه القواد في التبعية والهيئة وقد أعدوا له السواد والمركب والسيف. فخرج أبو العباس فيمن معه إلى القصر الذي للإمارة. ثم خرج إلى المقصورة وصعد المنبر وبايعه الناس. ثم وجه عمه عبد الله إلى مروان وهو نازل بالزاب. فواقع عبد الله مروان فهزمه. فمرّ مروان على وجهه ومضى فعبر جسر الفرات فوق حران وجمع جمعاً عظيماً بنهر فطرس من أرض فلسطين. وعبر أيضاً عبد الله الفرات وحاصر دمشق حتى افتتحها وقتل من بها من بني أمية وهدم سورها حجراً حجراً ونبش عن قبور بني أميّة وأحرق عظامهم بالنار. ثم ارتحل نحو مروان فهزمه واستباح عسكره. وهرب مروان إلى

(١) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦٨، بويع بالكوفة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم.

أرض مصر فاتّبعه جيش عبد الله واستدلّوا عليه وهو في كنيسة في بوصير فطعنه رجل فصرعه واحتز آخر رأسه وبعث به إلى أبي العباس السفّاح.

وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وفي سنة ست وثلاثين ومائة مات السفاح بالأنبار مدينته التي بناها واستوطنها لثلاث عشرة سنة[١] مضت من ذي الحجة بالجدري. وكان له يوم مات ثلاث وثلاثون سنة. وكانت ولايته من لدن قتل مروان أربع سنين[٢]. وكان أبو العباس رجلاً طويلاً ابيض اللون حسن الوجه يكره الدماء ويحامي على أهل البيت.

(أبو جعفر المنصور) هو عبد الله بن محمد الإمام بن عليّ بن عبد الله بن العباس بويع له سنة سبع وثلاثين ومائة[٣]. وفي هذه السنة قُتل أبو مسلم الخراساني قتله المنصور بسبب أنهما حجّا معاً في أيام السفاح. وكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطرق. وكان الذكر له. فحقد أبو جعفر ذلك عليه. ولما صدر الناس عن الموسم تقدم أبو مسلم في الطريق على أبي جعفر فأتاه خبر وفاة السفاح فكتب إلى أبي جعفر يعزيه عن أخيه ولم يهنهِ بالخلافة ولم يقُم حتى يلحقه ولم يرجع إليه. فخافه أبو جعفر المنصور واجمع الرأي وعمل المكايد وهجر النوم إلى أن اقتنصه. وكان أبو مسلم استشار رجلاً من أصحابه بالريّ في رجوعه إلى المنصور فقال: لا أرى أن تأتيه وارى أن تمتدّ إلى خراسان. فلما لم يقبل منه وسار نحو المنصور قيل له: تركت الرأي بالريّ فذهب مثلاً. فلما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه وإكرامه غاية الكرام. ثم قدم فدخل على المنصور وقبل يده. فأمره أن ينصرف ويروّح نفسه ليلته ويدخل الحمّام. فانصرف. فلما كان من الغد أعد المنصور من أصحاب الحرَس أربعة نفر وأكمنهم خلف الرواق وقال لهم: إذا أنا صفّقت بيديّ فشأنكم. وأرسل إلى أبي مسلم يستدعيه ودخل على المنصور فأقبل عليه يعاتبه ويذكر عثراته. فما عدّ عليه أن قال: ألستَ الكاتب إليّ تبدأ بنفسك. ودخلتَ إلينا وقلت: اين ابن الحارثيّة. ويأتيك كتابي فتقرأه استهزاءً ثم تلقيه إلى مالك بن الهيثم ويقرأه وتضحكان. فجعل أبو مسلم يعتذر إليه ويقبّل الأرض بين يديه. فقال المنصور: قتلني الله إن لم أقتلك. وصفّق بيديه فخرج الحرس يضربونه بسيوفهم وهو يصرخ ويستأمن ويقول: استبقني لعدوّك يا أمير المؤمنين. فقال له المنصور: وأيّ عدوّ لي أعدى منك. وقيل كانت عند أبي مسلم ثلاث نسوة وكان لا يطأ المرأة منهن

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٥ ص ٤٥٩، لاثني عشرة مضت منه بالجدري وكذلك في تاريخ الطبري ح ٦ ص ١٢٠.

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٧٠ كانت ولايته أربع سنين وتسعة أشهر.

(٣) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٥ ص ٤٦١ في سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لأخيه أبي جعفر، أنظر تاريخ الطبري ح ٦ ص ١٣٦.

في السنة إلا مرة واحدة. وكان من أغير الناس لا يدخل قصره أحد غيره وفيه كوّى يطرح منها لنسائه ما يحتجنَ إليه. قالوا ليلة زفّت إليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح وأُحرق سرجه لئلا يركبه ذكر بعدها.

قالوا وكان من أشد الناس طمعاً وأكثرهم طعاماً يخبز كل يوم في مطبخه ثلاثة آلاف قرف ويطبخ مائة شاة سوى البقر والطير. وكان له ألف طبّاخ وآلة المطبخ تحمل على ألف ومائتي رأس من الدوابّ. وقيل كان أبو مسلم شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة. وقيل بل كان فاتكاً قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه قتل ستمائة ألف ممن يُعرف صبراً سوى مَن لا يُعرف ومَن قُتل في الحروب والهيجات. وسُئل بعضهم: أبو مسلم كان خيراً أو الحجّاج. قال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد ولكن الحجاج كان شراً منه. وزعم قوم أن أبا مسلم كان من قرية من قرى مرو. ويقال: بل كان من العرب سمع الحديث وروى الأشعار. وقيل كان عبداً. وقد نسبه بعض الشعراء إلى الأكراد حين هجاه. وفي سنة أربعين ومائة سيَّر المنصور عبد الوهاب ابن أخيه إبراهيم بن محمد الإمام في سبعين ألف مقاتل إلى ملَطية. فنزلوا عليها وعمروا ما كان خرّبه الروم منها. ففرغوا من العمارة في ستة أشهر. وأسكنها المنصور أربعة آلاف من الجند وأكثر فيها من السلاح والذخائر وبنى حصن قلوذية. وفي هذه السنة خرج الراوندية على المنصور بمدينة الهاشمية وهم قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور. وجعلوا يطوفون بقصره ويقولون: هذا قصر ربنا. فأنكر ذلك المنصور وخرج إليهم ماشياً إذ لم يكن في القصر دابة. ونودي في أهل السوق فاجتمعوا وحملوا عليهم وقاتلوهم فقُتلوا أعني **الراوندية** جميعاً وهم يومئذ ستمائة رجل. وفي السنة الرابعة والأربعين أخذ المنصور من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب اثني عشر إنساناً ورحّلهم من المدينة إلى الكوفة وحبسهم في بيت ضيّق لا يمكّن أحد من مقعده يبول بعضهم على بعض ويتغوط ولا يدخل عليهم روح الهواء ولا تخرج عنهم رائحة القذارة حتى ماتوا عن آخرهم. فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب بالمدينة وجمع الجموع وتسمى بالمهدي. وخرج إبراهيم أخوه بالبصرة في ثلاثين ألفاً. وقُتلا ولم ينجحا. وفي سنة خمس وأربعين ومائة ابتدأ المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد. وسبب ذلك أنه كان قد ابتنى الهاشمية بنواحي الكوفة. فلما ثارت الراوندية به فيها كره سُكناها لذلك ولجوار أهل الكوفة أيضاً فإنه كان لا يأمن أهلها على نفسه وكانوا قد أفسدوا جنده. فخرج بنفسه يرتاد موضعاً يسكنه هو وجنده. فقال له أهل الحذق: إنّا نرى يا أمير المؤمنين أن يكون على الصراة وبين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر فإذا قطعته لم يصل إليك. وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد. ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك. وتجيئك الميرة فيها من البر والبحر. فازداد المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع. ولما عزم على بناء بغداد أمر بنقض المدائن وإيوان كسرى. فنقضه ونقله

إلى بغداد. فنقضت ناحية من القصر الأبيض وحُمل نقضه. فنظر وكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الجديد فأعرض عن الهدم. وجعل المدينة مدوَّرة لئلاّ يكون بعد الناس أقرب إلى السلطان من بعض. وعمل لها سورين الداخل أعلى من الخارج. وبنى قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلّي أن ينحرف إلى باب البصرة. وكانت الأسواق في مدينته فجاءه رسول لملك الروم. فأمر الربيع فطاف به في المدينة. فقال: كيف رأيت. قال: رأيت بناء حسناً إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوقة. فلما عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ وأمر أن يُجعل في كل ربع من مدينته بقّال يبيع البقل والخل حسبُ. في سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام. وفي سنة ثماني وخمسين ومائة سار المنصور من بغداد ليحجّ فنزل قصر عبدويه فانقضّ في مقامه هنالك كوكب بعد إضاءة الفجر وبقي أثره بيّناً إلى طلوع الشمس. فأحضر المهدي ابنه وكان قد صحبه ليودّعه فوصاه بالمال والسلطان. وقال له أيضاً: أوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم فإنّ عزّك عزُّهم وذكرهم لك وما أظنُّك تفعل. وانظر مواليك وأحسن إليهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدَّةٍ إن نزلت بك وما أظنك تفعل. وانظر هذه المدينة وإياك أن تبني المدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وأظنك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك ستفعل. هذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك. ثم ودّعه وبكى كل منها إلى صاحبه. ثم سار إلى الكوفة وكلما سار منزلاً اشتد وجعه الذي مات به وهو القيام. فلما وصل إلى بئر ميمون مات بها مع السحر لستّ خلونَ من ذي الحجة سنة ثماني وخمسين ومائة. وحمل إلى مكة وحفروا له مائة قبر ليعمّوا على الناس ودُفن في غيرها مكشوف الرأس لإحرامه وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة[1]. وقيل في صفته وسيرته أنه كان أسمر نحيفاً خفيف العارضين وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس وأشدّهم احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان. فإذا لبس ثيابه وخرج هابه الأكابر فضلاً عن الأصاغر. ولم يُرَ في داره لهو ولا شيء من اللعب والعبث. قال حماد التركي: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فقال: انظر ما هذا. فذهبت فإذا خادم له قد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهنّ يضحكن فأخبرته فقال: وأي شيء الطنبور. فوصفته له. فقال: ما يُدريك أنت ما الطنبور. قلت: رأيته بخراسان. فقام ومشى إليهنّ. فلما رأينه تفرّقن. فأمر بالخادم فضُرب رأسه بالطنبور حتى تكسّر الطنبور وأخرجه فباعه. ولما أفضى إليه الأمر أمر بتغيير الزي وتطويل القلانس. فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل. وأمر بعدّ دور أهل الكوفة وقسمة خمسة دراهم على كل دار. فلما عرف عددهم جباهم أربعين درهماً أربعين درهماً.

وكان المنصور في صدر أمره عندما بنى بغداد أدركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة

(١) في تاريخ الطبري ح ٦ ص ٣٨٨ قيل أنه بلغ ثمانين سنة.

شهوة. وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه. فقيل له عن جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوريّ أنه أفضل الأطباء. فتقدم بإحضاره. فأنفذه العامل بجنديسابور بعد ما أكرمه. فخرج ووصّى ولده بختيشوع بالبيمارستان واستصحب معه تلميذه عيسى بن شهلاثا ولما وصل إلى بغداد أمر المنصور بإحضاره. فلما وصل إلى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية. فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن أشياء فأجابه عنها بسكون. وخبَّره بمرضه. فقال له جيورجيس: أنا أدبّرك بمشيئة الله وعونه. فأمر له في الوقت بخلعة جليلة وتقدم إلى الربيع بإنزاله في أجل موضع من دوره وإكرامه كما يكرم أخص الأهل. ولم يزل جيورجيس يتطلف له في تدبيره حتى برىء من مرضه وفرح به فرحاً شديداً. وقال له يوماً: من يخدمك ههنا. قال: تلامذتي. فقال له الخليفة: سمعت أنه ليست لك امرأة. فقال: لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها. وانصرف من الحضرة ومضى إلى البيعة. فأمر المنصور خادمه سالماً أن يحمل من الجواري الروميّات الحسان ثلاثاً إلى جيورجيس مع ثلاثة آلاف دينار. ففعل ذلك. فلما انصرف جيورجيس إلى منزله عرّفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بما جرى وأراه الجواري. فأنكر أمرهن وقال لعيسى: يا تلميذ الشيطان لِمَ أدخلتَ هؤلاء إلى منزلي. أردتَ أن تنجسني. أمضِ وردّهنّ على أصحابهنّ. فمضى إلى دار الخليفة وردهنّ على الخادم. فلما اتصل الخبر إلى المنصور أحضره وقال له: لِمَ رددتَ الجواري. قال: لا يجوز لنا معشر النصارى أن نتزوّج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها. فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة. ولما كان في سنة اثنتين وخمسين ومائة مرض جيورجيس مرضاً صعباً. ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرّف خبره. فخبّره وقال له: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لانظر أهلي وولدي وإن متّ قُبرت مع آبائي. فقال له: يا حكيم اتقِ الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة. قال جيورجيس قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار. فضحك المنصور من قوله ثم قال: إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض التي كانت تعتادني. فقال جيورجيس: أنا أخلف بين يدَي أمير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر. فأمر لجيورجيس بعشرة آلاف دينار وأذن له بالانصراف وانفذ معه خادماً وقال: إن مات في الطريق فاحمله إلى منزله ليدفن هناك كما أحب. فوصل إلى بلده حياً. ثم أمر المنصور بإحضار عيسى بن شهلاثا. فلما مثَل بين يديه سأله عن أشياء فوجده ماهراً فاتخذه طبيباً. ولما استصحبه المنصور بدأ في التشاور والأذية خاصة على المطارنة والأساقفة ومطالبتهم بالرشى. ولما خرج المنصور في بعض أسفاره وصل إلى قريب نصيبين[1]. فكتب عيسى إلى قوفريان مطران نصيبين

(١) نصيبين: مدينة من بلاد الجزيرة بالعراق على جادة القوافل من موصل إلى الشام.

يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمسه منه. وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر. وكتب في كتابه إلى المطران: ألستَ تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته. فلما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال فأقرأه الكتاب وأوصله الربيع إلى الخليفة ووقفه على حقيقة الأمر. فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى الطبيب وتأديبه ونفيه. ففعل به ذلك ونُفي أقبح نفي. وهذا ثمرة الشره. وكان نوبخت المنجم الفارسي يصحب المنصور وكان فاضلاً حاذقاً خبيراً باقتران الكواكب وحوادثها. ولما ضعف عن الصحة قال له المنصور: أحضر ولدك ليقوم مقامك. فسير ولده أبا سهل. قال أبو سهل: فلما دخلت على المنصور ومثلت بين يديه قيل لي: تسمَّ لأمير المؤمنين. فقلت: اسمي خرشاذماه طيماذاه ماباذار خسرو ابهمشاذ. فقال لي المنصور: كل ما ذكرتَ فهو اسمك. **(قال)** قلت: نعم. فتبسم المنصور ثم قال: ما صنع أبوك شيئاً فاختر مني إحدى خلتين أما أن اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماذ وأما أن تجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي أبو سهل. قال أبو سهل: قد رضيت بالكنية. فبقيت كنيته وبطل اسمه.

(المهدي بن المنصور) لما مات المنصور ببئر ميمون لم يحضره عند وفاته إلا خدمه والربيع مولاه. فكتم الربيع موته وألبسه وسنده وجعل على وجهه كلّة خفيفة يُرى شخصه منها ولا يفهم أمره وأدنى أهله منه. ثم قرب منه الربيع كأنه يخاطبه. ثم رجع إليهم وأمرهم عنه بالبيعة للمهدي بن المنصور بن محمد الامام ولابن عمه عيسى بن موسى بن محمد الإمام بعده. فبايعوا. ثم أخرجهم. وبعد ذلك خرج إليهم باكياً مشقوق الجيب لاطماً رأسه. ثم وجه إلى المهدي بخبر وفاة المنصور وبالبيعة له ولابن عمه عيسى بن موسى بعده. فأبى عيسى بن موسى من البيعة للمهدي وامتنع بالكوفة وأراد أن يتحصن بها. فبعث المهدي أبا هريرة في ألف فارس فأخذه إلى المهدي. ولم يزل يراوضه ويراوده حتى أجاب إلى خلع نفسه. فعوضه عنها عشرة آلاف دينار وبايع للمهدي ولابنه موسى الهادي. وفي أيام المهدي خرج بخراسان رجل يقال له يوسف البرْم واستغوى خلقاً فبعث إليه المهدي جيوشاً ففضوا جموعه وأسروه وحملوه إلى المهدي. فأمر به فصلب. وخرج المقنّع وادعى النبوة وقال بتناسخ الأرواح واتّبعه أناس كثيرون. وكان هذا رجلاً قصيراً أعور من قرية بمرو يقال لها كَرَه. وكان لا يسفر عن وجهه لأصحابه فلذلك قيل له المقنع. وكان يُحسن شيئاً من الشعبذة وأبواب النيرنجيات فاستغوى أهل العقول الضعيفة واستمالهم، فبعث المهدي في طلبه فصار إلى ما وراء النهر وتحصن في قلعة نكس وجمع فيها من الطعام والعلوفة وبثَّ الدعاة في الناس وادعى إحياء الموتى وعلم الغيب. وألح المهدي في طلبه فحوصر. فلما اشتد الحصار عليه وأيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله كلهم وسقاهم السم فماتوا عن آخرهم. وأحرق كلما في القلعة من دابة وثوب وطعام. وألقى نفسه في النار لئلا يلقى جسده

العدوّ. ودخل العسكر القلعة ووجدوها خالية خاوية. وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من أصحابه بما وراء النهر. وكان وعدهم أن تتحول روحه إلى قالب رجل أشمط على برذون اشهب وأنه يعود إليهم بعد كذا سنة ويملكهم الأرض. فهم بعد ينتظرونه ويسمّون المبيضة. وفي سنة خمس وستين ومائة سير المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم. فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية. وصاحب الروم يومئذٍ ايريني امرأة لاون الملك. وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها. فجزعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد. فجرى الصلح بينهم على الفدية وأن تقيم له الأدلاّء والأسواق في طريقه. وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مخوفاً من أحد جانبيه جبل وعر ومن جانبه الآخر نهر ساغريس. فأجابته إلى ذلك ومقدار الفدية سبعون ألف دينار لكل سنة. ورجع عنها. ولو كانت ذات همة لامكنها منع المسلمين من الخروج والفتك بهم. وفي سنة تسع وستين ومائة عزم المهدي على خلع ابنه موسى الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد. فبعث إليه وهو بجرجان في المعنى. فلم يفعل وامتنع من القدوم أيضاً. فسار المهدي يريده. فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته إلى كمثرى فأهدته إلى جارية أخرى كان المهدي يتحظاها وسمّت منه كمثراة هي أحسن الكمثرى. فاجتاز الخادم بالمهدي وكان يعجبه الكمثرى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة فأكلها. فلما وصلت إلى جوفه صاح: جوفي جوفي. فسمعت حسنة بموته فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول: أردت أن أنفرد بك فقتلتك. فمات من يومه وكان موته في المحرم لثمان بقين منه سنة تسع وستين ومائة وكانت خلافته عشر سنين[1] وتوفي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ودُفن تحت جوزة كان يجلس تحتها.

حُكي أنه لما همّ المهدي بالخروج إلى ماسبذان تقدم إلى حسنة حظيّته أن تخرج معه. فأرسلت إلى توفيل بن توما النصراني النمجّم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدي قائلة له: أنك أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفراً لم يكن في الحساب. فعجل الله موتك وأراحنا منك. فلما بلّغته رسالتها قال للجارية التي اتته بها: ارجعي إليها وقولي لها أن هذه الإشارة ليست مني. وأما دعاؤك عليّ بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تتوهمي أن دعوتك استُجيبت. ولكن أعدّي لنفسك تراباً كثيراً. فإذا أنا متُّ فاجعليه على رأسك. فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعد عشرين يوماً. وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى. وله كتاب تاريخ حسن ونقل كتابَي أوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة.

وفي هذا الزمان اشتهر في الطب أبو قريش طبيب المهدي وهو المعروف بعيسى الصيدلاني.

---

(١) في تاريخ الطبري ح ٩ ص ١٢، كانت خلافته عشر سنين وشهراً ونصف شهر.

ولم يُذكر هذا في جملة الأطباء لأنه كان ماهراً بالصناعة وإنما يذكر لظريف خبره وما فيه من العبرة وحسن الاتفاق. وهو أن هذا الرجل كان صيدلانياً ضعيفاً الحال جداً. فتشكّت الخيزران حظية المهدي وكانت من مولدات المدينة. وتقدمت إلى جاريتها بأن تخرج القارورة إلى طبيب غريب لا يعرفها. وكان أبو قرَيش بالقرب من القصر الذي للمهدي. فلما وقع نظر الجارية عليه ارته القارورة. فقال لها: لمن هذا الماء. فقالت: لامرأة ضعيفة. فقال: بل لملكة جليلة عظيمة الشأن وهي حبلى بملك. وكان هذا القول منه على سبيل الرزق. فانصرفت الجارية من عنده وأخبرت الخيزران بما سمعت منه. ففرحت بذلك فرحاً شديداً وقالت: ينبغي أن تضعي علامة على دكانه حتى إذا صحَّ قوله اتخذناه طبيباً لنا. وبعد مدة ظهر الحبل وفرح به المهدي فرحاً شديداً. فأنفذت الخيزران إلى أبي قرَيش خلعتين فاخرتين وثلثمائة دينار وقالت: استعن بهذه على أمرك. فإن صحّ ما قلته استصحبناك. فعجب أبو قريش من ذلك وقال: هذا من عند الله جلّ وعزّ لأنني ما قلته للجارية إلا وقد كان هاجساً من غير أصل. ولما ولدت الخيزران موسى الهادىء سر المهدي سروراً عظيماً. وحدثته الخيزران الحديث فاستدعى أبا قريش وخاطبه. فلم يجد عنده علماً بالصناعة إلا شيئاً يسيراً من علم الصيدلة. إلا أنه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستصحبه وأكرمه الإكرام التام وحظي عنده.

(الهادي بن المهدي) لما توفي المهدي كان الرشيد معه في ماسبذان. فكتب إلى الآفاق بوفاة المهدي والبيعة لموسى الهادي. وسار نصير الوصيف إلى الهادي بجرجان يعلمه بوفاة المهدي والبيعة له. فنادى بالرحيل. ولما قدم بغداد استوزر الربيع. وفي هذه السنة وهي سنة تسع وستين ومائة تتبع الهادي الزنادقة وقتل منهم جماعة كانوا إذا نظروا إلى الناس في الطواف يهزلون ويقولون: ما أشبههم ببقر تدوس البيدر. وقتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب.

وفي سنة سبعين ومائة توفي الهادي. وسبب وفاته أنه لما ولي الخلافة كانت أمه الخيزران تستبد بالأمور دونه. وكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلا. فقالت: لا بد من الإجابة إليه. فغضب الهادي وقال: والله لا قضيتها لك. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. قال: لا أبالي. فقامت مغضبة. فقال: مكانك. والله لئن بلغني أنه وقف في بابك أحد من قوادي لأضربنَّ عنقه. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك. أما لك مغزل يشغلكِ أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك. فانصرفت وهي لا تعقل. ووضعت جواريها عليه لما مرض فقتلنَه بالغم وبالجلوس على وجهه. فمات ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول. وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر[1] وكان عمره ستاً وعشرين سنة.

(١) في تاريخ الطبري ح ٩ ص ٥٧، قال الواقدي كانت ولايته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً.

(هارون الرشيد بن المهدي) لما توفي لهادي بويع الرشيد هارون بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي. وكان عمره حين ولي اثنتين وعشرين سنة. وأمه الخيزران. ولما مات الهادي خرج الرشيد فصلى عليه بعيساباذ. ولما عاد الرشيد إلى بغداد وبلغ الجسر دعا الغوّاصين وقال: كان أبي قد وهب لي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار. فأتاني رسول الهادي أخي يطلب الخاتم وأنا ههنا فألقيته في الماء. فغاصوا عليه وأخرجوه فسُرّ به. ولما مات الهادي هجم خزيمة بن خازم تلك الليلة على جعفر بن الهادي فأخذه من فراشه وقال له لتخلعنها أو لأضربنّ عنقك. فأجاب إلى الخلع. وأشهد الناس عليه فحظي بها خزيمة.

وقيل لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد البرمكيّ إلى الرشيد فأعلمه بموته. فبينا هو يكلمه إذ أتاه رسول آخر يبشره بمولود. فسماه عبد الله وهو المأمون. فقيل: في ليلة مات خليفة وقام خليفة وولد خليفة وفي هذه السنة ولد الأمين واسمه محمد في شوال وكان المأمون أكبر منه. ولما ولي الرشيد استوزر يحيى البرمكي.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين وولاّه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ولقبه المأمون وسلمه إلى جعفر بن يحيى البرمكيّ. وفيها حملت بنت خاقان الخزر إلى الفضل بن يحيى البرمكيّ. فماتت ببرذعة فرجع من معها إلى أبيها فأخبروه أنها قُتلت غيلة فتجهز إلى بلاد الإسلام. وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن لاون وأقرّوا أمه ايريني. وغزا المسلمون الصائفة فبلغوا افسوس مدينة أصحاب الكهف. وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر بسبب ابنة خاقان من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وانتهكوا أمراً عظيماً لم يسمَع بمثله في الأرض.

وفي سنة ست وثمانين ومائة أخذ الرشيد البيعة للقاسم ابنه بولاية العهد بعد المأمون وسمّاه المؤتمن. وفي سنة سبع وثمانين ومائة خلعت الروم ايريني الملكة وملكت نيقيفور وهو من أولاد جبلة. فكتب إلى الرشيد: من نيقيفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد فإن الملكة ايريني حملت إليك من أموالها ما كنتَ حقيقاً بحمل أضعافه إليها. لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما أخذت وإلاّ فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب وكتب في ظهر الكتاب: من هارون أمير المؤمنين إلى نيقيفور زعيم الروم. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه. ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة فأحرق وخرّب ورجع. وفي هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى البرمكي وحبس أخاه الفضل وأباه يحيى بالرقة حتى ماتا. وكتب إلى العمال في جميع النواحي بالقبض على البرامكة واستصفى أموالهم. وفي سنة تسعين ومائة ظهر رافع بن الليث بما وراء النهر مخالفاً للرشيد بسمرقند. وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب

رافع. ولما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلة. ولما بلغ جرجان في صفر اشتد مرضه. وكان معه ابنه المأمون. فسيره إلى مرو ومعه جماعة من القواد. وسار الرشيد إلى طوس[١]. واشتد به المرض حتى ضعف عن الحركة. ووصل إليه هناك بشير بن الليث أخو رافع أسيراً فقال له الرشيد: والله لو لم يبقى من أجَلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت: اقتلوه. ثم دعا بقصّاب فأمر به ففصل أعضاءه. فلما فرغ منه أغمي عليه ثم مات ودفن بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين[٢] سنة. وكان عمره سبعاً وأربعين سنة. وكان جميلاً وسيماً أبيض جعداً قد وخطه الشيب. وكان بعهده ثلاثة الأمين وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ثم المأمون وأمّه أم ولد اسمها مراجل ثم المؤتمن وأمه أم ولد. قيل: وكان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلاّ من مرض. وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته.

قيل إن الرشيد في بدء خلافته سنة إحدى وسبعين ومائة مرض من صداع لحقه. فقال ليحيى بن خالد بن برمك: هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئاً وينبغي أن تطلب لي طبيباً ماهراً. فقال له عن بختيشوع بن جيورجيس. فأرسل البريد في طلبه إلى جنديسابور. ولما كان بعد أيام ورد ودخل على الرشيد فأكرمه وخلع عليه خلعة سنية ووهب له مالاً وافراً وجعله رئيس الأطباء. ولما كان في سنة خمس وسبعين ومائة مرض جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك. فتقدم الرشيد إلى بختيشوع أن يخدمه. ولما أفاق من مرضه قال لبختيشوع: أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه. قال له بختيشوع: لست أعرف في هؤلاء الأطباء أحذق من ابني جبريل. فقال له جعفر: أحضرنيه. فلما أحضره شكا له مرضاً كان يخفيه. فدبّره في مدة ثلاثة أيام وبرىء. فأحبه جعفر مثل نفسه. وفي بعض الأيام تمطّت حظيّة الرشيد ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردّها والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان فلا ينفع ذلك شيئاً. فقال له جعفر عن جبريل ومهارته. فأحضره وشرح له حال الصبية. فقال جبريل: إن لم يسخط أمير المؤمنين عليّ فلها عندي حيلة. قال له الرشيد: ما هي. قال: تخرج الجارية إلى ها هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريد وتتمهّل عليّ ولا تسخط عاجلاً. فأمر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل أسرع إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها. فقال جبريل: لقد برِئت يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد للجارية ابسطي يدك يمنة ويسرة. ففعلت. فعجب الرشيد وكل من حضر وأمر لجبريل في الوقت

(١) طوس: مدينة مشهورة في بلاد فارس.

(٢) في تاريخ الطبري ح ٩ ص ١٩٦ وكانت خلافته ثلاث وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً أولها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وآخرها ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

بخمسمائة ألف درهم وأحبه. ولما سُئل عن سبب العلة قال: هذه الصبية انصبّ إلى أعضائها وقت الغشيان خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة ولأجل أن سكون حركة الغشيان تكون بغتة جمدت الفضلة في بطون الأعصاب وما كان يحلّها إلاّ حركة مثلها فاحتلّت حتى انبسطت حرارتها وحلّت الفضلة فبرئت.

ومن أطباء الرشيد (**يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولاّه**) الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة. وخدم الرشيد ومن بعده إلى أيام المتوكل وكان مفطماً ببغداد جليل القدر وله تصانيف جيلة وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة. وكان يدرّس ويجتمع إليه تلاميذ كثيرون. وكان في يوحنا دعابة شديدة يحضره مَن يحضره لأجلها في الأكثر. وكان من ضيق الصدر وشدّة الحدّة على أكثر مما كان عليه جبريل بن بختيشوع. وكانت الحدة تُخرج من يوحنا ألفاظاً مضحكة. فما حفظ من نوادره أن رجلاً شكا إليه علة كان شفاه منها الفصد فأشار عليه به. فقال له: لم اعتد الفصد. قال له يوحنا: ولا أحسبك اعتدتَّ العلة من بطن أمك. وصار إليه قسيس وقال: قد فسدت عليَّ معدتي. فقال له يوحنا: استعمل جوارشن الخوزي. فقال له: قد فعلت. قال: فاستعمل الكموني. قال: قد استعملت منه أرطالاً. فأمره باستعمال البنداذيقون. فقال: قد شربت منه جرة. قال: استعمل المروسيا. فقال له: قد فعلت وأكثرت. فغضب يوحنا وقال له: إن أردت أن تبرأ فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة. وكان بختيشوع بن جبريل يداعب يوحنا كثيراً. فقال له في مجلس إبراهيم بن المهدي وهم في معسكر المعتصم بالمدائن سنة عشرين ومائتين: أنت أبا زكريا أخي ابن أبي. فقال يوحنا لإبراهيم: أشهد على إقراره فوالله لأقاسمنّه ميراثيه من أبيه. فقال له بختيشوع: إن أولاد الزنا لا يرثون. فانقطع يوحنا ولم يحِر جواباً. ومن الأطباء في أيام الرشيد صالح بن بهلة الهندي. ومن عجيب ما جرى له أن الرشيد في بعض الأيام قدّمت له الموائد. فطلب جبريل بن بختيشوع يحضر أكله على عادته في ذلك فلم يوجد فلعنه الرشيد. فبينما هو في لعنته إذ دخل عليه. فقال له: أين كنت وطفق يذكره بشرّ. فقال: إن اشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه إبراهيم بن صالح وترك تناولي بالسب كان أشبه. فسأله عن خبر ابراهيم. فأعلمه أنه خلّفه وبه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة. فاشتد جزع الرشيد من ذلك وأمر برفع الموائد وكثر بكاؤه. فأشار جعفر ابن يحيى البرمكي أن يمضي صالح الطبيب الهندي إليه ويعاينه ويجس نبضه. فمضى وتأمله ورجع إلى جعفر قائلاً: إن مات هذا من هذه العلة كل امرأة لي طالق ثلاثاً بتاتاً. فلما كان وقت العتمة ورد كتاب صاحب البريد بوفاة إبراهيم على الرشيد فأقبل يلعن الهند وطبهم. فحضر صالح بين يدي الرشيد فقال: الله الله أن تدفن ابن عمك حياً فوالله ما مات. قم حتى أريك عجباً. فدخل إليه الرشيد ومعه جماعة من خواصه. فأخرج صالح ابرة كانت معه وأدخلها بين ظفر إبهام يده اليسرى

ولحمه. فجذب إبراهيم يده وردها إلى بدنه. فقال صالح: يا أمير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع. ثم نفخ شيئاً من الكندس في أنفه. فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس وكلّم الرشيد وقبّل يده. وسأله الرشيد عن قضيته. فذكر أنه كان نائماً نوماً لا يذكر أنه نام مثله قط طيّباً إلا أنه رأى في منامه كلباً قد أهوى إليه فتوقّاه بيد فعض إبهام يده اليسرى عضة انتبه بها وهو يحسّ بوجعها وأراه موضع الإبرة. وعاش إبراهيم بعد ذلك دهراً وولي مصر وتوفي بها وهناك قبره.

(الأمين بن الرشيد) انتهى الأمر إليه بعد أبيه بإثني عشر يوماً. بويع له في عسكر الرشيد وكان المأمون حينئذ بمرو. وفي سنة أربع وتسعين ومائة قدم الفضل ابن الربيع العراق من طوس ونكث عهد المأمون وسعى في إغراء الأمين وحثه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد. فأمر الأمين بالدعاء على المنابر لابنه موسى ونهى عن الدعاء للمأمون. وأمر بإبطال المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان. وندب الأمين عليّ بن عيسى بن ماهان للقاء المأمون. ولما عزل على المسير من بغداد ركب إلى باب زبيدة أم الأمين ليودّعها. فقالت له: يا عليّ اعرف لعبد الله المأمون حق ولادته ولا تقتسره اقتسار العبيد إذا ظفرت به ولا تعنف عليه في السير وإن شتمك فاحتمله. ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت: قيده بهذا القيد. ثم خرج عليّ في عشرة آلاف فارس. وبلغ الخبر المأمون فتسمى بأمير المؤمنين وانهض هرثمة بن أعين في أقل من أربعة آلاف فارس وعلى مقدمته طاهر بن الحسين. ثم خرج طاهر في أصحابه من الري على خمسة فراسخ. وسار إليه عليّ وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحملت ميمنة عليّ وميسرته على ميسرة طاهر وميمنته فأزالتاهما عن موضعيهما. وحمل قلب طاهر على قلب عليّ فهزموه. ورجع المنهزمون من معسكر طاهر على مَن بإزائهم فهزموهم. ورمى رجل اسمه داود شاه عليًّا بسهم فقتله. وحمل رأسه إلى طاهر وأنفذه إلى المأمون. وكان عليّ قليل الاحتياط من طاهر. وكان يقول لأصحابه: ما بينكم وبين أن ينقصف طاهر انقصاف الشجر من الريح إلا أن نعبر عقبة همذان. ولما قتل عليّ بعث المأمون إلى طاهر بالهدايا وأمره أن يمضي إلى العراق. فأخذ طاهر على طريق الأهواز وأخذ هرثمة على طريق حلوان. فشغب الجند على محمد الأمين ووثبوا عليه وخلعوه وحبسوه مع أمه زبيدة وولده. ثم أخرجوه وبايعوه وكان حبسه يومين. ثم حاصر طاهر وهرثمة محمداً الأمين وجعلا يحاربان أصحابه سنة ببغداد فقل أصحابه وخفت يده من المال وضعف أمره. فوجه إلى هرثمة يسأله الأمان. فأمنه وضمن له الوفاء من المأمون. فلما علم ذلك طاهر اشتد عليه وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة وقال: هو في حيّزي والجانب الذي أنا فيه وأنا أخرجته بالحصار حتى طلب الأمان فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون له الفتح دوني. وكان الأمين يكره الخروج إلى طاهر لمنام رآه. فلما كان ليلة الأحد لخمس بقين من محرم سنة ثماني وتسعين ومائة خرج بعد العشاء

الآخرة إلى صحن الدار ودعا بابنيه وضمهما إليه وقبلهما وقال: استودعكما الله عز وجل. ثم جاء راكباً إلى الشط. فإذا حراقة هرثمة فصعد إليها وأمر هرثمة الحراقة أن تدفع. فأدركهم أصحاب طاهر في الزواريق وحملوا على الحراقة بالنفط والحجارة فانكفأت بمن فيها وسقط هرثمة إلى الماء فتعلّق الملاح بشعره فأخرجه. وأما الأمين فإنه لما سقط إلى الماء شق ثيابه وسبح حتى خرج بشط البصرة. فأخذه أصحاب طاهر وجاءُوا إلى بيت وهو عريان عليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة فحبسوه هناك. فلما انتصف الليل دخل عليه قوم من العجم معهم السيوف مسلولة. فلما رآهم جعل يقول: ويحكم أنا ابن عمّ رسول الله انا ابن هارون أنا أخو المأمون. الله الله في دمي. فضربه رجل منهم بالسيف في مقدم رأسه ونخسه آخر في خاصرته وركبوه فذبحوه ذبحاً وأخذوا رأسه ومضوا به إلى طاهر[1]. فبعث به إلى المأمون. وكانت خلافة الأمين أربع سنين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وقيل: لما ملك الأمين وكاتبه المأمون وأعطاه بيعته طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وأمره ونهيه ووجّه إلى جميع البلدان في طلب أصحاب اللهو وضمّهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق وقسم ما في بيوت الأموال من الجواهر في خصيانه ونسائه الأحرار وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس. فقال أبو نواس في ذلك:

عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث يمرّ مرّ السحابِ
سبّحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقابِ

واحتجب عن اخوته وأهل بيته واستخف بهم وبقواده وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ولهوه وأحبته. وأمر قيّمة جواريه أن تهيىء له مائة جارية صانعة فتصعد إليه عشر عشر بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد. وقيل إنه لما أتاه نعي عليّ بن عيسى كان يصطاد السمك فقال للذي اخبره بذلك: دعني فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد. وبالجملة لم يوجد في سيرته ما يستحسن ذكره من حكمة ومعدلة أو تجربة حتى تذكر.

(المأمون بن الرّشيد) لما خلص الأمر للمأمون إلى عليّ بن موسى بن جعفر ابن محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب فأقدمه خراسان وجعله ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وزوجه ابنته أم حبيبة ولقبه الرضا من آل محمد. وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة وكتب بذلك إلى الآفاق أنه نظر في بني العباس وبني عليّ فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم من عليّ بن موسى فلذلك عقد له العهد من بعده. فشق ذلك على بني هاشم وغضب بنو العباس فقالوا: لا تخرج الخلافة منّا إلى أعدائنا. فخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بن

(١) أنظر تاريخ الطبري ح ٩ ص ٣٣٧.

المنصور بن محمد الإمام ابن عليّ بن عبد الله بن عباس وسموه المبارك. وفي سنة ثلاث ومائتين مات علي بن موسى الرضا وكان سبب موته أنه أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة في آخر صفر بمدينة طوس فدفنه المأمون عند قبر أبيه الرشيد. وفي هذه السنة خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي فاختفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة ولم يزل متوارياً[١]. وقدم المأمون بغداد وانقطعت الفتن. وفي هذه السنة وهي سنة أربع ومائتين مات الإمام محمد بن إدريس الشافعي.

وفي سنة عشر ومائتين في ربيع الآخر أُخذ إبراهيم بن المهدي وهو متنقّب مع امرأتين وهو في زيّ امرأة أخذه حارس اسوَد ليلاً فقال: من انتنّ وأين تردنَ هذا الوقت. ولما استراب بهنّ رفعهنّ إلى صاحب المسلحة. فأمرهنّ أن يسفرنَ. فامتنع إبراهيم. فجذبه فبدت لحيته فرفعه إلى باب المأمون واحتفظ به إلى بكرة. فلما كان الغد أقعد إبراهيم في دار المأمون والمقنعة في عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم. ثم عفا عنه وأمّنه ونادمه. وفي سنة سبع عشرة ومائتين سار المأمون إلى بلد الروم فأناخ على لؤلؤة مائة يوم. ثم رحل عنها وترك عليها عجيفاً. فخدعه أهلها وأسروه فبقي عندهم ثمانية أيام ثم أخرجوه. وفي سنة ثماني عشرة ومائتين كتب المأمون إلى اسحق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدّثين بالقرآن فمن أقر أنه مخلوق محدَث خلّى سبيله ومن أبى أعلمه به ليأمر فيه برأيه. وفي هذه السنة مرض المأمون مرضه الذي مات به لثلاث عشرة خلت من جمادي الآخرة. وكان سبب مرضه أنه كان جالساً على شاطىء البدندون وأخوه أبو اسحق المعتصم عن يمينه وهما قد دلّيا أرجلهما في الماء. فبينما هو متعجب من عذوبته وصفائه وشدة برده إذ جاءته الألطاف من العراق وكان فيها رُطب ازاذ كأنما جني تلك الساعة. فأكل منه وشرب من ذلك الماء فما قام إلا وهو محموم وكانت منيته من تلك العلة. فلما أنه مرض خلع أخاه القاسم المؤتمن وأخذ البيعة لأخيه أبي اسحق المعتصم وأمر أن يكتب إلى البلاد الكتب من عبد الله المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي اسحق المعتصم بن هارون الرشيد. ولما حضره الموت كان عنده ابن ماسويه الطبيب. وكان عنده من يلقّنه فعرض عليه الشهادة فأراد الكلام فعجز عنه. ثم أنه تكلم فقال: يا من لا يموت ارحم من يموت. ثم توفي[٢] من ساعته. فحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرطوس فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد. وكانت خلافته عشرين سنة. وكان ربعة أبيض جميلاً طويل اللحية رقيقها قد وخطه الشيب وقيل كان اسمر تعلوه صفرة. وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة.

(١) أنظر تاريخ الطبري ح ٩ ص ٤٣٤.

(٢) في تاريخ الطبري ح ٩ ص ٥١٦ توفي يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب بعد العصر وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.

قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي أن العرب في صدر الإسلام لم تُعنَ بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند إفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها. فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية.

فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبّت الفطن من ميتتها. وكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور. وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم. ثم لما افضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمّم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة. فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم أحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن. ثم حرّض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومَن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي بأخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها. أما في أحكام الصنعة فكالنحل المحكمة لتسديس مخازن قوتها وأما في الجرأة والشجاعة فكالأسد وغيره من السباع التي لا يتعاطى الإنسان أقدامها ولا يدّعي بسالتها. وأما في الشبق فكالخنزير وغيره مما لا حاجة إلى إبانته. فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدُجى وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم. فمن المنجمين في أيام المأمون حبش الحاسب المروزي الأصل البغدادي الدار. وله ثلاثة أزياج. أولها المؤلف على مذهب السند هند. والثاني الممتحن وهو أشهرها ألّفه بعد أن رجع إلى معاناة الرصد وأوجبه الامتحان في زمانه. والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاة. وله كتب غير هذه. وبلغ من عمره مائة سنة. ومنهم أحمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم هيئة الأفلاك يحتوي على جوامع كتاب بطليموس بأعذب لفظ وأبين عبارة. ومنهم عبد الله بن سهل بن نوبخت كبير القدر في علم النجوم. ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي. كان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الأول والثاني ويعرف بالسند هند. ومنهم ما شاء الله اليهودي. كان في زمن المنصور وعاش إلى أيام المأمون وكان فاضلاً أوحد زمانه له حظّ قويّ في سهم الغيب. ومنهم يحيى ابن أبي المنصور رجل فاضل كبير القدر إذ ذاك مكين المكان. ولما عزم المأمون على رصد الكواكب تقدم إليه وإلى جماعة من العلماء بالرصد وإصلاح آلاته. ففعلوا ذلك بالشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق. قال أبو معشر: اخبرني محمد بن موسى المنجم الجليس وليس بالخوارزمي قال: حدثني يحيى بن منصور قال: دخلت إلى المأمون وعنده جماعة من المنجمين وعنده رجل يدّعي النبوّة وقد دعا له المأمون بالعاصمي ولم يحضر بعد ونحن لا نعلم. فقال لي ولمن حضر من المنجمين: اذهبوا وخذوا الطالع

لدعوى الرجل في شيء يدّعيه وعرّفوني ما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه. ولم يعلمنا المأمون أنه متنبىء. (قال) فحملنا إلى بعض تلك الصحون فأحكمنا أمر الطالع وصورنا موضع الشمس والقمر في دقيقة واحدة وسهم السعادة منهم وسهم الغيب في دقيقة واحدة مع دقيقة الطالع والطالع الجدي والمشتري في السنبلة ينظر إليه والزهرة وعطارد في العقرب ينظران إليه. فقال كل من حضر من القوم: ما يدعيه صحيح. وأنا ساكت. فقال لي المأمون: ما قلتَ أنت. فقلت: هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية عطاردية. وتصحيح الذي يدّعيه لا يتمّ له ولا ينتظم. فقال: من أين قلت هذا. قلت: لأن صحة الدعاوي من المشتري ومن تثليث الشمس وتسديسها إذا كانت الشمس غير منحوسة وهذا الطالع يخالفه لأنه هبوط المشتري والمشتري ينظر إليه نظر موافقة إلا أنه كاره لهذا البرج والبرج كاره له فلا يتم التصديق والتصحيح. والذي قال من حجة زهرية وعطاردية. إنما هو ضرب من التخمين والتزويق والخداع يتعجب منه ويستحبّ. فقال لي المأمون: أنت لله درُّك. ثم قال: أتدرون مَن الرجل. قلنا له: لا. قال: هذا يدّعي النبوّة. فقلت: يا أمير المؤمنين أمعه شيء يحتج به. فسأله. فقال: نعم معي خاتم ذو فصّين ألبسه فلا يتعين منه شيء يحتج به ويلبسه غيري فيضحك ولا يتمالك من الضحك حتى ينزعه. ومعي قلم شامي آخذ فأكتب به ويأخذه غيري فلا ينطلق اصبعه. فقلت: يا سيدي هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملهما. فأمره المأمون بعمل ما ادّعاه. فقلنا له: هذا ضرب من الطلسمات. فما زال به المأمون أياماً كثيرة حتى أقرّ وتبرّأ من دعوة النبوّة وصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم. فوهب له ألف دينار. فتلقيناه بعد ذلك فإذا هو أعلم الناس بعلم التنجيم. قال أبو معشر: وهو الذي عمل طلسم الخنافس في دور كثيرة من دور بغداد. قال أبو معشر: لو كنت مكان القوم لقلت أشياء ذهبت عليهم كنت أقول: الدعوى باطلة لأن البرج منقلب والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران في برج كذاب وهو العقرب. ومن الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني ألكن اللسان في العربية وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطبّ. ومن الأطباء سهل بن سابور ويعرف بالكوسج. كان بالأهواز وفي لسانه لكنه خُوزية وتقدّم بالطب في أيام المأمون. وكان إذا اجتمع مع يوحنا ابن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر عنهم في العلاج. ومن دعاباته أنه تمارض وأحضر شهوداً يشهدهم على وصيته وكتب كتاباً أثبت فيه أولاده فأثبت في أوله جيورجيس بن بختيشوع والثاني يوحنا بن ماسويه وذكر أنه أصاب أميُهما زناً فأحبلهما. فعرض لجيورجيس زمع من الغيظ وكان كثير الالتفات. فصاح سهل: صُريَ وَهَكَ المسيه اخْرَؤا في أذنه آية خرسي. أراد بالعجمة التي فيه: صُرعَ وحق المسيح اقرؤوا في أذنه آية الكرسي. ومن دعاباته أنه خرج في يوم الشعانين يريد المواضع التي تخرج إليها النصارى فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته. فحسده على

ذلك فصار إلى صاحب مسلحة النايحة فقال له: إن ابني يعقُّني وإن أنت ضربته عشرين درّة موجعة أعطيتك عشرين ديناراً. ثم أخرج الدنانير فدعها إلى من وثق به صاحب المسلحة ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ يوحنا الموضع الذي هو فيه فقدمه إلى صاحب المسلكة وقال: هذا ابني يعقُّني ويستخف بي. فجحد أن يكون ابنه. فقال: يهذي هذا. قال سهل: انظر يا سيدي. فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا من دابته وضربه عشرين مقرعة ضرباً موجعاً مبرّحاً. ومن أطباء المأمون جبريل الكحّال. كانت وظيفته في كل شهر ألف درهم وكان أول من يدخل إليه في كل يوم. ثم سقطت منزلته بعد ذلك. فسئل عن سبب ذلك فقال: إني خرجت يوماً من عند المأمون فسألني بعض مواليه عن خبره فأخبرته أنه قد أغفى. فبلغه ذلك فأحضرني ثم قال: يا جبريل اتخذتك كحّالاً أو عاملاً للأخبار عليّ. اخرج من داري. فأذكرته حرمتي فقال: إن له لحرمةً فليقتصر به على إجراء مائة وخمسين درهماً في الشهر ولا يؤذن له في الدخول.

(المعتصم بن الرشيد) هو أبو اسحق مُحمد بن هارون الرَّشيد. بويع له بعد موت المأمون فشغب الجيند ونادوا باسم العباس بن المأمون. فخرج إليهم العباس فقال: ما هذا الحب البارد وقد بايعت عمي. فسكنوا. ودخل كثير من أهل الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان وغيرهم في دين الخُرَّميَّة وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان. فوجّه إليهم المعتصم العساكر فأوقعوا بهم فقتل منهم ستون ألفاً وهرب الباقون إلى بلد الروم. وفي سنة تسع وعشرة ومائتين أحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلما لم يجب بكونه مخلوقاً أمر به فجلد جلداً شديداً حتى غاب عقله وتقطع جلده. وكان أبو هارون بن البكاء من العلاء المنكرين لخلق القرآن يقر بكونه مجعولاً لقول الله: إنا جعلناه قرآناً عربياً. ويسلم أن كل مجعول مخلوق ويحجم عن النتيجة ويقول: لا أقول مخلوق ولكنه مجعول. وهذا عجب عاجب.

وفي سنة عشرين ومائتين عقد المعتصم للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال ووجّهه لحرب بابك فسار إليه. وكان ابتداء خروج بابك سنة إحدى ومائتين وهزم من جيوش السلطان عدّةً وقتل من قواده جماعة ودخل الناس رعب شديد وهول عظيم واستعظموه واحتوى إليه القطاع وأصحاب الفتن وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسانه عشرين ألفاً سوى الرجالة وأخذ يمثل بالناس. وكان أصحابه لا يدَعون رجلاً ولا امرأة ولا صبيًّا ولا طفلاً مسلماً أو ذمياً إلاّ قطعوه وقتلوه وأُحصي عدد القتلى بأيديهم فكان مائتين ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان. فلما انتدب الإفشين لحرب بابك قاومه الإفشين سنة وانهزم من بين يديه غير مرة وعاوده. وآلا الأمر إلى أن انتحى بابك إلى البذ[1] مدينته. فلما ضاق أمره خرج هارباً ومعه أهله إلى بلاد الروم في زي

(١) البُذ: كسورة بين أزربيجان وأران. معجم البلدان ح ١/ ٣٦١.

التجار. فعرفه سهل بن سنباط الأرمني البطريق فأسره. فافتدى نفسه منه بمال عظيم. فلم يقبل منه وبعثه إلى الإفشين بعد ما ركب الأرمن من أمه وأخته وامرأته الفاحشة بين يديه. وكذا كان يفعل الملعون بالناس إذا أسرهم مع حرمهم. وحمل الإفشين بابك إلى المعتصم وهو بسر من رأى. فأمر بإحضار سياف بابك فحضر فأمره أن يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط. فأمر بذبحه وشق بطنه. وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرّا. وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد الإسلام فبلغ زبطرة[1] فقتل من بها من الرجال وسبى الذرّية والنساء. وأغار على ملطية وغيرها وسبى المسلمات ومثّل بمن صار في يده من المسلمين فسمل أعينهم وقطع آنافهم وآذانهم. فلما بلغ الخبر المعتصم استعظمه وتوجه إلى بلاد الروم وفتح عمورية وقتل ثلاثين ألفاً وأسر ثلاثين ألفاً. وفي سنة خمس وعشرين ومائتين تغير المعتصم على الإفشين لأنه كاتب مازيار أَصْبَهْبُذ طبرستان وحسّن له الخلاف والمعصية وأراد أن ينقل الملك إلى العجم فقتله وصلبه بإزاء بابك. ووجده بقلفته لم يختن. وأخرجوا من منزله أصناماً فأحرقوه بها.

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين توفي المعتصم أبو اسحق يوم الخميس لثماني عشرة مضت من ربيع الأول عن ثمانية بنين وثماني بنات وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وكان عمره سبعاً وأربعين سنة. وحُكي أن المعتصم بينما هو يسير وحده قد انقطع عن أصحابه في يوم مطر إذ رأى شيخاً معه حمار عليه شوك وقد زلق الحمار وسقط في الأرض والشيخ قائم. فنزل عن دابته ليخلّص الحمار. فقال له الشيخ: بأبي أنت وأمي لا تهلك ثيابك. فقال له: لا عليك. ثم أنه خلّص الحمار وجعل الشوك عليه وغسل يده ثم ركب. فقال له الشيخ: غفر الله لك يا شابّ. ثم لحقه أصحابه فأمر له بأربعة آلاف درهم. وهذا دليل على غاية ما يمكن أن يكون من طيب أعراق الملوك وسعة أخلاقهم.

قال حُنين: أن سلمويه كان عالماً بصناعة الطبّ فاضلاً في وقته. ولما مرض عاده المعتصم وبكى عنده وقال له: أشِرْ عليّ بعدك بمن يصلحني. فقال: عليك بهذا الفضولي يوحنا بن ماسويه. وإذا وصف شيئاً خذ أقلّه اخلاطاً. ولما مات سلمويه قال المعتصم: سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبّر جسمي. وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر بإحضار جنازته إلى الدار وأن يصلّى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى. ففعل ذلك وهو يراهم. وكان سلمويه يفصد المعتصم في السنة مرتين ويسقيه عقيب كل فصد دواء. فلما باشره يوحنا أراد عكس ما كان يفعله سلمويه فسقاه الدواء قبل الفصد. فلما شربه حمي دمه وحمّ وما زال جسمه ينقص حتى مات وذلك بعد عشرين شهراً من وفاة سلمويه. وخدم الإفشين زكريا الطيفوريّ وذكر: أني كنت مع

(١) زبطرة: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث طرف بلاد الروم.

الإفشين في معسكره وهو في محاربة بابك. فجرى ذكر الصيادلة فقلت: أعزّ الله الأمير أن الصيدلاني لا يطلب منه شيء كان عنده أو لم يكن إلا أخبر بأنه عنده. فدعا الإفشين بدفتر من دفاتر الاسروشنية فأخرج منه نحواً من عشرين اسماً ووجّه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء. فبعض أنكرها وبعض ادّعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته. فأمر الإفشين بإحضار جميع الصيادلة فمن أنكر معرفة تلك الأسماء أذن له بالمقام في معسكره ونفى الباقين.

(الواثق بالله هارون بن المعتصم) بويع له في اليوم الذي مات فيه أبوه. وفي هذه السنة مات ثوفيل ملك الروم وكان ملكه اثنتي عشرة سنة وملكت بعده امرأته ثاودورا وابنها ميخائيل بن ثوفيل وهو صبيّ. وفي سنة ثماني وعشرين ومائتين غزا المسلمون في البحر جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسيني. وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين كان الفداء بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد واجتمع المسلمون على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وأمر الواثق خاقان خادم الرشيد أن يمتحن أسارى المسلمين ممن قال القرآن مخلوق وإن الله لا يرى في الآخرة فُودي به وأعطي ديناراً ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم فلما كان في يوم عاشوراء أتت الروم ومن معهم من الأسارى وكان الأمر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم أسيراً فيلتقيان في وسط الجسر فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا وإذا وصل الرومي إلى الروم صاحوا: كرياليسون حتى فرغوا. فكان عدة أساري المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً والنساء والصبيان ثمانمائة. وأهل ذمة المسلمين مائة نفس. ولما فرغوا من الفدية غزا المسلمون شاتين فأصابهم ثلج ومطر فمات منهم مائتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير. وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين مات الواثق في ذي الحجة لست بقين منه وكانت علته الاستسقاء فعولج بالأقعاد في تنُّور مسخن فوجد بذلك خفّة فأمرهم من الغد بالزيادة في إسخانه ففعل ذلك وقعد فيه أكثر من اليوم الأول فحمي عليه فأخرج منه في محفّة فمات فيها ولم يشعر بموته حتى ضرب وجهه المحفة. ولما اشتدّ مرضه أحضر المنجمين منهم الحسن بن سهل بن نوبخت فنظروا في مولده فقدروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم فلم يعش بعد قولهم إلا عشرة أيام وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكان عمره اثنتين وثلاثين[1] سنة.

لهذا حسن المذكور تصنيف وهو كتاب الأنواء. فآل نوبخت كلهم فضلاء ولهم فكرة صالحة ومشاركة في علوم الأوائل ولا مثل هذا. حدث أحمد بن هارون الشرابيّ بمصر أن المتوكل على الله حدثه في خلافة الواثق أن يوحنا بن ماسويه كان مع الواثق على دكان في دجلة وكان مع

(١) في تاريخ الطبري ح ٩ ص ٦٩٠ توفي وهو ابن ست وثلاثين سنة وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام.

الواثق قصبة فيها شصّ وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك فحرم الصيد فالتفت إلى يوحنا وكان على يمينه وقال: قم يا مشؤوم عن يميني. فقال يوحنا: يا أمير المؤمنين لا تتكلم بمحال يوحنا أبوه ماسويه الخوزي وأمه رسالة الصقلبية المبتاعة بثمانمائة درهم وأقبلتْ به السعادة إلى أن صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم حتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله فمن أعظم المحال أن يكون هذا مشؤوماً حتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله فمن أعظم المحال أن يكون هذا مشؤوماً ولكن إن أحبَّ أمير المؤمنين بأن أخبره بالمشؤوم مَن هو أخبرته. فقال: من هو. فقال: من ولده أربع خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافة فترك خلافته وقصورها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فيغرقه ثم تشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرّهم صيادو السمك. قال المتوكل: فرأيت الكلام قد نجع فيه إلا أنه أمسك لمكاني.

(المتوكل على الله جعفر بن المعتصم) بويع له بعد موت أخيه الواثق وكان عمره يوم بويع ستاً وعشرين سنة. وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وثب ميخائيل بن توفيل بأمه ثاودورا فألزمها الدير وقتل القتيط لأنه اتهمها به وكان ملكها ست سنين. وفي سنة خمسة وثلاثين ومائتين[١] عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتزّ والمؤيَّد وعقد لكل واحد منهم لواءً وولّى المنتصر العراق والحجاز واليمن والمعتزّ خراسان والريّ والمؤيَّد الشام. وفي سنة ست وثلاثين ومائتين أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن عليّ وأن يبذر ويسقى موضعه وإن يمنع الناس من إتيانه. وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين ولّى المتوكل يوسف بن محمد أرمينية وأذربيجان ولما صار إلى أخلاط أتى بقراط بن اشوط البطريق فأمر بأخذه وتقييده وحمله إلى المتوكل فاجتمع بطارقة ارمينية مع ابن أخي بقراط وتحالفوا على قتل يوسف ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة وهو صهر بقراط على ابنته فوثبوا بيوسف واجتمعوا عليه في قلعة موش في النصف من شهر رمضان وذلك في شدة من البرد وكلَب من الشتاء فخرج إليهم يوسف وقاتلهم فقتلوه وكل من قاتل معه. وأما من لم يقاتل فقالوا له: انزع ثيابك وانج بنفسك عرياناً ففعلوا ومشوا عراة حفاة فهلك أكثرهم من البرد. فلما بلغ المتوكل الخبر وجه بغا الكبير إليهم طالباً بدم يوسف فسار وأباح[٢] على قتلة يوسف فقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً وسبى خلقاً كثيراً ثم سار إلى مدينة[٣] تفليس وحاصرها ودعا النفّاطين فضربوا

(١) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٦ في هذه السنة عقد المتوكل البيعة لمحمد وسماه المنتصر ولأبي عبد الله بن قبيحة وقيل اسمه محمد ولقبه المعتز ولابراهيم وسماه المؤيد «وذلك يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة».

(٢) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٣٩ ثم سار مأناخ بجبل الحويثة وهم حجة أهل أرمينية وقتله يوسف بن محمد.

(٣) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٣٧ ثم سار إلى بلاد الباق والباق من كور السُفرجان وبنىٰ النشوى ثم سار إلى ديبل ثم إلى تفليس.

المدينة بالنار فأحرقوها وهي من خشب الصنوبر فاحترق بها نحو خمسين ألف إنسان[١]. وفي سنة ثماني وثلاثين ومائتين جاءت ثلثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم في مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها إلى صدر الرجل فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر فجازه قوم من المسلمين فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان. ومن كان به قوة سار إلى مصر. واتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا وأحرقوا وسبوا وأحرقوا جامعها وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة وساروا إلى مصر ونهبوها ورجعوا ولم يعرض لهم أحد. وفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين كانت زلازل هائلة وأصوات منكرة بقومس ورساتيقها في شعبان فتهدمت الدور وهلك تحت بشر كثير قيل كانت عدتهم خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً. وكان أكثر ذلك بالدامغان. وكان بالشام وفارس وخراسان وباليمن مع خسف. وتقطع الجبل الأقرع وسقط في البحر فمات أهل اللاذقية من تلك الهدّة. وفي سنة سبع وأربعين ومائتين قُتل المتوكل وهو ثمل بسرّ مرّأى ليلة الأربعاء ثالث[٢] يوم من شوال قتله غلام تركي اسمه باغر وكانت خلافته اربع عشرة سنة وتسعة أشهر وعمره أربعين سنة وقُتل معه الفتح ابن خاقان لأنه رمى بنفسه على المتوكل وقال: ويلكم تقتلون أمير المؤمنين فبعجوه بسيوفهم فقتلوه. ويقال إن ابنه المنتصر دسّ لقتله فعاش بعده ستة أشهر. وفي سنة الزلازل أخرج المتوكل أحمد ابن حنبل من الحبس ووصله وصرفه إلى بغداد وأمر بترك الجدَل في القرآن وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلق أو غير خلق.

قال بعض الرواة: دخل بختيشوع بن جبريل الطبيب يوماً إلى المتوكل وهو جالس على سدّة في وسط داره الخاصة فجلس بختيشوع على عادته معه فوق السدة وكان عليه دراعة ديباج رومي وكان قد انشقّ ذيلها قليلاً. فجعل المتوكل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ إلى حد النَّيفق ودار بينهما الكلام يقتضي أن سأل المتوكل بختيشوع بماذا تعلمون أن الموسوس يحتاج إلى الشدّ. قال بختيشوع: إذا بلغ إلى فتق دراعة طبيبه إلى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وأمر له بخلعة حسنة ومال جزيل. وهذا يدل على لطف منزلة بختيشوع عند المتوكل وانبساطه معه. وقال المتوكل يوماً لبختيشوع: ادعُني. قال: نعم وكرامة.

فأضافه وأظهر من التجمُّل والثروة ما أعجب المتوكل والحاضرين. واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته فحقد عليه ونكبه بعد أيام يسيرة فأخذ له مالاً كثيراً وحضر الحسين ابن مخلد فختم على خزائنه وباع شيئاً كثيراً وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبيذ

(١) أنظر تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٣٨.

(٢) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٤٧ لأربع خلون من شوال وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام.

وأمثال هذه فاشتراه الحسين بستة آلاف دينار وذكر أنه باع من جملته باثني عشر ألف دينار وكان هذا في سنة أربع وأربعين ومائتين وتوفي بختيشوع سنة ستّ وخمسين ومائتين. وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق الطبيب النصراني العباديّ ونسبته إلى العبادة وهم قوم من نصارى العرب من قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة وتسَّموا بالعباد لأنه لا يضاف إلاّ إلى الخالق وأما العبيد فيضاف إلى المخلوق والخالق. وكان اسحق والد حُنين صيدلانياً بالحيرة فلما نشأ حنين أحب العلم فدخل بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وجعل يخدمه ويقرأ عليه.

وكان حنين صاحب سؤال وكان يصعب على يوحنا فسأله حنين في بعض الأيام مسألة مستفهم فحرِد يوحنا وقال: ما لأهل الحيرة والطب عليك ببيع الفلوس في الطريق. وأمر به فأخرج من داره. فخرج حنين باكياً وتوجه إلى بلاد الروم وأقام بها سنتين حتى أحكم اللغة اليونانية وتوصل في تحصيل كتب الحكمة غاية إمكانه وعاد إلى بغداد بعد سنتين ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربي ثم رجع إلى بغداد. قال يوسف الطبيب: دخلت يوماً على جبريل بن بختيشوع فوجدت عنده حُنيناً وقد ترجم له بعض التشريح وجبريل يخاطبه بالتبجيل ويسميه الربان فأعظمت ما رأيت وتبين ذلك جبريل مني فقال: لا تستكثر هذا مني في أمر هذا الفتى فوالله لئن مدّ له في العمر ليفضحنّ سرجيس. وسرجيس هذا هو الرأس عينيّ اليعقوبي ناقل علوم اليونانيين إلى السرياني. ولم يزل أمر حُنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل واتصل خبره بالخليفة المتوكل فأمر بإحضاره. ولما حضر أُقطع اقطاعاً سنياً وقُرّر له جارٍ جيد. واحبّ امتحانه ليزول عنه ما في نفسه عليه إذ ظن أن ملك الروم ربما كان عمل شيئاً من الحيلة فاستدعاه وأمر أن يُخلع عليه وأخرج له توقيعاً فيه اقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم فشكر حنين هذا الفعل. ثم قال له بعد أشياء جرت: أريد أن تصف لي دواءً يقتل عدواً نريد قتله وليس يمكن إشهار هذا ونريده سراً. فقال حنين: ما تعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها فإن أحبّ أن أمضي وأتعلم فعلت. فقال: هذا شيء يطول بنا. ثم رغّبه وهدّده وحبسه في بضع القلاع سنة ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً. فقال حُنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية قال الخليفة فإنني اقتلك قال حنين لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف الأعظم. فتبسم المتوكل وقال له: طب نفساً فإننا أردنا امتحانك والطمأنينة إليك. فقبّل حنين الأرض وشكر له. فقال الخليفة: ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منّا في الحالين. قال حنين: شيئان هما الدين والصناعة. أما الدين فإنه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنُّك بالأصدقاء. وأما الصناعة فإنها موضوعة لنفع أبناء الجنس

ومقصورة على معالجاتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بإيمان مغلظة أن لا يعطوا دواءً لأحد. فقال الخليفة: إنهما شرعان جليلان. وأمر بالخلع فافيضت عليه وحمل المال معه فخرج وهو أحسن الناس حالاً وجاهاً. وكان الطيفوري النصراني الكاتب يحسد حنيناً ويعاديه.

واجتمعا يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة. فقال حنين لصاحب البيت: لَمَ تضع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وإنما هي صوَر. فقال الطيفوري: إن لم يستحقوا الإكرام فأبصق عليهم فبصق فأشهد عليه الطيفوري ورفعه إلى المتوكل فسأله إباحة الحكم عليه لديانة النصرانية فبعث إلى الجاثليق والأساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره وانصرف حنين إلى داره ومات من ليلته فجأةً وقيل إنه سقى نفسه سماً. وكان لحنين ولدان داود واسحق. فأما اسحق فخدم على الترجمة وتولاها وأتقنها وأحسن فيها وكانت نفسه أميل إلى الفلسفة. وأما داود فكان طبيباً للعامة وكان له ابن اخت يقال له حُبيش بن الاعسم أحد الناقلين من اليوناني والسرياني إلى العربي. وكان يقدمه على تلاميذه ويصفه ويرضى نقله. وقيل من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له فإن أكثر ما نقله حبيش نسب إلى حنين. وكثيراً ما يرى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظن الغرّ منهم أنه حنين وقد صُحّف فيكشطه ويجعله حنين.

(المنتصر بن المتوكل) بايع له[1] قتلة أبيه تلك الليلة التي قتلوا المتوكل. فلما أصبح يوم الأربعاء حضر القوّاد والكتّاب والجند والوجوه الجعفرية فقرأ عليهم احمد بن الخصيب كتاباً يخبر فيه عن المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله به فبايع الناس وانصرفوا. وفي سنة ثماني وأربعين ومائتين جدَّ وصيف وبُغا وباقي الأتراك في خلع المعتزّ والمؤيَّد وألحّوا على المنتصر وقالوا: نخلعهما ونبايع لابنك عبد الوهاب. فلم يزالوا به حتى أجابهم وخلعهما بالكره منه ومنهما. ثم دعاهما وقال لهما: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ولكن هؤلاء وأومأ إلى سائر الموالي الأتراك ممن هو قائم وقاعد ألحوا عليّ في خلعكما. وفي هذه السنة وهي سنة ثماني وأربعين ومائتين مات المنتصر يوم الأحد لخمس ليالٍ خلون من ربيع الآخر بالذبحة وكانت علته ثلاثة أيام. قيل وكان كثير من الناس حين أفضت الخلافة إليه إلى أن مات يقولون: إنما مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه تقوله العامة والخاصة. وكان عمره خمساً وعشرين سنة وستة أشهر وخلافته ستة أشهر.

(المستعين أحمد بن مُحمد بن المعتصم) لما توفي المنتصر اجتمع الموالي في الهاروني من الغد

(١) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٤٧ بويع المنتصر بالخلافة يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال.

وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وتشاوروا وكروهوا أن يتولى الخلافة واحد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم فاجمعوا على المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه. وفي سنة تسع وأربعين ومائتين شغب الجند والشاكرية ببغداد لما رأوا من استيلاء الترك على الدولة يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين. فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء والنفير وفتحوا السجون وأخرجوا مَن فيها وأحرقوا أحد الجسرين وقعطوا الآخر وانتبهوا دور أهل اليسار وأخرجوا أموالاً كثيرة ففرقوها فيمن نهض إلى حفظ الثغور وأخرجوا المعتزّ من الحبس وأخذوا من شعره وكان قد كثر وبايعوا له بالخلافة وخلعوا المستعين وكانت أيامه سنتين وتسعة أشهر. فسار المستعين إلى بغداد سنة إحدى وخمسين ومائتين وحوصر بها. ثم في سنة اثنتين وخمسين ومائتين خلع نفسه من الخلافة فبايع للمعتزّ بن المتوكل وخطب للمعتزّ ببغداد. فلما بايع المستعين للمعتز وجهه إلى البصرة ومنها إلى أواسط وتقدم بقتله فقتل وحُمل رأسه إلى المعتزّ فقال: ضعوه حتى أفرغ من الدست[١]. فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه. وفي هذه السنة حبس المعتزّ المؤيد أخاه ثم أخرجه ميتاً لا أثر فيه ولا جرح فقيل إنه أدرج في لحاف سمُّور وأمسك طرفاه حتى مات. وفي سنة أربع وخمسين ومائتين ولّى الأتراك أحمد بن طولون مصر وكان طولون مملوكاً تركياً للمأمون ووُلد له ولده أحمد في سنة عشرين ومائتين ببغداد. وكان أحمد عالي الهمَّة يستقلّ بعقول الأتراك وأديانهم يثفون به في العظائم وتشاغل بالخير والصلاح فتمكنت في القلوب محبته وآل أمره إلى أن استولى على مصر وجميع مدن الشام. وفي سنة خمس وخمسين ومائتين صار الأتراك إلى المعتزّ يطلبون أرزاقهم فماطلهم بحقهم. فلما رأوا أنه لا يحصل منه شيء دخل إليه جماعة منهم فجروا برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس في الدار وكان يرفع رجلاً ويضع رجلاً لشدّة الحرّ. ثم سلَّموه إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات. وكانت خلافته من لدن بُويع بسامرّا إلى أن خلع أربع سنين وسبعة أشهر.

وفي هذه السنة مات سابور بن سهل صاحب بيمارستان جنديسابور وكان فاضلاً في وقته وله تصانيف مشهورة منها كتاب الأقراباذين المعوَّل عليه في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة اثنان وعشرون باباً. وتوفي نصرانياً في يوم الاثنين لتسع بقين من ذي الحجة.

(المهتدي بن الواثق) بويع له لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ولم تقبل بيعته حتى أتى المعتزّ فخلع نفسه[٢] وأقر بالعجز عما أسند إليه وبالرغبة في تسليمها إلى محمد بن الواثق

(١) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٢٧، وأوتي المعتز برأسه وهو يلعب الشطرنج.
(٢) أنظر تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٢٥٣.

فبايعه الخاصة والعامة. وبعد قتل المعتزّ طلبت أمه الأمان لنفسها فأمنوها وظفروا لها بخزائن في دار تحت الأرض ووجدوا فيها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار وقدر مكوك زمرُّد ومقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار ومقدار كيلجة من الياقوت الأحمر. وكان طلب منها ابنها المعتزّ مالاً يعطي الأتراك فقالت: ما عندي شيء. فسبُّوها وقالوا: عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار وعندها هذا المال جميعه. وفي منتصف رجب خُلع المهتدي[١] وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة ست وخمسين ومائتين وكانت خلافته أحد عشر شهراً وعمره ثمانياً وثلاثين سنة.

(المعتمد بن المتوكل) ولما أخذ المهتدي وحُبس أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل وكان محبوساً بالجوسق فبايعه الأتراك وغيرهم ولُقّب المعتمد على[٢] الله. ثم أن المهتدي مات ثاني يوم بيعة المعتمد. وفي سنة إحدى وستين ومائتين ولّى المعتمد ابنه جعفر العهد ولقبه المفوَّض إلى الله وولّى أخاه أبا أحمد العهد بعد جعفر ولقبه الموفَّق بالله. وفي سنة اربع وستين ومائتين دخل عبد الله بن رشيد بن كاووس بلد الروم في أربعة آلاف فارس فغنم وقتل. فلما رحل عن البدندون خرج عليه بطريق سلوقية وبطريق خرشنة وأصحابها واحدقوا بالمسلمين. فنزل المسلمون فعرقبوا دوابّهم وقاتلوا فقُتلوا إلاّ خمسمائة فإنهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم وقتل الروم مَن قتل وأُسر عبد الله بن رشيد وحمل إلى ملك الروم.

وفي سنة خمس وستين ومائتين وقع خلاف بين المعتمد وأحمد بن طولون فسار إلى سيما والي حلب وبقية العواصم فوجده بأنطاكية فحاصره بها وفتحها فظفر بسيما وقتله وجاء إلى حلب وملكها وملك دمشق وحمص وحماة وقنسرين إلى الرقة. وأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر فلعن ببغداد وسائر العراق ولعن ابن طولون المعتمد على المنابر في جميع أعماله بمصر وغيرها.

وفي سنة سبعين ومائتين مات ابن طولون في ذي القعدة[٣] وخلف سبعة عشر ابناً أحدهم خمارويه وسبع عشرة بنتاً وترك أموالاً جمة ومماليك كثيرة. وكان كثير الصدقات والخيرات. وقام ولده خمارويه بعده بالملك أحسن قيام ودبّر أحسن تدبير. وفي سنة ثماني وسبعين ومائتين عرض للموفق وجع النقرس واشتدّ به فلم يقدر على الركوب. فعمل له سرير عليه قبّة وكان يقعد عليه هو وخادم له يبرد رجله بالثلج ثم صارت علّة رجله داء الفيل وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة. فقال لهم يوماً: قد ضجرتم من حملي بودّي لو كنت كواحد منكم احمل على رأسي وآكل

(١) أنظر تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٣٢٧.

(٢) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٣٤٨ في سنة مئتان وست وخمسين بويع أحمد بن أبي جعفر المعروف بابن فتيان وسمي المعتمد على الله. وذلك يوم الثلاثاء لأربع بقيت من رجب.

(٣) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٥٥٤، لست خلون من شعبان ورد الخبر بموت أحمد بن طولون.

وأنا في عافية. فوصل إلى داره لليلتين خلتا من صفر وشاع موته. وعلى يديه جرى أكثر من الحروب مع الزنج وباقي الخوارج. ولما مات الموفق اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوَّض ولُقب المعتضد بالله. وفي سنة تسع وسبعين ومائتين توفي المعتمد ليلة الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب وكان قد شرب على الشط في الحَسَنيّ يوم الأحد شراباً كثيراً وتعشى فأكثر فمات ليلاً. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة. وكان في خلافته محكوماً عليه قد تحكم عليه أبو أحمد الموفق أخوه وضيَّق عليه حتى أنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها.

وكان استخصّ الموفق أخو المعتمد جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخي واتخذه منجماً له وكان معه في محاصرته للزنج بالبصرة. وقيل إن أبا معشر كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد وكان يضاغن أبا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ويغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة. فدسّ عليه الكندي من حسّن له النظر في علم الحساب والهندسة فدخل في ذلك فلم يكمل له فعدل إلى علم أحكام النجوم وانقطع شرُّه عن الكندي. ويقال إنه تعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره. وكان فاضلاً حسن القريحة صنف كتباً عدة في هذا الفن. فضربه المستعين أسواطاً لأنه أصاب في شيء أخبر به قبل وقته. وكان يقول: أصبتُ فعوقبت. وجاوز أبو معشر المائة من عمره ومات بواسط. وقيل كان أبو معشر مدمناً على شرب الخمر مشتهراً بمعاقرتها وكان يعتريه صرع عند أوقات الامتلاآت القمرية. وأما يعقوب الكندي فكان شريف الأصل بصرياً وكان أبوه اسحق أميراً على الكوفة للمهدي والرشيد. وكان يعقوب عالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة والهيئة وله في أكثر هذه العلوم تآليف مشهورة من المصنفات الطوال. ولم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علم الفلسفة حتى سمَّوه فيلسوفاً غير يعقوب هذا وعاصر قسطا بن لوقا البعلبكي وقسطا هذا الفيلسوف نصراني في الدولة الإسلامية دخل إلى بلاد الروم وحصَّل من تصانيفهم الكثيرة وعاد إلى الشام واستدعي إلى العراق ليترجم الكتب وله تصانيف مختصرة بارعة. وقيل اجتذبه سنحاريب إلى ارمينية وأقام بها إلى أن مات هناك وبنى على قبره قبة إكراماً له كإكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع. قال المؤرخ: لو قلت حقاً قلت إنه أفضل مَن صنَّف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني.

القرامطة

وفي آخر دولة المعتمد تحرَّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وكان ابتداء أمرهم أن رجلاً فقيراً قدم من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة وكان يظهر الزهد والتقشف ويسفُّ الخوص

ويأكل من كسبه فأقام على ذلك مدة. وكان إذا قعد إليه رجل ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا واعلمه أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت النبيّ عليه السلام. فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير واتخذ منهم اثني عشر نقيباً على عدد الحواريين وأمرهم أن يدعوا الناس إلى مذهبهم. فبلغ خبره عامل تلك الناحية فأخذه وحبسه وحلف أنه يقتله وأغلق باب البيت عليه وجعل المفتاح تحت وسادته واشتغل بالشرب. فسمعت جارية له بيمينه فرقّت للرجل. فلما نام العامل أخذت المفتاح وفتحت الباب وأخرجه ثم أعادت المفتاح إلى مكانه. فلما أصبح العامل فتح الباب ليقتله فلم يره وشاع ذلك في الناس وافتتن به أهل تلك الناحية وقالوا رُفع. ثم ظهر في ناحية أخرى ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم وقال لهم: لا يمكن أن ينالني أحد بسوء. فعظم في أعينهم. ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام ولم يوقف له على خبر وسمّي باسم رجل كان ينزل عنده وهو كرمتية ثم خُفّف فقيل قرمطة. وكان فيما حكي عن القرامطة من مذهبهم أنهم جاءُوا بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة أن المسيح تصوَّر له في جسم إنسان وقال له: إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها والصوم يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز. وأن النبيذ حرام والخمر ولا يؤكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب.

(المعتضد بن الموفق) بويع في صبيحة الليلة التي مات فيها عمُّه[١] المعتمد. ولما ولي المعتضد بعث خمارويه بن احمد بن طولون له هدايا والطافاً شريفة ورسولاً وسأله أن يزوج ابنة خمارويه المسماة قطر الندى بعليّ بن المعتضد. فقال المعتضد: أنا أتزوجها. فسُرَّ خمارويه بذلك.

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين خرج المعتضد إلى الموصل قاصداً للأعراب والأكراد فسار إليهم فأوقع بهم وقتل منهم وغرق منهم في الزاب خلق كبير[٢]. وسار المعتضد إلى الموصل يريد قلعة ماردين وكانت لحمدان فهرب حمدان منها وخلف ابنه بها فنازلها المعتضد وقاتل من فيها يومه ذلك. فلما كان الغد ركب المعتضد فصعد إلى باب القلعة وصاح: يا ابن حمدان. فأجابه. فقال: افتح الباب. ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها. ثم ظفر بحمدان بعد عوده إلى بغداد جاءه مستأمناً إليه.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين جهز خمارويه ابنته أحسن جهاز وبعث بها إلى المعتضد في المحرَّم. وفي هذه السنة لثلاث خلون من ذي الحجة قُتل خمارويه بدمشق ذبحه على فراشه بعض

(١) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٥٨٠ بويع المعتضد سنة مئتان وتسع وسبعون.
(٢) أنظر تاريخ الطبري ح ١ ص ٥٨٧.

خاصته. ولما قُتل اقعدوا مكانه ابنه هارون والتزم أنه يحمل من مصر إلى خزانة المعتضد في كل سنة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين سارت الصقالبة إلى الروم فحاصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وخربوا البلاد. فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً جمع من عنده من أساري المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا وكشفوهم وأزاحوهم عن القسطنطينية. فلما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه فأخذ سلاحهم وفرقهم في البلدان حذراً من جنايتهم عليه. وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان جملة من فودي به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان الفين وخمسمائة وأربعة أنفس. وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثمانين ومائتين كان المنجمون يوعدون بغرق أكثر الأقاليم إلا إقليم بابل فإنه يسلم منه اليسير وإذ ذلك يكون بكثرة الأمطار وزيادة المياه في الأنهار والعيون. فقحط الناس وقلت الأمطار وغارت المياه حتى استسقى الناس ببغداد مرات. وفي سنة خمس وثمانين ومائتين ظهر رجل من القرامطة يُعرف بأبي سعيد بالبحرين واجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وقوي أمره فقاتل ما حوله من القرى ثم صار إلى القطيف[١] وأظهر أنه يريد البصرة. فأمر المعتضد ببناء سور على البصرة فعمل وكان مبلغ الخرج عليه أربعة عشر ألف دينار. وفي سنة ثماني وثمانين ومائتين وقع الوباء باذربيجان فمات منه خلق كثير إلى أن فقد الناس ما يكفنون به الموتى وكانوا يطرحونهم في الطريق. وفيها سارت الروم إلى كيسوم[٢] فنهبوها وغنموا أموال أهلها وأسروا منها نحو خمسة عشر ألف إنسان من رجل وصبي وامرأة. وفي سنة تسع وثمانين ومائتين انتشر القرامطة بسواد الكوفة فأُخذ رئيسهم وسيِّرَ إلى المعتضد وأحضره وقال له: أخبرني هل تزعمون أن روح الله تحل في أجسادكم. فقال له الرجل: يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عمّا لا يعنيك وسلّ عما يخصك. فقال: ما تقول فيما يخصني. فقال: أقول أن النبي عليه السلام مات وأبوكم العباس حيّ فهل طلب من الخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك. ثم مات أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوصِ إليه. ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوصِ إلى العباس ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها. فأمر به المعتضد فعذب وخُلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه ثم قُتل. وبعد قليل في هذه السنة في ربيع الآخر لثمان بقين منه توفي المعتضد فاجتمع القواد وجددوا البيعة لابنه المكتفي وكانت خلافة المعتضد تسع سنين وتسعة أشهر وعمره سبع وأربعين سنة. وقيل كان المعتضد اسمر نحيفاً شهماً شجاعاً وكان فيه شحّ وكان عفيفاً مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ومع ذلك جاوز الحد في

(١) القَطِيف: وهي مدينة بالبحرين من أشهر مدنها معجم البلدان ٤/٤٢٩.

(٢) كَيْسُوم: وهي قرية مستطيلة من أعمال سميساط.

الحلم. قال الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب: كنت عند المعتضد يوماً وخادم بيده المذبة إذ ضربت قلنسوة المعتضد فسقطت فكدت اختلط إعظاماً للحال ولم يتغير المعتضد وقال: هذا الغلام قد نعس. ولم ينكر عليه. فقبّلت الأرض وقلت: والله يا أمير المؤمنين ما سمعت بمثل هذا ولا ظننت أن حلماً يسعه. قال: وهل يجوز غير هذا أنا أعلم أنَّ هذا الصبي البائس لو دار في خلده ما جرى لذهب عقله وتلف والإنكار لا يكون إلا على المعتمد دون الساهي الخاطىء.

وفي أيام المعتضد علت منزلة بني موسى بن شاكر وهم ثلاثة محمد واحمد والحسن. وكان موسى بن شاكر يصحب المأمون ولم يكن موسى من أهل العلم بل كان في حداثته حراميًا يقطع الطريق ثم أنه تاب ومات وخلّف هؤلاء الأولاد الثلاثة صغاراً فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثة رقيقة. على أن أرزاق أصحاب المأمون كلهم كانت قليلة. فخرج بنو موسى بن شاكر نهاية في علومهم وكان أكبرهم وأجلّهم أبو جعفر محمد وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القوّاد إلى أن غلب الأتراك على الدولة. وكان أحمد دونه في العلم إلاّ صناعة الحيل فإنه فُتح له فيها ما لم يفتح مثله لأحد. وكان الحسن وهو الثالث منفرداً بالهندسة وله طبع عجيب فيها لا يدانيه أحد علم كل ما علم بطبعه ولم يقرأ من كتب الهندسة إلا ست مقالات من كتاب أوقليذس في الأصول فقط وهي أقل من نصف الكتاب ولكن ذكره كان عجيباً وتخيله كان قوياً. وحُكي أن المروزي قال عنه يوماً للمأمون أنه لم يقرأ من كتاب اوقليذس إلا ست مقالات. أراد بذلك كسره. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين لم يكن يسألني عن شكل من أشكال المقالات التي لم أقرأها إلا استخرجته بفكري وأتيته به ولم يكن يضرّني أنني لم أقرأها ولا تنفعه قراءته لها إذ كان من الضعف فيها بحيث لم تغنه قرآته في أصغر مسئلة من الهندسة فإنه لا يحسن أن يستخرجها. فقال له المأمون: ما أدفع قولك ولكني ما أعذرك ومحلُّك من الهندسة محلُّك أن يبلغ بك الكسل أن لا تقرأه كله وهو للهندسة كحروف ا ب ت ث للكلام والكتابة. وفي دار محمد بن موسى تعلّم ثابت بن قرّة بن مروان الصابىء الحرّاني نزيل بغداد فوجب على محمد حقُّه فوصله بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين. وبلغ ثابت هذا مع المعتضد أجلّ المراتب وأعلى المنازل حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلاً ويضاحكه ويُقبل عليه دون وزرائه وخاصّته. وله مصنّفات كثيرة في التعليمات الرياضية والطبّ والمنطق وله تصانيف بالسريانية فيما يتعلق بمذهب الصابئة في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم وفي الطهارة والنجاسة وما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح وفي أوقات العبادات وترتيب القراءة في الصلاة. والذي تحققنا من مذهب الصابئة أن دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بعينها وقبلتهم القطب الشماليّ ولزموا فضائل النفس الأربع. والمفترض عليهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقلّ لتنقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات. والثانية انقضاؤها مع نصف

النهار والزوال خمس ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات. والثالثة مثل الثانية تنقضي مع الغروب. والصيام المفروض عليهم ثلاثون يوماً أولها الثامن من اجتماع آذار. وتسعة أيام أولها التاسع من اجتماع كانون الأول. وسبعة أيام أولها ثامن إشباط. ويدعون الكواكب. وقرابينهم كثيرة لا يأكلون منها بل يحرقونها. ولا يأكلون الباقِلى والثوم وبعضهم اللوبياء والقُنَّبيط والكرنب والعدس. وأقوالهم قريبة من أقوال الحكماء ومقالاتهم في التوحيد على غاية من التقانة ويزعمون أن نفس الفاسق تعذَّب نسعة آلاف دور ثم تصير إلى رحمة الله تعالى. وكان في دولة المعتضد احمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي أحد فلاسفة الإسلام وله تآليف جليلة في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب وكان حسن المعرفة جيِّد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف وكان أولاً معلّماً للمعتضد ثم نادمه وخصّ به وكان يُفضي إليه بأسراره كلها ويستشيره في أمور مملكته وكان الغالب على أحمد هذا علمه لا عقله واتفق أن أفضى إليه بسر فاذاعه فأمر المعتضد بقتله فقتل.

(المكتفي بن المعتضد) لما توفي المعتضد كتب الوزير إلى أبي محمد عليّ بن المعتضد وهو المكتفي وعرّفه أخذ البيعة له وكان بالرقّة فأخذ له البيعة على من عنده من الأجناد وسار إلى بغداد فدخلها لثمانٍ خلون من جمادي الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين. وفيها ظهر بالشام رجل من القرامطة وجمع جموعاً من الأعراب وأتى دمشق وبها طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون وكانت بينهم وقعات. وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون إلى ما وراء النهر وكان في عسكرهم سبعمائة قبّة تركية ولا تكون إلا للرؤساء منهم. فسار إليهم جيش المسلمين وكبسوهم مع الصبح فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وانهزم الباقون. وفيها خرج الروم في عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف إلى الثغور فأغاروا وسبوا وأحرقوا. وفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين جهّز المكتفي إلى هارون بن خمارويه جيشاً في البرّ والبحر فحاصروه بمصر وجرى بينهم قتال شديد ووقعات كثيرة آخرها أن بعض الرماة من أصحاب المكتفي رمى هارون بمزراق معه فقتله وانهزم المصريون وكان هو آخر أمراء آل طولون وانقرضت الدولة الطولونيّة في هذه السنة. وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين أغارت الروم على قورُس[1] ودخلوها فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها لأنهم قتلوا أكثرهم. وفي سنة خمس وتسعين ومائتين في ذي القعدة توفي المكتفي بالله وكانت خلافته ستّ سنين وستة أشهر وكان عمره ثلاثاً[2] وثلاثين سنة.

---

(١) قُورُس: كورة من نواحي حلب. معجم البلدان ٤/ ٤٦٧.

(٢) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٧٠٠ وفي ذي القعدة لاثني عشرة ليلة خلت منها توفي المكتفي بالله وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً وكان يوم توفي ابن اثنين وثلاثين عاماً.

وفي أيام المكتفي اشتهر يوسف الساهر الطبيب ويُعرف أيضاً بالقسّ وكان مشهور الذكر مكبًّا على الطبّ كثير الاجتهاد في تحصيل الفوائد وسمّي الساهر لأنه كان لا ينام في الليل إلاّ ربعه أو أزيدَ ثم يسهر في طلب العلم. وقيل إنما سمّي الساهر لأن سرطاناً كان في مقدَّم رأسه وكان يمنعه النوم. وإذا تأمل متأمل كنّاشه رأى فيه أشياء تدلّ على أنه كان به هذا المرض.

(المقتدر بن المعتضد) لما ثقل المكتفي في مرضه استشار الوزيرُ وهو حينئذٍ العباس بن الحسن اصحابَه فيمن يصلح للخلافة. فقالوا له: اتّق الله ولا تولّ من قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه وتحنّك وحسب حساب نِعَم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم. فقال الوزير: صدقتم ونصحتم. فبمَن تشيرون. قالوا: اصلح الموجودين جعفر بن المعتضد. قال: ويحكم هو صبيّ: قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد ولا نأتي برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فركن الوزير إلى قولهم فلما مات المكتفي نصب جعفراً للخلافة وأخذ له البيعة ولقبه المقتدر بالله. فلما بويع المقتدر استصغره الوزير وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة[1] سنة. وكثر كلام الناس فيه فعزم على خلعه. ثم في سنة ستّ وتسعين ومائتين اجتمع القوّاد والقضاة مع الوزير على خلع المقتدر بالله والبيعة لابن المعتزّ. ثم أن الوزير رأى أمره صالحاً مع المقتدر فبدا له في ذلك. فوثب به الحسين بن حمدان فقتله وخلع المقتدر وبايع الناس ابن المعتزّ ولُقب المرتضي بالله ووجّه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى الدار التي كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل. وعاد الحسين بن حمدان بكرةَ غدٍ إلى دار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامّة النهار فانصرف عنهم آخر النهار. فلما جنّه الليل سار عن بغداد بأهله وماله إلى الموصل لا يُدرى لمَ فعل ذلك ولم يكن بقي مع المقتدر من القوّاد غير مؤنس الخادم ومؤنس الخازن. ولما رأى ابن المعتزّ ذلك ركب ومعه وزيره محمد بن داود وغلام له وساروا نحو الصحراء ظناً منهم أن من بايعه من الجند يتبعونه. فلما لم يلحقهم أحد رجعوا واختفوا ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيّارون والسفل ينهبون الدور وخرج المقتدر بالعسكر وقبض على جماعة وقتلهم وكتب إلى أبي الهيجاء بن حمدان يأمره بطلب أخيه الحسين فانهزم الحسين وأرسل أخاه ابراهيم يطلب له الأمان فأجيب إلى ذلك ودخل بغداد وخلع عليه وعقد له على قمّ وقاشان فسار إليها. وفي هذه السنة سقط ببغداد ثلج كثير من بكرة إلى العصر فصار على الأرض أربع أصابع وكان معه برد شديد وجمد الماء والخلّ والبيض وهلك النخل وكثير من الشجر. وفي سنة ثلاث وثلثمائة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن طاعة المقتدر فجهّز الوزير رائق الكبير في جيش وسيَّره إليه فالتقيا واقتتلا قتالاً شديداً فانهزم رائق وغنم الحسين سواده. فسمع ذلك مؤنس

(١) في تاريخ الطبري ح ١٠ ص ٧٠١، وهو بن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وإحدى وعشرين يوماً.

الخادم وجدّ بالسير نحو الحسين فرحل الحسين نحو ارمينية مع ثقله وأولاده وتفرق عسكره عنه فأدركه جيش مؤنس وأسروه ومعه ابنه عبد الوهّاب. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل ومعه الحسين فأركب على جمل هو وابنه وعليهما البرانس واللبود الطوال وقمصان من شعر أحمر وحُبسا. وفي هذه السنة خرج مليح الأرمني إلى مرعش فعاث في بلدها واسر جماعة ممن حولهما وعاد. وفي سنة خمس وثلثمائة وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأكرما إكراماً تاماً كثيراً ودخلا على الوزير وهو في أكمل هيئة وأديا الرسالة إليه. ثم أنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطفَّت الاجناد بالسلاح والزينة التامة وأدّيا الرسالة. فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء وسيَّر مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أساري المسلمين. وفيها أطلق أبو الهيجاء بن حمدان وأخوته وأهل بيته من الحبس وفي سنة تسع وثلاث مائة قتل الحسين الحلاج بن منصور. وكان ابتداء حاله أنه كان يُظهر الزهد ويُظهر الكرامات وقيل إنه حرّك يوماً يده فانتثر على قوم دراهم. فقال بعض من تفهّم أمره ممن حضر: أرى دراهم معروفةً ولكني أؤمن بك وخلقٌ معي إن اعطيتني درهماً عليه اسمك واسم أبيك. فقال: وكيف وهذا لا يصنع. فقال له: من حضر ما ليس بحاضر صنع ما ليس بمصنوع. وكان قدم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة فأقام بها سنة في الحجر لا يستظلّ تحت سقف شتاءً ولا صيفاً ورُئي في جبل أبي قبيس على صخرة حافياً مكشوف الرأس والعرق يجري منه إلى الأرض.

وعاد الحلاج إلى بغداد فافتتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول والربوبيّة. ثم نقل عنه إلى الوزير حامد أنه أحيا جماعة من الموتى. فلما سأله الوزير عن ذلك أنكره وقال: أعوذ بالله أن أدّعي النبوة أو الربوبية وإنما أنا رجل أعبد الله. فلم يتمكن الوزير من قتله حتى رأى له كتاباً فيه: أن الإنسان إذا أراد الحجّ ولم يمكنه أفرد من داره بيتاً طاهراً فإذا حضرت أيام الحجّ طاف حوله وفعل ما يفعل الحجاج بمكة ثم يطعم ثلاثين يتيماً ويكسوهم ويُعطي كلَّ واحد منهم سبعة دراهم. فأحضر الوزير القضاة ووجوه الفقهاء واستفتاهم. فكتبوا بإباحة دمه فسلمه الوزير إلى صاحب الشرطة فضربه ألف سوط فما تأوَّه لها ثم قطع يده ثم رجله ثم رجله الأخرى ثم يده ثم قُتل وأحرق وألقي رماده في دجلة ونصب الرأس ببغداد.

واختلف في بلدة الحلاج ومنشإه فقيل من خراسان وقيل من نيسابور وقيل من مرو وقيل من الطالَقان وقيل من الريّ. وقيل كان رجلاً محتالاً مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصوفيّة ويدّعي أن الالهية قد حلّت فيه وأنه هو هو. وقيل له وهو مصلوب: قل لا إله إلاّ الله. فقال: إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج. وامتحنه أبو الحسين عليّ بن عيسى وناظره فوجده صفراً من العلوم فقال له: تعلُّمك طهورك وفروضك أجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها. لِمَ تكتب إلى

الناس بقولك: تبارك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته. ما أحوجك إلى الأدب. وقال أبو الحسن بن الجندي إنه رأى الحلاج وشاهد من شعابيذه أشياء منها تصويره بين يديه بستاناً فيه زروع وماء.

وفي سنة خمس عشرة وثلثمائة استشعر مؤنس الخادم خوفاً من المقتدر فامتنع من دخول دار المقتدر. فاجتمع إليه جميع الأجناد وقالوا له: لا تخف نحن نقاتل بين يديك إلى أن ينبت لك لحية. فوجّه إليه المقتدر رقعة بخطه يحلف له على بطلان ما قد بلغه. فقصد دار المقتدر في جمع من القوّاد ودخل إليه وقبّل يده. وحلف له المقتدر على صفاء نيته له. وفي سنة سبع عشرة وثلثمائة خُلع المقتدر بالله من الخلافة وبويع أخوه القاهر بالله محمد بن المعتضد فبقي يومين ثم أعيد المقتدر. وكان السبب في ذلك استيحاش مؤنس الخادم. وفي سنة عشرين وثلثمائة سار مؤنس الخادم إلى الموصل مغاضباً ووجّه خادمه بشرى برسالة إلى المقتدر. فسأله الوزير الحسين عن الرسالة. فقال: لا أذكرها إلاّ للمقتدر كما أمرني صاحبي. فشتمه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار. فلما بلغ مؤنساً ما جرى على خادمه وهو بحربى ينتظر أن يطيب المقتدر قلبه ويعيده سار نحو الموصل ومعه جميع القواد فاجتمع بنو حمدان على محاربته. ولما قرب مؤنس من الموصل كان في ثمانمائة فارس واجتمع بنو حمدان في ثلاثين ألفاً فالتقوا واقتتلوا فانهزم بنو حمدان واستولى مؤنس على أموالهم وديارهم فخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لإحسانه إليهم وأقام بالموصل تسعة أشهر ثم انحدر إلى بغداد ونزل بباب الشّماسية. وأشار على المقتدر أصحابه بحضور الحرب فإن القوم متى رأوه عادوا جميعهم إليه فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة وعليه البردة والناس حوله. فوقف على تلٍّ عالٍ بعيد عن المعركة. فأرسل قوّاده يسألونه التقدُّم. فلما تقدَّم من موضعه انهزم اصحابه قبل وصوله إليهم. فأراد الرجوع فلحقه قوم من المغاربة وشهروا عليه سيوفهم. فقال: ويحكم أنا الخليفة. قالوا: قد عرفناك يا سفلة. وضربه واحد بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبّرون ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له في موضعه ودُفن وعفا قبره. ولما حُمل رأس المقتدر إلى مؤنس بكى ولطم وجهه ورأسه وأنفذ إلى دار الخليفة مَن منعها من النهب. وكانت خلافة المقتدر خمساً وعشرين سنة وعمره ثماني وثلاثين[1] سنة.

وفي سنة سبع عشرة وثلثمائة مات محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله الحرّاني المعروف

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ٣ كان قتله في الساعة الرابعة يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وإحدى عشر شهراً وأرعة عشر يوماً.

بالبتّاني أحد المشهورين برصد الكواكب ولا يُعلم أحد من الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. وكان أصله من حرّان صابئاً. وفي سنة عشرين وثلثمائة توفي محمد بن زكريا الرازيّ وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً وألّف كتباً كثيرة أكثرها في صناعة الطبّ وسائرها في المعارف الطبيعيّة ودبّر بيمارستان الريّ ثم بيمارستان بغداد زماناً. وكان في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلّ ثم عمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه. وجاءه كحال ليقدحهما فسأله عن العين كم طبقة هي. فقال: لا أعلم. فقال له: لا يقدح عينيَّ من لا يعلم ذلك. فقيل له: لو قدحت لكنت أبصرت. قال: لا قد أبصرت في الدنيا حتى مللت. وقيل إن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي أوحد دهره وفريد عصره جمع المعرفة بعلوم القدماء لا سيما الطبّ وكان شيخاً كبير الرأس مسفَّطاً. ولم يكن يفارق النسخ أما يسوّد أو يبيّض. وألّف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وذكر أنها أقرب إلى الممكن منها إلى الممتنع. وكان كريماً متفضلاً بارًا بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاّء حتى كان يجري عليهم الجرايات والواسعة ويمرّضهم. وحُكي عن الكعبي أنه قال لابن زكريا: رأيتك تدّعي ثلاثة أصناف من العلوم وأنت أجهل الناس بها تدّعي الكيمياء وقد حبستك زوجتك على عشرة دراهم فلو ملكت يوماً قدر مهرها ما رافعتك إلى الحاكم فحضرتَ معها وحلفت لها عليه. وتدّعي الطبّ وتركت عينك حتى ذهبت. وتدعي النجوم والعلم بالكائنات وقد وقعت في نوايب لم تشعر بها حتى أحاطت بك. أقول الطعن الأول مباين لما نُقل من حسن رأفته بالفقراء ولا يبعد أن الأخر قول حاسد. ومن الأطباء الذين للمقتدر بختيشوع بن يحيى وسنان بن ثابت بن قرة الصابىء والد ثابت بن سنان صاحب التاريخ. ولم يكن في أطبائه أخص من هذين. وسيأتي قصة سنان في باب خلافة القاهر.

(القاهر بن المعتضد) لما قُتل المقتدر عظم قتله على مؤنس وقال: الرأي أن ننصب ولده أبا العباس فإنه تربيتي وهو صبي عاقل فيه دين وكرم ووفاء بما يقول. فاعترض عليه اسحق النوبختي وقال: بعد الكد استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبّرونه فنعود إلى تلك الحال لا والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبّر نفسه ويدبّرنا. وما زال حتى ردّ مؤنساً عن رأيه وذكر له أبو منصور محمد بن المعتضد فأجابه مؤنس إلى ذلك. وكان النوبختي في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه فإن القاهر قتله كماسيأتي ذكره. وأمر مؤنس بإحضار محمد ابن المعتضد فبايعوه بالخلافة لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة ولقبوه القاهر بالله. وكان مؤنس كارهاً لخلافته ويقول: إنني عارف بشره وشؤمه. ولما بويع استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلّي بن بليق. واستحجب القاهر عليّ بن بليق وتشاغل القاهر بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه ثم احضر القاهر أم المقتدر عنده وكانت مريضة قد ابتدأ بها استسقاء فسألها عن مالها فاعترفت له بما

عندها من المتاع والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجواهر. فضربها اشدّ ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها. فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه. وصادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه ووكل على بيع أملاك أمّ المقتدر وحلّ وقوفها فبيع جميع ذلك.

وفي سنة إحدى وعشرين وثلثمائة استوحش مؤنس وبليق الحاجب وولده عليّ الوزير وأبو عليّ بن مقلة من القاهر وضيّقوا عليه ووكلوا على دار الخليفة أحمد بن زيرك وأمروه بتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المنقّبات. ففعل ذلك وزاد عليه حتى أنه حُمل إلى دار القاهر لبنٌ فأدخل يده فيه لئلا يكون فيه رقعة. فعلم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ في الحيلة والتدبير عليهم وأرسل إلى الساجيّة أصحاب يوسف بن أبي الساج يغريهم بمؤنس وبليق ويحلف لهم على الوفاء فتغيرت قلوبهم. فبلغ ابن مقلة أن القاهر يجتهد في التدبير عليهم فذكر ذلك لمؤنس وبليق وابنه فاتفق رأيهم على خلع القاهر إلا مؤنس فإنه قال لهم: لست أشك في شر القاهر وخبثه ولقد كنت كارهاً لخلافته وأشرت بابن المقتدر فخالفتموني وقد بالغتم الآن في الاستهانة به وما صبر على الهوان إلا من خبث طويته ليدبر عليكم فلا تعجلوا حتى تؤنسوه وينبسط إليكم ثم اعملوا على ذلك. فقال عليّ ابن بليق وابن مقلة: ما يُحتاج إلى هذا التطويل فإن الحجَبة لنا والدار في أيدينا وما يحتاج أن نستعين في القبض عليه بأحد لأنه بمنزلة طائر في قفص. واتفقوا على أن يدخل عليّ بن بليق على القاهر ويكون قد أمر جماعة عساكره بالركوب إلى أبواب دار الخليفة فيقبض عليه. فهم في هذا إن حضر ظريف السكّريّ في زي امرأة فاجتمع بالقاهر فذكر له جميع ما قد عزموا عليه فأخذ حذره وأنفذ إلى الساجية أحضرهم متفرقين وأكمنهم في الدهليز والممرات والرواقات. وحضر عليّ بن بليق بعد العصر وفي رأسه نبيذ ومعه عدد يسير من غلمانه بسلاح خفيف وطلب الأذن فلم يؤذن له فغضب وأساء أدبه. فخرج إليه الساجية وشتموه وأباه. فألقى نفسه إلى طيارة وعبر إلى الجانب الغربي واختفى من ساعته. وبلغ الخبر ابن مقلة فاستتر. وأنكر بليق ما جرى على ابنه وسبّ الساجية وحضر دار الخليفة ليعاتب على ذلك فلم يوصله القاهر إليه وأمر بالقبض عليه وعلى ابن زيرك. وأرسل القاهر مؤنساً يسأله الحضور عنده وقال: أنت عندي بمنزلة الوالد وما أحب أن أعمل شيئاً إلاّ عن رأيك. فاعتذر مؤنس عن الحركة وأنه قد استولى عليه الكبر والضعف. فأظهر له الرسول النصح وقال: إن تأخرت طمع ولو رآك نائماً ما تجاسر على أن يوقظك. فسار مؤنس إليه فلمّا دخل الدار قبض عليه القاهر وحبسه. قيل لما علم القاهر بمجيء مؤنس هابه وهاله أمره وارتعد وتغيَّرت أحواله وزحف من صدر فراشه ثم ربط جأشه. ولما قبض على مؤنس شغب أصحابه وثاروا وتبعهم سائر الجند. وكان القاهر قد ظفر بعليّ بن بليق فدخل القاهر إليه وأمر به فذبح وأخذوا رأسه فوضعوه في طشت ثم مضى القاهر

والطشت يُحمَل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه. فلما رآه بكى وأخذ يقبّله ويترشّفه. فأمر القاهر فذبح أيضاً وجعل رأسه في الطشت وحمل بين يدي القاهر ومضى حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه. فلما رأى الرأسَين تشهّد ولعن قاتلهما. فقال القاهر: جرّوا برجل الكلب الملعون فجرّوه وذبحوه وجعلوا رأسه في طشت وأمر فطيف بالرؤوس في جانبَي بغداد ونودي عليها: هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في فساد دولته.

وفي أيام القاهر كان ابتداء دولة بني بويهِ وهم ثلاثة عماد الدولة عليّ وركن الدولة الحسن ومعزّ الدولة أحمد أولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس. وهذا نسب عريق في الفرس ولا شك أنهم نُسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم. وقيل إن أبا شجاع بويه كان متوسط الحال ورأى في منامه كأنه يبول فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ثم انفرجت فصارت ثلاث شُعب وتولد من تلك الشعب عدة شعب فأضاءت الدنيا بتلك النيران ورأى البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران. فمضى بويه إلى رجل يقول عن نفسه أنه منجم ومعزّم ومعبّر المنامات ويكتب الرقى والطلسمات وقصّ عليه منامه. فقال المنجم: هذا منام عظيم لا أفسره إلاّ بخلعة وفرس. فقال بويه: والله ما أملك إلاّ الثياب التي على جسدي فإن أخذتها بقيتُ عرياناً. قال المنجم: فعشرة دنانير. قال: والله ما أملك دينارين فكيف عشرة. فأعطاه شيئاً. فقال المنجم: اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ويعلو ذكرهم في الآفاق ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشُّعَب. فقال أبو شجاع بويه: أما تستحي تسخر منا أنا رجل فقير وأولادي هؤلاء مساكين كيف يصيرون ملوكاً. قال المنجم: اذكروا لي هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك. فاغتاظ منه بويه وقال لأولاده: اصفعوا هذا الحكيم فقد افرط في السخرية بنا. فصفعوه وأخرجوه. ثم خرج أولاد بويه من الديلم وصاروا إلى مر داويج بطبرستان فقبلهم أحسن قبول وخلع عليهم وقلّد عماد الدولة عليّ بن بويه كرج. فاستمال أهلها بالصلات والهبات فأحبوه وملّكوه وقوي جنابه واستولى على أصفهان وعظم في عيون الناس وملك أرّجان أيضاً. وأنفذ أخاه ركن الدولة الحسن إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس. فاستخرج منها أموالاً جليلة وعاد إلى أخيه غانماً سالماً.

وفي سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة استولى عماد الدولة عليّ بن بويه على شيراز وملكها. وفي هذه السنة خُلع القاهر في جمادى الأولى وذلك أن ابن مقلة كان مستتراً والقاهر يتطلبه وكان يراسل قوّاد الساجيّة والحجرية ويخوّفهم من شر القاهر ويذكر لهم غدره ونكثه مرة بعد أخرى كقتل مؤنس وبليق وابنه بعد الإيمان لهم إلى غير ذلك. وكان ابن مقلة يجتمع بسيما زعيم الساجية تارة في زيّ أعمى وتارة في زيّ مكدٍّ وتارة في زيّ امرأة ويغريه بالقاهر. ثم أن ابن مقلة أعطى منجماً كان لسيما مائتي دينار. وكان يذكر أن طالعه يقتضي أن ينكبه القاهر. وأعطى أيضاً شيئاً

لمعبّر كان لسيما يعبّر له المنامات وكان يحذره من القاهر. فازداد نفوراً. فاتفق مع أصحابه ومع الحجرية على خلع القاهر. وبلغ ذلك الوزير فأرسل الحاجبَ سلاماً وعيسى الطبيب ليعلماه بذلك فوجداه نائماً قد شرب أكثر ليلته فلم يقدرا على إعلامه بذلك. فزحف الحجرية والساجيّة إلى الدار. ولما سمع القاهر الأصوات والغلبة استيقظ وهو مخمور وطلب باباً يهرب منه فقيل له: إن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال. فهرب إلى سطح حمام. فأخذوه من هناك وحبسوه وكانت خلافته عاماً واحداً وسبعة أشهر[1]. ثم عاش خاملاً إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة.

عيسى الطبيب المذكـ ـهنا هو ابن يوسف المعروف بابن العطّار كن متطبب القاهر وثقته ومشيره وسفيره بينه وبين وزرائه وتقدم في وقته تقدّماً كثيراً. وشاركه سنان بن ثابت بن قرّة في الطبّ وكان خصيصاً بالقاهر وكان عيسى أشدّ تقدّماً منه. ولكثرة اغتباط القاهر بسنان أراده على الإسلام فامتنع امتناعاً شديداً كثيراً. فتهدّده القاهر فخافه لشدة سطوته فأسلم وأقام مدّة. ثم رأى من القاهر أنه إذا أمره بشيء أخافه فانهزم إلى خراسان وعاد توفي ببغداد في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة. ومن ظريف ما جرى لسنان في امتحان الأطبّاء عند تقدّم الخليفة إليه بذلك أنه أُحضر إليه رجل مليح البشرة والهيئة ذو هيبة ووقار فأكرمه سنان على موجب منظره ورفعته. ثم التفت إليه سنان فقال: قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً احفظه عنه وإن يذكر شيخه في الصناعة. فأخرج الشيخ من كمه قرطاساً فيه دنانير صالحة ووضعها بين يدي سنان وقال: والله ما أُحسن أكتب ولا أقرأ شيئاً جملةً ولي عيال ومعاشي دار دائره وأسألك أن لا تقطعه عنّي. فضحك سنان وقال: على شريطة أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلم ولا تُشير بفصد ولا بدواء مسهل إلاّ بما قرب من الأمراض. قال الشيخ: هذا مذهبي مذ كنت ما تعديت السكنجبين والجلاّب. وانصرف. ولما كان من الغد حضر إليه غلام شابٌ حسن البزّة مليح الوجه ذكيّ. فنظر إليه سنان فقال له: على مَن قرأت. قال: على أبي. قال: ومن يكون أبوك. قال: الشيخ الذي كان عندك بالأمس. قال: نعم الشيخ. وأنت على مذهبه. قال: نعم. قال: لا تتجاوزه وانصرف مصاحباً. ولسنان تصانيف جيّدة وكان قويًّا في علم الهيئة وله في ذلك أشياء ظاهرة تغني عن الإطالة بذكرها.

(الراضي بن المقتدر) لما قبضوا القاهر سألوا عن المكان الذي فيه أبو العباس أحمد بن المقتدر فدلّوهم عليه فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلّموا بالخلافة وأخرجوه وأجلسوه على السرير ولقبوه الراضي بالله يوم الأربعاء لستّ خلون من جمادى الأولى سنة اثنين وعشرين وثلثمائة وبايعه القواد والناس. وأرادوا عليّ بن عيسى على الوزارة فقال الراضي: إن الوقت لا يحتمل

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٤ ص ٨٢، كانت ولايته (سنة وستة أشهر وسبعة أيام).

أخلاق عليّ وابن مقلة أليق بالوقت. فأحضره واستوزره. فلما استُوزر أحسن إلى كل من أساء إليه وأحسن سيرته. وفي سنة ثلاث وعشرين وثلمائة عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القوّاد والعامة وإن وجدوا نبيذاً أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء فارهجوا بغداد. وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد ألاّ يجتمع من الحنابلة إثنان ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشائين. فلم يفد فيهم. فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم على اعتقاد التشبيه وغيره. فمنه: إنكم تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين الذهب والشعر القطط والنزول إلى الدنيا. فلعن الله شيطاناً زيَّن لكم هذه المنكرات ما أغواه. وأمير المؤمنين يقسم بالله جهداً اليَّة يلزمه الوفاء بها لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم هذه ليوسعنَّكم ضرباً وتشديداً وتبديداً وقتلاً وليستعملنَّ السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالِّكم. وفي سنة أربع وعشرين وثلمائة ألجأت الضرورة الراضي إلى أن قلد أبا بكر محمد بن رائق إمارة الجيش وجعله أمير الأمراء وولاّه الخراج والمعاون والدواوين في جميع البلاد وأمر أن يخطب له على جميع المنابر وبطلت الوزارة من ذلك الوقت فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور إنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعاً وكذلك كل من تولى أمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون. وفي سنة ست وعشرين وثلثمائة استولى **معزّ الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه على الأهواز**. وفيها كتب أبو علي بن مقلة إلى الراضي يشير عليه بالقبض على ابن رائق وأصحابه ويضمن أنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف ألف دينار وأشار عليه بإقامة يحكم مقام ابن رائق وطلب ابن مقلة من الراضي أن ينتقل ويقيم عنده بدار الخليفة فأذن له في ذلك. فلما حصل بدار الخليفة اعتقله في خجرة وعرض على ابن رائق خط ابن مقلة. فشكر الراضي. وما زال ابن رائق يلح في طلب ابن مقلة حتى أُخرج من محبسه وقطعت يده. ثم عولج فبرأ فعاد يكاتب الراضي ويخطب الوزارة ويذكر أن قطع يده لم يمنعه عن عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب ويهدّد ابن رائق. فأمر الراضي بقطع لسانه. ثم نُقل إلى محبس ضيّق ولم يكن عنده من يخدمه فآل به الحال إلى أنه كان يستقي الماء بيده اليسرى ويمسك الحبل بفمه. ولحقه شقاء شديد إلى أن مات. وفيها دخل بحكم بغداد ولقي الراضي وقلده أمرة الأمراء مكان ابن رائق. وفي سنة تسع وعشرين وثلثمائة مات الراضي بالله بالاستسقاء في منتصف ربيع الأول وكانت خلافته ستّ سنين وعشرة أشهر وكان أديباً شاعراً سمحاً سخياً يحبّ محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم.

وكان ببغداد في خلافة الراضي بعد سنة عشرين وثلثمائة وقبل سنة ثلاثين متّى بن يونس المنطقيّ النصرانيّ عالم بالمنطق شارح له مكثر وطيّ الكلام قصده التعليم والتفهيم وهو من أهل دير

قنى ممّن نشأ في اسكول مار ماري قرأ على روفيل وبنيامين الراهبَين اليعقوبيَّين. ومتّى نسطوريُّ النحلة ذكره محمد بن اسحق النديم في كتابه وقال: إليه انتهت رئاسة المنطقيّين في عصره ومصره.

(المتقي بن المقتدر) لما مات الراضي كان يحكم بالكوفة فورد كتابه مع الكوفيّ كاتبه يأمر فيه أن يجتمع مع أبي القاسم سليمان وزير الراضي العلويّون والقضاة والعباسيّون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة. فاتفقوا كلهم على إبراهيم بن المقتدر وبايعوه ولقبوه المتقي لله وسيَّر الخلع واللواء إلى يحكم إلى واسط وأقر سليمان على وزارته وليس له منها إلا اسمها وإنما التدبير كله إلى الكوفي كاتب يحكم. وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وثلثمائة قُتل يحكم قتله الأكراد وهو يتصيد في نهر جور. ولما قتل يحكم دخل أبو عبد الله البريدي بغداد فنزل بالشفيعي ولقيه الوزير والقضاة والكتّاب وأعيان الناس فأنفذ إليه المتقي يهنئه بسلامته وأنفذ له طعاماً عدة ليالٍ ثم انفذ البريديّ إلى المتقي يطلب خمسمائة ألف دينار ليفرقها في الجند. فامتنع عليه. فأرسل إليه يتهدده ويذكّره ما جرى على المعتزّ والمستعين والمهتدي. فأنفذ إليه تمام خمسمائة ألف دينار ولم يلقَ البريديّ المتقي مدة مقامه ببغداد. فلما حصل المال في يد البريدي لم يؤثر الجندَ من المال بطائل فشغبوا عليه وحاربوه فهرب منهم هو وأخوه وابنه وأصحابه وانحدروا في الماء إلى واسط واستولى كورتكين الديلمي على الأمور ببغداد ودخل إلى المتقي فقلده إمارة الأمراء وخلع عليه. وبعد قليل عاد محمد بن رائق من الشام إلى بغداد وصار أمير الأمراء. وفي سنة ثلاثين وثلثمائة قتل ابن رائق وقلد ناصر الدولة ابن حمدان أمرة الأمراء وخلع على أخيه أبي الحسن عليّ ولقبه سيف الدولة. وبعد قليل ثار الأتراك بسيف الدولة فكبسوه ليلاً فهرب من معسكره فلما بلغ الخبر أخاه ناصر الدولة سار إلى الموصل وكانت إمارته ثلاثة عشر شهراً وتولى توزون إمارة الأمراء. وفي سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة توفي السعيد نصر بن حمدان بن اسماعيل صاحب خُراسان وما وراء النهر وكان حليماً كريماً عاقلاً. وحكي عنه أنه طال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً فبنى له في قصره بيتاً وسمّاه بيت العبادة فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشي إليه حافياً ويصلي فيه ويدعو ويتضرع وتجنّب المنكرات والآثام إلى أن مات. وتولى بعده خراسان وما وراء النهر ابنه نوح ولقب الأمير الحميد. وفيها خلع المتقي على توزون الأمير التركي وجعله أمير الأمراء. وفيها أرسل ملك الروم إلى المتقي يطلب منه منديلاً مسح بها المسيح وجهه فصارت صورة وجهه فيها وإنها في بيعة الرها وذكر أنه إن أرسلها إليه أطلق عدداً كثيراً من أساري المسلمين.

فاستفتى المتقي القضاة والفقهاء فأنكر بعضهم تسليمها وأجاب بعضهم قائلاً: إن خلاص المسلمين من الأسر والضر والضنك الذي هم فيه أوجب. فأمر المتقي بتسليم المنديل إلى الرسل وأرسل معهم من يتسلم الأساري. وفي نسة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ظهر ببغداد لصّ فأعجز

الناس فأمّنه ابن شيرزاد وهو من أكابر قواد توزون وخلع عليه وشرط عليه أن يوصل إليه كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه وكان يستوفيها منه بالرواتب وهذا ما لم يسمع بمثله من شرّه. وفيها ازداد خوف المتقي من توزون أمير الأمراء وكان توزون بواسط فأنفذ المتقي يطلب من ناصر الدول ابن حمدان انفاذ جيش ليصحبوه إلى الموصل فأنفذهم مع ابن عمه. فخرج المتقي إليهم في حرمه وأهله ووزيره وساروا إلى الموصل وأقام المتقي بها عند ابن حمدان ثم سار منها إلى الرقة وأنفذ رسلاً إلى توزون في الصلح فحلف توزن للخفليفة والوزير وانحدر المتقي من الرقة في الفرات فلما وصل إلى هيت أقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون. فعاد وحلف وسار عن بغداد ليلتقي المتقي فالتقاه بالسنديَّة ونزل وقبَّل الأرض وقال: ها أنا قد وفيت بيميني والطاعة لك. ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم في مضرب نفسه مع حرم المتقي ثم كحله فأذهب عينيه وعمي المتقي. وانحدر توزون من الغد إلى بغداد والجماعة في قبضته. فكانت خلافة المتقي ثلاث سنين وستة أشهر[1].

(المستكفي بن المكتفي) لما قبض توزون على المتقي أحضر المستكفي بالله وهو أبو القاسم عبد الله بن المكتفي إليه إلى السنديَّة وبايعه هو وعامّة الناس في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة. وكان سبب البيعة له ما حكاه بعض خواص توزون قال: إنني دعاني صديق لي فمضيت إليه فذكر لي أنه تزوج إلى قوم وأن امرأة منهم قالت له إن هذا المتقي قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلافة وذكرت عقله ودينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة. فقلت له: أريد أن أسمع كلام المرأة. فجاءني بها ورأيت عاقلة جزلة. فذكرت لي نحواً من ذلك وأحضرت الرجل أيضاً عندي في زي امرأة فعرّفني نفسه وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار وخاطبني خطاب رجل لبيب فهم. فأتيت توزون فأخبرته فوقع الكلام في قلبه وجرى ما جرى. وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفي وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله.

وفيها سار سيف الدولة إلى حلب فملكها وكان مع المتقي بالرقة فلما عاد المتقي إلى بغداد قصد سيف الدولة حلب واستولى عليها ثم سار منها إلى حمص فلقيه بها عسكر الإخشيد محمد بن طُغْج صاحب مصر والشام مع مولاه كافور فاقتتلوا فانهزم عسكر الإخشيد وكافور وملك سيف الدولة مدينة حمص. وسار إلى دمشق فحاصرها فلم يفتحها أهلها له فرجع عنها. وفي سنة أربع وثلاثين وثلثمائة في المحرَّم مات توزون في داره ببغداد. فاجتمع الأجناد وعقدوا الرئاسة عليهم لزيرك بن شيرزاد وحلفوا له وحلف له المستكفي ودخل إليه ابن شيرزاد وعاد مكرَّماً يخاطب بأمير

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٤ ص ٣٩، وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

الأمراء. وبعد مدّة يسيرة قدم معزّ الدولة بن بويه إلى بغداد واختفى المستكفي وابن شيرزاد. فلما استتر سار الأتراك الذين في خدمته إلى الموصل. فلما بعدوا ظهر المستكفي وعاد إلى دار الخلافة وأظهر السرور بقدوم معز الدولة ودخل إليه معزّ الدولة بن بويه وبايعه وحلف له المستكفي. وظهر ابن شيرزاد أيضاً ولقي معزّ الدولة فولاه أمر الخراج وجباية الأموال وكانت إمارة ابن شيرزاد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً. وخلع المستكفي على معزّ الدولة ولقّبه ذلك اليوم معزّ الدولة ولقب أخاه عليًا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن يضرب القابهم وكناهم على الدراهم والدنانير. وفي هذه السنة بلغ معزّ الدولة إن علم قهرمانة المستكفي عازمة على إزالته فحضر معزّ الدولة والناس عند الخليفة في اثنين وعشرين من جمادى الآخرة ثم حضر رجلان من نقباء الديلم فتناولا يد المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيلهما فمدها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه وساقاه ماشياً إلى دار معزّ الدولة فاعتقل بها. وأخذت علم القهرمانة فقُطع لسانها. وكانت مدة خلافة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر وما زال مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد. ولما بويع المطيع سُلّم إليه المستكفي فسمله وأعماه وبقي محبوساً إلى أن مات.

وكان في هذا الزمان من الأطباء المشهورين **هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابىء الحرّاني الطبيب نزيل بغداد** وكان حاذقاً عاقلاً صالح العلاج متفنناً تقدّم عند إجلاء بغداد وخالطهم بصناعته وخدم أمير الأمراء توزون. وحكى عنه ولده إبراهيم قال: رأيت والدي في يوم من أيام خدمته لتوزون وقد خلع عليه وحمله على بغل حسن بمركب ثقيل ووصله بخمسة آلاف درهم وهو مع ذلك مشغول القلب متقسم الفكر. فقلت له: ما لي أراك يا سيدي مهموماً ويجب أن تكون في مثل هذا اليوم مسروراً. فقال: يا ابني هذا الرجل يعني توزون جاهل يضع الأشياء في غير موضعها ولست أفرح بما يأتيني منه من جميلة عن غير معرفة. أتدري ما سبب هذه الخلعة. قلت: لا. قال: سقيته دواء مسهلاً فحاف عليه فأسحجه فقام عدة مرار مجالس دماً عبيطاً حتى تداركته بما أزال ذلك عنه وكفي المحذور فيه فاعتقده بجهله أن في خروج ذلك الدم صلاحاً له فأنعم عليّ بما تراه ولست آمن أن يستشعر في السوء من غير استحقاق فتلحقني منه الأذية.

(المطيع بن المقتدر) هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر. بويع له يوم الخميس ثاني عشر[1]. جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وازداد أمر الخلافة أدباراً ولم يبقَ للخليفة وزير إنما كان له كاتب يدبّر إقطاعه وإخراجاته وبالجملة لم يبقَ بيد المطيع إلاّ ما اقطعه معزّ الدولة مما يقوم بعض حاجاته. وفي هذه السنة في ذي الحجة مات الإخشيد صاحب ديار مصر بدمشق وولي الأمر بعده

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٤ ص ٤٥ بويع يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة فبويع ولقب المطيع بالله.

ابنه أبو جور واستولى على الأمر كافور الخادم الأسود. فسار كافور إلى مصر. فقصد سيف الدولة دمشق فملكها. ثم جاء كافور من مصر فأخرج أهلُ دمشق سيف الدولة عنهم. وفي سنة سبع وثلاثين سار سيف الدولة بن حمدان إلى بلد الروم فلقيه الروم واقتتلوا فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس. وفي سنة ثماني وثلاثين وثلثمائة توالت على عماد الدولة عليّ بن بويه الأسقام بمدينة شيراز فلما أحس بالموت ولم يكن له ولد أنفذ إلى أخيه ركن الدولة يطلب منه أن ينفذ إليه ابنه عضيد الدولة فناخسروا ليجعله وليّ عهده. فوصل إليه فأجلسه في داره على السرير ووقف هو بين يديه وأمر الناس بالانقياد له وكان يوماً عظيماً مشهوداً. وفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة دخل سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم فغزا وأوغل فيها وسبى وغنم. فلما أراد الخروج أخذوا عليه المضايق فهلك مَن كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً واستردّ الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير.

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة مات الأمير نوح بن نصر الساماني في ربيع الآخر وملك خراسان بعده ابنه عبد الملك. وفيها غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم وقتل ابن نيقيفور الدمستق فعظم الأمر عليه. فجمع عساكر كثيرة من الروم والروس والبلغار وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا واشتدّ القتال بينهم وصبر الفريقان. ثم انتصر المسلمون وانهزم الروم واستؤسر صهر الدمستق وابن ابنته. وفي سنة تسع وأربعين وثلثمائة غزا أيضاً سيف الدولة بلاد الروم وسبى وغنم وأسر وبلغ إلى خَرْشَنَة[1]. ثم أن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: الرأي أن لا تعود في الدرب الذي دخلت منه ولكن ترجع معنا في مسالك نعرفها. فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحبّ أن يستبدّ ولا يشاور أحداً لئلاّ يقال إنه أصاب برأي غيره وعاد في الدرب الذي دخل منه. فظهر الروم عليه واستردوا ما معه من الغنائم ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليه قتلاً وأسراً وتخلّص هو في ثلثمائة رجل بعد جهد ومشقة. وفي سنة خمسين وثلثمائة سقط الفرس تحت عبد الملك بن نوح صاحب خراسان فمات من سقطته. وولي بعده أخوه منصور بن نوح. وفي سنة إحدى وخمسين وثلثمائة في المحرَّم نزل الروم مع الدمستق على عين زربة[2] وفتحوها بالأمان فدخلها ونادى في البلد أوّل الليل بأن يخرج جميع أهلها إلى المسجد ومن تأخر في منزله قُتل. فخرج من أمكنه الخروج. فلما أصبح أنفذ رجاله وكانوا ستين ألفاً فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ممن وجدوه خارج المسجد. وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك ومن أمسى قُتل. فخرجوا مزدحمين

(١) خَرْشَنَةُ: من بلاد الروم. أسر فيها أبو فراس الحمداني أيام سيف الدولة وهي بلد قرب ملطية. معجم البلدان ح ٢ ص ٤١٠.

(٢) عين زربة من الثغور قرب المصيصة. معجم البلدان ٣/ ١٥٣.

فمات بالزحمة جماعة ومرّوا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات وقَتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار. فلما أدرك الصوم انصرف الروم إلى القيسارية[١] على أن يعودوا بعد العيد. وفيها استولى الروم على مدينة حلب وعادوا عنها بغير سبب. وفيها ملّك الروم عليهم نيقيفور الدمستق وجعلوا شخصاً يسمّى شوموشقيق دمستقاً له. وفي سنة أربع وخمسين وثلثمائة فتح الروم مصّيصة وطرسوس. وفي سنة ست وخمسين وثلثمائة مات معز الدولة بن بويه ببغداد وجلس ابنه بختيار في الإمارة ولُقب عزّ الدولة. وكانت إحدى يدي عز الدولة مقطوعة قطعت في بعض الحروب. وفيها قبض أبو تغلب على أبيه ناصر الدولة بن حمدان وحبسه في القلعة لأنه كان قد كبر فساءت أخلاقه وضيّق على أولاده وخالفهم في أغراضهم للمصلحة فضجروا منه. وفي سنة سبع وخمسين وثلثمائة ملك الروم مدينة أنطاكية. وفي سنة إحدى وستين وثلثمائة سار المعزّ لدين الله العلوي صاحب بلاد المغرب من أفريقية يريد الديار المصرية فأقام قريباً من مدينة قيروان ولحقه رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له في قصره من الأموال والأمتعة حتى أن الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل ثم سار حتى وصل إلى الاسكندرية. وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم وأحسن إليهم وسار فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وملك الديار المصرية بلا ضرب ولا طعن. وفي سنة اثنتين وستين وثلثمائة سار الدمستق إلى آمد وبها هزارمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان. فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه ويستنجده. فسيَّر إليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة فاجتمعا على حرب الدمستق وسارا إليه فالتقياه سلخ رمضان وكان الدمستق في كثرة ولقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل. والروم على غير أُهبة الحرب فانهزموا. وأخذ المسلمون الدمستق أسيراً ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وثلثمائة فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء فلم ينفعه ذلك ومات. وفي سنة ثلاث وستين في منتصف ذي القعدة خلع المطيع نفسه من الخلافة وسلمها إلى ولده الطائع لله فكانت مدة خلافته تسعاً[٢] وعشرين سنة وخمسة أشهر.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة توفي محمد بن محمد بن طَرْخان أبو نصر الفارابي بمدينة دمشق. وفاراب هي إحدى مدن الترك فيما وراء النهر. ودخل أبو نصر العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكميّ على يوحنا بن حيلان المتوفي في أيام المقتدر واستفاد منه وبرز في ذلك على أقرانه وأربى عليهم في التحقيق وأظهر الغوامض المنطقيّة وكشف سرها وقرّب متناولها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطفية الإشارة منبّهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعاليم فجاءت كتبه المنطقية والطبيعية والالهية والسياسية الغاية الكافية

(١) قَيْسارية: وهي في عدة مواضع وقيسارية مدينة كبيرة في بلاد الروم. معجم البلدان ٤/ ٤٧١.
(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٤ ص ٢٢٤ تسعاً و عشرين سنة وأربعة وعشرين يوماً.

والنهاية الفاضل. وكان أبو نصر الفارابي معاصراً لأبي بشر متى بن يونس إلاّ أنه كان دونه في السنّ وفوقه في العلم. وقدم أبو نصر الفارابيّ على سيف الدولة أبي الحسن عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان إلى حلب وأقام في كنفه مدة بزيّ أهل التصوُّف وقدَّمه سيف الدولة وأكرمه وعرف موضعه من العلم ومنزلته من الفهم ورحل في صحبته إلى دمشق فأدركه أجله بها.

وكان في أيام المطيع لله وفي إمارة الأقطع معزّ الدولة أحمد بن بويه ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة وكان بارعاً في الطب عالماً بأصوله فكاكاً للمشكلات من الكتب. وكان يتولّى تدبير البيمارستان ببغداد في وقته. وعمل ثابت هذا كتاب التاريخ المشهور في الآفاق الذي ما كتب في التاريخ أكثر مما كتبه وهو من سنة نيّف وتسعين ومائتين إلى حين وفاته في شهور سنة ثلاث وستين وثلثمائة. وعليه ذيل ابن اخته هلال ولولاهما لجهل شيء كثير من التاريخ في المدّتين. وفي هذا الزمان اشتهر يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا التكريتي المنطقي نزيل بغداد. إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه. قرأ على أبي نصر الفارابي. وكان نصرانياً يعقوبيّ النحلة وكان ملازماً للنسخ بيده كتب كثيراً من الكتب وكان يكتب خطاً قاعداً بيّناً في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر. وله تصانيف وتفاسير ونقُول عدّة. ومات ثالث عشر آب سنة ألف ومائتين وخمس وثمانين للاسكندر ودُفن في بيعة القطيعة ببغداد وكان عمره إحدى وثمانين سنة شمسيَّة.

(الطائع بن المطيع) واسمه أبو الفضل عبد الكريم وسبب خلافته أن أباه المطيع لحقه فالج ثقل لسانه منه وتعذَّرت الحركة عليه وهو يستر ذلك. فانكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى أن يخلع نفسه ويسلِّم الخلافة إلى ولده الطائع لله ففعل ذلك في سنة ثلاث وستين وثلثمائة. وفيها خُطب للمعزّ لدين الله العلويّ صاحب مصر بمكة والمدينة في الموسم. وفيها وصل عضد الدولة واستولى على العراق وقبض على بختيار ثم عاد فأخرجه وعاد بختيار إلى مكة كما كان أمير الأمراء. وفي سنة خمس وستين وثلثمائة مات المعزّ العلويّ بمصر وهو أوّل الخلفاء العلويّين ملك مصر واستخلف عليها ابنه العزيز. وفي سنة ست وستين وثلثمائة في المحرَّم توفّي ركن الدولة أبو عليّ الحسن بن بويه واستخلف على ممالكه ابنه عضد الدولة. وفيها مات منصور بن نوح صاحب خراسان ببخارا وولي الأمر بعده ابنه نوح. وفي سنة سبع وستين سار عضد الدولة إلى بغداد وأرسل إلى بَخْتِيار يدعوه إلى طاعته وإن يسير عن العراق إلى أيّ جهة أراد إلاّ الموصل. فخرج بختيار عن بغداد عازماً على قصد الشام. ودخل عضد الدولة بغداد وخُطب له فيها بخلاف العادة وضرب على بابه ثلاث نُوَب ولم تجرِ بذلك عادة من تقدَّمه. وأما بختيار لما سار عن بغداد إلى الحديثة أتاه أبو تغلب في عشرين ألف مقاتل وسارا جميعاً نحو العراق. فبلغ ذلك عضد الدولة فسار عن بغداد نحوهما. فالتقوا بنواحي تكريت فهزمهما وأسر بختيار وقتله. وسار نحو الموصل واستولى على ملك بني حمدان. وسار أبو تغلب ابن ناصر الدولة بن حمدان إلى الشام فوصل إلى

دمشق وقُتل بها. وفي سنة تسع وستين وثلثمائة راسل عضد الدولة أخويه فخر الدولة ومؤيّد الدولة يدعوهما إلى طاعته وموافقته. أما مؤيّد الدولة فأجاب راغباً وأما فخر الدولة فأجاب جواب المناظر المناوي فنقم عليه عضد الدولة ذلك وسار نحو همذان وبها فخر الدولة فخافه ذاكراً قتل ابن عمّه بختيار فخرج هارباً وقصد جرجان[١] فنزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير والتجأ إليه فأمّنه وآواه وحمل إليه فوق ما حدثته به نفسه. وفي هذه السفرة حدث لعضد الدولة صرع وكان هذا قد أخذه بالموصل فكتمه وصار كثير النسيان لا يذكر الشيء إلاّ بعد جهدٍ وكتم ذلك أيضاً. وهذا دأب الدنيا لا تصفوا لأحد. وفيها شرع عضد الدولة في عمارة بغداد وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيه وعمَّر مساجدها وأسواقها وأدرّ الأموال على الأئمَّة والعلماء والقرّاء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد. وجدَّد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها وتسويتها. وفيها تجددت وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة فتزوَّج الطائع ابنته وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله وليّ عهده فتكون الخلافة في ولدٍ لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار. وفيها كانت فتنة عظيمة بين عامّة شيراز من المسلمين والمجوس ونهبت فيها دور المجوس وضُربوا وقُتل منهم جماعة فسيَّر إليهم عضد الدولة من جمع له كل من له في ذلك أثر وضربهم وبالغ في تأديبهم وزجرهم. وفي سنة إحدى وسبعين وثلثمائة فتح البيمارستان العضديّ غربي بغداد ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه من الأدوية. وفيها أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر المعروف بابن الباقلاني رسولاً إلى ملك الروم فلما وصل قيل له ليقبّل الأرض بين يديه فامتنع. فعمل الملك باباً صغيراً ليدخل منه القاضي منحنياً. فلما رأى القاضي الباب علم ذلك فاستدبره ودخل منه. فلما دخل وجازه استقبل الملك قائماً. وفي سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة اشتدّ الصرع الذي كان يعتاده عضد الدولة فخنقه فمات منه ثامن شوّال ببغداد. وكانت ولايته بالعراق خمس سنين ونصفاً. وجلس ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار للعزاء فأتاه الطائع لله معزّياً. وكان عمر عضد الدولة سبعاً وأربعين سنة. وكان قد سيَّر ولده شرف الدولة أبا الفوارس إلى كرمان[٢] مالكاً لها. وكان عضد الدولة عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الإصابة شديد الهيبة بعيد الهمّة ثاقب الرأي محباً للفضائل وأهلها باذلاً في مواطن العطاء ومانعاً في أماكن الحرم ناظراً في عواقب الأمور. ولما توفي عضد الدولة ولي الأمر بعده ولده صمصام الدولة أبو كاليجار وخلع على أخويه أبي الحسين أحمد وأبي طاهر فيروزشاه فاقطعهما فارس. وكان أخوهم الآخر شرف الدولة بكرمان فسبقهما إلى شيراز فملكها وفي سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة مات مؤيد الدولة بجُرجان وكانت علّته الخوانيق. وعاد فخر الدولة أخوه إلى مملكته واتفق مع صمصام الدولة وصارا يداً واحدة. وفيها

(١) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. معجم البلدان ح ٢/١١٩.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بفارس.

دخل باد الكردي الحميديّ إلى الموصل واستولى عليها وقويت شوكته وحدّث نفسه بالتغلّب على بغداد وإزالة الديلم عنها. فخافه صمصام الدولة وأهمّه أمره وشغله عن غيره وجمع العساكر فساروا إلى باد فخرج إليهم ولقيهم في صفر سنة أربع وسبعين فاجلت الوقعة عن هزيمة باد وأصحابه وملك الديلم الموصل. وفي سنة سبع وسبعين سار شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من الأهواز إلى واسط فملكها. فخافه أخوه صمصام الدولة وسار في طيّار إليه في خواصه فلقيه وطيّب قلبه فلما خرج من عنده قبض عليه وسار فوصل إلى بغداد في شهر رمضان وأخوه صمصام الدولة معه تحت الاعتقال وكانت إمارته بالعراق أربع سنين. وفي سنة تسع وسبعين وثلثمائة اعتلّ شرف الدولة فلما اشتدّت علّته قيل له: الدولة مع صمصام الدولة على خطر فإن لم تقتله فأسمله. فسمله وحبسه مع أخيه أبي طاهر في بعض القلاع التي بفارس. وفيها في مستهلّ جمادى الآخرة مات الملك شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة مستسقياً وكانت إمارته بالعراق سنتين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وولي الأمر بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر. وأما ابنه أبو عليّ فكان سيّره إلى بلاد فارس واصحبه الخزائن والعُدد وجماعة كثيرة من الأتراك. ثم أن المرتّبين في القلعة التي فيها صمصام الدولة وأخوه أبو طاهر لما بلغهم الخبر بموت شرف الدولة أطلقوهما ومعهما فولاذ فساروا إلى شيراز واجتمع على صمصام الدولة وهو أعمى كثير من الديلم واستولى على فارس وملكها[1]. وأما أبو عليّ بن شرف الدولة فأرسل إليه عمّه بهاء الدولة وطيّب قلبه ووعده فسار إليه فقبض عليه ثم قتله بعد ذلك بيسير. وفيها ملك أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان الموصل. وفي سنة ثمانين وثلثمائة جمع باد الأكراد وسار نحو الموصل فخرج إليه أبو طاهر والحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان فناوشاه القتال. وأراد بادٌ الانتقال من فَرَس إلى آخر فسقط فأراده أصحابه على الركوب فلم يقدروا فتركوه وانصرفوا فعرفه بعض العرب فقتله وصلبت جثته على دار الإمارة فثار العالمة وقالوا: رجل غاز ولا يحلّ فعل هذا به فانزلوه وكفّنوه وصلّوا عليه ودفنوه وظهر منهم محبّة كثيرة له. ولما قُتل باد الكرديّ سار ابن اخته أبو عليّ بن مروان في طائفة من الجيش إلى حصن كيفا وهو على دجلة فملكه ونزل فقصد حصناً حصناً حتى ملك ما كان لخاله. وبعد مدّة يسيرة قُتل بآمد قتله إنسان يقال له ابن دمنة وقف له في الدركاه وضربه بالسكين في مقاتله. وملك ميّافارقين بعده أخوه ممهد الدولة بن مروان واستولى على آمد عبد البرّ شيخ البلد وزوّج ابن دمنة قاتل أبي عليّ ابنته. فعمل له ابن دمنة دعوة وقتله وملك آمد وعمّر البلد وأصلح أمره مع ممهد الدولة وهادىء ملك الروم وصاحب مصر وغيرهما من الملوك وانتشر ذكره. وفي سنة إحدى وثمانين وثلثمائة قبض بهاء

(١) أنظر تاريخ ابن خلدون ح ٤ ص ٦١٥.

الدين على الطائع بن المطيع. وحُمل إلى دار بهاء الدولة فحبس بها واشهد عليه بالخلع وأخذ بهاء الدولة ما في دار الخلافة من الذخائر فمشى به الحال وكانت مدة خلافة الطائع سبع عشرة سنة وثمانية أشهر ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حال يُستدلّ به على سيرته.

وفي سنة تسع وستين وثلثمائة **توفّي ثابت بن ابراهيم بن زهرون الحرّاني الصابىء** ببغداد وكان طبيباً حاذقاً مصيباً. حكى عنه أبو الفرج ابن أبي الحسن بن سنان قال: كنت وابراهيم الحرّاني يوماً في دار أبي محمد المهلّبي الوزير فتقدم أبو عبد الله بن الحجاج الشاعر إلى الحراني فأعطاه محبسّه. فقال له: قلت لك غلظ غذاك وأظنك أسرفت وذلك حتى أكلت مضيرة بلحم عجل. فقال: كذلك والله كان. وعجب هو والجماعة منه. ومدّ إليه أبو العباس المنجم يده فأخذ محبسّه فقال: فأنت يا سيدي أسرفت في التبريد أيضاً وأظنّك قد أكلت إحدى عشرة رمّانة. فقال أبو العباس المنجم: هذه نبوَّة لا طبّ. وزاد العجب والتفاوض في ذلك. وكنت أنا أيضاً أكثرهم استطرافاً وتعجباً. فلما خرجنا قلت له: يا سيدي أبا الحسن صناعة الطب معروفة بيننا لا يخفى عني شيء منها فبيّن لي من أين ذلك النصّ على أن المضيرة كانت بلحم عجل لا بقرة ولا ثور ومن أين لك الدليل على أن عدد الرمّان إحدى عشرة. فقال: هو شيء يخطر ببالي فينطق به لساني. فقلت: صدقتني والله إذاً ارِني مولدك. وجئت معه إلى الدار ونظرت في مولده فرأيت سهم الغيب في درجة الطالع مع درجة المشتري وسهم السعادة فقلت له: يا عزيزي هذا يتكلم لا أنت وكلما تصيب في الطبّ من مثل هذا الحدس والقول فهذا سببه واصله.

وحُكي أن عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه بن بويه كان إذا افتخر بالعلم والمعلّمين يقول: معلمي في الكواكب الثابتة وأماكنها عبد الرحمن الصوفيّ وفي حلّ الزيج الشريف بن الأعلم وفي النحو أبو علي الفارسي.

وكان عبد الرحمن بن عمر بن سهل أبو الحسين الصوفي الرازيّ فاضلاً نبيهاً نبيلاً ومن تصانيفه كتاب الصوَر السمائيَّة مصوَّر والارجوزة وكتاب مطارح الشعاعات. وتوفّي في سنة ست وسبعين وثلثمائة وكان عمره خمساً وثمانين سنة. وأما ابن الأعلم فاسمه عليّ بن الحسين رجل علويّ شريف عالم بعلم الهيئة وصناعة التسيير مذكور مشهور في وقته وكان قد تقدّم عند عضد الدولة. ولما توفّي عضد الدولة نقصت حاله وتأخر أمره عند صمصام الدولة ابنه فانقطع عنهم وأقام منقطعاً وحجّ في شهور سنة أربع وسبعين وثلثمائة وفي عودته مات بمنزلة تُعرف بالعُسَيْلة. وكان في هذه المدة جماعة صالحة من مشاهير الحكماء منهم التميميّ المقدسيّ الطبيب كان بمصر في حدود سبعين وثلثمائة أحكم ما عليه من علم الطبّ غاية الأحكام وكان له غرام وعناية تامّة في تركيب الأدوية وعنده غوص واستغراق في طلب غوامض هذا النوع وكان مُنصفاً في مذاكراته غير رادٍّ على أحد إلاّ بطريق الحقيقة. ومنهم **عليّ بن العبّاس المجوسيّ فاضل كامل فارسيّ** الأصل

قرأ على شيخ فارسيّ يُعرف بأبي ماهر وطالع هو واجتهد وصنف للملك عضد الدولة بن بويه كتابه المسمّى بالملكيّ وهو كتاب جليل وكنّاش نبيل مال الناس إليه في وقته ولزموا درسه إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا فمالوا إليه وتركوا الملكيّ بعض التَرك. والملكيّ في العمل ابلغ والقانون في العلم أثبت. **ومنهم نظيف القسّ الرومي** كان طبيباً عالماً بالنقل من اليوناني إلى العربي ولم يكن سعيد المباشرة ولا منجح المعالجة وكان الناس يتطيرون به ويولعون به إذا دخل إلى مريض حتى أنه حكى في بعض أوقاته أن عضد الدولة أنفذه إلى بعض القوّاد ليعوده في مرض كان عرض له. فلما خرج من عند القائد استدعى القائد ثقته وأنفذه إلى حاجب عضد الدولة يستعلم منه نيّة الملك فيه. ويقول: إن كان ثمَّ تغيُّر نية فليأخذ له الأذن في الانصراف والبعد فقد قلق لما جرى. وسأله الحاجب عن السبب. فقال: ما أعرف أكثر من أنه جاء نظيف الطبيب وقال له: مولانا الملك انفذني لعيادتك. فمضى الحاجب وأعاد بحضرة عضد الدولة هذا القول. فضحك وأمره بإعلامه حسن نيّة الملك فيه وحملت إليه خلع سنيّة سكنت نفسه بها. **ومنهم عبيد الله بن الحسن أبو القاسم المعروف بغلام زحل المنجم مقيم** ببغداد من أفاضل الحسّاب والمنجمين أصحاب الحجج والبراهين وله يد طولى فيما يعانيه من هذا الشأن. ذُكر أنه اجتمع يوماً عند أبي سليمان المنطقيّ جماعة من سادة علماء الأوائل وأخذوا في المذاكرة فذكروا في علم النجامة وقالوا: هي من العلوم التي لا تُجدي فائدة ولا يصحّ لها حكم. فأطالوا القول في ذلك. فقال بعضهم: أيها القوم اختصروا الكلام وقربوا البغية هل تصح الأحكام. فقال غلام زحل: عن هذا جواب يستثبت على كل وجه. فقيل: لِمَ بيّنْ. قال لأن صحتها وبطلانها يتعلقان بآثار الفلك وقد يقتضي شكل الفلك في زمان أن لا يصحّ منها شيء وأن غيص على دقائقها وبلغ إلى أعماقها. وقد يزول ذلك الشكل فيجيء زمان لا يبطل منها شيء فيه وإن قورب في الاستدلال. وقد يتحول هذا الشكل في وقت آخر إلى أن يكثر الصواب فيها والخطأ. ومتى وقف الأمر على هذا الحدّ فلا يثبت على قولٍ قضاء ولا يوثق بجواب. فقال أبو سليمان المنطقي: هذا أحسن ما يمكن أن يقال في هذا الباب. ومنهم مسكويه أبو عليّ الخازن من كبار فضلاء العجم وأجلاّء فارس له مشاركة حسنة في العلوم الأدبيّة والعلوم القديمة كان خازناً للملك عضد الدولة بن بويه مأموناً لديه أثيراً عنده. وله تصانيف في العلوم ومناظرات ومحاضرات. وقال أبو عليّ بن سينا في بعض كتبه وقد ذكر مسألة فقال: وهذه المسألة حاضرت بها أبا عليّ مسكويه فاستعادها كرّات وكان عسر الفهم فتركه ولم يفهمها على الوجه. وعاش زماناً طويلاً إلى أن قارب سنة عشرين وأربعمائة. وحكي أن عضد الدولة لما قدم إلى بغداد قيل له عن أبي الفضل جعفر[1] بن المكتفي بالله أنه من أولاد الخلفاء وأنه فاضل كبير

(١) أنظر ترجمته في البداية والنهاية ١١/٣٠٦.

القدر عالم بعلوم متعددة من علوم الأوائل متحقق بذلك أتمّ تحقيق. فاشتاقت نفسه إليه فسيَّر إليه سراً وكان يجتمع به خفية ويأتيه في خفّ وإزار فإذا حصل في داره اقعده في موضع خالٍ بغير إزار. فإذا خلا عضد الدولة استدعاه فإذا شاهده تطاول له في القيام وأكرمه وخلا به وسأله عن فنّه في علم أحكام النجوم وأخبار الحدثان فيخبره من ذلك بما يعجب منه ولا يبعد وقوعه. وتوفّي جعفر هذا سنة سبع وسبعين وثلثمائة. ومن جملة من اختص بشرف الدولة بن عضد الدولة من الحكماء أحمد بن محمد الصاغاني أبو حامد كان فاضلاً في الهندسة وعلم الهيئة وكان ببغداد يحكم الآلات الرصديّة غاية الأحكام. ولما بنى شرف الدولة بيت الرصد في طرف بستان دار المملكة وتقدّم برصد الكواكب السبعة واعتمد في ذلك على ويجن الكوهي ورصد وكتب مختصرين بصورة الرصد كان ممن شاهد ذلك وكتب خطّه بتصحيح نزول الشمس في برجين أحمد بن المنطقي الصاغاني.

ومات احمد هذا سنة تسع وسبعين وثلثمائة ببغداد. وأما ويجن بن وشم أبو سهل الكوهي فكان حسن المعرفة بالهندسة وعلم الهيئة متقدماً فيهما إلى الغاية المتناهية. وكان رصده لحلول الشمس برجَي السرطان والميزان سنة ألف ومائتين وتسع وتسعين للاسكندر. وكان من جملة من حضر هذين الرصدين من العلماء ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الصابىء صاحب الرسائل أصل سلفه من حرّان ونشأ ببغداد وتأدّب بها وكان بليغاً في صناعتي النظم والنثر وله يد طولى في علم الرياضة وخصوصاً في الهندسة والهيئة وله فيهما مصنفات. وديوان رسائله مجموع. وخدم ملوك العراق من بني بويه واختلفت به الأيام ما بين رفع ووضع وتقديم وتأخير واعتقال وإطلاق. وتوفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة. قال أبو حيّان التوحيديّ: سألني وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة عن زيد بن رفاعة في حدود سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة وقال: لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ومذهباً لا عهد لي به. وقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إلى وتكثر عنده. ومن طالت عشرته لإنسان أمكن إطلاعه على مستكنّ رأيه. فقلت: أيها الوزير هناك ذكاء غالب وذهن وقّاد. قال: فعلى هذا ما مذهبه. قلت: لا يُنسب إلى شيء لكنه قد أقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف بها جماعة لأصناف العلم فصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تألّفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد تدنّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنفوا خمسين رسالة في خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة حادية وخمسين جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والايجاز وسمّوها رسائل إخوان الصفا وكتموا فيها أسماءَهم وبثّوها في الورّاقين ووهبوها للناس وحشوا

هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المجتمعة والطرق المموهة وهي مبثوثة من كل فنّ بلا إشباع ولا كفاية وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات فتعبوا وما أغنَوا وغنّوا وما اطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا وبالجملة فهي مقالات مشوّقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلّة والاحتجاج. ولما كتم مصنّفوها اسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس والتخمين. فقوم قالوا: هي من كلام بعض الأئمّة العلويّين. وقال آخرون: هي تصنيف بعض متكلّمي المعتزلة في العصر الأول.

(القادر بن اسحق بن المقتدر) لما قُبض الطائع ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة واتفقوا على القادر بالله أبي العباس احمد بن اسحاق المقتدر وكان بالبطيحة[١]. ولما وصل الرسل إليه كان تلك الساعة يحكي مناماً رآه تلك الليلة يدلّ على خلافته. فبويع له يوم حادي عشر من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة. وفيها مات سعد الدولة ابن سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب بالقولنج وولي بعده ابنه أبو الفضائل ووصّى إلى لؤلؤة به وبسائر أهله. وفي سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة نزل ملك الروم بأرمينية وحصر خلاط وملازكرد وأرجيش فضعفت نفوس الناس عنه ثم هادنه أبو عليّ الحسن ابن مروان مدة عشر سنين وعاد ملك الروم. وفي سنة ست وثمانين وثلثمائة توفّي العزيز[٢] العلوي صاحب مصر وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر بمدينة بلبيس وولي بعده ابنه أبو عليّ المنصور ولُقّب الحاكم بأمر الله. وكان العزيز يحبّ العفو ويستعمله فمن حلمه أنه كان بمصر شاعر كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس الوزير وأبا نصر كاتب الإنشاء فقال:

قُلْ لأبي نصر كاتب القصر ... والمتأني لنقض ذا الأمرِ
انقض عُرى الملك للوزير تفزْ ... منه بحسن الثنا والذكرِ
وأعطِ وأمنع ولا تخفْ أحداً ... فصاحب القصر ليس بالقصرِ
وليس يدري ماذا يُراد به ... وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه الوزير إلى العزيز وأنشده الشعر. فقال له: هذا شيء اشتركنا في الهجاء به فشاركني في العفو عنه. وفي سنة سبع وثمانين وثلثمائة توفّي الأمير نوح بن منصور صاحب بخارا وولي الأمر بعده ابنه منصور. وفيها مات سبكتكين وملك بعده اسماعيل. ثم أرسل إليه وهو بغزنة أخوه يمين الدولة محمود من نيسابور يعرّفه أن أباه إنما عهد إليه لبعده عنه ويذكّره ما يتعيّن من

(١) البطيحة: وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة. معجم البلدان ١/ ٥٣٤.

(٢) هو نزار بن معد أبو تميم ويكنى أبو منصور ويلقب بالعزيز صاحب مصر ولد بالقيروان ووليَ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياماً المنتظم لابن الجوزي ح ١٤ ص ٣٨٦.

تقديم الكبير. فلم يجبه إلى ذلك. فسار إليه وقاتله وقبض عليه ثم أعلى منزلته وشركه في الملك. وفيها مات فخر الدولة ابن ركن الدولة بن بويه وقام بملكه بعده ولده مجد الدولة أبو طالب رستم وعمره اربع سنين وكان المرجع إلى أمّه في تدبير الملك وعن رأيها يصدرون. وفيها توفّي مأمون ابن محمد صاحب خوارزم وولي الأمر بعده ولدهُ عليّ. وفي سنة إحدى وأربعمائة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العلويّ صاحب مصر بأعماله كلّها وهي الموصل والانبار والمدائن والكوفة وغيرها. وفي سنة ثلاث وأربعمائة قُتل شمس المعالي قابوس بن وشمكير وكان سبب قتله أنه كان مع كثرة فضائله ومناقبه عظيم السياسة شديد الأخذ قليل العفو يقتل على الذنب اليسير. فضجر أصحابه منه ومضوا إليه إلى الدار التي هو فيها وقد دخل إلى الطهارة متخففاً فأخذوا ما عليه من كسوة وكان الزمان شتاء وكان يستغيث: أعطوني ولو جلّ فرس. فلم يفعلوا فمات من شدّة البرد. وولي بلاده ابنه منوجهر ولُقب فلك المعالي. وكان قابوس عزيز الأدب وافر العلم له رسائل وشعر حسن وكان عالماً بالنجوم وغيرها من العلوم. وفيها توفّي بهاء الدولة[١] بن عضد الدولة بن بويه وهو الملك حينئذٍ بالعراق وولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع. وفي سنة سبع وأربعمائة قُتل خوارزمشاه أبو العبّاس مأمون بن مأموم وملك يمين الدولة خوارزم. وفي سنة ثماني وأربعمائة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلثمائة ألف خركاه وملكوا بعض البلاد وغنموا وسبوا وبقي بينهم وبين بلاساغون[٢] ثمانية أيام. ولما سمعوا بجمع عساكر طغان خان عادوا إلى بلادهم. فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل وغنم من الدوابّ وأواني الذهب والفضة ومعمول الصين ما لا عهد لأحد بمثله. وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة عظم أمر أبي عليّ مشرّف الدولة ابن بهاء الدولة ثم ملك العراق وأزال عنه أخاه سلطان الدولة. وفيها فقد الحاكم بن العزيز بن المعزّ العلويّ صاحب مصر بها ولم يُعرف له خبر[٣]. وقيل إنه خرج يطوف ليلته على رسمه وعادته وأصبح عند قبر الفقاعيّ وتوجه إلى شرقيّ حلوان ومعه ركابيّان فأعادهما فعادا وذكرا أنهما خلّفاه عند العين وبقي الناس على رسومهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه. فلما أبطأ خرج جماعة من خواصّه فبلغوا حلوان ودخلوا في الجبل فبصروا بالحمار الذي كان عليه وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه. فاتبعوا الأثر فانتهى بهم إلى البركة فرأوا ثيابه وهي سبع قطع صوف وهي مزرَّرة بحالها لم تحلّ وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكُّوا في

(١) فيروز أبو نصر الملقب بهاء الدولة توفي بأرجان في جمادى الآخرة وكانت إمارته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أيام وعمره اثنين وأربعين سنة، المنتظم ابن الجوزي ح ١٥ ص ٩٥.

(٢) بلاساغون: بلد عظيم في شفور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر.

(٣) أنظر المنتظم لابن الجوزي ح ١٥ ص ١٤٢.

قتله. وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وولايته خمساً وعشرين سنة. وكان جواداً بالمال سفَّاكاً للدماء وكانت سيرته عجيبة أمرَ بسبّ الصحابة وكتب إلى سائر عمّاله بذلك. ثم أمر بعد ذلك بمدَّة بالكفّ عن السبّ وهدم بيعة القيامة ببيت المقدس ثم عاد بناها. وحمل أهل الذمَّة على الإسلام أو المسير إلى مأمنهم أو لبس الغيار فأسلم كثير منهم. ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقاه فيقول له: أريد العود إلى ديني فيأذن له. ومنع النساء عن الخروج من بيوتهنَّ وقتل من خرج منهنَّ. فشكى إليه مَن لا قيّم لها يقوم بأمرها فأمر الناس أن يحملوا كلّما يباع في الأسواق إلى الدروب ويبيعوه على النساء وأمر من يبيع أن يكون معه شبه المغرفة بساعد طويل يمدُّه إلى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه فإذا رضيته وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها لئلاّ يراها. فنال الناس من ذلك شدَّة عظيمة. ولما عُدم الحاكم بويع ابنه أبو الحسن عليّ وهو صبيّ ولُقّب الظاهر لاعزاز دين الله وباشرت ستّ الملك أخت الحاكم الأمور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الأمور. وعاشت بعد الحاكم أربع سنين وماتت.

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة استولى علاءُ الدولة أبو جعفر بن كاكويه على همذان وملكها. وفيها توفّي عليّ بن هلال المعروف بابن البوَّاب الكاتب المشهور وإليه انتهى الخطّ. وفي سنة خمس عشرة في شوَّال توفّي الملك سلطان الدولة بشيراز[١] وملك بعده ابنه أبو كاليجار. وفي سنة ستّ عشرة وأربعمائة توفّي الملك مشرّف الدولة أبو عليّ بن بهاء الدولة[٢] وخُطب ببغداد لأخيه طاهر جلال الدولة. وفيها ملك نصير الدولة بن مروان صاحب ديار بكر مدينة الرها وكانت لرجل من بني نمير يسمَّى عطيراً وفيه شرٌّ وجهل مكتب الرهاويون يسلموا إليه البلد فسير إليهم نائباً كان بآمد يسمىٰ زنكي فتسلَّمها وقتل عطيراً. وفي سنة عشرين وأربعمائة أوقع يمين الدولة بالأتراك الغزّيَّة أصحاب ارسلان بن سلجوق وكانوا يفسدون بخراسان وينهبون فيها فأرسل إليهم جيشاً فسبوهم وأجلوهم عن خراسان فسار منهم أهل ألفَي خركاه فلحقوا بأصفهان. وأما طغرلبك وداود وأخوهما بيغو وهم بنو ميكائيل بن سلجوق بن تقاق فإنهم كانوا بما وراء النهر وطائفة من الغزّ الذين كانوا بخراسان وصلوا إلى اذربيجان وساروا إلى مراغة[٣] فدخلوها وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامّها مقتلة عظيمة ومن الأكراد الهذبانية ثم سار طائفة

(١) في المنتظم لابن الجوزي توفي بشيزر عن اثنين وثلاثين سنة وخمسة أشهر (أنظر ترجمته في الكامل أحداث سنة ٤١٥.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٥ ص ١٧٤ أصابه مرض حاد فتوفي لثمان بقين من ربيع الأول عن ثلاث وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً مدة إمارته خمس سنين وشهراً وخمسة وعشرين يوماً.

(٣) مراغة: أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. معجم البلدان ٥/١٠٩.

منهم إلى الريّ وطائفة إلى همذان فملكوها. وفيها ملك الغزّ الموصل ووثب بهم أهل الموصل. وفي سنة إحدى وعشرين واربعمائة مات يمين الدولة محمود بن سبكتكين وملك ولده محمد ثم خلعه أخوه مسعود وولي مكانه. وفي سنة اثنتين وعشرين واربعمائة في ذي الحجة توفّي الإمام القادر بالله وعمره ستّ وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته إحدى وأربعون[1] سنة. وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك فلما وليها ألقى الله هيبته في قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة. وكان حليماً كريماً ديّناً يخرج من داره في زيّ العامّة ويزور قبور الصالحين كقبر معروف وغيره.

وفي سنة ثماني وأربعين وثلثمائة انتقل إلى العراق محمد بن محمد بن يحيى بن الوفاء البوزجاني من بلد نيسابور قرأ عليه الناس واستفادوا وصنف كتباً جمّة في العلوم العدديّة والحسابيّة وله كتاب مجسطي وفسّر كتاب ديوفنطوس في الجبر والمقابلة.

وفي سنة ثماني وتسعين وثلثمائة توفّي أبو عليّ عيسى بن زرعة النصرانيّ اليعقوبيّ المنطقيّ ببغداد وهو أحد المتقدمين في علم المنطق والفلسفة وأحد النَقَلة المجودين وله تصانيف مذكورة ونُقول من السرياني إلى العربي.

ومن الأطباء المتقدمين بالديار المصريّة منصور بن مقشر أبو الفتح المصريّ النصرانيّ وله منزلة سامية من أصحاب القصر ولا سيما في أيام العزيز منهم. واعتلّ منصور هذا في أيام العزيز في سنة خمس وثمانين وثلثمائة وتأخر عن الركوب فلما تماثل منصور بن مقشر كتب إليه العزيز بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم طبيبنا سلّمه الله سلام الله الطيّب وأتمّ النعمة عليه. وصلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه. والله العظيم لقد عدل عندنا ما رُزقناه نحن من الصحة في جسمنا. أقالك الله العثرة وأعادك إلى أفضل ما عوّدك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته. وخدم منصور هذا بعد العزيز الحاكم ابنه أيضاً. واتفق أن عرض لرجل الحاكم عقد زمن ولم يبرأ. فكان ابن مقشّر وغيره من أطباء الخاص المشاركين له يتولّون علاجه فلا يؤثر ذلك إلا شرًّا في العقد. فأحضر له جرائحيّ يهوديّ كان يرتزق بصناعة مداواة الجراح في غاية الخمول. فلما رأى العقد طرح عليه دواءً يابساً فشقّه وشفاه في ثلاثة أيام. فأطلق له الحاكم ألف دينار وخلع عليه ولقّبه بالحقير النافع وجعله من أطباء الخاص. ولما ولي الحاكم الأمر بمصر وكان يميل إلى الحكمة بلغه خبر أبي عليّ بن الحسين بن الهيثم المهندس البصريّ أنه صاحب تصانيف في علم الهندسة عالم بهذا الشأن مُتقن له متفنّن فيه قائم بغوامضه ومعانيه.

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٥ ص ٢٢٠: إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر.

فتاقت نفسه إلى رؤيته. ثم نُقل له عنه أنه قال: لو كنت بمصر لعملتُ في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص. فازداد الحاكم إليه شوقاً وسيّر إليه سراً جملة من مال فارغبه في الحضور. فسار نحو مصر ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزّيّة تعرف بالخندق وأمر بإنزاله وإكرامه وأقام ريثما استراح وطالبه بما وعد به من أمر النيل فسار معه جماعة من الصنّاع ليستعين بهم على هندسة كانت خطرت له. ولما سار إلى الإقليم بطوله ورأى آثار من تقدّم من ساكنيه من الأمم الخالية وهي على غاية من أحكام الصنعة وجودة الهندسة وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير مُعجز تحقّق أن الذي يقصده ليس بممكن فإن من تقدّمه لم يعزب عنهم علم ما علمه ولو أمكن لفعلوا. فانكسرت همّته ووقف خاطره. ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبليّ مدينة اسوان وهو موضع مرتفع ينحدر فيه ماء النيل فعاينه وباشره واختبره من جانبَيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده وتحقق الخطأ عمّا وعد به وعاد منخجلاً منخذلاً واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه. ثم أن الحاكم ولاّه بعض الدواوين فتولاّها رهبة لا رغبة. وتحقق الغلط في الولاية لكثرة استحالة الحاكم وإراقته الدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال مخيلة. فأجال أبو الحسن بن الهيثم فكرته في أمر يتخلّص به فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخيال فاعتمد ذلك وشاع. فأحيط على موجوده بيد الحاكم ونوّابه. وجعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه وقُيّد وتُرك في موضع من منزله. ولم يزل على ذلك إلى أن مات الحاكم. وبعد ذلك بيسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه وأقام متنسكاً منقبعاً واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة وكان له خطّ قاعد في غاية الصحة. وحُكي عنه أنه كان ينسخ في مدّة سنة ثلاثة كتب في ضمن إشغاله وهي إقليذس والمتوسطات والمجسطي ويشكلها فإذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصريّة. وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج إلى مواكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤنته لسنته. ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة بعد سنة ثلاثين وأربعمائة. وأما تصانيفه فهي كثيرة مشهورة.

(القائم بن القادر) ولما توفي القادر بالله جُدّدت البيعة[1] لابنه القائم بأمر الله سنة اثنتين وعشرين واربعمائة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين. وفيها أعني سنة اثنتين وعشرين ملك الروم مدينة الرها وكانت بيد نصير الدولة بن مروان. وفيها سارت عساكر السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب خراسان إلى كرمان فملكوها. وفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة كانت حرب شديدة بين نور الدولة دُبَيس وأخيه أبي قوام ثابت ثم اصطلحا وتحالفا. وسار البساسيري نجدة لثابت فلما سمع بصلحهم عاد إلى بغداد. وهؤلاء أمراء عرب

(١) أنظر المنتظم لابن الجوزي ح ١٥ ص ٢١٧.

من بني أسد وخفاجة. وفيها توفّي رومانوس ملك الروم وملك بعده رجل صيرفيّ ليس من بيت الملك وإنما ابنة قسطنطين اختارته وتزوجته. وفي سنة سبع وعشرين واربعمائة توفّي الظاهر لاعزاز دين الله الخليفة العلويّ بمصر[١] وكان له مصر والشام والخطبة له بأفريقية. وولي بعده ابنه أبو تميم ولُقب المستنصر بالله. وفي سنة تسع وعشرين واربعمائة دخل ركن الدين أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق مدينة نيسابور مالكاً لها. وفي سنة ثلاثين وأربعمائة وصل الملك مسعود من غزنة إلى بلخ وأجلى السلجوقية عن خراسان. وفيها خطب شبيب بن وثاب النميريّ صاحب حرّان والرقّة للإمام القائم بأمر الله وقطع خطبة المستنصر بالله العلويّ المصريّ. وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة اتفق أنوستكين الخصيّ البلخيّ في جماعة من الغلمان الدارية وثاروا بالملك مسعود وقبضوا عليه وأقاموا أخاه محمداً وسلّموا عليه بالإمارة. فأحضر أخاه الملك مسعوداً وقال له: لا قابلتك على فعلك بي. وذلك لأنه كان سمله وأعماه. فانظر أين تريد أن تُقيم حتى أحملك إليك ومعك أولادك وحرمك. فاختار قلعة كرى فأنفذه إليها. ثم أن أحمد ابن محمد دخل إلى أبيه فطلب خاتمه ليختم به بعض الخزائن فأعطاه. فسار به غلمانه إلى القلعة وأعطوا الخاتم لمستحفظيها وقالوا: معنا رسالة إلى مسعود فأدخلهم إليه فقتلوه. فلما وصل الخبر إلى مودود بن مسعود وهو بخراسان عاد مُجدًّا بعساكره إلى غزنة فتصافّ هو وعمّه محمد فانهزم محمد وقبض عليه وعلى ولده أحمد وانوستكين الخصيّ البلخيّ فقتلهم وقتل أولاد عمّه جميعهم وقتل كل من كان له في القبض على والده صنع. وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ملك السلطان طغرلبك جرجان وطبرستان. وفيها توفّي ميخائيل ملك الروم وملك بعده ابن أخيه ميخائيل أيضاً وفي سنة خمسن وثلاثين توفي الملك جلال الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ببغداد وملك أبو كاليجار ابن سلطان الدولة بن بهاء الدولة[٢]. وفي سنة تسع وثلاثين وقع الصلح بين الملك كاليجار والسلطان طغرلبك. وفي سنة اربعين واربعمائة مات الملك أبو كاليجار ببغداد وملك ابنه الملك الرحيم. وفي سنة إحدى وأربعين ملك البساسيري الانبار ودخلها أصحابه. وفيها مات مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة[٣] وملك عمّه عبد الرشيد. وفي سنة اثنتين وأربعين ملك السلطان طغرلبك اصفهان. وفي سنة ستّ واربعين استولى طغرلبك

(١) على أبو الحسن بن الحاكم الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله (أنظر ترجمته في الكامل أحداث سنة ٤٢٧).

توفي يوم الأحد النصف من شعبان وكان عمره ثلاثين سنة إلا شهراً (المنتظم لابن الجوزي ح ١٥ ص ٢٥٥).

(٢) ولد في ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين، انظر ترجمته في البداية والنهاية ح ١٢ ص ٥٢.

(٣) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٥ ص ٣٢٨ توفي سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أنظر ترجمته في البداية والنهاية ح ١٢ ص ٦٢.

على اذربيجان. وفي سنة سبع وأربعين وصل طغرلبك إلى بغداد وخُطب له بها. وفيها سنة خمسين وأربعمائة سار طغرلبك في أثر البساسيري ودبيس ومعهما أهلهما فاوقع بهم الأتراك وقتلوا البساسيري ودخلوا في الظعن فساقوه جميعه. وكان البساسيري مملوكاً تركياً من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة وهو منسوب إلى بساسير مدينته. وفي سنة إحدى وخمسين أصَّلح دبيس بن مزيد وأحضر إلى خدمة السلطان طغرلبك فأحسن إليه. وفي سنة خمس وخمسين سار السلطان طغرلبك[١] من بغداد إلى بلد الجبل فوصل إلى الريّ فمرض بها وتوفي وكان عمره سبعين سنة تقريباً وكان عقيماً لم يلد ولداً. وملك بعده الب ارسلان بن داود جغرى[٢] أخي السلطان طغرلبك. وفي سنة ثمان وخمسين ولدت صبية بباب الازج ولداً برأسين ورقبتين ووجهين واربع أيدٍ على بدن واحد. وفي سنة احدى وستين احترق جامع دمشق فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة. وكان سبب ذلك حرب وقعت بين المغاربة أصحاب المصريّين والمشارقة فضربوا داراً مجاورة للجامع بالنار فاحترقت واتصلت النار بالجامع. وفي سنة ثلاث وستين واربعمائة خرج رومانوس ملك الروم الملقب ديوجانيس وهو اسم من أسماء الحكماء في مائة ألف ووافى بتجمّل كثير وزيّ عظيم فوصل إلى ملازكرد من أعمال خلاط وكان السلطان الب ارسلان بمدينة خونج من اذربيجان فسار إليه في خمسة عشر ألف فارس إذ لم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدوّ. فجدَّ في السير فلما قرب العسكران ارسل السلطان إلى رومانوس الملك يطلب منه المهادنة. فقال: لا اهادنه إلاّ بالريّ. فانزعج السلطان لذلك. فلما كان يوم الجمعة بعد الزوال صلّى وبكى فبكى الناس لبكائه. وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهى. وألقى القوس والنشَّاب وأخذ السيف والدبّوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنَّط وقال: إن قُتلت فهذا كفني. وزحف إلى الروم وزحفوا إليه واشتدَّ القتال فانهزم الروم وقُتل منهم خلق وأُسر الملك أسره بعض المماليك اسمه شادي وكان قد حضر عنده مع رسول فعرفه فلما رآه نزل وسجد له وقصد به السلطان. فضربه ثلاث مقارع بيده وقال له: ألم أُرسل إليك في المهادنة فأبيت. فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمتَ أن تفعل بي إن أسرتني. فقال: القبيح. قال له: فما تظنّ أنني أفعل بك. قال: أمَّا أن تقتلني وأمَّا أن تشهرني في بلادك. والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمت على غير هذا. ففداه بألف ألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين. واستقرّ الأمر على ذلك وأجلسه معه على سريره وأنزله في خيمة وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهَّز بها وأطلق جماعة من البطارقة وخلع عليه وعليهم وسيَّر معه عسكر

(١) أنظر ترجمته في البداية والنهاية ح ١ ص ٩٠، وشذرات الذهب ح ٣/ ٢٩٤.

(٢) أنظر ترجمته في شذرات الذهب ٣/ ٣١٨.

يوصلوه إلى مأمنه وشيّعه فرسخاً. وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد. فلما وصل رومانوس الملك إلى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل إلى ميخائيل يعرّفه ما تقرّر مع السلطان. وجمع رومانوس ما عنده من المال وكان مائتي ألف دينار فأرسله إلى السلطان وحلف له أنه لا يقدر على غير ذلك. وفي أول سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان الب ارسلان محمد بن داود جغري بك ما وراء النهر فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيّف وعشرين يوماً وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة اسمه يوسف الخوارزميّ وحُمل إلى قرب سريره مع غلامين.

فتقدّم أن يُضرب له أربعة أوتاد ويشدَّ أطرافه إليها. فقال له يوسف: يا مخنَّث مثلي يُقتل هذه القتلة. فغضب السلطان وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين: خلّياه. فخلّياه. ورماه السلطان بسهم فأخطأه. فوثب يوسف يريده. فقام السلطان عن السرير ونزل عنه فعثر فوقع على وجهه. فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته. ونهض السلطان فدخل إلى خيمة أخرى. وضرب بعض الفرّاشين يوسف بمرْزبَّة على رأسه فقتله. ولما جرح السلطان الب ارسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه وقام بوزارته نظام الملك.

وفي سنة سبع وستين واربعمائة ليلة الخميس ثالث عشر شعبان توفي القائم بأمر الله. ولما أيقن بالموت أحضر النقيبَين وقاضي القضاة والوزير ابن جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم وليّ عهده. وكان عمر القائم ستاً وسبعين سنة وثلاثة أشهر[1] وخلافته وأربعين سنة وتسعة أشهر.

وفي هذه السنين اشتهر بعلوم الأوائل أبو الريحان محمد بن احمد البيروني مبحر في فنون الحكمة اليونانية والهندية وتخصَّص بأنواع الرياضيات وصنَّف فيها الكتب الجليلة ودخل إلى بلاد الهند وأقام بها عدَّة سنين وتعلَّم من حكمائها فنونهم وعلَّمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم. ومصنفاته كثيرة متقنة محكمة غاية الاحكام. وبالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه وبعده إلى هذه الغاية أحذق منه بعلم الفلك ولا أعرف بدقيقه وجليله. وعُرف أيضاً بالعلوم الحكمية أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا الشيخ الرئيس. وحكى عن نفسه قال: إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ وانتقل منها إلى بخارا في أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصرّف بقرية خَرْمَيْثن وتزوج أمّي من قرية يقال لها أفشنة ووُلدتُ منها بها ووُلد أخي ثم انتقلنا إلى بخارا وأُحضرتُ معلّم القرآن والأدب وكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب. حتى كان يُقضى

---

١) في المنتظم ح ١٦ ص ١٦٨ وكان عمر القائم أربعاً وسبعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام. وكانت خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام.

مني العجب. وأخذ والدي يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارا أبو عبد الله الناتلي وكان يدّعي الفلسفة وأنزله أبي دارنا رجاء تعلُّمي منه.

فقرأت ظواهر المنطق عليه وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح وكذلك كتاب اقليذس فقرأت من أوّله خمسة أشكال أو ستة عليه ثم تولّيت حلّ الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى المجسطي. وفارقني الناتلي. ثم رغبت في علم الطبّ وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وتعهدتُ المرضى فانفتح عليَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف وأنا في هذا الوقت من أبناء ستّ عشرة سنة.

ثم توفَّرتُ على القراءة سنة ونصفاً وكلَّما كنت أتحيَّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحدّ الأوسط في قياس تردّدت إلى الجامع وصلَّيت وابتهلت إلى مُبدع الكلّ حتى فتح لي المغلق منه والمتعسر. وكنت ارجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليَّ قوَّتي ثم ارجع إلى القراءة ومتى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها حتى أن كثيراً منها انفتح لي وجوهها في المنام. ولم أزل كذلك حتى أحكمت علم المنطق والطبيعيّ والرياضيّ. ثم عدت إلى العلم الالهيّ وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه والتبس عليَّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا يوماً حضرت وقت العصر في الورَّاقين وبيد دلال مجلَّد ينادي عليه فعرضه عليَّ فرددته ردّ متبرّم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشترِ مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه. فاشتريته فإذا كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة. فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدَّقت بشيء على الفقراء شكراً لله تعالى.

فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها وكنت إذ ذاك للعلم احفظ ولكنه اليوم معي انضج وإلا فالعلم واحد لم يتجدَّد لي بعده شيء. ثم مات والدي وتصرفتُ بي الأحوال وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان. ودعتني الضرورة إلى الارتحال من بخارا والانتقال عنها إلى جرجان وكان قصدي الأمير قابوس فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوس وحبْسه وموته. ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت إلى جرجان وأنشأتُ في حالي قصيدة فيها بيت القائل:

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري

قال أبو عبيدة الجوزجاني: إلى ههنا انتهى ما حكاه الشيخ عن نفسه. وفي هذا الموضع اذكر

أنا بعض ما شاهدت من أحواله في حال صحبتي له وإلى حين انقضاء مدّته. قال: في مدة مقامه بجرجان صنّف أوّل القانون ومختصر المجسطيّ وغير ذلك. ثم انتقل إلى الريّ واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة.

ثم خرج إلى قزوين ومنها إلى همذان فاتصل بخدمة كدبانويه وتولّى النظر في اسبابها. ثم سألوه تقلّد الوزارة فتقلّدها. ثم اتفق تشويش العسكر عليه وإشفاقهم منه على أنفسهم فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس وأخذوا جميع ما كان يملكه وساموا الأمير شمس الدولة قتله فامتنع منه وعدل إلى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم. فتوارى الشيخ في دار بعض أصدقائه أربعين يوماً. فعاد الأمير طلبه وقلّده الوزارة ثانياً.

ولما توفّي شمس الدولة وبويع ابنه طلبوا أن يستوزر الشيخ فأبى عليهم وتوارى في دار أبي غالب العطّار وهناك أتى على جميع الطبيعيات والالهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات من كتاب الشفاء. وكاتب علاء الدولة سراً يطلب المسير إليه فاتّهمه تاج الملك بمكاتبته وأنكر عليه ذلك وحثّ في طلبه. فدلّ عليه بعض أعدائه فأخذوه وأدّوه إلى قلعة يقال لها بردجان وأنشأ هناك قصيدة فيها:

دخولي بالـيقين[1] كما تراه وكلُّ الشكّ في أمر الخروج

وبقي فيها أربعة أشهر. ثم أخرجوه وحملوه إلى همذان ثم خرج منها متنكراً وأنا وأخوه وغلامان معه في زيّ الصوفيّة إلى أن وصلنا إلى اصفهان فصادف في مجلس علاء الدولة الأكرام والأعزاز الذي يستحقه مثله. وصنّف هناك كتباً كثيرة. (قال) وكان الشيخ قويّ القوى كلها وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانيّة أقوى وأغلب وكان كثيراً ما يشتغل به فأثّر في مزاجه. وكان سبب موته قولنج عرض له ولحرصه على برئه حقن نفسه في يوم واحد ثماني مرّات فتقرّح بعض أمعائه وظهر به سحج وعرض له الصرع الذي قد يتبع القولنج وصار من الضعف بحيث لا يقدر على القيام. فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي لكنه مع ذلك لا يتحفظ ويكثر التخليط في أمر المعالجة ولم يبرأ من العلّة كل البرء وكان ينتكس ويبرأ كل وقت.

ثم قصد علاء الدولة همذان وسار معه الشيخ فعاودته في الطريق تلك العلّة إلى أن وصل إلى همذان وعلم أن قوّته قد سقطت وأنها لا تفي بدفع المرض فأهمل مداواة نفسه وأخذ يقول: المدبّر الذي كان يدبّرني قد عجز عن التدبير والآن فلا تنفع المعالجة. وبقي على هذا أياماً ثم انتقل إلى جوار ربّه ودفن بهمذان وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة وكان موته في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. وفيه قال بعضهم:

(١) الصواب دخول النفس فيك.

ما نفع الرئيس من حكمه الطبّ م ولا حكمه على النيّرات
ما شفاه الشِفاء[1] من ألم المو ت ولا نجّاه كتابُ النَّجاةِ

وقيل أول حكيم توسَّم بخدمة الملوك ارسطوطاليس وكان الحكماء قبله مثل فيثاغوروس وسقراطيس وأفلاطون يترفَّعون عن ذلك ولا يقربون أبواب السلاطين. والدليل على ذلك أن بعض ملوك اليونانيين كان مجتازاً بمكان كان في سقراطيس جالساً فلما دنا بقربه وهو لم ينهض ولم يتحرَّك من مكانه ولا يلتفت فأقبل إليه بعض الغلمان فركله برجله. فقال له: لَمَ تركلني. قال له: أما تبصر الملك كيف لا تنهض وتقوم له. أجابه سقراطيس قائلاً: كيف أقوم لعبد عبدي.

فالتفت الملك إلى مشاجرتهما فاستدعى به فحُمل إليه فقال له: أي شيء قلت: قال: قلت لا أقوم لعبد عبدي. قال الملك: وأنا عبد عبدك. قال: نعم أيها الملك أنت استعبدتْك الدنيا وأنت خادمها وأنا زهدتها واستعبدتُها فهي عبدي وأنت عبدها. فالملك استحسن له ذلك وتقدَّم بالإحسان إليه فلم يقبل. قيل وأول حكيم شغف بشرب الخمر واستفراغ القوى الشهوانية الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا. ثم اقتدى به في الانهماك مَن كان بعده فهذان غيَّرا السنَّة الفلسفية. وقيل أن شيخ الشيخ أبي عليّ في الطبّ أبو سهل المسيحيّ وكان طبيباً فاضلاً منطقياً عالماً بعلوم الأوائل مذكوراً في بلد خراسان له كنَّاش يعرف بالمائة كتاب مشهور. مات وعمره أربعون سنة.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة توفي **أبو الفرج عبد الله بن الطيّب وهو عراقي** فيلسوف فاضل مطّلع على كتب الأوائل وأقاويلهم وعني بشروح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تآليف ارسطوطاليس ومن الطبّ كتب جالينوس وبسط القول في الشروح بسطاً شافياً قصد به التعليم والتفهم.

قال القاضي الأكرم جمال الدين القفطي رحمه الله: لقد رأيت بعض من ينتحل هذه الصناعة يذمّ أبا الفرج بن الطيّب بالتطويل وكان هذا العائب يهودياً ضيِّق الفطن قد وقف مع عبارة ابن سينا. فأمَّا أنا وكل مصنّف فلا يقول إلا أن أبا الفرج بن الطيّب قد أحيا من هذه العلوم ما دثر وأبان منها ما خفي. وقد تلمذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان. قال ابن بطلان: إن شيخنا أبو الفرج ابن الطيّب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كان تلفظ نفسه فيها وهذا يدلّك على شدَّة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه.

وابن بطلان هذا فهو طبيب نصرانيّ بغداديّ وكان مشوَّه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه

(١) الشفاء: كتاب من تأليف ابن سينا.

وفضل في علم الأوائل وكان يرتزق بصناعة الطب وخرج عن بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدَّة وما حمدها وخرج عنها إلى مصر فأقام بها مدّة قريبة واجتمع بابن رضوان المصريّ الفيلسوف في وقته وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة. وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً على ابن رضوان وورد انطاكية وأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار وضاق عطنه عن معاشرة الأعمار فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض الأديرة بأنطاكية وترهَّب وانقطع إلى العبادة إلى أن توفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

ومن مشاهير تصانيف ابن بطلان كتاب تقويم الصحة مجدول وكتاب دعوة الأطباء مقامة ظريفة. ورسالة اشتراء الرقيق. ولَّما جرى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان ما جرى كتب إليه ابن بطلان رسالة يقطعه فيها ويذكر معايبه ويشير إلى جهله بما يدَّعيه من علم الأوائل ورتَّبها على سبعة فصول الأول فضل من لقي الرجال على من درس في الكتب. الثاني في أن الذي علم المطالب من الكتب علماً رديئاً شكوكه بحسب علمه يعسر حلُّها. الثالث في أن إثبات الحق في عقل لم يثبت فيه المحال أسهل من إثباته عند من ثبت في عقله المحال. الرابع في أن من عادات الفضلاء عند قراءاتهم كتب القدماء أن لا يقطعوا في مصنّفها بطعن إذا رأوا في المطالب تبايناً وتناقضاً لكن يخلدوا إلى البحث والتطلُّب. الخامس في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة يلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية. السادس في تصفُّح مقالته في المباهلة التي ضمن فيها: أنني أسأله ألف مسئلة ويسألني مسألة واحدة. السابع في تتبُّع مقالته في النقطة الطبيعية والتعيين على موضع الشبهة في هذه التسمية. وختم الرسالة بقوله: وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصَّة الجواب. فإن لنا موقف حساب. ومجمع ثواب وعقاب. يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم. ويطالبون الأطباءَ بالاغلاط القاضية في هلاكهم. وأنهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسبّي ولا يغضون عنه كما اغضيت عن ثلب عرضي. فليكن من لقائهم على يقين.

ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين. والله يوفقنا وإياه للعمل بطاعته والتقرّب إليه بابتغاء مرضاته وهو حسبي ونعم الوكيل. وذكر ابن بطلان في الفصل الرابع من رسالته إلى ابن رضوان حكاية ظريفة وجب إيرادها ههنا قال: إنني حضرت مع تلميذ من تلامذة الشيخ يعني الشيخ ابن رضوان ظاهر التجمُّل بادي الذكاء إن صدقت الفراسة فيه بحضرة الأمير أبي عليّ ابن جلال الدولة بن عضد الدولة فناخسرو في حمى نائبة أخذت أربعة أيام ولا تبدو ببرد وتُقشِع بنداوة وقد سقاه ذلك الطبيب دواء مسهلاً وهو عازم على فصده من بعد على عادة المصريين في تأخيري الفصد بعد الدواء وإطعام المريض القطائف بجلاّب في نُوَب الحمَّى.

فسألت الطبيب مستخبراً عن الحمَّى. فقال بلفظة المصريين: نعم سيدي حُمَّى يوم مركبة من دم وصفراء نائبة أربعة أيام فلما سقيناه الدواء تحلَّل الدم وبقيت الصفراء ونحن على فصده لنأمن

الصفراء بمشيئة الله. فذهبت لا أعلم مما أعجب أمن كون حمّى يوم تنوب في أربعة أيام بعلامات المواظبة أم من كونها من أخلاط مركّبة أم من الدواء الذي حلّل الدم الغليظ وترك الصفراء اللطيفة. وما أشبّه ذلك من حكايته إلا بما سمعت بأنطاكية أن طبيباً روميًّا شارط مريضاً به غبّ خالصة على برئه دراهم معلومة وأخذ في تدبيره بما غلظ المادة فصارت شطر غب بعد ما كانت خالصة. فأنكروا ذلك عليه وراموا صرفه فقال: إنني استحق نصف الكراء لأن الحمّى ذهب نصفها. وظنّ من جهة التسمية أن الشطر قد ذهب من الحمّى. وما زال يسألهم عمّا كانت فيقولون غبًّا. وعمّا هي الآن فيقولون شطراً فيتظلم ويقول: فلِمَ منعتموني نصف القبالة. وحكي أن ابن رضوان هذا كان في أول أمره منجماً يقعد على الطريق ويرتزق ثم قرأ شيئاً من الطب والمنطق وكان من المفلفِلين لا المحققين ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة بمصر وأخذوا عنه وسار ذكره وصنّف كتباً مختطفة ملتقطة مستنبطة من غيره وكان تلاميذه ينقلون عنه من التعاليل الطبيَّة والألفاظ المنطقيَّة ما يضحك منه أن صدق النقَلَة. ولم يزل ابن رضوان بمصر متصدّراً للإفادة إلى أن مات في حدود سنة ستين وأربعمائة. وكان من مشاهير الأطباء في هذه الأيام طبيب نصراني من أهل بغداد يقال له كتيفات خدم البساسيري معروف بالعمل غير موصوف بعلم ارتفع بصائب معالجته.

(المقتدي بن محمد بن القائم) لما توفي القائم بأمر الله بويع عبد الله بن محمد ابن القائم بالخلافة ولُقّب المقتدي بأمر الله سنة سبع وستين[١] وأربعمائة. ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فإن الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفي في أيام أبيه ولم يكن له غيره وكان المقتدي حملاً في بطن أمّه فولد بعد موت أبيه محمد بستة أشهر. وفي سنة ثماني وستين سار اقسيس الخوارزمي وهو أحد الأمراء من عسكر السلطان ملكشاه إلى دمشق فحصرها فغلت الأسعار فبيعت الغرارة بأكثر من عشرين ديناراً فسلموها إليه بالأمان وخطب بها للمقتدي الخليفة العباسي وكان آخر ما خطب فيها للعلويّين المصريين. وتغلّب أقسيس على أكثر الشام. وفي سنة أربع وسبعين توفي نور الدولة[٢] دبيس الأسدي وكان عمره ثمانين سنة وإمارته سبعاً وخمسين وكان مذكوراً بالفضل والإحسان. وولي بعده ما كان إليه ابنه منصور ولقب بهاء الدولة فأحسن السيرة وسار إلى السلطان ملكشاه فاستقر له الأمر وخلع الخليفة أيضاً عليه ثم مات في سنة تسع وسبعين وولي الحلّة والنيل وجميع ما كان له ابنه سيف الدولة صدَقة.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٦ ص ١٦٥، استخلف المقتدي يوم الجمعة ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة.

(٢) أنظر ترجمته في البداية والنهاية ح ١٢ ص ١٢٣.

وفي سنة خمس وثمانين قُتل نظام الملك الوزير بالقرب من نهاوند قتله صبي ديلمي من الباطنية أتاه في صورة مستمنح أو مستغيث فضربه بسكين كانت معه فقُضي عليه. وبقي نظام الملك وزيراً للسلاطين ثلاثين سنة سوى ما وزر لألب ارسلان وهو صاحب خراسان أيام عمّه طغرلبك قبل أن يتولّى السلطنة. وكان عمره سبعاً وسبعين سنة. وكان سبب قتله أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك كان قد ولاّه جدّه رئاسة مرو وأرسل السلطان إليها شحْنة اسمه قودن وهو من خواصّه فنازع عثمان في شيء فحملت عثمان حداثة سنّه وطمعه بجدّه على أن قبض عليه وأخرق به ثم أطلقه فقصد السلطان مستغيثاً شاكياً فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالة يقول له: إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم. وإن كنتَ نائبي فيجب أن تلزم حدّ التبعية والنيابة وهؤلاء أولادك قد جاوزوا حدّ أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا. فحضر المرسلون عند نظام الملك وأوردوا عليه الرسالة فقال: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم. فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي أما تذكر حين قُتل أبوك فقمتُ بتدبير أمرك وقمعت الخوارج عليك من أهلك وغيرهم. وأنت ذلك الوقت كنت تتمسك بي فلما قرَّت الأمور إليك وأطاعك القاصي والداني أقبلت تتجنى لي الذنوب وتسمع فيَّ السعايات. وقولوا له عني أن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة وأن اتفاقهما سبب كل غنيمة ومتى أُطبقت هذه الدواة زالت تلك. وأطال فيما هذا سبيله. ثم قال: قولوا للسلطان عني مهما أردتم فقد أهَّمني ما لحقني من توبيخه وفتَّ في عضدي. فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان فقالوا له ما مضمونه العبودية والاعتذار. ثم أن واحداً منهم أعلم السلطان بما جرى فوقع التدبير عليه حتى قُتل ومات السلطان بعده بخمس وثلاثين يوماً وانحلَّت الدولة ووقع السيف وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له. وقيل إن ابتداء أمر نظام الملك أنه كان من أبناء الدهاقين بطوس وتعلّم العربية وكان كاتباً للأمير تاجر صاحب بلخ وكان الأمير يصادره في رأس كل سنة ويأخذ ما معه ويقول له: قد سمنت يا حسن.

وهرب إلى جغري بك داود وهو بمرو فدخل إليه. فلما رآه أخذه بيده وسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: هذا حسن الطوسي فتسلمْه واتخذه والداً ولا تخالفه. وكان نظام الملك إذا دخل عليه الأئمّة الأكابر يقوم لهم ويجلس في مسنده وكان له شيخ فقير إذا دخل إليه يقوم له ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه. فقيل له في ذلك فقال: إن أولئك إذا دخلوا عليّ يثنون عليَّ بما ليس فيَّ فيزيدني كلامهم عجباً وتيهاً. وهذا يُذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك فأرجع عن كثير مما أنا فيه.

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح. وأكثر الشعراءُ مراثيه فمن جيّد ما قيل قول شبل الدولة:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً يتيمةً صاغها الرحمن من شرفِ
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها فردَّها غيرةً منه إلى الصدفِ

ثم سار السلطان ملكشاه بعد قتل نظام الملك إلى بغداد ودخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان. واتفق أن خرج إلى الصيد وعاد ثالث شوَّال مريضاً وكان سبب مرضه أنه أكل لحم صيدٍ فحمّ فافتُصد ولم يستوفِ إخراج الدم فثقل في مرضه وكانت حُمّى محرقة فتوفي ليلة الجمعة النصف من شوال فسترت زوجته تركان خاتون موته وكتمته وسارت من بغداد والسلطان معها محمولاً وبذلت الأموال للأمراء واستحلفتهم لابنها محمود وكان تاج الملك وزيرها يتولَّى ذلك لها وأرسلت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة فأجابها وخطب لمحمود وعمره أربع سنين. وسارت تركان خاتون من بغداد إلى أصفهان وبها بركيارق وهو أكبر أولاد السلطان فخرج منها هو ومن معه من الأمراء النظامية وساروا نحو الريّ. فسيَّرت خاتون العساكر إلى قتال بركيارق فانحاز جماعة منهم إلى بركيارق فقوي بهم وعاد إلى أصفهان وحاصرها.

وكان تاج الملك مع عسكر خاتون فأُخذ وحُمل إلى بركيارق فهجم النظامية عليه فقتلوه. وكان كثير الفضائل جمّ المناقب وإنما غطّى محاسنه مساوئه على قتل نظام الملك. وفي سنة سبع وثمانين قدم بركيارق بغداد وخطب له بالسلطنة ولُقّب ركن الدين. وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة خامس عشر محرَّم توفي الإمام المقتدي بأمر الله فجأةً وكان قد أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلِّم فيه فقرأه وتدبره وعلَّم فيه. ثم قُدّم إليه طعام فأكل منه وغسل يديه وعنده قهرمانته شمس النهار. فقال لها: ما هذه الأشخاص التي دخلت عليَّ بغير اذن. **(قالت)** فالتفتُّ فلم أرَ شيئاً ورأيته قد تغيَّرت حالته وانحلَّت قوته وسقط إلى الأرض ميتاً. وقالت لجارية[1] عندي: إن صحْتِ قتلتك. وأحضرت الوزير فاعلمته الحال. فشرعوا في البيعة لوليّ العهد وجهَّزوا المقتدي[2] ودفنوه وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وأمّه أمّ ولد ارمنيَّة تسمَّى أرجوان أدركت خلافته وخلافة ابنه المستظهر وخلافة ابن ابنه المسترشد.

وفي سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة مات يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب البغداديّ وكان رجلاً نصرانياً قد قرأ الطبَّ على نصارى الكرخ الذين كانوا في زمانه وأراد قراءة المنطق فلم يكن في النصارى المذكورين في ذلك الوقت من يقوم بهذا الشأن وذكر له أبو عليّ بن الوليد شيخ

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ١٠، وتشجعت وقالت لجارية كانت عنده.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ١٤ توفي فجأة ليلة السبت خامس عشر محرم هذه السنة، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام. وكانت مدة خلافته تسع عشر سنة وثمانية أشهر إلا يومين.

المعتزلة في ذلك الوقت ووصف بأنه عالم بعلم الكلام ومعرفة الألفاظ المنطقية فلازمه لقراءة المنطق.

فلم يزل ابن الوليد يحسّن له الاسلام حتى استجاب وأسلم فسُرَّ بإسلامه أبو عبد الله الدامغاني قاضي القضاة يومئذٍ وقرَّبه وأدناه ورفع محلّه بأن استخدمه في كتابة السجلاَّت بين يديه وكان مع اشتغاله بذلك يطبّ أهل محلّته وسائر معارفه بغير أجرة ولا جعالة بل احتساباً ومروءة ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض. ولما مرض مرض موته وقف كتبه لمشهد الإمام أبي حنيفة. ومن مشاهير تصانيفه كتاب المنهاج وكتاب تقويم الأبدان مجدوَل.

(المستظهر بن المقتدي) لما توفي المقتدي بأمر الله أُحضر ولده أبو العباس أحمد فبويع له ولقب المستظهر بالله وذلك في سنة سبع[١] وثمانين وأربعمائة. **(وفيها قتل السلطان بركيارق عمّه تكش وغرّقه وقتل ولده معه)**. وفي سنة ثمان وثمانين قُتل تُتُش[٢] ابن ألب أرسلان واستقام الأمر والسلطنة لبركيارق. وفيها في ذي الحجة توفي المستنصر بالله بن الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام وكانت خلافته ستين سنة وعمره سبعاً وستين سنة وولي بعده ابنه أبو القاسم أحمد ولُقّب المستعلي بالله. وفي سنة تسع وثمانين حكم المنجمون بطوفان يكون في الناس يقارب طوفان نوح. فأحضر الخليفة ابن عيسون المنجم فسأله. فقال: إن في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت الآن فقد اجتمع ستة منها وليس فيها زُحل فلو كان معها لكان مثل طوفان نوح ولكن أقول إن مدينة أو بقعة من الأرض يجتمع فيها عالم كثير من بلاد كثيرة فيغرقون. فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها من البلاد فاحكمت المسنيَّات والمواضع التي يخشى منها الانفجار.

فاتفق أن الحجَّاج نزلوا في وادي المناقب فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم ونجا من تعلَّق بالجبال وذهب المال والدوابّ والأزواد. فخلع الخليفة على المنجم. وفي سنة تسعين واربعمائة قُتلِ ملك خراسان أرسلان ارغون بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه قتله غلام له. فقيل له: لِمَ فعلت هذا. فقال: لأُريح الناس من ظلمه. ثم ملك بركيارق خراسان وسلمها إلى أخيه الملك سنجر. وفي سنة إحدى وتسعين جمع بردويل ملك الافرنج جمعاً كثيراً وخرج إلى بلاد الشام وملك انطاكية. وكان الافرنج قبل هذا قد ملكوا مدينة طليطلة من بلاد الأندلس وغيرها ثم قصدوا جزيرة سقلية فملكوها وتطرقوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً. فلما سمع قوام الدولة

(١) أنظر المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ١٢.

(٢) أنظر ترجمته في شذرات الذهب ح ٣/ ٤٠٢، أنظر ترجمته في البداية والنهاية ح ١٢ ص ١٤٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ح ٨ ص ٤٩٤.

كربوقا بحال الافرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام ونزل على أنطاكية وحاصرها وفيها من الملوك بردويل وسنجال وكندفري والقومص صاحب الرها وبيموند صاحب انطاكية.

وقلّت الأقوات عندهم فأرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم وقال: لا تخرجون إلا بالسيف. وكان مع الإفرنج راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم: إن فطروس السليح كان له عكازة ذات زجّ مدفونة بكنيسة القسيان فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإلا فالهلاك متحقق. وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميع ومعهم عامّتهم وحفروا عليها في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر. فقال لهم: أبَشروا بالظفر. فقويت عزيمتهم وخرجوا اليوم الخامس من الباب متفرقّين من خمسة وستة ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كُلّ من خرج. فقال: لا تفعلوا لكن أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم. فلما تكاملوا ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافًا عظيماً فولّى المسلمون منهزمون وآخر من انهزم سقمان بن ارتُق فقتل الافرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت إليهم قوّتهم وساروا إلى معرّة النعمان فملكوها. وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة لما رأى المصريّون ضعف الأتراك صاروا إلى البيت المقدس وحصروه به الأمير سقمان وايلغازي ابنا ارتق التركماني وابن عمهما سونج ونصبوا عليه نيّفاً وأربعين منجنيقاً وملكوه بالأمان وخرج عنه سقمان وأصحابه واستناب المصريّون فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة. فقصده الافرنج ونصبوا عليه برجين وملكوه من الجانب الشمالي وركب الناس السيف ولبث الافرنج في البلد اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. وقُتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء. وفي سنة ثلاث وتسعين جرى حرب بين السلطان بركيارق وبين أخيه السلطان محمد وانهزم بركيارق وتنقّل في البلاد إلى اصفهان.

ولم يدخلها وسار إلى خوزستان. وفي سنة أربع وتسعين كان المصاف الثاني بينهما وكان مع بركيارق خمسون ألفاً ومع أخيه محمد خمسة عشر ألفاً فالتقوا واقتتلوا فانهزم السلطان محمد وسار طالباً خُراسان إلى أخيه الملك سنجر وهما لامٌ واحدة فأقام بجرجان وأتاه الملك سنجر في عساكره إلى الدامغان وخرب العسكر البلاد وعمَّ الغلاء تلك الأصقاع حتى أكل الناس بعضهم بعضاً بعد فراغهم من أكل الميتة والكلاب.

وفي سنة خمس وتسعين توفي المستعلي[1] بالله الخليفة العلويّ المصريّ وكانت خلافته سبع

(١) توفي المستعلي بالله وكانت خلافته سبع سنين وكان مولده سنة سبع وستين وأربعمائة/ شذرات الذهب ح ٣/ ٤٠٢.

سنين وولي بعده ابنه أبو عليّ المنصور وعمره خمس سنين ولُقّب الآمر بأحكام الله ولم يقدر يركب وحده على الفرس لصغر سنّه وقام بتدبير دولته الأفضل بن أمير الجيوش أحسن قيام. وفي سنة سبع وتسعين وقع الصلح بين السلطانين بركيارق وأخيه محمد ابنَي ملكشاه وتقرَّرت القاعدة أن بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل وأن لا يُذكر معه على منابر البلاد التي صارت له وهي ديار بكر والجزيرة والموصل والشام. وفي سنة ثماني وتسعين توفي السلطان بركيارق[١] بن ملكشاه وكان قد مرض بأصفهان بالسلّ والبواسير فلما ايس من نفسه خلع على ولده ملكشاه وعمره حينئذ أربع سنين وثمانية أشهر وأحضر جماعة الأمراء وأعلمهم أنه قد جعل ابنه وليّ عهده في السلطنة وجعل الأمير أياز أتابكه فأجابوه كلهم بالسمع والطاعة وخُطب لملكشاه بالجوامع ببغداد.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة سار السلطان محمد من اذربيجان إلى الموصل ليأخذها من جكرميش صاحبها وحصرها. فقاتل أهل البلد أشدَّ قتال وكانت الرجالة تخرج ويكثرون القتل في العسكر ودام القتال من صفر إلى جمادي الأولى. فوصل الخبر إلى جكرميش بوفاة السلطان بركيارق فأرسل إلى محمد يبذل له الطاعة. ودخل إليه وزير محمد وقال له: المصلحة أن تحضر الساعة عند السلطان فإنه لا يخالفك في جميع ما تلتمسه منه. وأخذ بيده وقام فسار معه جكرميش فلما رآه أهل الموصل قد توجَّه إلى السلطان جعلوا يبكون ويضجّون ويحثون التراب على رؤوسهم. فلما دخل على السلطان محمد أقبل عليه وأكرمه وعانقه ولم يمكنه من الجلوس وقال: ارجع إلى رعيتك فإن قلوبهم إليك وهم متطلعون إلى عودتك. فقبَّل الأرض وعاد وعمل من الغد سماطاً بظاهر الموصل عظيماً وحمل إلى السلطان من الهدايا والتحف ولوزيره أشياء جليلة المقدار.

وفي سنة خمسمائة سار الجاولي سقاوو إلى الموصل محارباً في ألف فارس وخرج إليه جكرميش صاحبها في ألفي فارس. فلما اصطفوا للحرب حمل الجاولي من القلب على قلب جكرميش فانهزم مَن فيه وبقي جكرميش وحده لا يقدر على الهزيمة لفالج كان به فهو لا يقدر يركب وإنما يُحمل في محفّة فأسر وأُحضر عند الجاولي فأمر بحفظه وحراسته.

ولما وصل الخبر إلى الموصل أقعدوا في الأمر زنكي ابن جكرميش ثم إن الجاولي حصر الموصل وأمر أن يُحمل جكرميش كل يوم على بغل ويُنادى أصحابه بالموصل ليسلموا البلد ويخلصوا صاحبهم مما هو فيه ويأمرهم هو بذلك فلا يسمعون منه وكان يسجنه في جبّ فأخرج يوماً ميتاً. فكتب أصحابه إلى الملك قلج أرسلان بن سليمان بن قتلميش السلجوقي صاحب مدينة قونية واقسرة يستدعونه إليهم ليسلموا البلد إليه. فسار في عساكره. فلما سمع جاولي

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ٩٣ (توفي ربيع الأول من هذه السنة وهو ابن أربعة وعشرين سنة وشهرين توفي بعلة السل والبواسير) أنظر الكامل ح ٩ ص ٤٩٨.

بوصوله رحل عن الموصل فتوجه قلج أرسلان إلى الموصل وملكها ونزل بالمغرقة وخرج إليه زنكي ولد جكرميش وأصحابه وخلع عليهم وجلس على التخت واسقط خطبة السلطان محمد وخطب لنفسه وأحسن إلى العسكر ورفع الرسوم المحدثة في الظلم ثم سار عنها إلى جاولي وهو بالرحبة والتقيا على نهر الخابور فهزم أصحاب جاولي أصحاب قلج أرسلان وألقى قلج أرسلان نفسه في الخابور وحمى نفسه من أصحاب جاولي بالنشاب فانحدر به الفرس إلى ماء عميق فغرق. وظهر بعد أيام فدُفن بالشمسانية. وسار جاولي إلى الموصل وملكها.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة استولى مودود وعسكر السلطان محمد على الموصل وأخذوها من أصحاب جاولي. وفي سنة ثلاث وخمسمائة سار تنكري الفرنجي صاحب أنطاكية إلى الثغور الشامية فملك طرسُوس وأذنة[١] ونزل على حصن الأكراد فسلَّمه أهله إليه. وملك الفرنج مدينة بيروت وكانت بيدّ نوّاب الخليفة العلوي. وفي سنة ستّ في المحرَّم سار الأمير مودود صاحب المَوْصِل إلى الرُّها[٢] فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها إلى سروج وفعل بها كذلك ولم يحترز من الفرنج بل أهملهم فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تلّ باشر قد داهمهم وكبسهم وكانت دوابّ العسكر منتشرة في المرعى فأخذ كثيراً منها وقتل كثيراً من العسكر وعاد إلى تلّ باشر.

وفيها مات باسيل الأرمني صاحب دروب بلاد بن لاون وهو المسمى كوغ باسيل أي اللص باسيل لأنه سرق عدَّة قلاع من الثغور فتملكها الأرمن إلى الآن.

وفي سنة سبع وخمسمائة اجتمع المسلمون و فيهم الأمير مودود بن التون تكش صاحب الموصل ودخلوا بلاد الفرنج والتقوا عند طبرية واشتدَّ القتال وصبر الفريقان. ثم أن الفرنج انهزموا فأذن الأمير مودود للعساكر في العود والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع. ودخل دِمَشْق ليقيم بها عند طغدكين صاحبها إلى الربيع فدخل الجامع ليصلّي فيه فوثب عليه باطنيّ كأنه يدعو له ويتصدَّق منه فضربه بسكين فجرحه أربع جراحات فمات من يومه. وقُتل الباطنيّ وأخذ رأسه فلم يعرفه أحد فأحرق. وفي سنة إحدى عشرة في ذي الحجة مرض السلطان محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان فلما أيس من نفسه أحضر ولده محموداً وقبَّله وبكى كل واحد منهما وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة. فقال لوالده أنه يوم غير مبارك يعني من طريق النجوم. فقال: صدقت ولكن على أبيك وأما عليك فمبارك بالسلطنة.

---

(١) أذنة: بلد من الشفور قرب المصيصة. معجم البلدان.

(٢) الرها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام.

(٣) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ١٦٥ توفي ليلة الخميس سادس عشر من ربيع الآخر وكان مدة عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وإحدى عشر يوماً.

فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين. وكان السلطان محمد عظيم الهيبة عادلاً حسن السيرة شجاعاً. وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة سادس عشر ربيع الآخر توفي الإمام المستظهر[١] بالله وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وخلافته أربعاً وعشرين سنة. ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خُطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان والسلطان بركيارق والسلطان محمد ابنا ملكشاه.

قال أبو الصلت أُمَيَّة المغربي: لما دخلت إلى مصر في حدود سنة عشر وخمسمائة أدركت بها طبيباً أنطاكياً يسمَّى جرجس ويُلقَّب بالفيلسوف على نحو ما قيل للغراب أبو البيضاء وللَّديغ سليم. وقد تفرَّغ للتولُّع بأبي الخير سلامة بن رحمون اليهودي الطبيب المصري والأزراء عليه وكان يزوّر فصولاً طبيَّة وفلسفية يبرزها في معارض ألفاظ القوم وهي محال لا معنى لها فارغة لا فائدة فيها ثم ينفذها إلى من يسأله عن معانيها ويستوضحه أغراضها فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ باسترسال واستعجال وقلَّة اكتراث وإهمال فيوجد فيها عنه ما يضحك منه. **(قال)** وأنشدت لجرجيس هذا في أبي الخير سلامة بن رحمون وهو أحسن ما سمعت في هجو طبيب مشؤوم:

إن أبـا الـخـيـر عـلـى جـهـلـه ... يـخـفّ فـي كـفّـتـه الـفـاضـلُ
عـلـيـلـه الـمـسـكـيـن مـن شـؤمـه ... فـي بـحـر هـلـكٍ مـا لـه سـاحـلُ
ثـلاثـةٌ تـدخـلُ فـي دفـعـةٍ ... طـلـعـتـه والـنـعـش والـغـاسـلُ

قال: وكان أبو الخير هذا يهودياً مصرياً قد نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعها وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والآلهية وشرح بزعمه وفسَّر ولخّص ولم يكن في تحصيله وتحقيقه هنالك بل كان يكثر كلامه فيضلّ.

ويسرع جوابه فيزلّ. وكان مثله في عظيم ادعائه وقصوره عن أيسر ما هو متعاطيه كقول الشاعر:

يـشـمّـر لـلُـجـج عـن سـاقـه ... ويـغـمـره الـمـوج فـي الـسـاحـلِ

(قال) ورأيت بمصر أيضاً رزق الله المنجم المعروف بالنخاس وكان شيخ أكثر المنجمين بمصر وكبيرهم وكان شيخنا مطبوعاً متطابياً. ومن حكاياته الظريفة عن نفسه قال: سألتني امرأة مصرية أن أنظر لها في مسئلة تخصّها. فأخذت ارتفاع الشمس للوقت وحققت درجة الطالع والبيوت الإثني عشر ومراكز الكواكب ورسمت ذلك كلّه بين يديَّ في تخت الحساب وجعلت أتكلّم على بيتٍ بيتٍ منها على العادة وهي ساكتة فوجمت لذلك وأدركتني فترة وكانت قد ألقت إليَّ درهماً. قال فعاودتُ الكلام وقلت: أرى عليكِ قطعاً في بيت المال فاحتفظي واحترسي. قالت:

الآن أصبتَ وصدقتَ قد كان الله ما ذكرتَ. قلت: وهل ضاع لكِ شيءٌ. قالت: نعم الدرهم الذي ألقيتُ إليك. وتركتْني وانصرفت.

ولما ذكر أبو الصلت منجمي مصر وعابهم قال: لا تتعلق أمثلتهم من علم النجوم بأكثر من زايجة يرسمها ومراكز يقومها وأما التبحّر ومعرفة الأسباب والعلل والمبادي الأول فليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المنزلة ويحلّق في هذا الجوّ ويستضيء بهذا الضوء ما خلا القاضي أبا الحسن عليّ ابن النصير المعروف بالأديب فإنه كان من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات الزمان وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى والمرتبة الأولى.

(المسترشد بن المستظهر) لما توفي المستظهر بالله بُويع ولده المسترشد بالله أبو منصور وذلك في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة فكان وليّ عهدٍ قد خُطب له ثلاثاً وعشرين سنة. وفيها توفي بغدوين ملك القدس وكان قد سار إلى ديار مصر في جمع من الفرنج قاصداً ملكها وبلغ مقابل تنيس وسبح في النيل فانتقض جرح كان به فلما أحسَّ بالموت عاد إلى القدس فمات به ووصى ببلاده للقمص صاحب الرها وهو الذي كان أسره جكرميش وأطلقه سقاوو جاولي. وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة كانت حرب شديدة بين السلطان سنجر وابن أخيه السلطان محمود. وفي سنة أربع عشرة خرج الكرج وهم الخزر[1] إلى بلاد الإسلام ومعهم قفجاق وغيرهم من الأمم فاجتمع الأمير ايلغازي ودُبَيس بن صدقة والملك طغرل وكان له أرّان ونَخْجُوان وساروا إلى الكرج حتى قاربوا تفليس وكان المسلمون في عسكر كثير يبلغون ثلاثين ألفاً فالتقوا واصطف الطائفتان للقتال فخرج من القفجاق مائتا رجل فظنَّ المسلمون أنهم مستأمنون فلم يحتروزا منهم. فدخلوا بينهم ورموا بالنشاب فاضطرب جيش صفّ المسلمين وظنّ مَن وراءَهم أنها هزيمة ولشدَّة الزحام صدم بعضهم بعضاً فقُتل منهم عالم عظيم وتبعهم الكرج عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون فقُتل أكثرهم وأسر أربعة آلاف رجل ونجا الملك طغرل وايلغازي ودبيس.

وعاد الكرج وحاصروا مدينة تفليس واشتدّ قتالهم لمن بها وعظم الأمر وتفاقم الخطب على أهلها ودام الحصار إلى سنة خمس عشرة فملكوها عنوة. وفي سنة خمس عشرة عصى سليمان بن ايلغازي بن ارتق على أبيه بحلب وقد جاوز عمره عشرين سنة. فسمع والده الخبر فسار إليه مجدًّا لوقته فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج إليه معتذراً فأمسك عنه وقبض على من كان أشار عليه بذلك منهم أمير كان قد التقطه ارتق وربّاه اسمه ناصر فقلع عينيه وقطع لسانه.

ومنهم إنسان حمويّ كان قد قدّمه ايلغازي على أهل حلب وجعل إليه الرئاسة فجازاه عن ذلك فقطع يديه ورجليه وسمل عينيه فمات. وأحضر ولده وهو سكران وأراد قتله فمنعه رقّة

(١) الكرج: هم جيل من الناس كانوا يسكنون في جبال القبق وهم نصارى ويقال لملكهم برزقيان. أما الخزر بلادهم الدر بسند على سواحل بحر قزوين وملكهم خاقان.

الوالد فاستبقاه فهرب إلى دمشق. واستناب ايلغازي بحلب سليمان بن أخيه عبيد الجبَّار بن أرتق ولقَّبه بدرَ الدولة وعاد إلى ماردين[١]. وفيها اقطع السلطان مدينة ميَّافارقين للأمير ايلغازي ابن ارتق ومدينة الموصل والجزيرة وسنجار للأمير اقسنقر البرسقيّ. وفي سنة ستّ عشرة في شهر رمضان توفي الأمير ايلغازي بن ارتق بميَّافارقين وملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين وملك ابنه سليمان ميَّافارقين. وكان بحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبَّار بن ارتق فبقي بها إلى أن أخذها منه ابن عمه. وفي سنة سبع عشرة لما رأى بلك بن بهرام بن ارتق ضعف بدر الدولة سليمان ابن عمه عن حوط بلاده من الفرنج سار إليه إلى حلب وضيَّق على من بها فتسلمها بالأمان. وفي سنة ثماني عشرة سار بلك بن بهرام إلى منبج وملكها وحصر القلعة فبينما هو يقاتل من بها أتاه سهم فقتله واضطرب عسكره وتفرقوا وملك اقسنقر البرسقيّ حلب وقلعتها وملك الفرنج مدينة صور.

وفي سنة عشرين وخمسمائة في ذي القعدة قُتل قسيم الدولة اقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمدينة الموصل قتله الباطنيَّة يوم الجمعة بالجامع وملك ابنه عزّ الدين مسعود الموصل ولم يختلف عليه أحد. قال المؤرّخ: ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عزّ الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر وكان قد سمعه الفرنج قبل لشدَّة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلاميَّة.

وفي سنة إحدى وعشرين تولَّى أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر شحنكية بغداد أسندها إليه السلطان محمود وفيها توفي عز الدين مسعود بن اقسنقر وتولَّى أخوه عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها.

وفي سنة اثنتين وعشرين ملك عماد الدين زنكي بن اقسنقر مدينة حلب وقلعتها وبعد سنة ملك مدينة حماة. وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ثاني ذي القعدة قتل الآمر بأحكام الله أبو عليّ بن المستعلي العلويّ صاحب مصر[٢] خرج إلى منتزه له فلما عاد وثب عليه الباطنيَّة فقتلوه ولم يكن له ولد فولي بعده ابن عمّه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم ابن المستنصر العلويّ صاحب مصر ولُقّب الحافظ لدين الله ولم يبايَع له بالخلافة وإنما بويع له لينظر في الأمر نيابةً حتى يكشف عن حَمل إن كان للآمر فتكون الخلافة فيه ويكون هو نائباً عنه. وفيها ظهر ببغداد عقارب طيارة ذوات شوكتين فنال الناس منها خوف شديد وأذًى عظيم.

وفي سنة خمس وعشرين في شوَّال توفي السلطان محمود[٣] ابن السلطان محمد بهمذان وكان

(١) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودار ونصيبين.

(٢) أنظر ترجمته في الكامل لابن الأثير ح ٩ ص ٢٥٥.

(٣) أنظر ترجمته في الكامل لابن الأثير ح ٩ ص ٢٥٩.

عمره نحو سبع وعشرين سنة وولايته ثلاث عشرة سنة وكان حليماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافًّا لأصحابه عن التطرُّق إلى شيء منها. وملك ابنه داود بعده. وفي سنة ستّ وعشرين كاتب السلطانَ سنجر عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة وأمرهما بقصد العراق فسارا ونزلا بالمنارية من دُجَيل وعبر الخليفة المسترشد إلى الجانب الغربي فنزل بالعبَّاسيَّة والتقى العسكران بحضرا البرامكة فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فانهزموا منه.

وحمل نصر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين ودبيس وحمل الخليفة بنفسه واشتدَّ القتال فانهزم دبيس وعماد الدين وقتل من عسكرهما جماعة وأُسر جماعة. وفي سنة سبع وعشرين أرسل المسترشد الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الأسفرايني الواعظ إلى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة وزادها أبو الفتوح زيادة في الجبْه ثقةً بقوة الخليفة وناموس الخلافة. فقبض عليه زنكي وأهانه ولقيه بما يكره. فسمع الخليفة فسار عن بغداد في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها اتابك زنكي في بعض عسكره وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين ونازلها الخليفة في رمضان وقاتلها وضيَّق عليها. فتواطأ جماعة من الخصَّاصين بالموصل على تسليم البلد فسُعي بهم فصُلبوا. وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشيء ولا بلغه عمَّن بها وهْن ولا قلّة ميرة وقوت فرحل عنها عائداً إلى بغداد. وفي سنة ثماني وعشرين تقرَّر الصلح بين الخليفة المسترشد وأتابك زنكي. وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة سار الخليفة المسترشد إلى حرب السلطان مسعود ومعه جماعة من أمراء الأكابر فواقعهم السلطان مسعود عاشر رمضان فانحازت ميسرة الخليفة مخامرةً عليه إلى السلطان واقتتلت ميمنته وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً ودار به عسكر السلطان وهو ثابت لم يتغير من مكانه وانهزم عسكره وأُخذ أسيراً فأنزله السلطان مسعود في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من الخدمة وتردَّدت الرسل بينهما بالصلح وتقرير القواعد على مالٍ يؤدّيه الخليفة وأن لا يعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره وأجاب السلطان إلى ذلك وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبقَ إلا أن يعود إلى بغداد فوصل الخبر بقدوم رسول من السلطان سنجر وخرج الناس والسلطان مسعود إلى لقائه وفارق الخليفةَ بعضُ من كان موكلاً به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثَّلوا به وجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً وكان قتله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة وكان عمره لما قُتل ثلاثاً وأربعين سنة وخلافته سبع عشرة سنة[1] وسبعة أشهر.

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ٣٠٤، كان عمره خمسة وأربعين سنة وشهوراً وكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً.

(الراشد بن المسترشد)[١] لما قُتل المسترشد بويع ولده أبو جعفر المنصور ولُقّب الراشد بالله. وكان المسترشد بايع له بولاية العهد في حياته وجُدّدت له البيعة بعد قتله يوم الإثنين سلخ ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وفيها قُتل دبيس بن صدقة صاحب الحلّة على باب سرادقه بظاهر خونج أمر السلطان غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بأصبعه فضرب رقبته وهو لا يدري. ومثل هذه الحادثة تقع كثيراً وهو قرب موت المتعادين فإن دبيساً كان يعادي المسترشد ويكره خلافته ولم يكن يعلم أن السلاطين إنما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدّة لمقاومة المسترشد فلما زال السبب زال المسبّب. وفي سنة ثلاثين وخمسمائة اجتمع الملوك وأصحاب الأطراف ببغداد وخرجوا على طاعة السلطان مسعود وسار الملك داود بن السلطان محمود في عسكر اذربيجان إلى بغداد ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل وخطب للملك داود ببغداد. فلما بلغ السلطان الخبر جمع العساكر وسار إلى بغداد وحصرها نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم فعزم على العود إلى همذان فوصلهُ طُرُنْطاي صاحب واسط ومعه سُفُن كثيرة فعاد إليها فاختلفت كلمة الأمراء المجتمعين ببغداد فعاد الملك داود إلى بلاده وتفرّق الأمراء وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الخليفة الراشد وسار معه إلى الموصل في نفر يسير من أصحابه ودخل السلطان مسعود إلى بغداد واستقرَّ بها وجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد له وفيها بخطّ يده: أنني متى جنّدت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر. فأفتَوا وخُلع وقُطعت خطبته من بغداد وسائر البلاد وكانت خلافته أحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة كان أبو عليّ المهندس المصريّ موجوداً بمصر قيّماً بعلم الهندسة وكان فاضلاً فيه وفي الأدب وله شعر يلوح عليه الهندسة فمن شعره:

تقسَّم قلبي في محبة معشرٍ ... بكل فتى منهم هوايَ منوطُ
كأنَّ فؤادي مركز وهمُ له ... محيطٌ واهوايَ لديه خطوطُ

وله أيضاً:

اقليذسُ العلَمُ الذي هو يحتوي ... ما في السماء معاً وفي الآفاق
هو سلَّمٌ وكأنما أشكالهُ ... درجٌ إلى العلياء للطرَّاقِ
تزكو فوائده على إنفاقه ... يا حبَّذا زاكٍ على الإنفاقِ
ترقى به النفس الشريفة مرتقىً ... أكرمْ بذاك المرتقي والراقي

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ٣٠٠.

(**المقتفي بن المستظهر**[١]) لما قطعت خطبة الراشد بالله تقدَّم السلطان مسعود بعمل محضر يذكر فيه ما ارتكبه الراشد من أخذ الأموال وأشياء تقدح في الإمامة ثم كتبوا فتوى: ما تقول العلماء في مَن هذه صفته هل يصلح للإمامة أم لا. فأفتوا أن مَن هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. فاستشار السلطان جماعة من أعيان بغداد فيمن يصلح أن يلي الخلافة فذكر الوزير محمد بن المستظهر ودينه وعقله ولين جانبه وعفته فأحضر المذكور وأُجلس في الميمنة ودخل السلطان والوزير وتحالفا وقرّر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء والقضاة والفقهاء وبايعوه ثاني عشر ذي الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولُقّب المقتفي لأمر الله.

وفي سنة إحدى وثلاثين فارق الراشد المخلوع أتابك زنكي من الموصل وسار إلى همذان وبها الملك داود. وفيها رحل إلى أصفهان. فلما كان آخر رمضان وثب عليه نفر من الخراسانيَّة الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة وكان في أعقاب مرض قد برأ منه ودُفن بظاهر أصفهان بشهرستان وكان عمره أربعين سنة. وفي سنة اثنتين وثلاثين وصل أتابك زنكي إلى حماة وأرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمَّه ليتزوجها واسمها زمرُّد خاتون ابنة جاولي وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق على نهر بردى. فتزوجها وتسلَّم حمص مع قلعتها وإنما حمله على التزوّج بها ما رآه من تحكمها في دمشق فظنَّ أنه يملك البلد بالاتصال إليها فلما تزوَّجها خاب أمله ولم يحصل على شيء فأعرض عنها. وفيها ملك حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهَتَّاخ أخذها من بعض بني مروان وهو آخر من بقي منهم له ولاية. وفي سنة ثلاثة وثلاثين ملك أتابك زنكي بن اقسنقر بعلبكّ. وفي سنة أربع ملك زنكي شهرزور وأعمالها. وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية.

وفي سنة تسع وثلاثين فتح أتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج وحاصر قلعة البيرة وهي للفرنج بعدَ ملكِ الرها وهي من أمنع الحصون وضيَّق عليها وقارب أن يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فسار عنها. فخاف مَن بالبيرة من الفرنج أن يعود إليها فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلَّموها إليه فملكوها المسلمون.

وفي سنة أربعين وخمسمائة لخمس مضينَ من ربيع الآخر قُتل أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلاً وهربوا إلى قلعة جعبر. فصاح مَن بها من أهلها إلى العسكر يعلمونهم بقتله فأظهروا الفرح. فدخل أصحابه

(١) أنظر المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ح ١٨ ص ٥٣٠.

إليه فأدركوه وبه رمق وفاضت نفسه لوقته وكان قد زاد عمره على ستين سنة قد وخطه الشيب وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة وكانت الموصل قبل أن يملكها أكثرها خراب بحيث يقف الإنسان قريب محلّة الطبّالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة. وكان الإنسان لا يقدر على المشي في الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه وهو الآن في وسط العمارة. وكانت الموصل من أقلّ بلاد الله فاكهةً فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين. ولما قُتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضراً معه وسار إلى حلب وملكها. وكان سيف الدين غازي أخوه بمدينة شهرزور وهي إقطاعه فأرسل إليه زين الدين عليّ كوجك نائب أبيه عماد الدين زنكي بالموصل يستدعيه إلى الموصل فحضر واستقرَّ ملك سيف الدين على البلاد أخوه نور الدين بحلب وهي له.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة توفّي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها من مرض حادّ. فلما اشتدَّ مرضه أرسل إلى بغداد واستدعى أوحد الزمان أبا البركات فحضر عنده ورأى شدَّة مرضه فعالجه فلم ينجع الدواء وتُوفّي آخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين. وولي أمر الموصل والجزيرة بعده أخوه قطب الدين مودود. وكان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فسار إلى سنجار وملكها ولم يحاققه أخوه قطب الدين ثم اصطلحا وأعاد نور الدين سنجار إلى قطب الدين وتسلَّم هو مدينة حمص والرحبة فبقي الشام له وديار الجزيرة لأخيه.

وفيها غزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الافرنج من ناحية أنطاكية فاجتمعت الفرنج مع البرنس فلقيهم نور الدين واقتتلوا قتالاً عظيماً فانهزم الفرنج وقتل البرنس. وملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوَّجت أمّه ببرنس آخر ليدبّر البلد إلى أن يكبر ابنها. وفيها تُوفّي الحافظ لدين الله عبد المجيد وولي الخلافة بمصر ابنه الظافر بأمر الله أبو المنصور اسماعيل. وفي سنة ستّ وأربعين جمع نور الدين محمود عسكره وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمالي حلب. وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي فسار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون وقُتل منهم وأسر جمع كثير وكان في جملتهم سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيَّره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية واقصرا[1] وقال له: هذا سلاح دار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه. فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه وأعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ ثأره وأحضر جماعة من الأمراء التركمان وبذل لهم الرغائب أن هم ظفروا بجوسلين وسلَّموه إليه لأنه علم عجزه عنه في القتال.

(١) أقصرا: مدينة بالروم ذات قلعة كبيرة حصينة وهي على ثلاث مراحل من قونية.

فجعل التركمان عليه العيون. فخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه إلى نور الدين أسيراً. فسار نور الدين إلى قلاع جوسلين فملكها وهي عين تب وعزاز[١] وقورس والراوندان وبرج الرصاص ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله.

وفي سنة سبع وأربعين توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه[٢] بهمذان وكان عهده إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان فخطب له الأمير خاصبك بالسلطنة ورتّب الأمور وقرّرها بين يديه. ثم قبض عليه وأرسل إلى أخيه الملك محمد وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة. فسار إليه محمد فأجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة.

ثم شعر محمد بخبث خاصبك فثاني يوم وصوله لما دخل إليه قتله ومعه زنكي الجاندار وألقى رأسيهما وبقيا حتى أكلتهم الكلاب واستقرّ محمد في السلطنة. وفيها توفي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميّافارقين وكانت ولايته نيّفاً وثلاثين سنة وولي بعده ابنه نجم الدين البي.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة العلويّين المصريّين. وفي سنة تسع وأربعين في المحرّم قُتل الظافر بن الحافظ العلوي صاحب مصر وولي ابنه الفائز بنصر الله ثاني يوم قُتل أبوه وله من العمر خمس سنين فحمله الوزير عبّاس على كتفه وأجلسه على التخت سرير الملك. وفيها في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي بن أقسنقر مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغدكين أتابك. وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قويّة خرّبت كثيراً من البلاد فخرب منها حمص وحماة وشَيْزَر وكفرطاب والمعرّة وأفامية وحصن الأكراد وعِرْقة واللاذقيّة وطرابلس وأنطاكية. وأما كثرة القتلى فيكفي فيها أن معلماً كان بمدينة حماة وذكر أنه فارق المكتب لمهمّ عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم. **(قال المعلم)** فلم يأتِ أحد يسأل عن صبيّ كان له.

وفيها في ربيع الأوّل توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان أصابه قولنج ثم بعده اسهال[٣]. وفي سنة أربع وخمسين ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرج القورج فوق بغداد فامتلأت الصحاري وخندق البلد ووقع بعض السور فغرق بعض القطيعة وباب الازج والمأمونية ودبّ الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدّة دنانير ولم يكن يقدر عليها. ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحالّ لا تُعرف وإنما

(١) إعزاز: بليدة فيها قلعة شمالي حلب بينهما يوم واحد.
(٢) أنظر ترجمته في الكامل لابن الأثير ح ٩ ص ٣٧٣.
(٣) أنظر ترجمته في الكامل في التاريخ ح ٩ ص ٤١٥.

هي تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين. وفيها في ذي الحجة تُوفّي السلطان[١] محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه وملك عمّه سليمان شاه بن محمد. وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة ثاني ربيع الأوّل تُوفّي الخليفة المقتفي لأمر الله وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وعمره ستاً وستين سنة. وهو أوّل من استبدَّ بالعراق منفرداً عن سلطان وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء ومن عهد المستنصر[٢] إلى الآن.

كان في وسط المائة السادسة من الأطباء المشار إليهم في الآفاق ثلاثة أفاضل معاً من ثلاث ملل كل منهم هبة الله اسماً ومعنىً من النصارى واليهود والمسلمين هبة الله ابن صاعد بن التلميذ وهبة الله بن ملكا أبو البركات أوحد الزمان وهبة الله بن الحسين الأصفهاني. أما ابن التلميذ الطبيب النصراني البغدادي ففاضل زمانه وعالم أوانه خدم الخلفاء من بني العباس وتقدَّم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم وكان موفقاً في المباشرة والمعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة عمَّر طويلاً وعاش نبيلاً جليلاً وكان شيخاً بهيّ المنظر حسن الرُواء عذب المجتنى والمجتبى لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهمّ عالي الهمَّة ذكيّ الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي. وله في نظم الشعر كلمات راقية رائقة شافية تعرب عن لطافة طبعه. ومن شعره:

كانت بُلَهْنِيةُ الشبيبة سكرةً فصحوت واستأنفت سيرة مجملِ
وقعدت ارتقب الفناء كراكبٍ عرف المحلّ فبات دون المنزلِ

وكان أبو الحسن بن التلميذ يحضر عند المقتفي كل أسبوع مرَّة فيجلسه لكبر سنّه. وتُوفّي في صفر سنة ستين وخمسمائة وقد قارب المائة وذهنه بحاله. وسأله ابنه قبل أن يموت بساعة: ما تشتهي. قال: أن اشتهي.

وأما هبة الله بن ملكا أبو البركات اليهوديّ في أكثر عمره المسلم في آخره أمره فكان طبيباً فاضلاً عالماً بعلوم الأوائل وكان حسن العبارة لطيف الإشارة صنَّف كتاباً سمَّاه المعتبر أخلاه من النوع الرياضيّ وأتى فيه بالمنطق والطبيعيّ والإلهيّ فجاءت عبارته فصيحة ومقاصده في ذلك الطريق صحيحة. ولما مرض أحد السلاطين السلجوقية استدعاه من بغداد فتوجه نحوه ولاطفه إلى أن برأ وأعطاه العطايا الجمَّة من الأموال والمراكب والملابس والتُحف وعاد إلى العراق على غاية ما يكون من التجمّل والغني. وسمع أن ابن أفلح قد هجاه بقوله:

لنا طبيب يهوديّ حماقته إذا تكلَّم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعدُ لم يخرج من التيه

(١) أنظر ترجمته في الكامل ح ٩ ص ٤٣٤.
(٢) لعل الصواب المنتصر.

ولما سمع ذلك علم أنه لا يبجّل بالنعمة التي أنعمت عليه إلاّ بالإسلام فقوي عزمه على ذلك. وتحقق أن له بناتٍ كباراً وأنهنَّ لا يدخلنَ معه في الإسلام وأنه متى مات لا يرثنَه فتضرّع إلى الخليفة في الإنعام عليهنَّ من مالٍ يخلفه وإن كنَّ على دينهنَّ فوقَّع له بذلك. ولما تحققه أظهر إسلامه وجلس للتعليم والمعالجة ولم يزل سعيداً إلى أن قلب له الدهر ظهر المجنّ.

ووضع من شأنه بعد أن أسنّ. فأدركته أعلال قصَّر عن معاناتها طبُّه. واستولت عليه الآلام ممّا لم يطقْ حملها جسمه ولا قلبه. وذلك أنه عمي وطرش وبرص وجُذِم. فنعوذ بالله من استحالة الأحوال وضيق المحال وسوء المآل. ولما أحسَّ بالموت أوصى إلى مَن يتولاه أن يكتب على قبره ما مثاله: هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبَر صاحب المعتَبر. وفي كبر أبي البركات أوحد الزمان فتواضعِ أمين الدولة بن التلميذ يقول البديع هبة الله الاصطرلابيّ.

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه ... أبو البركات في طرفَي نقيضِ
فذاك من التواضع في الثريّا ... وهذا بالتكبُّر في الحضيضِ

وأما هبة الله بن الحسين بن عليّ الحكيم الطبيب الأصفهانيّ فكان من محاسن الدهر وأفاضل العصر وفيه قيل إن عند طبّه لا يشتري بقراط بقيراط ولا يستقيم سقراط على الصراط ولحق حق ابن بطلان بالبطلان.

وتوفّي سنة نيّف وثلاثين وخمسمائة بسكتة أصابته ودُفن في سرداب داره وهو مسكت فلما فُتح بابه بعد أشهُر لينقل وجد جالساً عند الدرجة وهو ميت. وله شعرٌ حلوٌ منه ما قاله يصف حمّاماً في دار صديق له:

ودخلت جنَّته وزرت جحيمه ... وشكرت رضواناً ورأفة مالكِ
والبشر في وجه الغلام نيتجةٌ ... لمقدّمات ضياء وجه المالكِ

وفي الأيام المقتفية دخل أبو الحكم المغربيّ الأندلسيّ الحكيم المرسي العراقَ وهو مجهول لا يُعرف ورأى في بعض تطوافه بأزقّة بغداد رجلاً جالساً على باب دار يشعر بالرئاسة لساكنها وبين يديه شاب يقرأ عليه شيئاً من كتاب أوقليذس فقرب منهما أبو الحكم ليسمع فإذا المعلّم يهذي ما لا يعلم فردَّ عليه خطأه وبيّن غلطه. وعلم الشاب الحقيقة في الردّ فاستوقف أبا الحكم إلى أن يعود ودخل الدار وخرج يستدعي أبا الحكم دون المعلم فدخل إلى دار سريَّة فلقي والد الشاب وهو أحد أمراء الدولة فأحسن ملتقاه ثم سأله ملازمة ولده فأجاب. فاشتهر ذكر أبي الحكم فتطلبه الطلبة وارتفع قدره. وكان كثير الهزل والمزاح. شديد المجون والارتياح.

ثم كره العراق وفارق على نيّة قصد المغرب. فلما حلّ بظاهر دمشق سيَّر غلاماً له ليبتاع منها ما يأكلانه في يومهما وأصحبه نزراً يكفي رجلين. فعاد الغلام ومعه شواء وفاكهة وحلواء وفُقّاع

وثلج. فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به وقال له عند استكثاره: أوَجدتَ أحداً من معارفنا. فقال: لا وإنما ابتعت هذا بما كان معي وبقيتْ منه هذه البقيَّة. فقال أبو الحكم: هذا بلد لا يحلّ لذي عقل أن يتعدَّاه. ودخل وارتاد منزلاً وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به العطر ويطبّ وأقام على ذلك إلى أن أتى أجله.

(المستنجد بن المقتفي) لما اشتدَّ مرض المقتفي وكان وليُّ عهده ابنه يوسف وكانت للمقتفي حظيَّة هي أمّ ولده أبي عليّ فأرادت الخلافة لابنها وأحضرت عدَّة من الجواري وأعطتهنَّ السكاكين وأمرتهنَّ بقتل وليّ العهد يوسف إذا دخل على والده. وكان ليوسف خصيّ صغير يرسله كل وقت يتعرّف أخبار والده فرأى الجواري بأيديهن السكاكين فعاد إلى يوسف وأخبره فاستدعى أستاذ الدار وأخذه معه وجماعة من الفرَّاشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف. فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدة منهنَّ فجرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل استاذ الدار ومعه الفرَّاشون فهرب الجواري وأخذ أخاه أبا عليّ وأمَّه فسجنهما وأخذ الجواري وقتل منهنَّ وغرَّق منهنَّ. فلما تُوفّي المقتفي[1] جلس يوسف ابنه للبيعة فبويع له ولُقب المستنجد بالله وخُطب له في ربيع الأوَّل سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وفي سنة ستّ وخمسين في صفر تُوفّي الفائز **عيسى بن الظافر اسماعيل صاحب مصر وكانت خلافته** ستَّ سنين وولي الأمر بعده بمصر عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولُقب العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء العلويّين بالديار المصريَّة. وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة هرب شاوُر وزير العاضد صاحب مصر من ضرغام الذي نازعه في الوزارة إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين ومستجيراً به وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون له ثلْث دخْل البلاد. فتقدَّم نور الدين بتجهيز الجيوش وقدم عليها أسد الدين شيركوه فتجهز وساروا جميعاً وشاوُر في صحبتهم ووصل أسد الدين والعساكر إلى مدينة بلبيس. فخرج إليهم أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم. وخرج ضرغام من القاهرة فقُتل وقُتل أخوه أيضاً. وخلع على شاور وأعيد إلى الوزراة. وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور وعاد عمَّا كان قرَّره لنور الدين وأرسل إلى الفرنج يستمدّهم فسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وتجهزوا وساروا. فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وجعلها ظهراً يتحصن به فحصره بها العساكر المصرية والفرنج ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً. فراسل الفرنج أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام فأجابهم إلى ذلك وصار إلى الشام.

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ ص ١٤٤ توفي ليلة الأحد في ربيع الأول من سنة خمس وخمسمائة عن ست وثلاثين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً. ولى الخلافة أربعة وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة **فارق زين الدين عليّ بن سبكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل** خدمة صاحبه بالموصل وسار إلى إرْبِل[١] وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده. فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلَّم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين مودود وبقي إربل حسبُ. وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة سليم القلب كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحَيْص بَيْض بقصيدة فلما أراد أن ينشده قال: أنا لا أعرف ما تقول ولكني أعلم أنك تريد شيئاً. وأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة سنيَّة وثياب مجموع ذلك ألف دينار ولم يزل بإربل إلى أن مات بها هذه السنة.

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة **ملك نور الدين قلعة جعبر**. وملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور الوزير. ولما ثبت قدمُ أسد الدين وظنَّ أن لم يبقَ له منازع أتاه أجله فتوفّي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وكانت ولايته شهرين. وأما ابتداء أمره فإنه كان هو وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شاذي من بلد دَوِين[٢] وأصلهما من الأكراد الروَّاديَّة فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد. فرأى من نجم الدين أيوب عقلاً ورأياً وكان أكبر من شيركوه فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت. فسار إليها ومعه أخوه شيركوه. ثم أن شيركوه قتل كاتباً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأخرجهما بهروز من قلعة تكريت فسارا إلى زنكي. ولما ملك بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها فلما قُتل زنكي وتسلَّم عسكر دمشق بعلبك صار هو أكبر الأمراء بدمشق واتصل أخوه شيركوه بنور الدين فاقطعه حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره. فلما أراد أن يرسل العسكر إلى مصر لم يرَ هناك من يصلح لهذا الأمر العظيم والمقام الخطير غيره فأرسله فملكها.

ولما توفّي أَسد الدين شيركوه طلب جماعة من الأمراء النوريَّة ولاية الوزارة للعاضد العلويّ صاحب مصر فأرسل العاضد إلى صلاح الدين بن أيوب بن شاذي أحضره عنده وخلع عليه وولاّه الوزارة بعد عمّه ولقبه الملك الناصر وكان اسمه يوسف. فكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة اضعف ولا أصغر سناً من يوسف فإذا ولي لا يرفع علينا رأساً مثل غيره. فثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتبه: الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا. واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال فمالوا إليه وأحبّوه وضعف أمر

(١) إربل: وهي بين الزابين تعد من أعمال الموصل.
(٢) دوين: بلدة من نواحي أران في آخر حدود أزربيجان بالقرب من تفليس.

العاضد. ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته.

(وفاة قطب الدين مودود بن زنكي) وفي سنة خمس وستين وخمسمائة في شوَّال مات قطب الدين مودود بن زنكي ابن أقسنقر صاحب الموصل. ولما اشتدَّ مرضه أوصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي ثم عدل عنه إلى ابنه الآخر وهو يوسف الدين غازي وإنما فعل ذلك لأن القيّم بأمور دولته كان خادماً يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمّه نور الدين وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق عبد المسيح وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي وهي والدة سيف الدين عليّ صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين. ورحل عماد الدين إلى عمّه نور الدين مستنصرايّ به ليعينه على أخذ الملك لنفسه.

وفي سنة ستّ وستين وخمسمائة تاسع ربيع الآخر تُوفّي الإمام المستنجد[1] بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وعمره ستاً وخمسين سنة. وكان من أحسن الخلفاء سيرةً مع الرعية عادلاً قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصّين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار. فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه فأكفّ شرَّه عن الناس. ولم يطلقه. وكان سبب موته أنه كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين قايماز وصلبهما وكان قد اشتدَّ مرضه.

فاجتمع الطبيب بهما وأوقفهما على الخطّ. فقالا له: عُد إليه وقل له: إنني أوصلت الخطّ إلى الوزير وفعل ذلك. ثم دخل المذكوران على المستنجد ومعهما أصحابهما فحملوه وهو يستغيث إلى الحمَّام وألقوه وأغلقوا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات.

(المستضيء بن المستنجد) ولما أظهروا موت المستنجد أُحضر ابنه أبو محمد الحسن وبايعه أهل بيته البيعة الخاصَّة يوم تُوفّي أبوه أي تاسع ربيع الآخر سنة ستّ وستين وخمسمائة وبايعه الناس من الغد في التاج بيعةً عامَّة ولُقب المستضيء بأمر الله وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرَّق أموالاً جليلة المقدار. ولما بلغ نور الدين محمود ابن زنكي وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل وتحكم فخر الدين عبد المسيح عليه أنف لذلك وسار بجريدةٍ في قلَّة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك الرقَّة والخابور ونصيبين

(١) في المنتظم لابن الجوزي ح ١٧ـ ١٨ ص ١٩٥، توفي يوم الثلاثاء بعد الظهر يوم الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة وبلغ من العمر ثمانياً وأربعين سنة وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وشهراً.

وحاصر سنجار وملكها وسلّمها إلى عماد الدين ابن أخيه وأتى مدينة بَلَد[١] وعبر دجلة عندها مخاضة إلى الجانب الشرقيّ ونزل على حصن نينوى.

ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة فأرسل فخر الدين عبد المسيح إلى نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يُقرّه بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الأمان ولماله وأهله فأجيب إلى ذلك وشرط أن فخر الدين يأخذه معه إلى الشام ويعطيه عنده أقطاعاً مرضية. فتسلّم البلد ودخل القلعة وأمر بعمارة الجامع النوريّ وسلم الموصل إلى سيف الدين وسنجار لعماد الدين وعاد إلى الشام واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يوماً. وفي سنة سبع وستين وخمسمائة لما ثبت قدم صلاح الدين بمصر وضعف أمر الخليفة العاضد بها وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصيّ من أعيان الأمراء الأسديّة كلهم يرجعون إليه عزم على قطع خطبة العاضد وكان يخاف المصريين. وكان قد دخل إلى مصر رجل أعمى[٢] يُعرف بالأمير العالم فلما رأى ما هو فيه من الأحجام وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للعباسيين قال: أنا ابتدىء بالخطبة للمستضيء. فلما كان أوّل جمعة من المحرّم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء فلم ينكر أحد ذلك فقطع الخطباء كلهم بمصر خطبة العاضد وخطبوا للمستطيء ولم ينتطح فيها عنزان. وتُوفّي العاضد يوم عاشوراء ولم يعلموه بقطع خطبته.

وفيها عبر الخط[٣] نهر جيحون يريدون خوارزم. فسار صاحبها خوارزم شاه أرسلان بن اقسز في عساكره إلى أُمُوية[٤] ليقاتلهم ويصدّهم فمرض فأقام بها وسيّر جيشه مع أمير كبير إليهم فلقيهم فانهزم الخوارزميّون وأسر مقدّمهم ورجع به الخطا إلى ما وراء النهر. وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم مريضاً وتُوفّي بها وملك بعده ابنه سلطان شاه محمود. وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في جَنْد[٥] فقصد ملك الخطا واستمدّه على أخيه فسيّر معه جيشاً كثيفاً مقدمهم قوماً وساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطان شاه منها ومعه أمّه وقصد خراسان وملكَ تكش خوارزم. وفي سنة تسع وستين وخمسمائة توفّي نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر[٦] صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الأربعاء حادي عشر شوّال ولم يكن في سيَر الملوك أحسن من سيرته ولا أكثر تحرّياً للعدل منه وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرّف في الذي يخصّه إلا من ملكٍ كان له قد اشتراه

(١) بَلَد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل.
(٢) في الكامل في التاريخ لابن الأثير (أعجمي) يعرف بالأمير العالم/ الكامل ح ١٠ ص ٤٤.
(٣) الخطا: قوم من التر استوطنوا بلاد كاشغر. تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٥٨٣.
(٤) أموية: مدينة مشهورة في غربي جيحون على الطريق القاصد من بخاري إلى مرو.
(٥) جُند: مدينة في بلاد تُركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام معجم البلدان ح ٢ ص ١٩٦.
(٦) أنظر ترجمته في الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١٠ ص ٥٥/٦٥.

من سهمه من الغنيمة. ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو العشرين ديناراً. فلما استقلّتها قال: ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنَّم لأجلكِ. ولما مات ملك بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان عمره إحدى عشرة سنة وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه.

وفي سنة سبعين وخمسمائة لما ملك سيف الدين غازي الديار الجزرية خاف الأمراء الذين في دمشق وحلب لئلا يعبر إليهم سيف الدين فسيَّروا الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب ليصدّ سيف الدين عن العبور إلى الشام. فلما خلت دمشق عن السلطان والعساكر سار إليها صلاح الدين فملكها وملك بعدها حمص وحماة وبعلبكّ وسار إلى حلب فحصرها. فركب الملك الصالح وهو صبيّ عمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهلَ حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبَّته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله ولا الخلق. وقال من هذا كثيراً وبكى فأبكى الناس واتفقوا على القتال دونه فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جَوْشَن[1] ولا يقدر على القرب من البلد فرحل عنه. وفيها ملك البهلوان مدينة تبريز. وفي سنة إحدى وسبعين ملك صلاح الدين قلعة عزاز ونازل حلب وبها الملك الصالح وقد قام العامّة في حفظ البلد المقامَ المرضيّ وتردَّدت الرسل بينهم في الصلح فوقعت الإجابة إليه من الجانبين ورحل صلاح الدين عن حلب بعد أن أعاد قلعة عزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج إلى صلاح الدين اختاً له صغيرة طفلة. فأكرمها صلاح الدين وقال لها: ما تريدين. قالت: أريد قلعة عزاز. وكانوا قد علَّموها ذلك. فسلَّمها إليهم ورحل. وفي سنة ثلاث وسبعين قُتل عضد الدين وزير الخليفة المستضيء ووزر ظهير الدين المعروف بابن العطَّار وكان خيّراً حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكناً كثيراً.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ثاني ذي القعدة تُوفّي **الإمام المستضيء بأمر الله** وكانت خلافته نحو تسع سنين وعمره تسع وثلاثون سنة وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو فعاش حميداً ومات سعيداً.

وكان في هذا الزمان من الحكماء المشهورين بالمشرق السموءل بن أيهوذا المغربيّ الأندلسيّ الحكيم اليهوديّ قدم هو وأبوه إلى المشرق وكان أبوه يشدو شيئاً من الحكمة وكان ولده السَموءل قد قرأ فنون الحكمة وقام بالعلوم الرياضيَّة وأحكم أصولها وفوائدها ونواردها وله في ذلك

(١) جَوْشَنُ جبل مطل على مدينة حلب في غربيها. معجم البلدان ح ٢ ص ٢١٦.

مصنَّفات وصنّف كتباً في الطبّ وارتحل إلى اذربيجان وخدم بيت بهلوان وأمراء دولتهم وأقام بمدينة مراغة وأولد أولاداً هناك سلكوا طريقته في الطبّ ثم أسلم وصنّف كتاباً في إظهار معايب اليهود ومواضع الدليل على تبديلهم التوراة ومات بالمراغة قريباً من سنة سبعين وخمسمائة.

وكان في هذا الأوان أيضاً الرحبي الطبيب نزيل دمشق من أهل الرحبة أصله كان من الرحبة حسن المعالجة لطيف المباشرة نزه النفس يعاني التجارة ورزق بها مالاً جماً وأولاداً مرضيّي الطريقة لهم اشتغال جيد في هذا الفنّ وكان كثير التنعّم حسن المركب والملبس والمأكل والمنزل يلزم في أموره قوانين حفظ الصحة الموجودة. وقيل له: ما ثمرة هذا. قال: إن يعيش الإنسان العمر الطبيعيّ. فقيل له: أنت قد بلغت من السنّ ما لم يبقَ بينك وبين العمر الطبيعيّ إلا القليل فأيّ حاجة إلى هذا التكلُّف. فقال: لأبقى ذلك القليل فوق الأرض وأستنشق الهواء وأتجرَّع الماء ولا أكون تحت التراب بسوء التدبير. ولم يزل على حالته إلى أن أتاه أجله في أوائل سنة اثنتين وثلاثين وستمائة وخلف ثلاثة بنين إثنان منهم طبيبان فاضلان وسيأتي ذكرهما. قال الرحبي هذا: استدعاني نور الدين محمود في مرضه الذي تُوفّي فيه مع غيري من الأطباء فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكّنت منه الخوانيق وقارب الهلاك فلا يكاد يُسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبّد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا ورأينا ما به قلتُ له: كان ينبغي أن لا تؤخّر إحضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض. الآنَ ينبغي أن تعجل الإنتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضيء فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه وأشرنا بالفصد فقال: ابن ستين سنة لا يفتصد. وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجح فيه الدواء.

(الناصر بن المستضيء): ولما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطّار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أبي العباس أحمد. فلما تمّت البيعة صار الحاكم في الدولة مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب. وفي سابع ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة قبض على ابن العطار ووكل عليه في داره ثم نقل إلى التاج وقيّد وطُلبت ودائعه وأمواله ثم أُخرج ميتاً على رأس حمّال سراً فغمز به بعض العامة فثارَ به العامة فألقوه عن رأس الحمّال وكشفوا سوءته وشدّوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد وكانوا يضعون بيده مغرفة ويقولون: وقّع لنا يا مولانا. إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة. ثم خلّص من أيديهم ودُفن. هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفّه عن أموالهم وأعراضهم. وفي سنة ستّ وسبعين ثالث صفر تُوفّي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وولي أخوه عزّ الدين الموصل وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده معزّ الدين سنجرشاه وأعطى قلعة شوش[1] وبلد الحميدية لابنه الصغير ناصر الدين كبك وكان المدبّر لدولة عزّ الدين مجاهد الدين قيماز واستقرّت الأمور ولم يختلف اثنان.

(١) قلعة شوش: وهي قلعة من أعمال الموصل. وهي عالية جداً قرب عقر الحميدية.

وفيها تُوفّي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية. وفي سنة سبع وسبعين في رجب تُوفّي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة. فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء ووصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمّه عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي فتسلّم حلب ثم سلّمها لأخيه عماد الدين وأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار. وفي سنة ثماني وسبعين سيَّر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن فتملكها وتغلّب عليها. وفيها عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية وملكَ الرها وحرّان والرقّة وقرقيسياء وماكسين[١] وعَربان[٢] ونصيبين وسار إلى الموصل وبها عزّ الدين صاحبها ونائبه مجاهد الدين قد جمعا بها العساكر الكثيرة من فارسٍ وراجل وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار. فلما قرب صلاح الدين من البلد رأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه ومع هذا نزل عليها وانشب القتال. وخرج إليه يوماً بعض العامّة فنال منه وأخذ لالكة من رجله فيها المسامير الكثيرة ورمى بها أميراً يقال له جاولي الأسديّ وهو مقدّم الأسديّة وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألماً شديداً وأخذ اللالكة وعاد عن القتال إلى صلاح الدين وقال: قد قابلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا مثلها بعد وألقى اللالكة وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفةً حيث ضرب بها. فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً ولا يحصل على غير العناء والتعب سار عنها إلى سنجار وملكها. وفي سنة تسع وسبعين ملك صلاح الدين مدينة آمد وسلّمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وكان صلاح الدين قد نزل بحَرْزَم[٣] وطمع أن يملك ماردين فلم يرَ لطمعه وجهاً فسار عنها إلى آمد على طريق البارعية. وفيها سار صلاح الدين إلى حلب فنزل بجبل جوشن وأظهر أنه يريد يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره. فمال عماد الدين زنكي إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها فتقرَّر الصلح على أن يسلّم حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وسروج. وجرت اليمين على ذلك فباعها باوكس الأثمان أعطى حصناً مثل حلب وأخذ عوضها قرًى ومزارع فقبَّح الناس كلهم ما أتى.

(وفاة قطب الدين بن ايلغازي) وفي سنة ثمانين وخمسمائة مات قطب الدين بن ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش ابن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين يولق أرسلان وهو طفل وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته بعد موته فرتَّب نظام الدين التقش مع ولده وقام بتربيته وتدبير مملكته وكان ديّناً خيّراً فأحسن

(١) ماكسين: مدينة بالجزيرة.

(٢) عربان: بليدة من أرض الجزيرة بالخابور.

(٣) حَرْزَمُ: بليدة من أعمال الجزيرة. معجم البلدان ح ٢ ص ٢٧٨.

تربية الولد وتزوّج أمّه فلما كبر الولد لم يمكّنه النظام من مملكته لخبطٍ وهوجٍ كان فيه. ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتّبه النظام في الملك وليس له منه إلا الإسم والحكم إلى النظام وإلى مملوك له اسمه لؤلؤ فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمائة. فمرض التقش النظام فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه قطب الدين بسكين معه فقتله. ثم دخل إلى النظام فقتله أيضاً وخرج وحده ومعه غلام له وألقى الرأسَين إلى الأجناد فأذعنوا له بالطاعة واستولى على قلعة ماردين وقلعة البارعيَة والصَّوْر وحكم فيها وحزم في أفعاله.

(حصار صلاح الدين الموصل) وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حصر صلاح الدين الموصل مرّة ثانية فسيَّر أتابك عزّ الدين صاحبها والدته إليه ومعها ابنة عمّه نور الدين محمود وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة. وكُلُّ مَن عنده ظنّوا أنهنَّ إذا طلبنَ منه الشام أجابهنَّ إلى ذلك لا سيما ومعهنَّ ابنة مخدومه وولّي نعمته نور الدين. فلما وصلن إليه أنزلهنَّ واعتذر بأعذار غير مقبولة وأعادهنَّ خائباتٍ. فبذل العامَّة نفوسهم غيظاً وحنقاً لردّه النساء. فندم صلاح الدين على ردّ النساء وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره يقبّحون فعله وينكرونه. وكان عامَّة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر ويعودون. فعزم صلاح الدين على قطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى ليعطش أهل الموصل فيملكها بغير قتال ثم علم أنه لا يمكن قطعه بالكلية وأن المدة تطول والتعب يكثر فأعرض عنه ورحل إلى ميّافارقين لأنه سمع أن شاه أرمن صاحب خلاط توفّي ولم يخلف ولداً وقد استولى على بلاده مملوك له اسمه بكتمر. فسيَّر صلاح الدين في مقدَّمته ابن عمّه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا إلى خلاط فنزلوا بطُوَانة. وسار صلاح الدين إلى ميّافارقين وسار البهلوان بن ايلدكر صاحب أذربيجان فنزل قريباً من خلاط وتردَّدت رسل أهل بينهم وبين البهلوان وصلاح الدين. ثم أنهم أصلحوا أمرهم مع البلهوان وصاروا من حزبه وخطبوا له.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة تُوفّي البهلوان محمد بن ايلذكر صاحب بلاد الجبل والري وأصفهان وأذربيجان وأرّان وملك بعده أخوه قزل أرسلان وأسمه عثمان. وفي سنة ثلاث وثمانين ملك صلاح الدين مدينة طبريّة وقلعتها وسار عنها ونزل على عكة. ولما صمَّم على الزحف إلى البلد خرج الأعيان من أهلها إليه يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمّنهم على نفوسهم وأموالهم وخيَّرهم بين الإقامة والطعن فاختاروا الرحيل وساروا منها متفرّقين وحملوا ما أمكنهم من أموالهم وتركوا الباقي على حاله. وسلَّم صلاح الدين البلد إلى ولده الأفضل وغنم المسلمون ما بقي ممّا لم يطق الفرنج حمله. وفيها ملك صلاح الدين قيسارية وحيفا وصفّورية والشَّقِيف والفولة ويافا وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان.

ولما فرغ صلاح الدين من أمر هذه الأماكن سار إلى البيت المقدّس فلما نزل عليه المسلمون رأوا على سوره من الرجال ما هالهم وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأنه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو[١] كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب فنزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات ونصب الفرنج على سور البلد المنجنيقات وتقاتل الفريقان أشدّ قتال كلٌّ منهما يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطانيّ بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون. فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكُّم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكّن النقّابين من النقب أرسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة إلى صلاح الدين يطلب الأمان. فأبى السلطان وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي. فقال له باليان: أيها السلطان أعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان. فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فوالله لنقتلنَّ أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ولا نترككم تغنمون منَّا ديناراً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة. فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ثم نقتل من عندنا من أساري المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابّة ولا حيواناً إلاّ قتلناه ثم خرجنا إليكم كلّنا وحينئذٍ لا يُقتل الرجل منَّا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزّاء أو نظفر كرماء فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يُحرجوا ويُحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه عن أي شيء ينجلي. فأجاب صلاح الدين حينئذٍ إلى بذل الأمان للفرنج واستقر أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير وتزن المرأة خمسة دنانير ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا وإلا صار مملوكاً. فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب.

ولما فرغ صلاح الدين من أمر بيت المقدس سار إلى مدينة صور وقد خرج إليها المركيس وصار صاحبها وقد ساسها أحسن سياسة. فقسم صلاح الدين القتال على العسكر كل جمع لهم وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على أهل البلد على أن الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة تكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد تحفظه وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر إلى البحر فلا يكاد الطائر يطير عليها لأن المدينة كالكفّ في البحر والساعد متصل بالبرّ والبحر في جانبي الساعد والقتال إنما هو في الساعد فلذلك لم يتمكن منها صلاح الدين ورحل عنها. وكان للمسلمين خمس قطع من الشواني مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه فنازلتهم

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٣٦١ حتى اختار جهة الشمال نحو باب العمود وكنيسة صهيون.

شواني الفرنج وقت السحر وضايقتهم وأوقعت بهم فقتلوا مَن أرادوا وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور والمسلمون من البرّ ينظرون إليهم. ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا منهم من غرق. وفي سنة أربع وثمانين فتح صلاح الدين جبلة واللاذقيَّة[١] وصهيون وشُغْر بَكاس ودربساك وبغراس والكرك وصفد. وهادن صلاح الدين البرنس بيموند صاحب أنطاكية وطرابلس ثمانية أشهر.

وفي سنة سبع وثمانين وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج النازلين على عكَّة يحاصرونها. وكان أول من وصل منهم فيليب ملك افرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير فقويت به نفوسهم أي الذين كانوا على عكة ولجّوا في قتال المسلمين الذين فيها. وكان صلاح الدين على شَفْرعمّ فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال على مزاحفة البلد وكان فيه الأمير سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب فلما رأى أن صلاح الدين لا يقدر لهم على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج وقرَّر معهم تسليم البلد وخروج مَن فيه بأموالهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وأن تكون مدة تحصيل المال والإسراء إلى شهرين. فلما حلفوا له سلَّم البلد إليهم فدخله الفرنج سلماً واحتاطوا على مَن فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم إلى حين ما يصل إليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم. فشرعوا في جمع المال وكان هو لا مال له إنما يخرج ما يصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار أشار الأمراء بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على الإطلاق من أصحابه. فقال ملوك الفرنج: نحن لا نحلف إنما ترسل إلينا المائة الألف ديناراً التي حصلت والأساري والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فنطلق الباقين منهم. فلم يجبهم السلطان إلى ذلك. فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرون من رجب ركب الفرنج وخرجوا ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن موقفهم وإذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وقتلوهم واستبقوا الأمراء ومن كان له مال وقتلوا مَن سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له. فلما رأى صلاح الدين ذلك رحل إلى ناحية عسقلان وأخربها[٢]. وفي سنة ثمان وثمانين رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها. وفيها عُقدت الهدنة بين صلاح الدين والانكتار ملك الفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أوّلها يوم أوّل أيلول.

(١) أنظر تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٢٦٤. وأنظر أيضاً الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ١٦٨.
(٢) أنظر ابن خلدون ح ٥ ص ٣٧٩.

(وفاة السلطان قلج أرسلان) وفيها منتصفَ شعبان تُوفّي السلطان قلج أرسلان بن مسعود بن قلح أرسلان ابن سليمان بن قتلميش بن سلجوق بمدينة قونية وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدلٍ وافر وغزوات كثيرة إلى بلاد الروم. فلما كبر فرّق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين. ثم أخذه وسار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه فحصرها مدة فهرب منه والده ودخل إلى قيسارية. ولم يزل قلج أرسلان يتحول من ولدٍ إلى ولد وكل منهم يتبرّم به حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو فسار معه في عساكره إلى قونية فملكها وبها تُوفّي قلج أرسلان وبقي ولده غياث الدين في قونية مالكاً لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين.

(وفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب) وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة تُوفّي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بدمشق وعمره سبع وخمسون سنة[1] وكان حليماً كريماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه. وحكي أنه كان يوماً جالساً وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزة فاخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فوقعت بالقرب منه. فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلّم جليسه هناك ليتغافل عنها. وطلب مرّة الماء فلم يُحضَر فعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرّات فلم يحضر فقال: يا أصحابنا والله قد قتلني العطش. وأما كرمه فإنه كان كثير البذر لا يقف في شيء يخرجه. ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية. ولما تُوفّي صلاح الدين ملك بعده ولده الأكبر الأفضل نور الدين دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم. وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها. وكان ولده الملك الظاهر غازي بحلب فملكها وأعمالها مثل حارم وتلّ باشر وأعزاز ودربساك ومنبج. وكان بحماة محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فأطاع الملك الظاهر. وكان بحمص شيركوه ابن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل. وكان الملك العادل أخو صلاح الدين بالكرك فسار إلى دمشق. فجهز الأفضل معه عسكراً وسار إلى البلاد الجزرية وهي له ليمنعها من عزّ الدين صاحب الموصل. وفيها أول جمادى الأولى قُتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران. فإنه أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدين وفرح فرحاً كثيراً فلم يمهله الله تعالى. وملك بعده ظهير الدين هزارديناري خلاط وهو أيضاً من مماليك شاه أرمن. وفيها سلخ شعبان تُوفي أتابك عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل بالموصل وملك بعده ابنه نور الدين أرسلان شاه. وكان عزّ

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٣٨٣، مات صلاح الدين في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وعشرين سنة من ملكه مصر. وكذلك الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١٠ ص ٢٢٤.

الدين خيّراً محسناً حليماً قليل المعاقبة حييّاً كثير الحياء لم يكلّم جليساً له إلا وهو مُطرق وما قال في شيء سُئِله حبّاً وكرم طبع.

وفي سنة إحدى وتسعين وخمسمائة كتب ألفنش ملك الفرنج ومقرّ ملكه طليطلة[1] إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كتاباً يقول فيه: إنك أمير المسلمين ولا يخفى عليك ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحات وأنا أسومهم الخسف وأخلي الديار وأسبي الذراريّ وأمثّل بالكهول وأقتل الشّبّان ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرتهم وأنت تعتقد أن الله فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم. والآن نخفف عنكم فنحن نقاتل عدداً منكم بواحد منّا. ثم بلغني عنك أنك أخذت في الاحتفال وتمطل نفسك عاماً بعد عام تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ولا أدري أجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك. وأنا أقول لك ما فيه المصلحة أن تتوجّه بجلمة من عندك في الشواني والمراكب وأجوز إليك بجملتي وأبارزك في أعزّ الأماكن عندك فإن كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهديّة مُثّلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت مُلك المِلّتين والتقدم على الفئتين. فلما قرأ يعقوب كتابه جمع العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس واقتتلوا قتالاً شديداً فكانت الدائرة أولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً. فلا يفخرنَ ثروان بثروته ولا جبّار بجبروته ومن يفتخر فبالله تعالى فليفتخر كما جاء في الكتاب الإلهي. ثم أن الفنش عاد إلى بلاده وركب بغلاً وأقسم أنه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة إلى أن ملكوا الآن أكثر مدن الأندلس.

وفي سنة اثنتين وتسعين سار الملك العزيز من مصر إلى دمشق وحصرها وأرسل إلى أخيه الأفضل أن يفارق القلعة ويسلّم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له ويسلّم جميع أعمال دمشق. فخرج وتسلّم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياماً ثم سلّمها إلى عمّه الملك العادل وعاد إلى مصر فسار الأفضل إلى صرخد. وفي سنة ثلاث وتسعين ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين.

(وفاة عماد الدين زنكي بن مودود) وفي سنة أربع وتسعين تُوفّي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وملك نور الدين مدينة نصيبين. وفيها قصد خوارزمشاه بخارا وكان قد ملكها الخطا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا لما رأوا من حسن سيرتهم معهم حتى أنهم أخذوا كلباً أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا: هذا خوارزمشاه. لأنه كان أعور. وطافوا به على السور ثم

(١) طليطلة: مدينة مشهورة في الأندلس.

ألقوه في منجنيق إلى العسكر وقالوا: سلطانكم. فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزمشاه البلد بعد أيام يسيرة عنوة وعفا عن أهله وأحسن إليهم.

وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان وكان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان صبيّاً فسلّم بعض أهلها الربض بمخامرة فنهب العسكر أهلها نهباً قبيحاً فلما تسلّم العادل الربض تمكّن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين.

وفي سنة خمس وتسعين في العشرين من المحرّم تُوفّي الملك العزيز صاحب مصر وأرسل الأمراء من مصر إلى الأفضل أخيه يدعونه إليهم ليملّكوه لأنه كان محبوباً إلى الناس يريدونه فدخل إلى مصر وملكها. وفي سنة ستّ وتسعين سار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فأرسل الأفضل إليه في الصلح فتقرّر أن يسلّم الديار المصرية إلى عمّه ويأخذ العوض عنها ميّافارقين وحاني[١] وجبل جُور[٢] وتحالفوا على ذلك. وخرج الأفضل من مصر وسار إلى صرخد وأرسل من يتسلّم ميّافارقين وحاني وجبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميّافارقين وسلّم ما عداها. فتردّدت الرسل في ذلك والعادل يزعم أن ابنه عصاه. فأمسك الأفضل عن المراسلة في ذلك لعلمه أن هذا فعله بأمر العادل. وفيها في شهر رمضان تُوفّي خوارزمشاه تُكُش بن أرسلان وولي ملك خوارزم بعده ابنه قطب الدين محمد ولُقّب علاء الدين لقب أبيه. وفي سنة سبع وتسعين في شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان مدينة مَلَطية وكانت لأخيه معزّ الدين قيصر شاه فسار إليه وحصره أياماً وملكها وسار منها إلى ارزن الروم وكانت لولد الملك محمد بن صلتُق وهم بيت قديم قد ملكوا ارزن الروم.

فلما قاربها ركن الدين خرج صاحبها إليه ثقةً به ليقرّر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وهذا كان آخر أهل بيته الذين ملكوا. وفيها حصر الملك الظاهر وأخوه الملك الأفضل إبنا صلاح الدين مدينة دمشق وهي لعمّهم الملك العادل وعادوا إلى تجديد الصلح عن أن يكون للظاهر منبج وأفامية وكفر طاب والمعرّة ويكون للأفضل سميساط وقلعة نجم وسروج ورأس عين وجُملين. وسار الظاهر إلى حلب والأفضل إلى سميساط ووصل العادل إلى دمشق. وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة في المحرّم سيّر الملك العادل عسكراً مع ولده الملك الأشرف موسى إلى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها وأقام الأشرف ولم يحصل له غرض.

(١) حاني: مدينة بديار بكر. معجم البلدان ح ٢ ص ٢٤٠.

(٢) جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي إرمينية.

فدخل الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب في الصلح بينهم وأرسل إلى عمّه العادل في ذلك فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطاً من أميري ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره في خدمته أيَّ وقت طلبه.

وفيها وهي سنة ألف وخمسمائة وأربع عشرة للاسكندر كان ابتداء دولة المغول وذلك أن في هذا الزمان كان المستولي على قبائل الترك المشارقة أونك خان وهو المسمّى ملك يوحنا من القبيلة التي يقال لها كريت وهي طائفة تدين بدين النصرانية وكان رجل مؤيد من غيره هذه القبيلة يقال له تُموجين ملازماً لخدمة أونك خان من سنّ الطفولية إلى أن بلغ حدّ الرجولية وكان ذا بأس في قهر الأعداء فحسده الأقران وسعوا به إلى أونك خان وما زالوا يغتابونه عنده حتى اتهمه بتغيُّر النية وهمَّ باعتقاله والقبض عليه. فانضمَّ إليه غلامان من خدم أونك خان فأعلماه القضية وعيَّنا له الليلة التي فيها يريد أونك كبسَه وفي الحال أمر تموجين أهله بإخلاء البيوت عن الرجال وتركها على حالها منصوبة وكمن هو مع الرجال بالقرب من البيوت.

وفي وقت السحر لما هجم أونك وأصحابه على بيوت تموجين لقيها خالية من الرجال وكرّ عليه تموجين وأصحابه من الكمين وأوقعوا بهم وناوشوهم القتال وأثخنوا فيهم وهزموهم وحاربوهم مرّتين حتى قتلوه وأبطاله وسبوا ذراريَّه. وفي أثناء هذا الأمر ظهر بين المغول أمير معتبر كان يسيح في الصحاري والجبال في وسط الشتاء عرياناً حافياً ويغيب أياماً ثم يأتي ويقول: كلّمني الله وقال لي أن الأرض بأسرها قد أعطيتها لتموجين وولده وسمَّيته جنكزخان[١] فسمَّاه جنكزخان تبت تنكري[٢] وكان يرجع إلى قوله ولا يعدل عن رأيه. ولما علا شأن جنكزخان أرسل الرسل إلى جميع شعوب الترك فمن أطاعه وتبعه سعد ومن خالفه خُذل وأنعم على ذينك الغلامين وذرّيتهم بأن جعلهم ترخانيّة والترخان هو الحرّ الذي لا يُكلف بشيء من الحقوق السلطانية ويكون ما يغنم من الغزوات له مطلقاً لا يؤخذ منه نصيب للملك وزاد لهؤلاء أن يدخلوا على الملوك بغير إذن ولا يُعاقبوا على ذنب إلى تسعة ذنوب وكان لجنكزخان من الأولاد الذكور والإناث جماعة وكانت الخاتون الكبيرة زوجته تسمَّى اويسونجين بيكي. وفي رسم المغول اعتبار أبناء الأب الواحد بالشرف إنما يكون بالنسبة إلى الأمهات. وكان لهذه خاتون أربعة بنين ولأهم جنكزخان الأمور العظام في مملكته. الأول توشى ولي أمر الصيد والطرد وهو أحبّ الأمور إليهم.

والثاني جغاتاي ولي أمر الحكومات والسياسة أي الناموس والقضاء. والثالث أوكتاي ولي

(١) جنكزخان: معناه الملك المعظم، وهو سلطان التتر/ تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٥٩٣.

(٢) تنكري: اسم الله تعالى بالتركية.

تدبير الممالك لغزارة عقله وإصابة رأيه. والرابع تولي ولي أمر الجيوش وتجهيز الجنود والنظر في مصالح العساكر. وكان لجنكزخان أخ يقال له أوتكين فعيَّن له ولكلّ واحد من الأولاد بلاداً يقيمون بها. أما أوتكين فأقام بحدود الخطأ. وتوشي أقام بحدود قبالغ وخوارزم إلى أقصى سقسين وبلغار. وجغاتاي بحدود بلاد الايغور بالقرب من المايغ إلى سمرقند وبخارا. وأقام أوكتاي وهو وليّ العهد بحدود إيميل وقوتاق وجاوره تولي أيضاً في تلك النواحي وهي وسط مملكتهم كالمركز بالنسبة إلى الدائرة.

وفي سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم[١]. أقام الفرنج بظاهرها محاصرين للروم من شعبان إلى جمادي الأولى وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين نحو ثلاثين ألفاً ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار فاحترق نحو ربع البلد. فاشتغل الروم بذلك ففتح الفرنج الأبواب ودخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وقتلوا حتى الأساقفة والرهبان والقسيسين الذين خرجوا إليهم من كنيسة أيّا سوفيّا العظمى وبأيديهم الأناجيل والصلبان يتوسَّلون بها ليُبقوا عليهم. فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة. وكان الفرنج ثلاثة ملوك ذوقس البنادقة وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية وهو شيخ أعمى إذا ركب يقاد فرسه. والثاني المركيس مقدم الإفرنسيس. والثلث كندافلند وهو أكثر عدداً. فلما استولوا اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فملَّكوه عليها وتكون لذوقس البنادقة الجزائر مثل اقريطش ورودس وغيرهما ويكون لمركيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل نيقية ولاذيق وفيلادلف ولم تدم له فإنها تغلَّب عليها بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري.

وفيها في ذي القعدة توفّي السلطان ركن الدين صاحب الروم[٢] وملك ابنه قلج أرسلان وكان صغيراً. وكان غياث الدين كيخسرو أخو ركن الدين يومئذ بقلعة من قلاع القسطنطينية ولما سمع بموت أخيه سار إلى قونية وقبض على الصبيّ وملكها وجمع الله له البلاد جميعها وعظم شأنه وقوي أمره وكان ذلك في رجب سنة إحدى وستمائة. وفيها أغارت الكرج على أذربيجان وأكثروا النهب والسبي ثم أغاروا على خلاط وأرجيش فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملازكرد ولم يخرج إليهم من المسلمين أحد يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون. وفي سنة ثلاث وستمائة قبض عسكر خلاط على صاحبها محمد بن بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان.

وفي سنة أربع وستمائة ملك الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل مدينة

(١) في تاريخ ابن خلدون، ملك الأفرنج القسطنطينية سنة إحدى وستمائة.
(٢) بلاد الروم: تعرف حالياً بأسيا الصغرى.

خلاط. ولما سار عنها إلى ملازكرد ليقرّر قواعدها وثب أهلها على مَن بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا ونادوا بشعار شاه أرمن وإن كان ميتاً يعنون بذلك ردّ الملك إلى أصحابه ومماليكه. فعاد إليهم الأوحد وقتل بها خلقاً كثيراً من أعيان أهلها فذلّ أهل خلاط وتفرّقت كلمة الفتيان وكان الحكم إليهم وكفي الناس شرّهم فإنهم كانوا يقيمون ملكاً ويقتلون آخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وإنما الحكم لهم وإليهم. وفي سنة ستّ وستمائة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ومدينة نصيبين وحصر سنجار ثم عاد عنها.

وفيها استولى جنكزخان على بلاد قراخطا وكان أمير بلاد الايغور وهم طائفة كثيرة من الترك في طاعة ملك الخطا فلما صار الصيت لجنكزخان وشاع ذكره في البلاد أرسل إليه أمير الايغور وهو الذي يسمونه أيدي قوب[1] أي صاحب الدولة يطلب الأمان لنفسه ورعيته والدخول في زمرته.

فأكرم جنكزخان رسله وتقدم بوصوله إليه. فبادر أيدي قوب إلى الحضور في خدمته من غير توقُّف. فأقبل عليه جنكزخان وأحسن قبوله وأعاده إلى بلاده مكرّماً.

وفي سنة سبع وستمائة أواخرَ رجب تُوفّي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وكانت مدة ملكه ثماني عشرة سنة وكان شهماً شجاعاً ذا سياسة للرعايا شديداً على أصحابه أعاد ناموس البيت الأتابكي وجاهه وحرمته بعد أن كانت قد ذهبت.

ولما حضره الموت رتّب في الملك ولده الملك القاهر عزّ الدين مسعود وأمر أن يتولّى تدبير مملكته ويقوم بحفظها وينظر في مصالحها مملوكه بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداد رأيه وحسن سياسته وكمال السيادة فيه. وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة العقر الحميدية وقلعة شوش وسيَّره إلى العقر.

وفي سنة تسع وستمائة قصد ثلاثة نفر تجّار من البخاريّين ديار التاتار ومعهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس وغيرهما مما يليق بالمغول بما سمعوا أن للمتاع عندهم قيمة وافرة وأن الطرق قد أقام بها جنكزخان جماعة يسمّونهم قراقجية أي مستحفظين يخفرون المتردّدين إليهم فقوي عزمهم على ذلك فساروا نحوهم. ولما وصلوا إلى نواحيهم وأفاهم المستحفظون ووقفوا على ما معهم من السلع فرأوا قماش واحد منهم اسمه أحمد لائقاً للخازن فسيَّروه مع صاحبيه إليه. فعرض أحمد متاعه على الحجّاب وطلب في ثمن كل ثوب كان مشتراه عليه عشرة دنانير إلى عشرين ديناراً ثلاثة بواليش.

---

(١) إيدي قوت: معناه المرسل من الله.

فغضب لذلك جنكزخان وقال: هذا الغافل كأنه يظنّ إننا ما رأينا ثياباً قط وأمر الخازن فأراه من الأقمشة التي هداها إليه ملوك الخطا أشياء نفيسة وتقدّم أن يُكتب ما معه وأنهبه لمن حضر من الحاشية واعتقل أحمد. وطلب صاحبيهِ فعرضا عليه متاعهما برمّته وقالا: هذا كله إنما أتينا به لنقدمه خدمة للخان لا لنبيعه عليه. فألحّوا عليهما أن يثمّناه فلم يفعلا. فأمر جنكزخان أن يُعطيا لكل ثوب مذهَّب باليش من ذهب ولكل كرباسين باليش من فضَّة وعوَّض لأحمد أيضاً مثل ما أعطاهما وتقدّم إلى الأولاد والخواتين والأمراء أن يُنفذوا معهم جماعة من أصحابهم ومعهم بواليش الذهب والفضة ليجلبوا لهم من ظرائفي البلاد ونفائسها ما يصلح لهم فامتثلوا ما أمرهم به فاجتمع معهم مائة وخمسون تاجراً من مسلم ونصرانيّ وتركيّ وأرسل معهم رسولاً إلى السلطان محمد يقول له: إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين وقد سيَّرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من ظرائف تلك الأطراف فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم موادّ النفاق من ذات البين.

فلما وصل التجار إلى مدينة أُترار طمع أميرها غاير خان فيما معهم من الأموال فطالع السلطان محمد في أمرهم وحسّن له إبادتهم واغتنام مالهم فأذن له في ذلك فقتلهم طرًّا إلا واحداً منهم فإنه هرب من السجن. ولما رأى ما جرى على أصحابه لحق بديار التاتار وأعلمهم بالمصيبة. فعظم ذلك عند جنكزخان وتأثَّر منه إلى الغاية وهجر النوم وصار يحدّث نفسه ويفتكر فيما يفعله.

وقيل إنه صعد إلى رأس تلّ عالٍ وكشف رأسه وتضرَّع إلى الباري تعالى طالباً نصره على من باداه بالظلم وبقي هناك ثلاثة أيام بلياليها صائماً. وفي الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد وبيده عكازة وهو قائم على بابه يقول له: لا تخف افعل ما شئت فإنَّك مؤيَّد. فانتبه مذعوراً ذعراً مشوباً بالفرح وعاد إلى منزله وحكى حلمه لزوجته وهي ابنة أونك خان. فقالت له: هذا زيُّ اسقف كان يتردَّد إلى أبي ويدعو له ومجيئه إليك دليل انتقال السعادة إليك. فسأل جنكزخان مَن في خدمته من نصارى الايغور. هل ههنا أحد من الأسقافة. فقيل له عن مار دنحا.

فلما طلبه ودخل عليه بالبيرون الأسود قال: هذا زيّ مَن رأيت في منامي لكن شخصه ليس ذاك. فقال الأسقف: يكون الخان قد رأى بعض قديسينا. ومن ذلك الوقت صار يميل إلى النصارى ويحسن الظنّ بهم ويكرمهم. وفي سنة عشر وستمائة قصد جنكزخان بلاد السلطان محمد ولما وصل إلى نواحي تركستان أتاه الأمير أرسلان خان من غياليغ والأمير أيدي قوب من بيش باليغ والأمير سفتاق من الماليغ وساروا في عساكرهم.

ولما اجتمعت العساكر جميعها بقصبة مدينة أُترار سيَّر جنكزخان ابنه الكبير في تُومانَين

عسكر إلى جانب خُجَنْد[١] وتوجَّه هو بنفسه إلى بخارا ورتَّب على محاصرة أترار ولديه جغاتاي وأوكتاي فدام القتال عليها مدة خمسة أشهر لأن السلطان محمداً كان قد سيَّر إليها غاير خان في خمسة آلاف فارس وقراجا خاص حاجب في عشرة آلاف وكانوا كلهم بها. ولما ضاقت الحيلة بمن في المدينة وعجزوا عن المقاومة شاور قراجا لغاير خان في الصلح وتسليم البلد.

فأبى غاير خان إلا المجاهدة حتى الموت لعلمه أن المغول لا يبقون عليه فلم يرَ في المصالحة مصلحة. فتوقَّف قراجا إلى هجوم الليل وخرج في أكثر عسكره إلى خارج من باب دروازه الصوفي. فعوقوه إلى الصبح ثم حمل إلى ابنَي جنكزخان فاستنطقاه واستعلما منه كنهَ أحوال البلد وأمرا بقتله وقتل كلّ من معه قائلين: إذا كنتَ ما أبقيت على مخدومك وولّي نعتمك فلا تبقى ولا علينا. وزحف العسكر إلى المدينة فدخلوها وأخرجوا أهلها جميعهم إلى ظاهرها وأغاروا على ما فيها. وبقي غاير خان في عشرين ألفاً من عسكره متفرقين في دروب المدينة لم يتمكن منهم المغول وكانوا يخرجون خمسين خمسين يكاوحون ويطعنون في عسكر المغول ويقتلون ثم يُقتلون.

وكان هذا دأبهم شهراً إلى أن بقي غاير خان ومعه نفران يجالدون في سطح دار السلطنة وكان قد برز مرسوم الخان أن لا يُقتل غاير خان في الحرب لكن يُحمل إليه حيّاً.

فلذلك كثر التعب معه وقُتل صاحباه وبقي وحده يقاتل بالأجرّ الذي كان الجواري يناولنه من الجدار. فلما عجز عن المناولة أحاط به المغول وقبضوه وحملوه إلى جنكزخان بعد عوده من بخارا إلى سمرقند وقُتل هناك في كوك سراي. وفي سنة اثنتي عشرة في شعبان ملك السلطان محمد مدينة غزنة وكان استولى قبل ذلك على عامَّة خراسان وملك باميان.

وفي سنة ثلاث عشرة في العشرين من جمادى الآخرة تُوفّي الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو صاحب مدينة حلب وخلف أولاداً ذكوراً من جملتهم الملك العزيز محمد من ابنة عمه الملك العادل وكان عمر ولده هذا سنتين وشهوراً[٢] ووصّى به إلى مملوكه شهاب الدين طغرل الخادم فصار أباتكه وقام بتربيته أحسن قيام. وفي سنة خمس عشرة وستمائة توفّي الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن أرسلان شاه ابن مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل ليلة الإثنين لثلاث بقينَ من ربيع الأول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر وأوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه وعمره حينئذ نحو عشر سنين وجعل الوصّي عليه والمدبّر لدولته بدر الدين لؤلؤاً. وكان عمّه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقر

(١) خُجَند: وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون. معجم البلدان ح ٢ ص ٣٩٧.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٣٩٧ وهو ابن ثلاث سنين. وكذلك الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠ ص ٣٦٩.

يحدّث نفسه بالملك. فرقع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وأحسن السيرة مع الخاصّ والعامّ وخلع على كافة الناس وغيَّر ثياب الحداد عنهم فلم يخصَّ بذلك شريفاً دون مشروف ولا كبيراً دون صغير. وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر في أمور دولته والتشريفات لهما أيضاً. وكان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب اربل قام في نصر عماد الدين زنكي فملّكه قلعة العمادية وباقي قلاع الهكارية والزّوزان. فراسله بدر الدين يذكره الإيمان والعهود ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضي منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم. فلم يفعل وأظهر معاضدة زنكي. فأرسل بدر الدين إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط وانتمى إليه وصار في طاعته وطلب منه المعاضدة.

فأجابه بالقبول وبذل له المساعدة وأرسل إلى مظفر الدين يقبّح هذه الحالة ويقول له أن يرجع إلى الحق وإلا قصَده هو بنفسه وعسكره. فلم تحصل الإجابة منه إلى شيء من ذلك إلى أن حضرت الرسل من الخليفة الناصر ومن الملك الأشرف في الصلح فأطاعوا واصطلحوا وتحالفوا بحضور الرسل. ولما تقرَّر الصلح تُوفّي نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل ورُتّب في الملك بعده أخوه ناصر الدين محمود وله من العمر نحو ثلاث سنين وحلف له الجند وركّبه بدر الدين فطابت نفوس الناس إذ علموا أن لهم سلطاناً من البيت الأتابكيّ. وفيها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة وكانت مدة مملكته ثماني عشرة سنة. وخلف ولده الملك الكامل صاحب مصر. والملك المعظَّم صاحب دمشق. والملك الأشرف صاحب حرّان والرها وخلاط. والملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميّافارقين.

والملك الحافظ صاحب قلعة جعبر. والملك العزيز صاحب بانياس. والملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى. والملك الفائز يعقوب والملك الأمجد عباس والملك الأفضل والملك القاهر

ولما مات نور اليدين الملك القاهر صاحب الموصل وملك أخوه ناصر الدين تجدد لعماد الدين ومظفر الدين الطمع لصغر سنّ ناصر الدين فجمعا الرجال وتجهزا للحركة. فلما بلغ ذلك بدر الدين لؤلؤاً أرسل إلى عزّ الدين أيبك مقدّم عسكر الأشرف الذي بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم فساروا إلى الموصل رابع رجب سنة خمس عشرة واستراحوا أياماً ثم عبروا دجلة ونزلوا شرقيها على فرسخ من الموصل.

وجمع مظفر الدين عسكره وسار إليهم ومعه زنكي فعبر الزاب وسبق خبره. وعند انتصاف الليل سار أيبك ولم يصبر إلى الصبح فتقطعوا في الليل والظلمة والتقوا هم والخصم على ثلاثة فراسخ من الموصل. فأمّا عزّ الدين فحمل على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكي. وميمنة

مظفر الدين حملت على ميسرة بدر الدين وهزمتها. وبقي بدر الدين في النفر الذي معه في القلب وتقدّم إليه مظفر الدين في مَن معه في القلب إذا لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد إلى الموصل هارباً وعبر دجلة إلى القلعة وتبعه مظفر الدين وأقام وراء تلّ حصن نينوى ثلاثة أيام ورحل ليلاً من غير أن يضربوا كوساً وبوقاً.

ثم ملك عماد الدين قلعة الكَواشَى وملك بدر الدين تلّ اعفر وملك الأشرف سنجار وسار يريد الموصل ليجتاز منها إلى اربل. فقدم بين يديه عسكره ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى سنة ستّ عشرة وستمائة وكان يوم وصوله مشهوداً ترجَّل له بدر الدين وحمل الغاشية بين يديه.

وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين ما عدا قلعة العماديَّة وطال الحديث في ذلك نحو شهرين. ثم رحل الأشرف يريد مظفر الدين فوصل قرية السَّلاميَّة بالقرب من الزاب وكان مظفر الدين نازلاً عليه من جانب أربل فأعاد الرسل إلى الأشرف في طلب الصلح وكان عسكر الأشرف قد طال بيكاره والناس قد ضجروا فوقعت الإجابة إلى الصلح وعاد الأشرف إلى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة.

وفي سنة ستّ عشرة وستمائة تُوفّي السلطان عزّ الدين كيكاوس بن كيخسرو ابن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم ولم يخلف ولداً يصلح للملك لصغر سنّهم. وأخرج الجند أخاه علاء الدين كيقباذ من قلعة المِنشار التي على الفراب بقرب ملطية وكان مسجوناً بها فملّكوه وحلف الناس له فأحسن تدبيره لملكه وكان شديداً على أصحابه ذا عزم وحزم وهيبة عظيمة.

وفي سنة سبع عشرة وستمائة في أوائل المحرَّم نزل جنكزخان في عساكره على مدينة بخارا وأحاط بها العساكر من جميع جوابنها. وكان بها من عسكر السلطان محمد عشرون ألفاً مقدَّمهم كوك خان وسونج وكشلي خان.

ولما تحققوا عجزهم عن مقاومة المغول خرجوا من الحصار بعد غروب الشمس فأدركهم المحافظون من عسكر المغول على نهر جيحون فأوقعوا فيهم وقتلوهم كافة ولم يُبقوا منهم أثراً. فلما فارق المقاتلون المدينة لم يبقَ لأهلها حيلة إلاّ التسليم والخروج وطلب الأمان فخرج الأيمَّة والأعيان إلى خدمة جنكزخان يتضرَّعون إليه ويطلبون حقن دمائهم حسبُ. فتقدّم بإخراج كل من بالمدينة إلى ظاهرها فخرجوا ودخل هو وولده تولي إلى المدينة فوقف على باب مسجد الجامع وقال: هذا دار السلطان. فقالوا: لا بل خانة يزدان أي بيت الله. فنزل ودخل الجامع وصعد إلى المنبر وقال لأكابر بخارا: إن الصحراء خالية عن العلف فأنتم أشبعوا الخيل مما عندكم في الأنبار.

ففتحوها وصاروا ينقلون ما فيها من الغلاّت ورموا ما في الصناديق من الكتب وجعلوها أواريّ للخيل وأحضروا الطعام والشراب هناك وأكلوا وشربوا وطربوا. ثم خرج جنكزخان إلى منزله وجمع الأئمّة والمشايخ والسادات والعلماء وقال لهم: إن الله ملك الكلّ وضابط الكلّ أرسلني لأطهّر الأرض من بغي الملوك الجائِرة الفسقة الفجرة وذكر لهم ما فعله أمير أترار بإذن سلطانه بالتجار إلى غير ذلك ثم أمرهم أن يعتزلوا الأغنياء وأصحاب الثروة بمعزل عن الفقراء فعزلوهم وكانوا مائتي ألف وثمانين ألفاً. فقال لهم: إن الأموال التي فوق الأرض لا حاجة بنا إلى استعلامها منكم وإنما نريد أن تظهروا لنا الدفائن التي تحت الأرض. فقبلوا بالسمع والطاعة.

ووكلوا مع كل قوم باسقاقاً يستخرج المال وأشار سرّاً إلى المستخرجين أن لا يكلفوهم ما لا يطيقونه ويرفقوا بهم وذلك لما رأى من حسن إجابتهم إلى ما أُمروا به. ولأن جماعة من عسكر السلطان كانوا مختفين بالمدينة أمر فرمَوا في محالها النار فاحترقت المدينة بأسرها لأن جلّ عمائِرها من خشب فبقيت عرضة بخارا قاعاً صفصفاً وتفرّق أهلها منتزحين إلى خراسان.

وفيها في ربيع الأول نزل جنكزخان على مدينة سمرقند[1] وكان قد رتّب السلطان محمد فيها مائة ألف وعشرة آلاف فارس يقومون بحراستها.

فلما نازلها منع أصحابَه عن المقاتلة وأنفذ سنتاي نوين ومعه ثلاثون ألف محارب في أثر السلطان محمد. وغلاق نوين وبسور نوين إلى جانب طالقان. وأحاط باقي العسكر بالمدينة وقت سحر فبرز إليهم مبارزو الخوارزمية ونازعوهم القتال وجرحوا جماعة كثيرة من التاتار وأسروا جماعة وأدخلوهم المدينة. فلما كان من الغد ركب جنكزخان بنفسه ودار على العسكر وحثهم على القتال فاشتدّ القتال ذلك اليوم بينهم ودام النهار كله من أوله إلى أول الليل ووقف الأبطال من المغول على أبواب المدينة ولم يمكّنوا أحداً من المجاهدين من الخروج فحصل عند الخوارزمية فتور كثير ووقع الخلف بين أكابر المدينة وتلوّنت الآراء فبعض مال إلى المصالحة والتسليم وبعض لم يأمن على نفسه وإن أُومن خوفاً من غدر التاتار فقوي عزم القاضي وشيخ الإسلام على الخروج فخرجا إلى خدمة جنكزخان وطلبا الأمان لهما ولأهل المدينة فلم يجبهما إلاّ إلى أمان أنفسهما ومن يلوذ بهما.

فدخلا إلى المدينة وفتحا أبوابها فدخل المغول واشتغلوا ذلك اليوم بتخريب مواضع من السور وهدم بعض الأبرجة ولم يتعرضوا إلى أحد إلى أن هجم الليل فدخلوا إلى المدينة وصاروا يُخرجون من الرجال والنساء مائة مائة بالعدد إلى الصحراء ولم ينكفّوا إلاّ عن القاضي وشيخ

(١) سمرقند: بلد معروف ومشهور بما وراء النهر معجم البلدان.

الإسلام وعمَّن التجأ إليهما فاحتمى بهما نيِّف وخمسون ألفاً من الخلق. ولما أصبح الصباح شرع المغول في نهب المدينة وقتل كل مَن لحقوه مختبئاً في المغائر ومتوارياً بالستائر وقتلوا تلك الليلة نحو ثلاثين ألف تُركيّ وقنقليّ وقسموا بالنهار ثلاثين ألفاً على الأولاد والأمراء وأطلقوا الباقي ليرجعوا إلى المدينة ويجمعوا من بينهم مائتي ألف دينار ثمن أرواحهم وكان المحصِّل لهذا المال ثقة الملك والأمير عميد وهما من أكابر سمرقند والشحنة طايفور. ومن هناك توجَّه جنكزخان بعساكره إلى نواحي خوارزم وأنفذ الرسل إليهم يدعوهم إلى الأيلية والدخول في طاعته وشغلهم أياماً بالوعد والوعيد والتأميل والتهديد إلى أن اجتمعت العساكر ورتَّب آلات الحرب من منجنيق وما يرمى بها.

ولأن صقع خوارزم لم يكن فيه حجر كان المغول يقطعون من أشجار التوت قطعاً كالحجارة ويرمون بها وملأوا الخندق بالتراب والخشب والهشيم وأنشبوا الحرب والقتال على المدينة من جميع جوانبها حتى عجز مَن فيها عن المقاومة فملكوا سورها وأضرموا النار في محالّها فأتت على أكثر دورها وما فيها فأيس المغول من الانتفاع بشيء من غنائمها فأعرضوا عن الحريق وصاروا يملكون محلَّة محلَّة لأن أهلها كانوا يمتنعون فيها أشدّ امتناع.

ولم يزالوا كذلك إلى أن ملك المغول كل المحالّ وأخرجوا الخلائق كافة إلى الصحراء وفرزوا الصنَّاع والمحترفين إلى الناحية وكانوا مائة ألف وأسروا البنين والبنات والنساء اللواتي يُنتفع بهنَّ وقسموا الباقي من الرجال والنساء العجائز على العسكر ليقتلوهم فقتل كل واحد منهم أربعاً وعشرين شخصاً. وفي أوائل سنة ثماني عشرة وستمائة عبر جنكزخان نهر جيحون وقصد مدينة بلخ فخرج إليه أعيانها وبذلوا الطاعة وحملوا الهدايا وأنواعاً من الترغو أي المأكل والمشرب. فلم يقبل عليهم بسبب أن السلطان جلال الدين بن السلطان محمد كان في تلك النواحي يهيّىء أسباب الحرب ويستعدّ للقتال فأمر بخروج أهل بلخ إلى الصحراء ليعدّوهم كالعادة فلما خرجوا بأسرهم رمى فيهم السيف.

ومن هناك توجه نحو الطالقان وقتل أكثر أهلها وأسر من صلح للأسر وأبقى البعض. وسار إلى الباميان فعصى أهلها وقاتلوا قتالاً شديداً واتفق أن أُصيب بعض أولاد جغاتاي بسهم جرح فقضى نحبه وكان من أحبّ أحفاد جنكزخان إليه فعظمت المصيبة بذلك واضطرمت النيران في قلوب المغول وجدّوا في القتال إلى أن فتحوها وقتلوا كل من فيها حتى الدوابّ والبقر والأجنَّة التي في بطون الحبالى أيضاً ولم يأسروا منها أحداً قط وتركوها أرضاً قفراً ولم يسكنها أحد إلى اليوم وسمّوها ماوباليغ أي قرية بؤس.

ولما فرغ جنكزخان من تخريب بلاد خُراسان سمع أن السلطان جلال الدين قد استظهر

بالعراق فسار نحوه ليلاً ونهاراً بحيث أن المغول لم يتمكنوا من طبخ لحم إذا نزلوا. فحين وصلوا إلى غزنة أُخبروا بأن جلال الدين من خمسة عشر يوماً رحل عنها وهو عازم على أن يعبر نهر السند. فلم يستقرّ جنكزخان ورحل في الحال وحمل على نفسه بالسير حتى لحقه في أطراف السند فطاف به العسكر من قدامه ومن خلفه وداروا عليه دائرة وراء دائرة كالقوس الموتورة ونهر السند كالوتر وهو في وسط. وبالغ المغول في المكاوحة وتقدم جنكزخان أن يُقبض حياً ووصل جغاتاي وأوكتاي أيضاً من جانب خوارزم. ولما رأى جلال الدين أنه يوم عمل شهم وضرغم أبطال المغول وتطلّب إطلابهم وحمل عليهم حملة وشقَّ صفوفهم مرَّة بعد مرَّة وطال الأمر بمثل ذلك لامتناع المغول عن رميه بالنشَّاب ليحضروه غير مؤُوف بين يدي جنكزخان امتثالاً لمرسومه فكانوا يتقدمون إليه قليلاً قليلاً.

فلما عاين تضييق الحلقة عليه نزل فودَّع أولاده بل أكباده من نسائه وخواصّه باكياً كثيباً ثم رمى عنه الجوشن وركب جنيبه وهو كالأسد الغيور وهمَّ بالعبور وأقحم فرسه النهر فانقحم وعام وخلص إلى الساحل وجنكزخان وأصحابه ينظرون إليه ويتأملونه حيارى. ولما شاهد ذلك جنكزخان وضع يده على فمه متعجباً والتفت إلى ولديه وقال لهما: من أبٍ مثل هذا الابنُ ينبغي أن يولَد. إذا نجا من هذه الوقعة فوقائع كثيرة تجري على يديه.

ومن خطبه لا يغفل من يعقل. وأراد جماعة من البهادوريَّة أن يتبعوه في الماء فمنعهم جنكزخان قائلاً: إنكم لستم من رجاله لأنه كان يرامي المغول بالسهام وهو في وسط الشط. فلما فاتهم أخذوا أمر الخان بإحضار حرمه وأولاده وتقدم بقتل جميع الذكور وحتى الرضع ولأن جلال الدين عندما أراد الخوض في النهر ألقى جميع ما كان صحبته من آنية الذهب والفضة والنقرة فيه أمر الغوَّاصين فأخرجوا منها ما أمكن إخراجه. وكان هذا الأمر الذي هو من عجائب الأنام ودواهي الأيام في رجب فقيل في المثل: **(عش رجباً ترَ عجباً)**.

وفيها أعني سنة ثماني عشرة وستمائة كان اجتماع الملك المعظم والملك الأشرف مع نجدة صاحب ماردين وعسكر حلب والملك الناصر صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص واتصال الجميع بالملك الكامل على عزم قصد الفرنج وردّ دمياط منهم. فأحاطوا بهم وضيقوا السبيل عليهم فأجابوا إلى الصلح على تسليم دُمياط وإطلاق ما بأيديهم من أسراء المسلمين وإطلاق ما بأيدي المسلمين من أُسراهم وقُرّر الصلح عاماً مع الدكاد نائب البابا وملك عكا وملوك فرنجة ومقدمي الداوية والاسبتارية وتسلَّم الكامل دمياط يوم الأربعاء تاسع عشر رجب.

وكانت مدة مقام الفرنج بها سنة كاملة وأحد عشر شهراً.

وفي سنة إحدى وعشرين وستمائة توفي الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين وقد نزل عن ملك مصر والشام وقنع بسميساط كرهاً. وكان عنده علم وفطنة لكنه كان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عمَّا يجب للدول وتدبير الممالك. ولما أُخذت منه البلاد كتب إلى الخليفة الناصر كتاباً ضمَّنه شكاية عمّه العادل وأخيه العزيز حيث أخذا منه البلاد ونكثا عهد أبيه له بها. وكتب في أول الكتاب بيتين من الشعر عملهما وأحسن فيهما وهما:

مولاي إنَّ أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذا بالسيف حقَّ علي
فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأولِ

يريد بأبي بكر عمه وبعثمان أخاه وبعلي نفسه. فأجابه الناصر عن كتابه بكتاب كتب فيه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر أن أصلك طاهرُ
غصبوا علياً حقه إن لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصرُ
فاصبر فإنَّ غداً عليه حسابهم وأبشر فناصرك الإمام الناصرُ

وكان الملك الأفضل قد شغله أبوه في صباه بشيء من العلم فحصل منه طرفاً من العربية والشعر وكان ينظمه ويعتني به بالنسبة إلى حاله.

وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد في ليلة عيد الفطر وكان عمره سبعين سنة ومدَّة خلافته ستاً وأربعين وأحد عشر شهراً.

وكان في الأيام الإمامية الناصريَّة الحكيم عبد السلام بن جنكي دوست الجبلي البغدادي قد قرأ علوم الأوائل وأجادها واشتهر بهذا الشأن شهرةً تامة وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشرّ فثلبه أحدهم بأنه معطِّل فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة وبرزت الأوامر الناصريَّة بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وأن يُحرَق الجمّ منها بحضور الجمع ففعل ذلك وأُحضر لها عبيد الله التيمي المعروف بابن المارستانية وجُعل له منبر وصعد عليه وخطب خطبة لعن بها الفلاسفة ومن يقول بقولهم وذكر الركنَ هذا بشرّ وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً يتكلم عليه ويبالغ في ذمّه وذمّ مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار.

قال القاضي الأكرم الوزير جمال الدين بن القفطي رحمه الله: أخبرني الحكيم يوسف السبتي الإسرائيلي قال: كنت ببغداد يومئذٍ تاجراً وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو يقول: وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصمَّاء والمصيبة العمياء. وبعد إتمام كلامه خرقها وألقاها في النار.

فاستدللت على جهله وتعصبه إذ لم يكن في الهيئة كفر وإنما هي طريق إلى الإيمان ومعرفة

قدر الله جلَّ وعزَّ فيما أحكمه ودبَّره. واستمرّ الركن عبد السلام في السجن معاقبة على ذلك إلى أن أُفرج عنه سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي هذه السنة توفي يحيى بن سعيد بن ماري الطبيب النصراني صاحب المقامات الستين صنفها وأحسن فيها وكان فاضلاً في علوم الأوائل وعلم العربية والشعر يرتزق بالطبّ. ومن شعره في الشيب:

نفرت هند من طلائع شيبي واعترتها سآمة من وجومي
هكذا عادة الشياطين ينفر نَ إذا ما بدت نجوم الرجوم

ومن أطباء الدار الإمامية الناصريَّة صاعد بن هبة الله بن المؤمل أبو الحسن النصرانيّ الحظيري المتطبّب وأخوه أبو الخير الاركيذياقون وهما أخوا الجاثليق المعروف بابن المسيحي. أما صاعد فخدم الخليفة الناصر وتقرَّب قرباً كثيراً وكانت له المعرفة التامة بالطبّ والمنطق وصنَّف كتاباً صغير الحجم سمَّاه الصفوة جمع فيه أجزاء الطبّ علميَّها وعمليَّها وألحق في آخر الفنّ الأول من الجزء الثاني ثلاثة فصول في الختانة لكونها منوطة بالأطبَّاء ببغداد وإن كان لا يسمع لأحد من المتقدمين ولا المتأخرين فيها قولاً بل فيما يطول القلفة.

وكان ينسخ بخطه كتب الحكمة. ومات في آخر سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وأما الأركيذياقون وكان أيضاً فاضلاً صنَّف كتاباً مختصراً لخص فيه مباحث كتاب الكليات من القانون سمَّاه الاقتضاب ثم اختصره وسمَّى المختصر انتخاب الاقتضاب. وحكى لي بعض الأطبَّاء ببغداد أن أباه حمله وهو مترعرع إلى ابن التلميذ ليشغله فقال: هذا ابنك صغير جداً. فقال: غرضي التبرّك منك. فأقرأه المسئلة الأولى من مسائل حُنين.

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة توفي محمد بن عبد السلام المقدسيّ ثم المارديني كان أبوه قاضي ماردين وجدّه قاضي دُنَيْسِر قرأ الطبّ على ابن التلميذ فبلغ منه الغاية حتى أن الملوك كانت تخطبه من النواحي والأقطار وكان على علوّ السنّ يكرّر على كتب كبار. وقرأ عليه الشهاب السهروردي شيئاً من الحكمة.

ولم يصنّف كتاباً مع غزارة علمه وتمكنه وحسن تصرّفه فيه إلاّ أنه شرح أبيات ابن سينا التي أولها: هبطت إليك. وكان أبو الخير بن المسيحي يفخم أمره ويعظم شأنه.

وفي سنة خمس وستمائة مات موسى بن ميمون اليهوديّ الأندلسيّ وكان قد قرأ علم الأوائل بالأندلس وأحكم الرياضيات وقرأ الطبّ هناك فأجاده علماً ولم يكن له جسارة على العمل. وأُكره على الإسلام فأظهره وأسرَّ اليهودية. ولما التزم بجزيات الإسلام من القراءة والصلاة فعل ذلك إلى أن أمكنته الفرصة في الرحلة بعد ضمّ أطرافه فخرج عن الأندلس إلى مصر

ومعه أهله ونزل مدينة الفسطاط بين يهودها فأظهر دينه وارتزق بالتجارة في الجوهر وما يجري مجراه.

ولما ملك العزيز[١] مصر وانقضت الدولة العلوية اشتمل عليه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ البيساني ونظر إليه وقرّر له رزقاً وكان يشارك الأطباء ولا ينفرد برأيه لقلّة مشاركته ولم يكن وقفاً في المعالجة والتدبير. وكان عالماً بشريعة اليهود وصنّف كتاباً في مذهب اليهود سمّاه بالدلالة وبعضهم يستجيده وبعضهم يذمُّه ويسمّيه الضلالة.

وغلب عليه النحلة الفلسفية وصنّف رسالة في المعاد الجسماني وأنكر عليه مقدمو اليهود فأخفاها إلاّ عمّن يرى رأيه. ورأيت جماعة من يهود بلاد الفرنج الغُتْم بأنطاكية وطرابلس يلعنونه ويسمّونه كافراً. وله تصنيفات حسنة في الرياضيات ومقاربة في الطبّ. وابتلي في آخر زمانه برجل من الأندلس فقيه يُعرف بأبي العرب وصل إلى مصر وحاققه على إسلامه ورام أذاه فمنعه عنه القاضي الفاضل وقال له: رجل يُكره ولا يصحّ إسلامه شرعاً. ولما قرب وفاته تقدّم إلى مخلفيه أن يحملوه إذا انقطعت رائحته إلى بحيرة طبرية فيدفنوه هناك لما فيها من قبور صالحيهم ففعل به ذلك.

وفي سنة ست وستمائة في ذي الحجة توفي بهراة الإمام الفخر الرازيّ محمد بن عمر المعروف بابن الخطيب بالريّ. وكان من أفاضل أهل زمانه بَزَّ القدماء في الفقه وعلم الأصول والكلام والحكمة وردَّ على أبي عليّ بن سينا واستدرك عليه. وكان يركب وحوله السيوف المجذبة وله المماليك الكثيرة والمرتبة العالية والمنزلة الرفيعة عند السلاطين الخوارزمشاهية. وعنَّ له أن تهوَّس بعمل الكيمياء وضيَّع في ذلك مالاً كثيراً ولم يحصل على طائل. وسارت مصنفاته في الأقطار واشتغل بها الفقهاء.

ورحل إلى ما وراء النهر لقصد بني مارة ببخارا ولم يلقَ منهم خيراً وكان فقيراً يومئذٍ لا جدَة له فخرج من بخارا وقصد خراسان واتفق اجتماعه بخوارزمشاه محمد بن تكش فقرَّبه وأدناه ورفع محلَّه وأسنى رزقه. واستوطن مدينة هراة وتملك بها ملكاً وأولد أولاداً وأقام بها حتى مات ودُفن في داره. وكان يخشى أن العوام يمثلون بجثته لما كان يظنّ به من الانحلال. وفي مسيره إلى ما كان وراء النهر يقصد بخارا في حدود سنة ثمانين وخمسمائة اجتاز بعبد الرحمن بن عبد الكريم السرخسيّ الطبيب ونزل عليه فأكرمه وقام بحقه مدّة مقامه بسرخس فأراد أن يفيده مما لديه فشرع له في الكلام على كليات القانون وشرح المستغلق من ألفاظ هذا الكتاب ورسمه بإسمه وذكره في مقدمته ووصفه وأثنى عليه.

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٣٨٨ الملك العزيز هو عثمان ابن السلطان الملك الناصر/ صلاح الدين بن أيوب.

وفي سنة ثماني وستمائة توفي المسيحي ابن أبي البقاء النيلي نزيل بغداد وكنيته أبو الخير ويُعرف بابن العطار وكان خبيراً بالعلاج قيّماً به له ذكر وقرب من دار الخليفة يطبّ النساء والحواظي عاش عمراً طويلاً وحصل مالاً جزيلاً وخلف ولداً طبيباً لم يكن رشيداً يكنى أبا عليّ. ولما مات أبوه اتفق أن كان على بعض مسرَّاته إذ كُبس في ليلة الجمعة حادي عشر ربيع الأول من سنة سبع عشرة وستمائة وعنده امرأة مسلمة تعرف بستّ شرف.

فلما قُبض عليه أقرَّ على جماعة من المسلمات كنَّ يأتينه لأجل دنياه من جملتهنَّ زوجة ابن البخاري صاحب المخزن اسمها اشتياق. فخرج الأمر بسجن المرأتين بسجن الطرَّارات وفدى أبو عليّ نفسه بستة آلاف دينار.

(علي بن أحمد أبو الحسن المعروف بابن هبل) وفي سنة تسع عشرة وستمائة في المحرَّم **توفي عليّ بن أحمد أبو الحسن الطبيب المعروف بابن هبل** وكان من أهل بغداد عالماً بالطبّ والأدب وُلد ببغداد ونشأ بها ثم جاز إلى الموصل وخرج إلى أذربيجان وأقام بخلاط عند صاحبها شاه أرمن يطبُّه قرأ الناس عليه. وفارق تلك الديار لسبب وهو أن بعض الطشتدراية قال له يوماً وقد نظر قارورة الملك في بعض أمراضه: يا حكيم لِمَ لا تذوقها. فسكت عنه. فلما انفصل المجلس قال له في خلوة: قولك هذا اليوم عن أصل أم من قول غيرك أو هو شيء خطر لك. فقال: إنما خطر لي لأني سمعت أن شرط اختبار القارورة ذوقها. فقال الأمر كذلك ولكن لا في كل الأمراض وقد أسأت إليَّ بهذا القول لأن الملك إذا سمع هذا ظنَّ أنني قد أخللت بشرط واجب من شروط خدمته.

ثم أنه عمل على الخروج لأجل هذه الحركة والخوف من عاقبتها بعد أن رشا الطشت دار حتى لا يعود إلى مثلها. وخرج وعاد إلى الموصل وقد تموَّل فأقام بها إلى حين وفاته. وعمَّر حتى عجز عن الحركة وعدم بصره فلزم منزله قبل وفاته بسنتين ومات وعمره خمس وتسعون سنة. وكان الناس يترددون ويقرأون عليه. وصنَّف كتاباً حسناً في الطبّ سماه المختار يجيء في أربع مجلدات.

وفي سنة عشرين وستمائة ثامن وعشرين جمادى الأولى ليلة الخميس **قُتل أبو الكرم صاعد بن توما النصرانيّ الطبيب البغداديّ ويُلقب بأمين الدولة**. كان فاضلاً حسن العلاج كثير الإصابة وكان من ذوي المروآت تقدَّم في أيام الإمام الناصر إلى أن صار في منزلة الوزراء واستوثقه على حفظ أمواله وخواصّه وكان يودعها عنده ويرسله في أمور خفيَّة إلى الوزير ويظهر له كلَّ وقت.

وكان حسن الوساطة جميل المحضر تقضي على يده حاجات الناس. وكان الإمام الناصر في

آخر أيامه قد ضعف بصره وأدركه سهو في أكثر أوقاته. ولما عجز عن النظر في القصص استحضر امرأة من النساء البغداديات تُعرف بستّ نسيم وقرَّبها وكانت تكتب خطاً قريباً من خطه وجعلها بين يديه تكتب الأجوبة وشاركها في ذلك خادم اسمه تاج الدين رشيق فصارت المرأة تكتب في الأجوبة ما تريد فمرَّة تصيب ومراراً تخطىء. واتفق أن كتب الوزير القمّيّ المدعو بالمؤيَّد مطالعة وعاد جوابها وفيه إخلال بيّن فتوقف الوزير وأنكر ثم استدعى الحكيم صاعد بن توما وسأله عن ذلك سراً.

فعرّفه ما الخليفة عليه من عدم البصر والسهو الطارىء في أكثر الأوقات وما يعتمده المرأة والخادم من الأجوبة. فتوقَّف الوزير عن العمل بأكثر الأمور الواردة عليه. وتحقَّق الخادم والمرأة ذلك وحدسا أن الحكيم هو الذي دلَّه على ذلك. فقرَّر رشيق مع رجلين من الجند أن يغتالا الحكيم ويقتلاه وهما رجلان يُعرَفان بولدَي قمر الدين من الأجناد الواسطية. فرصدا الحكيم في بعض الليالي إلى أن خرج من دار الوزير عائداً إلى دار الخليفة فتبعاه إلى باب الغَلَّة المظلمة ووثبا عليه بسكينيهما وجرحاه وانهزما. فبصر بهما وصاح: خذوهما. فعادا إليه وقتلاه وجرحا النفَّاط الذي بين يديه. وحُمل الحكيم ابن توما إلى منزله ودفن بداره في ليلته. وبعد تسعة أشهر نُقل إلى تربة آبائه في البيعة بباب المحوَّل. وبحث الخليفة والوزير عن القاتلَين فعُرفا وأمر بالقبض عليهما وفي بكرة تلك الليلة أُخرجا إلى موضع القتل وشقَّ بطناهما وصلبا على باب المذبح المحاذي لباب الغلة التي جُرح في بابها.

(الظاهر بن الناصر): ولما توفي الناصر لدين الله بويع ابنه الإمام الظاهر بأمر الله عدَّة الدين أبو نصر محمد في ثاني شوَّال من سنة اثنتين وعشرين وستمائة. وكان والده قد بايع له بولاية العهد وكتب بها إلى الآفاق وخُطب لها بها مع أبيه على سائر المنابر. ومضت على ذلك مدَّة ثم نفر عنه بعد ذلك وخافه على نفسه فإنه كان شديداً قوياً أيّداً عالي الهمة فأسقط اسمه من ولاية العهد في الخطبة واعتقله وضيَّق عليه ومال إلى أخيه الصغير الأمير عليّ إلاّ أنه لم يعهد إليه. فاتفقت وفاة الأمير عليّ الصغير في حياة والده وخلف أولاداً طفالاً فبعث بهم إلى شُشتر. فعلم الإمام الناصر أنه لم يبقَ له ولد تصير الخلافة إليه بعده غيرهُ فعهد إليه وبايع له الناس وهو في الحبس مضبوط عليه وكانت عامَّة أهل بغداد يميلون إليه. فلما توفي الناصر أخرجه أرباب الدولة وبايعوه بالخلافة. وقال لما بويع: كيف يليق أن يفتح الإنسان دكاناً بعد العصر. قد نيَّفتُ على الخمسين سنة وأتقلَّد الخلافة.

ثم أظهر من العدل والأمن ما لم يمكن وصفه وأزال الظلم وردَّ على الناس أموالاً جزيلة وأملاكاً جليلة كانت قد أُخذت منهم وأزال مكوساً كثيرة وكانت قد جُدّدت. وارتفع عن الناس ما كانوا أَلِفوه من الخوف في زمان والده فأظهروا نعمتهم وامتنع المفسدون من السعايات.

وعقد لبغداد جسراً ثانياً عظيماً جديداً وأنفق عليه مالاً كثيراً فصار في بغداد على دجلتها جسران. وما زالت دولته كذلك عادلة آمنة منذ ولي إلى أن توفي في رابع عشر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة بعد تسعة أشهر من ولايته.

وفيها مات يوسف بن يحيى بن اسحاق السبتيّ المغربيّ. هذا كان طبيباً من أهل قادس وقرأ الحكمة بجلادة فشدا فيها وعانى شيئاً من علوم الرياضة فأجادها وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة. ولما أُلزم اليهود في تلك البلاد بالإسلام أو الجلاء كتم دينه وارتحل إلى مصر بماله واجتمع بموسى بن ميمون القرطبيّ رئيس اليهود بمصر وقرأ عليه شيئاً وسأله إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسيّ فإنها صحبته من سبتة فاجتمع هو وموسى على إصلاحها وتحرّرها. وخرج من مصر إلى الشام ونزل حلب وأقام بها واشترى ملكاً قريباً وتزوَّج وخدم أطبَّاء الخاص في الدولة الظاهرية بحلب وكان ذكياً حادّ الخاطر. قال القاضي الأكرم رحمه الله: كان بيني وبين يوسف هذا مودَّة طالت مدَّتها فقلت له يوماً: إن كان للنفس بقاء وتعقل به حال الموجودات من خارج بعد الموت فعاهدني على أن تأتيني إن متَّ قبلي وآتيك إن متّ قبلك. فقال: نعم. ووصيته أن لا يغفل. ومات وأقام سنتين ثم رأيته في النوم وهو قاعد في عرصة مسجد من خارجه في حضيرة له وعليه ثياب جدد بيض من النصفي فقلت له: يا حكيم ألستُ قرَّرت معك أن تأتيني لتخبرني بما ألفيت.

فضلحك وأدار وجهه فأمسكته بيدي وقلت: لا بدَّ أن تقول لي كيف الحال بعد الموت. فقال لي: الكليّ لحق بالكلّ وبقي الجزئي في الجزء. ففهمت عنه في حاله كأنه أشار إلى النفس الكلية عادت إلى عالم الكلّ والجسد الجزئي بقي في الجزء وهو المركب الأرضي. فتعجبت بعد الاستيقاظ من لطيف إشارته. نسأل الله العفو عند العود إليه بعد الموت.

(المستنصر بن الظاهر) ولما تُوفّي الإمام الظاهر بأمر الله بُويع ابنه جعفر المنصور ولُقب المستنصر بالله بويع يوم مات والده. ولما بويع البيعة العامَّة ركب للناس ركوباً ظاهراً واستمرَّ على هذه الحالة مدَّة طويلة لا يختفي في ركوبه من الناس وأظهر من العدل وحسن السيرة أضعاف ما أظهره والده وأفاض من الصدقات ما أربى على مَن تقدّمه وتقدَّم بإنشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية التي لم يعمَّر في الدنيا مثلها فعمّرت على أعظم وصف في صورتها وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهائها ووقوفها. ووقَفها على المذاهب الأربعة ورتَّب فيها أربعة من المدرّسين في كل مذهب مدرّساً وثلثمائة فقيه. لكلّ مذهب خمسة وسبعون فقيهاً.

ورتَّب لهم من المشاهرات والخبز والطعام في كل يوم ما يكفي كل فقيه ويفضل عنه وبنى لهم داخل المدرسة حمّاماً خاصاً للفقهاء وطبيباً خاصاً يتردَّد إليهم في بكرة كل يوم يفتقدهم ومخزناً

فيه كل ما يحتاج إليه من أنواع ما يُطبخ من الأطعمة ومخزناً آخر فيه أنواع الأشربة والأدوية.

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة تُوفي الملك العظيم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق في سلخ ذي القعدة وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة[١] وكانت همته عالية وصار ملكه بدمشق والقدس والسواحل إلى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود فاستقرَّ ملكه بها وحمل عمُّه الملك العزيز وعمه الملك الصالح الغاشية بين يديه.

وفيها قفل جنكزخان من الممالك الغربية إلى منازله القديمة الشرقية ثم رحل من هناك إلى بلاد تنكوت[٢] وهنالك عرض له مرض من عفونة ذلك الهواء الوخيم ولما قوي مرضه استدعى أولاده جغاتاي وأوكتاي وألغ نوين وكلكان وجورختاي وأوردجار وقال لهم: إنني قد أيقنت مفارقة الدنيا لعجز قوتي عن حمل ما بي من الآلام ولا بدّ من شخص يقوم بحفظ المملكة على حالها والذَّبّ عنها.

وقد أعلمتكم غير مرَّة أن ابني أوكتاي يصلح لهذا الشأن لما رأيت من مزيَّة رأيه المتين وعقله المبين والآن فقد جعلته وليّ عهدي وقلَّدته ما بيدي من جميع الممالك فما قولكم في هذا الذي استصوبته.

فجثا الأولاد والنوينية المذكورون على ركبهم وقالوا: جنكزخان هو المالك للرقاب ونحن العبيد السامعون المطيعون في جميع ما يتقدَّم به على وفق مراده ومرسومه. وعند فراغه من الوصية اشتد وجعه وتوفّي لأربع مضين من شهر رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة[٣] وكان مدَّة ملكه نحو خمس وعشرين سنة. فأرسل الولدان والأمراء الرسل إلى باقي الأولاد والأمراء ليجتمعوا في القوريلتاي أي في المجمع الكبير.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة تردَّدت الرسل بين الفرنج والملك الكامل في طلب الصالح فاتفق على تسليم البيت المقدَّس إلى الفرنج فتسلَّموه ومواضع كثيرة أُخر من بلاد الساحل. وإنما أجابهم الكامل لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال والأموال فخاف على بلاده أن تؤخذ منه عنوةً فأرضاهم بذلك.

---

(١) توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل في ذي القعدة وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وستة أشهر إلا أيام. الكامل في التاريخ ح ١٠ ص ٤٧٣.

(٢) تنكوت: هي بلاد شرقي التيبت وغربي النهر الأصفر.

(٣) في تاريخ دي كوين أنه ملك اثنين وعشرين سنة وعمره ستاً وستين سنة.

وفي سنة ستّ وعشرين وستمائة تمَّ اجتماع الأولاد وأمراء المغول فوصل من طرف القفجاق الأولاد توشي هردو باتوا سيبان تنكوت بركه بركجار بغاتيمور اقناس جغاتاي. ومن طرف اتميل أوكتاي. ومن طرف المشرق عمهم أوتكين وبلكتاي نوين والجتاي نوين والغ نوين. وأما الأولاد الصغار فكانوا في أردو[١] جنكزخان.

وفي زمن الربيع حضروا كلهم في عساكرهم وثلاثةَ أيام متوالية فرحوا جميعاً ثم شرعوا فيما تقدَّم به جنكزخان من الوصية والعهد بالمملكة إلى أوكتاي فامتثلوا كلهم الأوامر الجنكزخانية واعترفوا بأهليته لذلك. فاستقالهم أوكياي الولاية قائلاً: إن أمر الوالد وإن كان لا اعتراض عليه لكن ههنا أخ أكبر مني وأعمام هم أولى مني بها. فلم يُقيلوه إيَّاها وأصرّوا على أنه لا بدّ من امتثال مرسوم الوالد وداموا على إصرارهم أربعين يوماً وما زالوا يتضرعون إليه ويلحّون عليه بالمسئلة حتى أجاب إلى ذلك فكشفوا رؤوسهم ورموا مناطقهم على أكتافهم وأخذ جغاتاي أخوه الكبير بيده اليمنى وأوتكين عمُّه بيده اليسرى فأجلساه على سرير المملكة ولقَّباه قاان ولزم له ألغ نوين كأس شربه فسقاه وجثا كل من كان حاضراً داخل الخَزْكاه وخارجها على ركبتيه تسع مرَّات ودعوا له ثم برزوا كلهم إلى خارج وجثوا ثلاث مرَّات حيال الشمس.

وإنما اختصَّ الغ نوين بلزوم الكاس لأنه أصغر أولاد جنكزخان وفي عادة المغول أن الابن الصغير لا يقتسم ولا يخرج عن بيت أبيه وإذا مات الأب فهو يتولَّى تدبير المنزل. ففي تلك الأربعين يوماً كان يقول أوكتاي: إن ألغ نوين هو صاحب البيت وأكثر مواظبةً لخدمته وأبلغ مني تعلّماً لسياسته فالمصلحة تفويض هذا الأمر إليه.

فلذلك سبق الجميع بتصريح الطاعة. وأما الأمراء فانتخبوا من بناتهم الأبكار الصالحة لخدمة قاان أربعين بنتاً وحملوهنَّ مزيَّنات بالحليّ الفاخرة والخيول الرائعة إلى خدمته. ولما فرغ من هذه الأمور صرف همته إلى ضبط الممالك وجهَّز جورماغون في ثلاثين ألف فارس وسيَّرهم إلى ناحية خراسان وأنفذ سنتاي بهادُر في مثل ذلك العسكر إلى جانب قفجاق وسقسين وبلغار وجماعة أخرى إلى التُّبت وقصد هو بنفسه بلاد الخطا.

حصار خلاط

وفي سنة سبع وعشرين[٢] وستمائة في أوائلها نزل السلطان جلال الدين خوارزمشاه على

(١) أراد معناها بالتركية المعسكر والمحلة/ أرادوا/ .

(٢) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٤٠٨ (زحف جلال الدين في شوال سنة ست وعشرين إلى خلاط. وكذلك في الكامل في التاريخ ح ١٠ ص ٤٨٤.

خلاط وحاصرها أشدّ حصار وشتّى عليها ونصب عليها عشرين منجنيقاً على ناحية البحر وفيها أخو الملك الأشرف تقي الدين عباس ومجير الدين يعقوب والأمير حسام الدين القيمُريّ وعزّ الدين أيبك مملوك الأشرف.

فدام الحصار على أهل خلاط واشتدَّ حتى أكلوا لحوم الكلاب وبلغ الخبز كل رطل بالشاميّ بدينار مصريّ فتسلَّم خوارزمشاه المدينة والقلعة وانهزم حسام الدين القيمري وأفلت على فرس وحدَه ومضى إلى قلعة قيمُر ثم تجهَّز إلى خدمة الملك الأشرف إلى الرقَّة وأقام عزّ الدين أيبك وتقيّ الدين ومجير الدين مع خوارزمشاه يركبون معه ويلعبون بالكرة. ولما طارت الأخبار إلى الملك الأشرف بذلك انزعج وأسار جريدة إلى أبُلُسْتَين[1]. فتلقَّاه صاحب الروم علاء الدين كيقباذ من فراسخ واجتمعا ولحقت الملك الأشرف عساكره وخرج علاء الدين بعساكره إلى أق شهر وهو والملك الأشرف وخرج الخوارزميّ من خلاط للقائهم وكان في أربعين ألفاً والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً في يوم الجمعة وكان الغلبة فيه للملك الأشرف والروميّ وباتوا ليلة السبت على تعبيتهم إلى الفجر من يوم السبت فالتقوا واقتتلوا فانكسر الخوارزميّ كسرة عظيمة وانهزم وقُتل من أصحابه خلق لا يحصي عددهم إلاّ الله وانهزم مثلهم وأُسر مثلهم وبلغت هزيمتهم إلى جبال طَرابيزون فوقع منهم في شقيف هناك ألف وخمسمائة رجل.

وساق خوارزمشاه إلى صوب خرتبرت فوصلها في يوم وليلة ونجا بنفسه ومضى إلى بلاد العجم فأقام في خوى. وكان قد بعث تقيّ الدين عبَّاس أخا الأشرف أسيراً مقيداً إلى بغداد هدية فأعاده الخليفة المستنصر مكرَّماً إلى الأشرف فوصل الأشرف إلى خلاط وأصلح أحوالها ورمَّمها ثم بعث رسولاً إلى خوارزمشاه يسأله الإحسان إلى مَن معه من الأساري فأجابه بأنَّ عندي منكم ملوكاً وعندكم منَّا مماليك فإن أجبتم إلى الصلح فأنا موافق عليه.

فأجابه الملك الأشرف: إنك فعلت ببلادنا ما فعلته وما أبقيت من سوء المعاملة والمقابحة شيئاً إلاّ وقد عملته خربتَ البلاد وسفكت الدماء فإن أردت الصلح فانزل عن البلاد التي تغلّبت عليها ولم تكن لأبيك لنعمّر منها ما خرَّبت. وأمَّا قولك بأن عندك منَّا ملوكاً فالذي عندك أخي مجير الدين يعقوب نحن نقدّر أنه مات فاخوتي عوضه ونحن بحمد الله في جماعة أهل بيت وأولاد وأقارب نزيد على ألفي فارس وأنت أبتر ما لك أحد وخلفَك أعداء كثيرة. فمضى الرسول بهذا الجواب فلم يجبه الخوارزميّ إلى ما طلبه ولا استقرَّ بينهما أمر. وكان عزّ الدين أيبك قد سجنه خوارزمشاه في قلعة اختمار فأحضر وقُتل. ثم وصله خبر عبور جورماغون نوين نهر أمويه في

(١) أبُلُستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم.

طلبه فتوجّه إلى تبريز وأرسل رسولاً إلى الخليفة وآخر إلى الملك الأشرف وصحبته زوجة الأمير حسام الدين القيمريّ التي كان قد أسرها من خلاط ورسولاً إلى السلطان علاء الدين صاحب الروم يستجيشهم ويعلمهم كثرة عساكر التاتار وحدَّة شوكتهم وشدَّة نكايتهم وإنه إذا ارتفع هو من البين يعجزون عن مقاومتهم وإنه كسدّ الاسكندر يمنعهم عنهم فالرأي أن يساعده كُلٌّ منهم بفوج من عسكره ليرتبط بذلك جأش أصحابه ويحجم ويحجم بهم العدوّ عن البلاد فيحجم.

قال من هذا النوع وأكثر واستصرخهم فلم يصرخوه واستغاثهم فلم يغيثوه فشتى بأزمية واشتوا. وفي الربيع توجّه إلى نواحي ديار بكر وصار يزجي أوقاته بالتمتُّع واللهو والشراب والطرب كأنه يودّع الدنيا وملكها الفاني. وبينما هو في ذلك يسرّ لا بل يغرّ فجِئه هجوم بإيماس نوين في عسكره ليلاً فتكلَّف للانتباه وعاين نيران المغول بالقرب من مكانه فتقدَّم إلى الأمير أورخان أن يُلمّ به الجماعة ويشغل المغول عند الصبح بالإقدام تارةً والإحجام أخرى وفرَّ هو مع ثلاثة نفر من مماليكه تائهاً في جبال ديار بكر. فلما أصبحوا ظنَّ المغول أن جلال الدين خوارزمشاه فيهم فجدُّوا في طلبهم طاردين في أعقابهم وهم منهزمون بين أيديهم ولما تحققوا أنه ليس معهم رجعوا عنهم. فأما جلال الدين خوارزمشاه فأوقع به قوم من الأكراد ببعض جبال آمد[1] ولم يعرفوه وقدَّروه من بعض جند الخوارزميَّة فقتلوه والمملوكَين طمعاً في ثيابهم وخيلهم وسلاحهم.

استُنبط ذلك من جهة أن بعد مُدَيدة يسيرة دخل بعض أولئك الأكراد إلى آمد وعليه من سلاح جلال الدين. فعرفه مملوك له كان قد لجأ إلى صاحب آمد فقُبض الكرديّ وقُرّر فأقرَّ بما افتعله هو وأصحابه فأحضرهم وقتلهم حنقاً عليهم.

وقال قوم إن المقتول لم يكن جلال الدين وإنما كان سلاحداره لأنه يومئذ لم يحمل سلاحاً ولا كان يلبس ثياب العادة وإنما كان يزيّ الصوفيَّة مع أصحابه ولذلك دائماً كان يرجف الناس أن جلال الدين خوارزمشاه قد رأوه بالبلد الفلاني وبالمدينة الفلانية حتى أنه في سنة اثنتين وخمسين وستمائة اتفق جماعة من التجار عابرين على نهر جيحون وهناك القراغول وهم مستحفظو الطرف فأنكروا على فقير كان صحبة التجار مجهول فلما قرَّروه أقرَّ أنه جلال الدين خوارزمشاه فقبضوه وكرَّروا عليه العذاب والسؤال فلم يغيّر كلامه إلى أن مات تحت العقوبة. فإن لم يكن هو واعتمد ذلك إلى هذه الغاية فلا شكَّ أن الجنون فنون.

ولما استقرَّ قاان في الملك وانقاد له القاصي والداني من جيوش المغول عزم على فتح بلاد الخطا وسيَّر في مقدمته أخويه جغاتاي وألغ نوين وباقي الأولاد في عساكر عظيمة. فساروا

(١) جبال آمد: جبال في ديار بكر آمد مدينة من مدن ديار بكر أجلها قدراً وأكثرها ذكراً.

ونازلوا أولاً مدينة يقال لها حرجا بنو يقسين وهي على شط قراموران[١] فأحاطوا بها وحصروها مدّة أربعين يوماً وكان فيها عشرة آلاف من فرسان الخطا فلما عاينوا العجز عن مقاومة المغول ركبوا السفن التي كانوا أعدّوها هاربين.

وطلب أهل البلد الأمان فأومنوا ورتّب المغول عندهم الشحاني وقصدوا باقي المواضع. وجهز قاان أخاه ألغ نوين وولده كيوك وسيّرهم في عشرة آلاف فارس في المقدّمة وسار هو بعقبهم فتمهل ومعه العسكر الكبير. فجيّش التون خان ملك الخطا[٢]. مائة ألف من شجعانه وقدّم عليهم أميراً من أمرائه وأنفذهم للقاء المغول. فلما وصلوا إليهم استحقروهم لقلّتهم بالنسبة إليهم وتهاونوا في أمرهم وأرادوا أن يسوقوهم كما هم إلى ملكهم التون خان ليفرجوا بهم عنه غمّه إذا هو ضرب عليهم حلقة وصادهم صيداً. فشغلهم المغول بفتور المكافحة وأطعموهم إلى أن وصلت الأفواج التي مع قاان فأوقعوا بعسكر الخطا ولم يفلت منهم إلاّ النزر. وكان التون خان بمدينة تسمّى نامكيناك فلما بلغه الخبر بما جرى على أصحابه ارتاع وأيس من حياة الدنيا وجمع أولاده ونساءه وكل من يعزّ عليه ودخلوا بيتاً من بيوت الخشب وأمر بضرب النار فيه فاحترق هو ومن معه أنفةً من الوقوع في أسر المغول. ودخلت عساكر المغول إلى المدينة ونهبوا وأسروا البنين والبنات وأمّنوا الباقي. وفتحوا غيرها من المدن المشهورة ورتّب بها قاان الشحاني وقفل إلى مواضعه القديمة وبنى بها مدينة سمّاها أردوباليق وهي مدينة قراقورم وأسكنها خلقاً من أهل الخطا وتركستان والفرْس والمستعربين. وبينما هم مسرورون بفتح بلاد الخطا تُوفّي **تولي خان** وكان أحبّ الأخوة إلى قاان فاغتمّ لذلك كثيراً وأمر أن زوجته المسمّاة سرقوتني بيكي وهي ابنة أخي أونك خان تتولّى تدبير عساكره وكان لها من الأولاد أربعة بنين مونككا قوبلاي **هولاكو** أريغ بوكا.

فأحسنت تربية الأولاد وضبط الأصحاب وكانت لبيبة مؤمنة تدين بدين النصرانية تعظم محلّ المطارنة والرهبان وتقتبس صلواتهم وبركتهم وفي مثلها قال الشاعر:

فلو كان النساءُ كمثل هذه لَفُضِّلت النساءُ على الرجالِ

وبعد قليل مات أيضاً الأخ الكبير وهو المسمّى توشي وخلف سبعة بنين وهم تمسل هردو باتوا سيبقان تنكوت بركه بركجار. ومن بين هؤلاء لباتوا سلّم قاان البلاد الشمالية وهي بلاد الصقالبة واللاّن والروس والبلغار وجعل مخيمه على شاطىء نهر أتل وغزا هذه النواحي فقتل فيها خلائق بلغ عددهم مائتي ألف وسبعين ألفاً عُلم ذلك من آذان القتلى التي قطعوها امتثالاً لمرسوم قاان لأنه تقدّم بقطع الأذن اليمنى من كل قتيل.

(١) قراموران: معناها بلغة التتر (النهر الأسود).

(٢) التون معناه الذهب وخان هو الملك والطون خان (لقب ملوك الخطا).

وبعد فراغه باتوا من أمر الصقالبة تجهز للدخول إلى نواحي القسطنطينية فبلغ ذلك ملوك الفرنج فجاؤوا حافلين حاشدين والتقوا المغول في أطراف بلد البلغار وجرت بينهم حروب كثيرة انجلت عن كسرة المغول وهزيمتهم وهربهم فقفلوا من غزاتهم هذه ولم يعودوا يتعرضون إلى بلاد يونان وفرنجة إلى يومنا هذا.

وفي سنة ثلاثين وستمائة أرسل السلطان علاءُ الدين كيقباذ صاحب الروم رسولاً إلى قاان وبذل الطاعة. فقال قاان للرسول: إننا قد سمعنا برزانة عقل علاء الدين وإصابة رأيه فإذا حضر بنفسه عندنا يرى من القبول والإكرام ونولّيه الاختاجية في حضرتنا وتكون بلاده جارية عليه.

فلما عاد الرسول بهذا الكلام تعجب منه كل من سمعه واستدلَّ على ما عليه قاان من العظمة. وفيها أخذ علاءُ الدين خلاط وسُرْمارَى[1] من الملك الأشرف وغزا الأشرف مدينة حصن منصور وأغار عليها وأخذ الكامل مدينة آمد من صاحبها وعوَّضه عنها قرى بالشام. وفيها تُوفّي مظفَّر الدين كوكبري بن زين الدين عليّ كوجك صاحب أربل في رمضان وحمل إلى مكة فدُفن بها وولي أربل إنسان شريف يقال له أبو المعالي محمد بن نصر بن صلايا من قبل الخليفة المستنصر.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة مات ناصر الدين محمود بن القاهر بن نور الدين صاحب الموصل ووصل التقليد من الخليفة لبدر الدين لؤلؤ بالولاية فخطب له على المنابر بالسلطنة. وفي سنة اثنتين وثلاثين حصر السلطان علاءُ الدين مدينة الرها وملكها عنوةً فدخلها الروميّون ووضعوا السيف بها ثلاثة أيام وقتلوا النصارى والمسلمين فتكاً ونهباً فأصبح الرهاويّون فقراء لا يملكون شيئاً ونُهبت البيع وأُخذ ما فيها من الكتب والصلبان وآلات الذهب والنقرة وحمل أهل حرَّان مفاتيح قلعتها فملكوها هدنة وملكوا الرقَّة والبيرة أيضاً. فلما عاد عنها عسكر الروم قصد الملك الكامل الرها وحاصرها أربعة أشهر ثم ملكها وهدم برجاً كبيراً من أبرجة قلعتها وحمل مَن وجد بها من الروميين كل اثنين على جمل وبعث بهم إلى مصر مقيَّدين.

غزو التاتار بلد إربل

وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة غزا التاتار بلد أربل وعبروا إلى بلد نينوى ونزلوا على ساقية قرية ترجلى وكرْمَليس فهرب أهل كرمليس ودخلوا بيعتها وكان لها بابان فدخلها المغول وقعد أميران منهم كل واحد على باب وأذنوا للناس في الخروج عن البيعة فمن خرج من أحد بابيها قتلوه ومن خرج من الباب الآخر أطلقه الأمير الذي على ذلك الباب وأبقاه فتعجب الناس لذلك.

(١) سُرماري: قلعة عظيمة وولاية وساعة بين تفليس وخلاط.

وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة تُوفّي السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم بغتة لأنه كان قد صنع دعوة عظيمة حضر بها الأمراء الأكابر وأتباعهم وأكثر الجند. فبينما هو يظهر السرور والفرح ويتباهى بما أعطي من الملك إذ حسّ بوجع في أحشائه وأخذته خِلْفة فاختلف إلى المتوضإ فانسهل برازاً دموياً صرفاً كثير المقدار وسقطت قوته في الحال. وفي اليوم الثاني من هذا العرض مات وكان ملكه ثماني عشرة سنة وكان عاقلاً عفيفاً ذا بأس شديد على حاشيته وأمرائه وكانت الدولة السلجوقية قبله محلولة بسبب الخلف الواقع بين أولاد قلج أرسلان فلما وليها علاءُ الدين أعاد جدَّتها وجدَّد ناموسها وألقى الله هيبته في قلوب الخلق فأطاعوه واستع ملكه جداً ودان له العالم وبحقّ قيل له سلطان العالم وحضر عنده الملوك وأذعنوا له بالطاعة وكان قاسي القلب. ولما تُوفّي أحضر الأمراءُ ولده غياث الدين كيخسروا فبايعوه وحلفوا له.

وفيها تُوفّي الملك العزيز بن الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب وولي بعده ابنه الملك الناصر صلاح الدين وهو آخر الملوك من بيت أيوب قتله هولاكو في سنة ثماني وخمسين وستمائة. وفيها أعني سنة أربع وثلاثين في شهر شوّال غزا التاتار بلد أربل وهرب أهل المدينة إلى قلعتها. فحاصروها أربعين يوماً ثم أُعطوا مالاً فرحلوا عنها.

ولما ولي السلطان غياث الدين كيخسرو السلطنة ببلد الروم قبض على غاير خان أمير الخوارزمية فهرب باقي الخوارزمية وأمراؤهم ولما اجتازوا بملطية وكاختني[1] وخَرتَبِرت[2] أسروا سيف الدولة السوباشي وقتلوا ببرمير سوباشي خرتبرت وأغاروا على بلد سميساط وعبروا إلى السويداء فأقطعهم الملك الناصر صاحب حلب ما بين النهرين الرها وحرّان وغيرهما فكفّوا عن الفساد والغارات. وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة تُوفّي الملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب بدمشق وكان عمره ستين سنة وكان كريماً سخياً مقبلاً على التمتع بالدنيا ولذاتها يزجي أوقاته برفاغية من العيش. وفيها مات أيضاً الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب صاحب مصر بدمشق ودفن بها وكان عمره سبعين سنة وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الإصابة سديد الرأي شديد الهيبة عظيم الهمَّة محباً للفضائل وأهلها.

وفيها غزا التاتار العراق ووصلوا إلى تخوم بغداد إلى موضع يسمَّى زنكاباذ وإلى سرّ مرّأى. فخرج إليهم مجاهد الدين الدويدار وشرف الدين إقبال الشرابيّ في عساكرهما فلقوا المغول

(١) لعل الصواب كاختا (قال أبو الفداء كاختا قعلة عالية البناء لا ترام حصانة بينها وبين ملطية مسيرة يومين وملطية غربها).

(٢) خَرتَبِرت: هو حصن معروف بحصن زياد في أقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين. معجم البلدان ياقوت الحموي ج ٢ ص ٤٠٧.

وهزموهم وخافوا من عودهم فنصبوا المنجنيقات على سور بغداد. وفي آخر هذه السنة عاد التاتار إلى بلد بغداد ووصلوا إلى خانقين فلقيهم جيوش بغداد فانكسروا وعادوا منهزمين إلى بغداد بعد أن قُتل منهم خلق كثير وغنم المغول غنيمة عظيمة وعادوا. وفيها حدث ببغداد مدّ دجلتها مداً عظيماً هائلاً وغرق دور كثيرة وغرق سفينتان فهلك فيهما نحو خمسين نسمة.

وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة جهز السلطان غياث الدين جيوشاً إلى أرمينية فامتنع المغول من الدخول إلى بلد الروم.

أحداث ثماني وثلاثين وستمائة

وفي سنة ثماني وثلاثين وستمائة ظهر ببلد أماسيا من أعمال الروم رجل تركمانيّ ادّعى النبوَّة وسمَّى نفسه بابا فاستغوى جماعة من الغاغة بما كان يخيل إليهم من الحيل والمخاريق. وكان له مريد اسمه اسحاق يتزيًا بزيّ المشايخ فأنفذه إلى أطراف الروم ليدعو التركمانيين إلى المصير إليه.

فوافى اسحاق هذا بلد سميساط وأظهر الدعوة لبابا فاتبعه خلق كثير من التركمان خصوصاً وكثف جمعه وبلغ عدد من معه ستة آلاف فارس غير الرجالة فحاربوا من خالفهم ولم يقل كما يقولون لا إله إلاّ الله بابا رسول فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين والنصارى من أهل حصن منصور وكاختين وكَرْكَر[1] وسميساط وبلد ملطية ممن لم يتبعهم وكانوا يهزمون كلّ من لقيهم من العسكر حتى وصلوا إلى أماسيا. فأنفذ إليهم السلطان غياث الدين جيشاً فيه جماعة من الفرنج الذين في خدمته فحاربوهم وكان الجند المسلمون لم يتجرأوا عليهم ويحجموا عنهم لما توهموا منهم. فأخَّر الفرنج المسلمين وتولَّوا بأنفسهم محاربة الخوارج فكشفوهم ورموا فيهم السيف وقتلوهم طرًا وأسروا الشيخين بابا واسحاق فضرب عنقاهما وكفوا الناس شرهم.

وفي سنة تسع وثلاثين حاصر جرماغون نوين مدينة أرزن الروم وملكها عنوةً وقتل فيها خلائق من أهلها وسبى الذراريّ وشنَّ الغارة عليها وقُتل سنان سوباشها. وفي سنة أربعين وستمائة سار السلطان غياث الدين كيخسروا إلى أرمينية في جمع كثيف وجهاز لم يتجهز أحد مثله في عساكره وعساكر اليونانيين والفرنج والكرج والأرمن والعرب لمحاربة التاتار فالتقى العسكران بنواحي أرزنكان[2] بموضع يسمَّى كوساذاغ وأوَّل وهلة باشر المسلمون ومن معهم الجيوش النصرانية الحرب وهلوا وأدبروا وولوا هاربين فانهزم السلطان مبهوتاً فأخذ نساءَه وأولاده من قيساريَّة وسار إلى مدينة أنقورة فتحصن بها.

---

(١) كركر: قلعة حصينة شاهقة على جانب الفرات الغربي (أبو الفداء).

(٢) أرزنكان: بلدة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم. معجم البلدان ج ١/ ١٨٠.

وأقام المغول يومهم ذلك مكانهم ولم يقدموا على التقدم فظنوا أن هناك كميناً إذ لم يروا قتالاً يوجب هزيمتهم وهم في تلك الكثرة من الأمم المختلفة. فلما تحققوا الأمر انتشروا في بلاد الروم فنازلوا أولاً مدينة سيواس فملكوها بالأمان وأخذوا أموال أهلها عوضاً عن أرواحهم وأحرقوا ما وجدوا بها من آلات الحرب وهدموا سورها. ثم قصدوا مدينة قيسارية فقاتل أهلها أياماً ثم عجزوا ففتحوها عنوة ورموا فيها السيف وأبادوا أكابرها وأغنياءها معاقبين على إظهار الأموال وسبوا النساء والأولاد وخربوا الأسوار وعادوا ولم يتوغّلوا في باقي بلاد السلطان.

ولما سمع أهل ملطية ما فعل التاتار بقيساريّة هلعوا وجزعوا أفحش الجزع. فأجفل رشيد الدين الخويني أميرها ومعه أصحابه طالبين حلب وكذلك من أمكنه الهرب من أماثلها. وكان من جملة من يريد الخروج بأهله والدي فأحضر الدوابّ وكان لنا فيها بغل للسرج فلما أرادوا شدّ الأكاف عليه ليحمّلوه شمص وتفلّت.

فبينما هم يتبعونه في الزقاق ليلزموه قالوا لهم: إن الفتيان من العامّة وثبوا في باب المدينة وينهبون كل من رأوه يخرج. فأمسك والدي عن الخروج واجتمع بالمطران دينوسيوس وتشاوروا في مرابطة المدينة وجمعا المسلمين والنصارى في البيعة الكبيرة وتحالفوا أن لا يخون بعضهم بعضاً ولا يخالفوا المطران في جميع ما يتقدم إليهم من مداراة التاتار والقيام بحفظ المدينة والبيتوتة على أسوارها وكفّ أهل الشرّ عن الفساد. فنظر الله إلى حسن نيّاتهم ودفع العدو عنهم ووصلوا بالقرب من ملطية ولم يتعرّضوا إليها. وأما الذين خرجوا من المدينة مجفلين فأدركهم المغول عند قرية يقال لها باجوزة على عشر فراسخ من المدينة فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد ومن سلم منهم في المغائر والشعاب والأودية الغائرة من النساء والرجال عاد إلى ملطية عرياناً حافياً وكان ذلك في شهر تموز سنة ألف وخمسمائة وأربع وخمسين للاسكندر. وكرّ المغول على مدينة أرزنكان وملكوها عنوة وقتلوا رجالها وسبوا الذراريّ ونهبوها وخربوا سورها ومضوا. ولما رأى السلطان العجز عن مقاومة التاتار أرسل إليهم رسلاً يطلب الصلح فصالحوه على مال وخيل وأثواب وغيرها يعطيهم كل سنة مبلغاً معيناً مقاطعة.

وفاة المستنصر:

وفيها تُوفّي **الإمام المستنصر بالله** الخليفة ببغداد وكان عاقلاً عادلاً لبيباً كريماً كثير الصدقات عمّر المدارس والمساجد والرباطات القديمة وكان قد تهدّم معظمها ومن شدّة غرامه بمدرسته المعروفة بالمستنصريّة اعمر لصقَها بستاناً خاصاً له فقلّ ما يمضي يوم إلاّ ويركب في السيارة ويأتي البستان يتنزه فيه ويقرب من شباك مفتح في ايوان المدرسة ينظر إلى البستان وعليه ستر فيجلس وراء الستر وينظر إلى المدرسة ويشاهد أحوالها وأحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد أحوالهم. وكانت مدة خلافته نحو ثماني عشرة سنة.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة تُوفّي **حسنون الطبيب الرهاويّ** وكان فاضلاً في فنّه علماً وعملاً ميمون المعالجة حسن المذاكرة بما شاهده من البلاد. وكان أكثر مطالعته في كتاب اللوكري في الحكمة.

وكان شيخاً بديناً بهياً دخل إلى مملكة قلج أرسلان وخدم أمراء دولته كأمير أخور سيف الدين واختيار الدين حسن واشتهر ذكره. ثم خرج إلى ديار بكر وخدم من حصل هناك من بيت شاه أرمن وهزارديناري ثم الداخلين على تلك الديار من بيت أيوب ورجع إلى الرها. ولما تحقق أن طغرل الخادم تولّى أتابكية حلب وله به معرفة من دار أستاذه اختيار الدين حسن في الديار الرومية جاء إليه إلى حلب ولم يجد عنده كثير خيرٍ وخاب مسعاه فإنه كان منكسراً عند اجتماعه به، وانفصاله عنه. فلما عُوتب الخادم على ذلك من أحد خواصّه قال: أنا مقصّر بحقه لأجل النصرانية. ولما عزمَ على الارتحال إلى بلده أدركته حمّى أوجبت له إسهالاً سحجياً ثم شاركت الكبد في ذلك فقضى نحبه ودُفن في بيعة اليعاقبة بحلب.

وفي سنة ستّ وعشرين وستمائة تُوفّي **يعقوب بن صقلان الطبيب النصراني الملكي المقدسي** وكان مولده بالقدس الشريف وبه قرأ شيئاً من الحكمة على تاذوري الفيلسوف الأنطاكي وسيأتي ذكره بعد هذا التاريخ.

وأقام يعقوب هذا بالقدس على حالته في مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه الملك الأعظم بن الملك العادل بن أيوب فاختصّ به ولم يكن عالماً وإنما كان حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية ولسعادة كانت له. ثم نقله الملك المعظم إلى دمشق وارتفعت عنده حاله وكثر ماله وأدركه نقرس ووجع مفاصل أقعده عن الحركة حتى قيل إن الملك المعظم كان إذا احتاج إليه في أمراضه استدعاه بمحفّة تُحمل بين الرجال. ولم يزل على ذلك إلى أن مات المعظم صاحبه ومات هو بعده بقليل.

ومن الأطباء المشهورين في هذا الزمان **الحكيم أبو سالم النصرانيّ اليعقوبيّ الملطيّ المعروف بابن كرابا** خدم السلطان علاءَ الدين كيقباذ صاحب الروم وتقدّم عنده وكان قليل العلم بالطبّ إلاّ أنه كان أهلاً لمجلسه لفصاحة لهجتَه في اللسان الروميّ ومعرفته بأيام الناس وسيَر السلاطين.

وفي سنة اثنتين وثلاثين لما سار علاء الدين من ملطية إلى خرَتَبِرْت ليملكها تخلّف عنه أبو سالم هذا ولم يسر في ركابه وكان السلطان لا يصبر عنه ساعة. ولما بات السلطان على الفرات ولم يأتِه الحكيم أمر الشحنة الذي على الزواريق أن نهار غد أن جاء أبو سالم قبل الزوال فليعبر وإن جاء بعده لا تمكنه من العبور. فلما كان من الغد تأخّر مجيئه إلى العصر فأخبره الشحنة بمرسوم السلطان فأحسّ بتغيُّر فعاد إلى منزله وشرب سماً ومات. ومنهم الحكيم شمعون الخرتبرتي وكان أيضاً ضعيف العلم لكنه كان خيّراً ديّناً كثير الصوم والصلاة. وانتشى له ولد حسن محصّل وأجاد الخطّ العربيّ وصار فيه طبقة ومات في حداثة سنة ففجعت مصيبته أباه.

وفي هذا الزمان كان جماعة من تلامذة الإمام فخر الدين الرازي سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراسان وأفضل الدين الخونجي بمصر وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق وأثير الدين الأبهري بالروم وتاج الدين الأرموي وسراج الدين الأرموي بقونية. حكى النجيب الراهب المصري الحاسب بدمشق عن الملك الناصر داود بن الملك المعظم بن الملك العادل ابن أيوب صاحب الكرك أنه كان يتردَّد إلى شمس الدين الخسروشاهي يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة للشيخ أبي عليّ بن سينا وكان إذا وصل إلى رأس المحلة التي بها منزل الخسروشاهي أومأ إلى من معه من الحشم والمماليك ليقفوا مكانهم ويترجل ويأخذ كتابه تحت ابطه ملتفاً بمنديل ويجيء إلى باب الحكيم ويقرعه فيفتح له ويدخل ويقرأ ويسأل عمَّا خطر له ثم يقوم ولم يمكّن الشيخ من القيام له.

(المستعصم بن المستنصر): وفي سنة أربعين وستمائة بويع المستعصم يوم مات أبوه المستنصر وكان صاحب لهو وقصف شُغف بلعب الطيور واستولت عليه النساء وكان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول وكان إذا نُبّه على ما ينبغي أن يفعله في أمر التاتار أما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجيُّش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول: أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلتُ لهم عن باقي البلاد ولا أيضاً يهجمون عليَّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي. فهذه الخيالات الفاسدة وأمثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله.

وفي سنة إحدى وأربعين غزا يساور نوين الشام ووصل إلى موضع يسمَّى حيلان على باب حلب وعاد عنها لخفي أصاب خيول المغول واجتاز بملطية وخرَّب بلدها ورعى غلاّتها وبساتينها وكرومها وأخذ منها أموالاً عظيمة حتى خَشَل النساء وصلبان البَيع ووجوه الأناجيل وآنية القداس المصوغة من الذهب والفضة ثم رحل عنها. وطلب طبيباً يداويه في سحج عرض له فأخرج إليه والدي وسار معه إلى خرتبرت فدبَّره حتى برأ. ثم جاء ولم يطل المقام بملطية ورحل بنا إلى أنطاكية فسكنَّاها. وأقحطت البلاد بعد ترحال التاتار ووبئت الأرض فهلك عالم وباع الناس أولادهم بأقراص الخبز.

وفي سنة اثنتين وأربعين أغار التاتار على بلد بغداد ولم يتمكنوا من منازلتها. وفيها سيَّر السلطان غياث الدين جيشاً عظيماً إلى مدينة طرسوس فحاصروها مدة وضيَّقوا عليها وكادوا يفتحونها عنوة فاتفق إن مات السلطان غياث الدين في تلك الأيام. فلما بلغهم موت السلطان رحلوا عنها خائبين وكان الوقت خريفاً وتواترت على الروميّين الأمطار وتوحَّلت خيولهم فنال منهم رجَّالة الأرمن وغنموا أثقالهم. وكان السلطان غياث الدين مقبلاً على المجون وشرب الشراب غير مرضيّ الطريقة منغمساً في الشهوات الموبقة تزوَّج ابنة ملك الكرج فشغفه حبُّها وهام

بها إلى حدّ أن أراد تصويرها على الدراهم فأشير عليه أن يصوّر صورة أسد عليه شمس لينسب إلى طالعه ويحصل به الغرض. وخلّف غياث الدين ثلاثة بنين عزّ الدين وأمّه روميّة ابنة قسيس وركن الدين وأمّه أيضاً روميّة وعلاء الدين وأمّه الكرجية. فولي السلطنة عزّ الدين وهو الكبير وحلف له الأمراء وخُطب له على المنابر وكان مدبّره والأتابك له الأمير جلال الدين قرطاي رجل خيّر ديّن صائم الدهر ممتنع عن أكل اللحم ومباشرة النساء لم ينَم في فراش وطيء وإنما كان نومه على الصناديق في الخزانة أصله روميّ وهو من مماليك السلطان علاء الدين وتربيته وكان له الحرمة الوافرة عند الخاصّ والعامّ. وفي سنة ثلاث وأربعين تردّدت رسل المغول في طلب السلطان عزّ الدين ليحضر بنفسه في خدمة قاان. فتعلّل محتجًا بمعاداة من يجاوره من ملوك اليونانيّين والأرمن إيّاه وأنه متى فارق بلاده ملكها هؤلاء وكان يرضي الرسل بالهدايا وبذل الأموال ويدافعهم من وقت إلى وقت. ثم سيّر أخاه ركن الدين وفوّض تدبيره إلى بهاء الدين الترجمان وجعله أتابكه وأرسله صحبته واستوزر عزّ الدين لنفسه رجلاً أصفهانيًا وهو صاحب علم وفضل يلقّب بشمس الدين فتمكّن من الدولة إلى حدّ أن تهيّأ له التزوّج بأمّ السلطان عزّ الدين فنقل ذلك على الأمراء طرّاً.

وفيها مرض قاان ولما اشتدّ مرضه سيّر رسولاً في طلب إبنه كيوك فأهرع إليه من غير توقّف فلم يمهل القضاء ليجتمع بالوالد فأقام بالمكان الذي بلغه فيه وفاته وكانت والدته توراكينا خانون ذاتُ دهاء كافية فطنة فاتّفق جغاتاي وباقي الأولاد على أنها تتصرّف في تدبير الممالك إلى وقت القوريلتاي لأنها أمّ الأولاد الذين لهم استحقاق الخانيّة. وفي سنة أربع وأربعين وستمائة تمّ اجتماع الأولاد والأحفاد وأمراء المغول في وقت الربيع وحضر في المجمع من غير المغول أيضاً ممّا وراء النهر وتركستان الأمير مسعود بيك ومن خراسان الأمير أرغون آغا وصحبته أكابر العراق واللور وأذربيجان وشروان. ومن الروم السلطان ركن الدين. ومن الأرمن الكندسطبل أخو التكفور[1] حاتم. ومن كرجستان الداودان الكبير والصغير. ومن الشام أخو الملك الناصر صاحب حلب. ومن بغداد فخر الدين قاضي القضاة ومن علاء الدين صاحب الألموت محتشمو قهستان. فإذ تمّ هذا المجمع العظيم الذي لم يعهد مثله وقع الاتفاق على كيوك. وكان له اخوان آخران أحدهما يسمّى كوبان والآخر طفل يسمّى سيرامون. وإنما اختير هو من دونهما لكونه مشهوراً بالغلبة والشطط والاقتحام والتسلط وكان هو أكبر الأخوة فأهل للولاية وأجلس على سرير الملك وخدموه ودعوا له كالعادة وأطاعوه وكيوك خان سموّه. وفي سنة خمس وأربعين وستمائة ولّى كيوك خان على بلاد الروم والموصل والشام والكرج نويناً اسمه ايلجيكتاي. وعلى

(١) تكفور لفظة أرمنية تعني الملك.

ممالك الخطا الصاحب يلواج. وعلى ما وراء النهر وتركستان الأمير مسعود. وعلى بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند الأمير أرغون آغا. وقلّد سلطنة بلد الروم السلطان رُكن الدين. وأمر بعزل السلطان عزّ الدين. وجعل داود الصغير المعروف بابن قيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس. وأما رسول الخليفة فخاطبه خطاب واعد ومُوعد بل واعظ ومنذر. وأما رُسل الملاحدة[1] فصرفهم مذلّين مهانين. وكتب يراليغ عهد وامان للتكفور والملك الناصر صاحب حلب.

وكان بمقام الأتابكية لكيوك خان أمير كبير اسمه قداق وكان معمَّداً مؤمناً بالمسيح وشاركه في ذلك أمير آخر اسمه جينقاي فهذان أحسنا النظر إلى النصارى وحسَّنا يقين كيوك خان ووالدته وأهل بيته بالمطارنة والأساقفة والرهابين فصارت الدولة مسيحية وارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب من الفرنج والروس والسريان والأرمن. والتزم الخاص والعام من المغول وغيرهم ممن هو بينهم أن يقولوا في السلام برخمر وهو لفظ مركب سرياني معناه (بارك مالكى).

وفي سنة ستّ وأربعين وستمائة وصل السلطان رُكن الدين وبهاء الدين الترجمان إلى بلد الروم ومعهما ألفا فارس من المغول. فهمَّ الوزير شمس الدين الأصفهانيّ أن يأخذ السلطان عزّ الدين ويصعد إلى بعض القلاع التي على البحر ويقيما هناك عاصيَين إلى أن يفعل الله ما يشاء. فعلم بذلك جلال الدين قرطاي الرجل الصالح فقبض على الوزير الأصفهانيّ وسيَّر فأعلم بهاء الدين الترجمان بذلك فأنفذ جماعة من أمراء المغول فأتوا إلى قونية وقرَّروا الوزير على الأموال والخزائن ثم قتلوه. واجتمع بهاء الدين الترجمان بجلال الدين قرطاي واتفقا على أن توزَّع البلاد على الأخوين فتكون قونية وأقسرا وأنقرة وأنطاكية وباقي الولايات الغربية لعزّ الدين. وقيسارية وسيواس وملطية وأرزنكان وأرزن الروم وغيرها من الولايات الشرقية لركن الدين. وأقطعا لعلاء الدين الأخ الصغير من الاملاك الخاصّة ما يكفيه وضربوا السكة باسم الثلاثة وكتبوا السلاطين الأعاظم عزّ ورُكن وعلاء.

وفي سنة سبع وأربعين وستمائة توفيت توراكينا خاتون أمّ كيوك خان فتشاءم كيوك خان بذلك المقام وَرحل عنه متوجهاً إلى البلاد الغربية. ولما وصل إلى ناحية قمستكي وبينها وبين مدينة بيش بالغ خمس مراحل أدركه أجله في تاسع ربيع الآخر فأرسلت زوجته المسمَّاة آغول غانميش رسولاً إلى باتوا وأعلمته بالقضية وتوجهت هي إلى جانب قوتاق وايميل وأقامت بالمكان الذي كان يقيم به كيوك خان أولاً. فسيَّرت سرفوتني بيكي زوجة تولي خان وهي أكبر الخواتين يومئذٍ إليها

(١) الملاحدة: قوم من بقايا القرامطة الخوارج. تاريخ ابن خلدون ج ٥.

رسولاً تعزّيها وحمل إليها ثياباً وبوقتاقاً. وفيها سار باتوا من بلاده الشمالية متوجهاً إلى المشرق ليجتمع بكيوك خان لأنه كان يلجّ إليه بالمسير إليه فلما وصل إلى موضع يقال له الأقماق وبينه وبين مدينة قياليق ثماني مراحل بلغه وفاة كيوك خان فأقام هناك وسيَّر رسولاً إلى أغول غانميش زوجة كيوك خان وأذن لها بالتصرّف في الممالك إلى أن يقع الاتفاق على من يصلح أن يلي الأمر وأرسل أيضاً إلى الجوانب ليجتمع الأولاد والعشائر والأمراء.

وفيها خرج ريدافرنس[١] ملك فرنجة قاصداً للديار المصرية فجمع عساكره فأرسلها وأرجلها جموعاً عظيمة وأزاح عليهم فسار عن بلاده بأموال جزيلة وأهبة جميلة وأرسى بعكّا وانبثّ أصحابه في جميع بلاد الساحل فلمّا استراحوا جاؤوه حاشدين حافلين وساروا في البحر إلى دُمياط وملكوها بغير تعب ولا قتال لأن أهلها لما بلغهم ما هم عليه الفرنج من القوة والكثرة والعدّة الكاملة هالهم أمرهم فرحلوا عنها مخفّين. فوصل إليهم الفرنج ولقوها خالية عن المقاتلين غير خاوية من الأرزاق فدخلوها وغنموا ما فيها من الأموال. وكان الملك الصالح بن الملك الكامل[٢] صاحب مصر يومئذٍ بالشام يحاصر مدينة حمص. فلما سمع بذلك بأنَّ الفرنج قد ملكوا دمياط رحل عن حمص وسار مسرعاً إلى الديار المصرية ومرض في الطريق وعند وصوله إلى المنصورة عرض له في فخذه الداء الذي يسمونه الأطباء غانغرانا ثم استحكم الفساد فيها حتى آل أمرها إلى سفاقلس وهو موت العضو أصلاً فقطعوها وهو حيّ. وبينما هو يكابد الشدائد في هذه الحالة وافاه مقدَّمو دمياط الذين أخلوها منهزمين فلما قيل له ما صنعوا لأنهم فرّوا عنها من غير أن يباشروا حرباً وقتالاً عظم ذلك عليه فأمر بصلبهم وكانوا أربعة وخمسين أميراً فصلبوا كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم. ثم مات من غد ذلك اليوم. وتولّى تدبير المملكة الأمير عزّ الدين المعروف بالتركمانيّ وهو أكبر المماليك الترك. وكان مرجوعه في جميع ذلك ممّا يعتمده من الأمور إلى حظيّة الملك الصالح المتوفّى المسمّاة (شجرة الدرّ) وكانت تركية داهية الدهر لا نظير لها في النساء حسناً وفي الرجال حزماً. فاتفقا على تمليك الملك المعظم بن الملك الصالح. وكان يومئذ مقامه بحصن كيفا من ديار بكر فأرسلا رسولاً في طلبه وحثّاه على المصير إليهم. فسار إلى الديار المصرية من غير توقف فبايعوه وحلفوا له وسلموا إليه ملك أبيه.

وفي سنة ثماني وأربعين وستمائة سيَّر ريدافرنس عسكراً نحو ألفي فارس نحو المنصورة ليجسّ بهم ما هم عليه المصريون من القوة. فلقيهم طرف من عسكر المسلمين فاقتتلوا قتالاً ضعيفاً

(١) ريدا فرنس: معناها ملك فرنسا وأراد بها الملك لويس التاسع.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٤١٦ توفي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة سبع وأربعين بمكانه من المنصورة قبالة الافرنج.

فانهزم المسلمون بين أيديهم فدخل الفرنج المنصورة ولم ينالوا منها نيلاً طائلاً لأنهم حصلوا في مضايق أزقّتها وكان العامة يقاتلونهم بالحجارة والآجرّ والتراب وخيولهم الضخمة لم تتمكن من الجولان بين الدروب. وكان القائد لعسكر المسلمين فخر الدين عثمان المعروف بابن السيف أحد الأمراء المصريين شيخ كبير أحاط به الفرنج وهو في الحمام يصبغ لحيته فقتلوه هناك.

وعادوا إلى ريدافرنس وأعلموه بما تمَّ لهم مع ذلك العسكر وبالمدينة. فزاد طمعه وطمع من معه من البطارقة ظانّين أنه إذا كان الالتقاء خارج الجدران بالصحراء لم يكن للمسلمين عليهم مقدرة. فعبّى جيوشه وسار بهم طالباً أرض مصر. فصبر المصريون إلى أن عبر الفرنج الخليج من النيل المسمّى أشمون وهو بين البرَّين برّ دمياط وبرّ المنصورة. فتوجهوا نحوهم والتقى العسكران واقتتل الفريقان قتالاً شديداً. وانجلت الحرب عن كسرة الفرنج وهزموا أفحش هزيمة ومنعهم الخليج المذكور من أن يفوزوا وينجوا بأرواحهم فغرق منهم خلق كثير وقُتل آخرون وأسر الملك ريدافرنس ومعه جماعة من خواصّه وأكابره. فلما حصل ملك الفرنج في قبضة الملك المعظم قال له المماليك الصغار أقرانه: إننا نرى الآمر كله إلى شجرة الدُرّ والأمراء وليس لك من السلطنة إلاّ اسمها فلو كنت في الحصن كنت أرفه خاطراً منك وأنت صاحبَ مِصر والحكم لغيرك والسبب في هذا ليس إلاّ حاجتك إليهم في مقاومة الفرنج وليس لك عدوّ سواهم فالرأي أن تصالح هذا الملك ومن معه من أمرائه إلى أيّ مدّة شئت فإنه لا يخالفك في جميع ما تريد منه إذا اصطنعته ووهبت له روحه وتأخذ منه الأموال والجواهر التي له في دمياط ويسلّم إليك دُمياط ويذهب في حال سبيله وتأمن شرّه وشرّ أهل ملّته وتستريح من الأمراء واستخدام الجند وتُبقي في ملكك من اخترت وتزيل من كرهت. فصغا المعظم إلى قولهم واستصوب رأيهم ودبَّر الأمر مع ريدافرنس وحلَّفه كما أراد من غير أن يشاور الأمراء الكبار في شيء من ذلك. فأحسّوا بالقضية وتحققوا تغيُّر المعظم عليهم وما قد نوى أن يفعل بهم فنقموا عليه ووثبوا به فهرب منهم وصعد إلى برج من خشب كانَ هناك فضربوا فيه النار فلما وصلت إليه وشاطته رمى نفسه إلى الخليج النيلي. فجاؤوا إليه ورَموه بالنشاب وهو في الماء فمات غريقاً جريحاً.

واتفق الأمراء التُرك وقدموا عليهم أميراً منهم يُلقب بعزّ الدين التركماني ونهضوا إلى ريدافرنس وجددوا معه اليمين وأفتدي منهم بألف ألف دينار وتسليم دُمياط فأطلقوه ثم سار التركماني من المنصورة إلى مصر وأقطع الاسكندرية لأمير من الترك يقال له (فارس اقطاي) وتزوَّجَ شجر الدرّ وصار ملكَ مصر في قبضتهما. وأما ريدافرنس لما وصل إلى دمياط أخذ أهله ومن تخلف من أصحابه وخرج عنها وسلمها إلى المسلمين وأقام هو بعكا وبنى مدينة قيسارية وأصلحها وأسكنها جماعة ثم سار إلى بلده.

ولما ولي التركماني الديار المصرية كان الأمر كله إلى شجرة الدرّ لا تمكّنه من التصرّف إلاّ فيما يصدر عن رأيها فكره ذلك ولم يطق احتماله وهمَّ بإهلاكها. فشعرت بذلك وسبقته. ففعلت به ما أراد أن يعمل بها وأشلت عليه المماليك الصغار. وفي بعض الأيام لمّا دخل الحمام وكانوا يسكبون على رأسه الماء ليغتسل جرحوهُ بالسكاكين فقتلوهُ. وقيل مقلوا رأسه في الماء داخل الخزانة إلى أن اختنق مغطوطاً. وأمرت شجرة الدرّ أن يُخرج ويُدفن فأخرجوه ودفنوه في الدار. ولما بلغ ذلك الأمراء الكبار عظم عليهم فعلها فوثبوا بها وقتلوها ورموها في الخندق فأكلتها الكلاب؟ وقدموا عليهم واحداً منهم اسمه قوتوز فحلفوا له وملكوه ولقبوه الملك المظفر. ولما استولى المماليك على الديار المصرية سار الملك الناصر صاحب حلب بحريدة إلى دمشق فسلمها إليه أهلها فملكها وأقام بها وصارت دار مملكته. ثم راسله بعض المماليك من مصر ليسير إليهم فيسلموا له مصر فعبّى عسكره وسار إلى نحو الديار المصرية ليملكها كما ملك دمشق. فلما بلغ أمراء الترك ذلك بادروا إليه في عساكرهم والتقوا الشاميين بناحية غزّة وكسروهم وهزموهم فعاد الملك الناصر فيمن معه خائباً خاسراً. وفيها ملك بدر الدين لؤلؤ جزيرة ابن عمر[1] وأسر صاحبها الملك مسعود بن الملك المعظم من بيت أتابك زنكي وسيّره في ركوة إلى الموصل وتقدَّم إلى من وكل به ليرميه ليلة في دجلة فغرقوه وأخبروا أنه رمى نفسه وهم نيام ولم يحسّوا بما فعل.

وفيها اجتمع أولاد الملك وأمراء المغول فوصل من حدود قراقورم مونككابن تولي خان. وأما سيرامون وباقي أحفاد وخواتين قال فسيَّروا قنقورتقاي وكتبوا خطهم أنه قائم مقامهم وأن باتوا هو أكبر الأولاد وهو الحاكم وهم راضون بما يرضاه. وأما أغول غانميش خاتون زوجة كيوك خان ومن معها من أولاد الملك فوصلوا إلى خدمة باتوا ولم يقيموا عنده أكثر من يوم بل رجعوا إلى أوردُهم واستنابوا أميراً منهم يقال له تيمور نوين وأذنوا له أن يوافق ما يتفق عليه الجمع كله وأن اختلفت الأهواء لا يطيع أحداً حتى يعلمهم كيفية الحال. فبقي جغاتاي ومونككا وسائر من كان حاضراً من الأولاد والأحفاد والأمراء يتشاورون أياماً في هذا الأمر وفوضوا الأمر إلى باتوا لأنه أكبر الجماعة وأشدّهم رأياً. فبعد ثلاثة أيام من يوم التفويض قال: إن مثل هذا الخطب الخطير ليس فينا من بقي بحق القيام به غير مونككا فوافقوه كلهم على ذلك وأجلسوه على سرير المملكة وباتوا مع باقي الأولاد والأكابر خدموه جاثين على ركبهم كالعادة. وانصرف كل واحد إلى مقامه على بناء أنهم يجتمعون في السنة المقبلة ويعملون مجمعاً كبيراً ليحضره من الأولاد والأكابر

(١) جزيرةُ ابن عُمَر: هي بلدة فقو الموصل بينهما ثلاثة أيام بحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة فعمل هناك خندق أحيط بها من جوانبها. معجم البلدان ج ٢ ص ١٦٠.

من لم يحضر الآن. وفي سنة تسع وأربعين وستمائة في وقت الربيع حضر أكثر الأولاد مثل بركة أغول وأخوه بغاتيمور وعمهم الجتاي الكبير والأمراء المعتبرين من أردو جنكزخان. وفي اليوم التاسع من ربيع الآخر كشفوا رؤوسهم ورموا مناطقهم على أكتافهم ورفعوا مونككا على سرير المملكة ومونككا قاان سمّوه وجثوا على ركبهم تسع مرات. وكان له حينئذٍ سبعة من الأخوة: قبلاي، هولاكو، ريغبوكا، موكا، بوجك، سبكو، سونتاي، فترتبوا جالسين على يمينه والخواتين على يساريه وعملوا الفرحة سبعة أيام. وبينما هم يحسرونُ ويسرُّون إذ وصل قدغان أغول وابن اخته ملك أغول وقراهولاكو وقاموا بمراسم التهنئة وشرائط الخدمة. وكان الجماعة بانتظار أغول غانميش زوجة كيرك خان وولدها خواجة أغول وأمرائهم ولم يصل بعد أحد منهم. وفي سنة خمسين وستمائة توجهت أغول غانميش وجماعتها في عساكرهم نحو أردو مونككا خان. وكان المقدَّم على جيوشهم سيرامون وناقوا. ولما قربوا أتفق أن رجلاً من أردو مونككا قاان من الذين يربُّون السباع لأولاد الملك هرب منه أسد فخرج في طلبه دائراً عليه بالجبال والصحاري فاجتاز بطرف من عسكر سيرامون ولقي صبياً منهم قد انكسرت عجلته وهو جالس عندها. فلما رأى السبَّاع المذكور مجتازاً استدعاه ليستعين به في ترميم عجلته فأجابه السبَّاع إلى ذلك ونزل من فرسه وأخذ يصلح معه العجلة. فوقع بصره على أسلحة مستورة في باطن العجلة فسأل الغلام عنها. فقال له: ما أغفلك كأنك لست منا كيفَ لم تعرف أن كل العَجَل التي معنا كهذه مشحونة بآلات الحرب. فلما تحقق ذلك ترك طلب الأسد الآبق وسار مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد عائداً إلى أصحابه وأعلمهم بما رأى وسمع. فأمر مونككا قاان أن يمضي إليهم منكسار في ألفي فارس ويستكشف حالهم. فمضى وذكر لهم ما نقل عنهم فلم يتمالكوا وداخلهم الرُعب ولم يسعهم إلاّ التسليم لما يُقضَى عليهم. ولما حضر الكبير منهم والصغير وقع السؤال وثبتت الجريمة عليهم فجوزوا بما استوجبوا من الهلاك وتقسيم عساكرهم على الأولاد والأمراء. ولما فرغ خاطر مونككا قاان من أمر المخالفين شرع في ترتيب العساكر وضبط الممالك فأقطع بلاد الخطا من حدّ الميري إلى سليكاي وتنكوت وتُبّت لقبلاي أغول أخيه. (والبلاد الغربية لهولاكو أخيه الآخر ومن جهة تحصيل الأموال. وولّى على البلاد الشرقية من شاطىء جيحون إلى منتهى بلاد الخطا الصاحب المعظم يلواج وولدهُ مسعود بيك. وعلى ممالك خُراسان ومازندران وهندوستان والعراق وفارس وكُرمان ولور وأرّان وأذربيجان وكرجستان والموصل والشام الأمير أرغون آغا. وأمر أن المتموّل الكبير ببلاد الخطا يؤدي في السنة خمسة عشر ديناراً والوضيع ديناراً واحداً. وببلاد خَراسان يزن المتموّل في السنة عشرة دنانير والفقير ديناراً واحداً. ومن مراعي ذوات الأربع الذي يسمُّونه قويجور يؤخذ من كل من له مائة رأس من جنس واحد رأس واحد ومن ليس له مائة لا يؤخذ منه

شيء. وأطلق العباد وأرباب الدين من الوثنيين والنصارى والمسلمين من جميع المؤونات والأوزان والتكليفات.

وفيها وهي سنة ألف وخمسمائة وثلاث وستين للإسكندر توجَّه حاتم ملك الأرمن إلى خدمة مونككا قاان أخذ قربان خميس الفصح ورحل عن مدينة سيس يوم الجمعة الصلبوت وخرج متنكراً مع رسول له بزيّ بعض الغلمان وأخذ على يده جنيباً يجذبه خلف الرسول لأنه كان خائفاً من السلطان صاحب الروم. وذكر الرسول أين ما جاء واجتاز من بلد الروم أنه قد أرسله الملك حاتم ليأخذ له الأمان من مونككا قاان فإذا أمّنه توجَّه هو بنفسه إلى حضرته. حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين[1] من عودته من خدمة مونككا قاان قال: عبرت بقيسارية وسيواس مع الرسول ولم يعرفني أحد من أهلها قط إلاّ لما دخلنا مدينة أرزنكان عرفني رجل من السوقية كان قد سكن عندنا فقال: إن كانتا هاتان عينيَّ فهذا ملك سيس. فلما سمع الرسول كلامه التفت إليَّ ولطمني على خدي وقال: يا نذل صرت تتشبَّه بالملوك. فاحتملت اللطمة لأزيل بها ظنّ من كان ظنّه يقيناً.

وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة توجَّه هولاكو إيلخان من نواحي قراقورم إلى البلاد الغربية. وسيَّر معه مونككا قاان الجيوش من كل عشرة اثنين وصحبه أخوه الصغير سنتاي أغول ومن جانب باتوا بلغاي بن سيقان وقونار أغول وقولي في عساكر باتوا. ومن قبل جغاتاي تكودار أغول بن بوخي أغول. ومن جانب جيحكان بيكي بوقاتيمور في عسكر الأويرات. ومن ناحية الخطأ ألف بيت من صنَّاع المنجنيقات وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب. فكان أمير الترك كيدبوقا الباورجي. وكان القائم مقام هولاكو بأردو مونككا قاان ولده جومغار بسبب أن أمه أكبر خواتين هولاكو أبيه. وأخذ صحبته ابنه الكبير أباقا وابنه الآخر يسمون[2] ومن الخواتين الكبار دوقوز خاتون المؤمنة المسيحية والجاي خاتون. وفي سنة إثنتين وخمسين وستمائة تواترت الايلجية في طلب السلطان عز الدين صاحب الروم ليحضر هو بنفسه في خدمة مونككا قان. فتجهز وسار حتى وصل إلى مدينة سيواس. ولما سمع أن الأمراء قد مالوا إلى ركن الدين أخيه ويرومون تمليكه عاد مسرعاً إلى قونية وأرسل أخاه علاء الدين وكتب معه كتباً يذكر فيها: إنني قد سيَّرت أخي علاء الدين وهو سلطان مثلي وأنا لم يمكنني المجيء بسبب أن أتابكي ومدبري جلال الدين قرطاي قد مات وظهر لي أعداء من ناحية المغرب فإذا كُفيتُ شرَّهم جئت المرَّة الأخرى. فلما سار علاء

(١) لعل الصواب سنتين.

(٢) لعل الصواب (يشموت) أنظر الصفحة ٢٧٧ نفس الكتاب.

الدين توفي في الطريق ولم يصل إلى الأردو. وأراد عزّ الدين أن يقتل ركن الدين أخاه الآخر ويأمن غائلتِه فأحسّ الأمراء بذلك وهرّبوه بأن ألبسوه ثياب بعض غلمان الطباخين ووضعوا على رأسه خوانجه فيها طعام وأخرجوه من الدار والقلعة في جماعة من الصبيان قد حملوا طعاماً إلى بعض الدور: فلما خرج أركبوه فرساً وساروا به حتى أوصلوه إلى قيسارية وانضم إليه هناك جماعة من الأمراء وجيشوا وتوجهوا نحو قونية ليحاربوا عزّ الدين.

فبرز إليهم عزّ الدين بمن معه من العسكر فكسرهم وهزمهم وأسر ركن الدين أخاه واعتقله بقلعة دوالوا. وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة وصل رسول بايجو نوين إلى السلطان عزّ الدين يطلب منه مكاناً يشتي به لأن بلد موغان الذي كان يشتو به صار مشتىً لهولاكو. فأبى السلطان أن يجيبه إلى ذلك وطمع فيه وظنّه منهزماً بين يدي هولاكو وجيّش وحاربه عند خان السلطان بين قونية واقسرا وانكسر عزّ الذين هرب متوغلاً في بلاده الداخلة. فأخرج بايجو أخاه ركن الدين من الحبس وملكه على جميع بلاد الروم.

وفيها وصل الملك حاتم ودخل بلده أول أيلول وكان مجيئه صحبة بايجو نوين. وفيها في شهر شعبان نزل هولاكو بمروج مدينة سمرقند وأقام بها أربعين يوماً. وهناك أدرك أخاه سنتاي أغول أجله وأخبر بوفاة أخيه الآخر في طرف بلادر فتكدر خاطره لهاتين الوقعتين فوصل إليه الأمير أرغون وأكثر أكابر خُراسان وقوّوا عزمهم فعبروا ماء جيحون وكان الوقت شتاء شديد البرد لا يقشع الغيم ولا ينقطع وقوع الثلج من تلك البقاع إلى وقت حلول الشمس برج الحمل. فأمر الأمراء أن يقصدوا في عساكرهم قلاع الملاحدة وكان مقدم الاسمعيلية يومئذٍ رُكن الدين خوزشاه بن علاء الدين فأخرب خمس قلاع من قلاعه التي لم يكن فيها ذخائر للحصار. وأقبل رسول هولاكو إلى حدّ قصران. وكان كيدبوقا قد سبق ففتح قلعة شاهديز وثلثاً آخر من قلاعهم. ولما وصل ايلخان إلى عبادساباذ سيّر ركن الدين إلى العبودية صبياً عمره نحو سبع أو ثماني سنين وذكر أنه ولده. فلم يخفَ صنيعه على هولاكو ولكن لم يكاشفه في ذلك بل أعز الصبي وأكرمه ثم أعاده إليه. وبعد وصول هذا الابن المزوَّر إلى ركن الدين سيَّر أخاه شيرانشاه في ثلاثمائة رجل على سبيل الحشر. فسيَّر هولاكو الثلاثمائة إلى جمالاباذ من بلد قزوين وأعاد أخاه محملاً رسالة إليه وهي أنه إلى خمسة أيام إن لم يصل بنفسه إلى الخدمة يُحكِم قلعته ويستعد للحرب. فأرسل رسولاً يقول: إنه لا يتجاسر على الخروج خوفاً من حشمه الذين معه داخل القلعة لئلا يثبوا به فإذا وجد فرصة جاء. فعرف هولاكو أنه يماطل مدافع من وقت إلى آخر فرحل رابع عشر شوال من سنة أربع وخمسين وستمائة من بيشكام ونزل على القلعة المحاذية لميمون دره وتقدم بقتل الثلاثمائة رجل من

الملاحدة الذين كانوا بجمالاباذ قزوين سرّاً وصار أهل قزوين يضربون بذلك مثلاً لمن يقتل فيقولون: انعبث إلى جمالاباذ. ولما عاين ركن الدين نزول هولاكو بالقرب سيّر رسولاً يقول: إن سبب تماطلي لم يكن غير أنني ما كنت أحقق وصوله المبارك والآن أنا نازل اليوم أو غداً. وكان تلك الليلة ليلة الميلاد. فلما عزم على الخروج ثاورهُ العلاة[1] من الملاحدة وواثبه الفدائيون ولم يمكّنوه من الخروج. فسيّر إلى هولاكو وأعلمه ما هم عليه من التمرّد. فأمره أن يداري الوقت معهم محافظاً نفسه منهم وكيف ما كان يحتال للنزول ولو متنكراً. وتقدم إلى الأمراء ليحتفُّوا بالقلعة وينصبوا المجنيقات ويقاتل كل منهم من يقاتله من الاسمعيلية. فلما اشتغل الملاحدة بقتال المغول نزل ركن الدين ومعه ولده وخواصه إلى عبودية هولاكو وأظهر الخجلة بل الندامة معترفاً بما اقترفه في الأيام الماضية من الجرائم والآثام. فشملته لطائف عواطف إيلخان وبدل ما عند ركن الدين من الاستيحاش والاستنفار بالاستيناس والاستبشار. ولما تحقق من بالقلعة ما نال صاحبهم من الطمأنينة والكرامة سلموا القلعة ونزلوا عنها فحاول المغول هدمها وفتحوا أيضاً جميع القلاع التي في ذلك الوادي. وتوجّه إيلجي إلى متوليّ قلعة الموت ليتبع مولاه ركن الدين في توخي الايلية وتسليم القلعة. فأبى إلاّ العصيان إلى أن نازله بلغاي أغول في عساكر جمة فطلب الأمان وسلمها وخرج عنها في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة. وفي تلك الأيام وصل شمس الدين محتشم قلاع قهستان وأخذ يرليغاً وسار معه أصحاب ركن الدين إلى قهستان ليخرب جميع القلاع التي هناك وهي تزيد على خمسين حصناً حصيناً وتسلموها وفتحوها إلاّ قلعتين منها هما كردكوه وكمشير فإنهم لم يطيقوا فتحها في الحال إلاّ بعد سنتين. ووصل أكابر الديلم وصالحوا المغول على تخريب قلاعهم. وفي أواسط ذي الحجة عاد هولاكو إلى الأردو بناحية همذان وسيَّر ركن الدين وبنيه وبناته وأزواجه إلى قزوين. وفي سنة خمس وخمسين وستمائة التمس ركن الدين خوزشاه من هولاكو أن يسيّره إلى عبودية مونككا قاان. فأعجبه ذلك وأرسله ومعه تسعة نفر من أصحابه صحبة الايليجية. فلما وصلوا إلى مدينة بخارا خاصم الايليجية وتسافه عليهم فحقدوا عليه. فلما وصلوا إلى قراقورم لم يؤذن لركن الدين أن يحضر وبرز مرسوم مونككا قاان إليه أن: يجب عليك العودة إلى بلدك والتقدم إلى نوابك ليسلموا قلعتَي كردكوه وكمشير فإذا سلموهما وأخربتهما تحضر مرة أخرى ويكون لك التليشميشي أي الإكرام والقبول. فنكص ركن الدين بهذا الرجاء على عقبه. وفي الطريق أُهلك مع من كان معه من أصحابه. ووصل برليغ مونككا قاان إلى هولاكو ليقتل الملاحدة بأَسرهم ولا يبقى منهم أثر. فأرسل قراقاي البيتكتجي إلى قزوين وقتل بني ركن

(١) لعل الصواب (الفلاة) فلما عزم على الخروج ثاوره الفلاة من الملاحدة.

الدين وبناته وإخوته وأخواته مع جميع عساكر الملاحدة وأوتكوحنا نوين أيضاً أخرج من رعايا الاسمعيلية بحجة الحشر اثني عشر ألف رجل وقتلهم كلهم وأخلى الأرض من كل من ألحد في دينه.

وفيها سيَّر السلطان عزّ الدين رسولاً إلى خدمة هولاكو شاكياً على بايجو نوين أنه أزاحه عن ملكه. فأمر هولاكو أن يتقاسما الممالك هو وأخوه ركن الدين. فظهر عزّ الدين فأتى إلى قونية ومضى ركن الدين مع بايجو نوين إلى مخيَّمه. ولخوف عزّ الدين من بايجو نوين وجَّه مملوكه طفلاً إلى نواحي ملطية وخرتبرت ليستخدم له عسكراً من الأكراد والتركمان والعرب. فوصل هذا المملوك وسيَّر في طلب شرف الدين أحمد بن بلاس من بلد الهكار وشرف الدين محمد بن الشيخ عدي من بلد الموصل الكردَيْن فأتياه. فأقطع ابن بلاس ملطية وابن الشيخ عدي خرتبرت. أما ابن بلاس فلم يقبله أهل ملطية لأنهم كانوا مستحلفين لركن الدين فكان يضطهدهم ويجور عليهم. فما احتملوه وآل أمرهم معه إلى أن وثبوا بأصحابه وقتلوا منهم نحو ثلاثمائة رجل وهرب هو مع من تبعه من أصحابه واجتازوا ببلد قلوذيا وأحرقوا دير ماذيق يوم الشعانين وعبروا إلى بلد آمد وهناك أدركهم صاحب ميافارقين وقتل ابن بلاس وأسر أصحابه. وأما ابن الشيخ عدي فرحل من خرتبرت ليتصل بالسلطان عزّ الدين فأدركه أنكورك نوين وقتله ومن معه. ثم ولَّى السلطان عزّ الدين ملطية رجلاً بطلاً شجاعاً يقال له عليّ بهادر فقبله أهل ملطية خوفاً من صرامته. وهذا عليّ حارب الأعجزية وهم قوم مفسدون من التُركمان كانوا يغيرون على البلاد ويقتلون أهلها ويسبون الذراري فأسر مقدمهم المسمى جوتي بك وسجنه بقلعة المنشار وهزم جيوشهم. فأمن الناس شرّهم وانفتحت السبل وأمتار الناس الطعام وفرج الله عنهم غمهم قليلاً. وبينما هم فرحون بذلك إذ وافاهم بايجو نوين في عساكره وصاروا يقاتلون متسلمي القلاع ليسلموها إلى ركن الدين. ونزلوا على مدينة أبلستين وقتلوا من أهلها نحو ستة آلاف رجل وأسروا النساء والبنين والبنات. وجاؤوا إلى ملطية فهرب عليّ بهادر إلى كاخنة. وخرج أهل ملطية إلى خدمة بايجو نوين بأنواع الترغو[1] والتحف. وكان ذلك في منتصف أيلول سنة ألف وخمسمائة وثماني وستين للاسكندر. فحلَّفهم لركن الدين ورحل عنهم بعد أن أخذ أموالاً وولَّى ركن الدين على ملطية مملوكاً له اسمه فخر الدين اياز. ولما خرج بايجو من حدود الروم طالباً للعراق عاد عليّ بهادر إلى ملطية فأغلق أهلها الأبواب ولم يمكنوه من الدخول خوفاً من بايجو. فحصرها أياماً واشتد الغلاء بها وبلغ المكوك من الملح إلى أربعين[2] درهماً والحنطة المكوك بسبعين درهماً. فضجر الناس

(١) الترغو (يعني الهدايا) والتحف.

(٢) لعل الصواب (أربعمائة).

وضاقت بهم الحيلة ففتح العامة الحاكة وغيرهم باباً من أبواب المدينة في بعض الليالي فدخلها عليّ بهادر وأصحابه التركمانيون عنوة واصعد إلى المنابر جماعة ينادون ويقولون: إن الأمير قد أمَّن الرعية النصارى منهم والمسلمين فليخرج كل واحدٍ إلى عمله ودكانه وليشتغل ببيعه وشرائه فإنما كلامه مع الحكام. فلما أصبحوا قبض على فخر الدين إياز مملوك السلطان ركن الدين وسجنه وأركب شهاب الدين العارض على بهيم حقير وطوَّفه بملطية ثم قتله وشدَّ أحد طرَفي رس في رقبة المعين الايكد بشاسي والطرف الآخر في رقبة كلب ومشَّاه بالأسواق ثم ضرب عنقه. وعاقب المستوفي الروميّ القسيس قالويان وولده كيريوري وأخويه باسيل ومانويل واستصفى أموالهم ثم قتلهم. وقتل أيضاً الأمراء الثلاثة أولاد الأمير شهاب الدين ايسو الكردي. واشتد الجوع بملطية وبلدها حتى أكل الناس الكلاب والسنانير وكانوا ينقعون الجلود اليابسة التي لُدِم بها النعال فيأكلونها مطبوخة. واجتاز جماعة من أصحابنا بقرية اسمها باعبدون ببلد جوباس من أعمال ملطية فرأوا جماعة من النساء قد اجتمعنَ في بيت وقدامهنَّ ميت ممدود وبأيديهنَّ السكاكين وهنَّ يشرحنَ لحمه ويشوينه ويأكلنَ. وامرأة أخرى شوت إبنها الصغير في تنورٍ لها ولما كبسها مجاوروها حلفت إنها لم تقتله إنما مات ففعلت به ذلك زاعمة أنها به أولى من الديدان. وبعدما فعل عليّ بهادر تلك الرزايا بأعيان ملطية ومثَّل بأماثلها لم يهنأ له بها عيش لما كان أهلها عليه من البلاء والجلاء والجدب. فخرج منها ملمًّا بالسلطان عزّ الدين.

وفيها مرض ثاوذوروس ملك الروم بمدينة نيقية وكان في خدمته بطريق يقال له ميخائيل ويلقب بباليولوغس أي الكلام المتقدم. وذلك أن العلماء من الروم بعد تغلب الافرنج على القسطنطينية تقدموا فقالوا إن ملكاً في اسمه الميم والخاء من حروف اليونانيين ينزع الفرنج عنها ويعيدها إلى الروم. فكان الملك ثاوذوروس يخاف هذا ميخائيل لئلاً يتغلب على الملك. ولما اشتدّ خوفه منه سجنه واعتقله ببعض قلاع بلد تسالونيقي ولم يمكنه إهلاكه بغير جريمة تظهر منه. وفي مرضه هذا أرسل بطريقاً يقال له غاذينوس ليأتيه به. فلما وصل غاذينوس هذا إلى ميخائيل قال له سراً: أنت الملك فكن لبيباً وأسلم نفسك إليَّ ولا تظهر كراهية أصلاً ورأساً ليزول بذلك ما حصل عند الملك من الخيالات في شأنك. فأجاب ميخائيل إلى ذلك وحمله مقيداً إلى الملك. ولما مثل بين يديه بكى وأظهر الكآبة العظيمة. فرقَّ له الملك وحنَّ إليه وأقبل عليه وأوصى إليه في تربية قالويان ابنه وتدبيره وكان الابن وقتئذ طفلاً وأشرك معه في ذلك البطريرك أرسانيوس. وبعد مدة مديدة توفي ثاوذوروس ودُفن في دير مغنيسيا. وكان له أخت تسمَّى كيرايلونيا ولها ختن على ابنتها يقال له موزالون فخرجت معه إلى الدير بحجة زيارة قبر الملك وأقاما به أياماً يتشاوران في أمر الملك واتفقا على أن يقبضا على ميخائيل ومن يرى رأيه ويتولَّى تدبير الطفل موزالون. فشعر ميخائيل بدسيستهما وسيَّر عليهما جماعة من جند الفرنج الذين كانوا في خدمته وأمرهم أن يقتلوهما معاً

حيث وجدوهما. فدخل الفرنج الدير ولقوهما في البيعة وقت صلاة العشاء فقطعوهما موضعهما ونادوا بشعار ميخائيل بمدينة نيقيا قائلين: ميخائيل يا منصور ميخائيل ملك يونان باليولوغس أوطوقراطور رومانيا. ومن هناك سار ميخائيل إلى مدينة نيقية خُطب له بالمملكة بجميع تلك البلاد واعتقل الطفل قالويان ابن الملك ببعض القلاع ونفى البطريرك أرسانيوس الذي وبخه على فعله هذا. ولما تكمن من المُلك لم يكن له اهتمام إلاّ بأخذ قسطنطينة فسار إليها مرة ولم يقدر على فتحها فصبر إلى أن ثارت الفتنة بين البنادقة والجنوية بمدينة عكا فسار البنادقة أجمعين عن القسطنطينية إلى عكا لنصرة أصحابهم وكانوا هم الحفظة لها. واحتال حيلة أخرى بأن أشار إلى متولّي بعض قلاع الروم ليكاتب بغدوين الفرنجي صاحب القسطنطينية ويقول له: إن هذا ميخائيل قد تغلب على مملكة الروم بغير استحقاق وهو ظالم معتدٍّ على بيت أستاذه وأنا كاره له وأنت أولى بهذه القلعة منه لأنك ملك ابن ملك وميخائيل خارجيّ. فابعث لي عسكراً وأنا أسلمها إليهم ولا بدَّ من منجنيقات تكون معهم فينصبونها ويظهرون القتال والزحف ليكون لي عذر عند الناس إذا سلَّمتها. فاغترَّ بغدوين الفرنجي بكلامه وقدره صادقاً بما قال فأرسل من كان عنده من المقاتلين إلى تلك القلعة ونازلوها واشتغلوا بنصب المنجنيقات والاستعداد للقتال. وحينئذ عبر ميخائيل في عساكره خليج القسطنطينية ونزل عليها وهي خالية عن رجال الحرب وحال بينها وبين العسكر الذي كان على القلعة المذكورة. فدلَّه بعض الرعاة على باب عتيق للمدينة قد عفا أثره ولم يفتح من عهد قسطنطينوس فنبشوه ودخلوا المدينة وملكوها ليلاً وتغافلوا عن بغدوين صاحبها عمداً حتى خرج في أهل بيته وصار إلى بلاد الفرنج في البحر. وكان مدة بقاء القسطنطينية بيد الفرنج نحو ثلاث وخمسين سنة ثم عادت إلى الروم كما كانت أولاً.

وفيها في شهر شوال رَحل هولاكو عن حدود همذان نحو مدينة بغداد. وكان في أيام محاصرته قلاع الملاحدة قد سيَّر رسولاً إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة فأراد أن يسيّر ولم يقدر ولم يمكّنه الوزراء والأمراء وقالوا: إن هولاكو رجلٌ صاحب إحتيال وخديعة وليس محتاجاً إلى نجدتنا وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة. فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال. ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة وعاتبه على إهماله تسيير النجدة. فشاوره الوزير فيما يجب أن يفعلوه فقال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصّهِ. وعندما أخذوا في تجهيز ما يسيّرونه من الجواهر والمرصَّعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال قال الدويدار الصغير وأصحابه: إن الوزير إنما يدبّر شأن نفسه مع التاتار وهو يروم تسليمنا إليهم فلا نمكنه من ذلك. فبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة واقتصر على شيء نزر لا قدر لهُ. فغضب هولاكو وقال: لا بدَّ من مجيئه هو بنفسه أو يسيّر أحد ثلاثة نفر أما الوزير وأما الدويدار وأما

سليمانشاه. فتقدم الخليفة إليهم بالمضيّ فلم يركنوا إلى قوله فسيَّر غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين فلم يجديا عنه. وأمر هولاكو بايجو نوين وسونجاق نوين ليتوجَّها في مقدمته على طريق إربل وتوجه هو على طريق حلوان. وخرج الدويدار من بغداد ونزل بجانب ياعقوبا[1]. ولما بلغه أن بايجو نوين عبر دجلة ونزل بالجانب الغربي ظن أن هولاكو قد نزل هناك فرحل عن باعقوبا ونزل بحيال بايجو ولقي يزك المغول أميراً من أمراء الخليفة يقال له ايبك الحلبي فحملوه إلى هولاكو فأمَّنه أن تكلَّم بالصحيح وطيّب قلبه فصار يسير أمام العسكر ويهديهم. وكتب كتاباً إلى بعض أصحابه يقول لهم: ارحموا أرواحكم واطلبوا الأمان لأن لا طاقة لكم بهذه الجيوش الكثيفة. فأجابوه بكتاب يقولون فيه: من يكون هولاكو وما قدرته ببيت عباس مَن الله ملكهم ولا يفلح من يعاندهم ولو أراد هولاكو الصلح لما داس أرض الخليفة ولما أفسد فيها. والآن إن كان يختار المصالحة فليعد إلى همذان ونحن نتوسل بالدويدار ليخضع لأمير المؤمنين متخشعاً في هذا الآمر لعلَّه يعفو عن هفوة هولاكو. فلما عرض أيبك الكتاب على هولاكو ضحك واستدلَّ به على غباوتهم. ثم سمع الدويدار أن التاتار قد توجهوا نحو الأنبار. فسار إليهم ولقي عسكر سونجاق نوين وكسرهم وهزمهم وفي هزيمتهم التقاهم بايجو نوين فردَّهم وهجموا جميعاً على عسكر الدويدار فاقتتلوا قتالاً شديداً وانجلت الحرب عن كسرة الدويدار فقتل أكثر عسكره ونجا هو في نفر قليل من أصحابه ودخل بغداد.

إستيلاء التتر على الشام

وفي منتصف شهر المحرَّم من سنة **ست وخمسين وستمائة** نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سيبا أعني سوراً عالياً وبنى بوقاتيمور وسونجاق نوين وبايجو نوين بالجانب الغربي كذلك وحفروا خندقاً عميقاً داخل السيبا ونصبوا المنجنيقات بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتبوا العرّادات وآلات النفط. وكان بدء القتال ثاني وعشرين محرَّم. فلما عاين الخليفة العجز في نفسه والخذلان من أصحابه أرسل صاحب ديوانه وابن درنوش إلى خدمة هولاكو ومعهم تحف نزرة. قالوا: إن سيَّرنا الكثير يقول: قد هلعوا وجزعوا كثيراً. فقال هولاكو: لَم ما جاء الدويدار وسليمانشاه. فسيَّر الخليفة الوزير العلقمي وقال: أنت طلبت أحد الثلاثة وها أنا قد سيَّرت إليك الوزير وهو أكبرهم. فأجاب هولاكو: إنني لما كنت مقيماً بنواحي همذان طلبت أحد الثلاثة والآن لم أقنع بواحد. وجدَّ المغول بالقتال بإزاء برج العجي وبوقاتيمور من الجانب الغربي حيث المبقلة وسونجاق نوين وبايجو نوين من جانب البيمارستان العضدي.

(١) باعقوبا: قرية كبيرة على عشرة فراسخ من بغداد.

وأمر هولاكو البتيكتجية ليكتبوا على السهام بالعربية: إن الأركاونية[١] والعلويين والداذنشمدية[٢] وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله. وكانوا يرمونها إلى المدينة. واشتدَّ القتال على بغداد من جميع الجوانب إلى اليوم السادس والعشرين من محرم. ثم ملك المغول الأسوار وكان الابتداء من برج العجمي. واحتفظ المغول الشط ليلاً ونهازاً مستيقظين لئلا ينحدر فيه أحد. وأمر هولاكو أن يخرج إليه الدويدار وسليمانشاه وأما الخليفة أن اختار الخروج فليخرج وإلاّ فليلزم مكانه. فخرج الدويدار وسليمان شاه ومعهما جماعة من الأكابر. ثم عاد الدويدار من الطريق بحجة أنه يرجع ويمنع المقاتلين الكامنين بالدروب والأزقَّة لئلا يقتلوا أحداً من المغول فرجع وخرج من الغد وقُتل. وعامة أهل بغداد أرسلوا شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الأمان. ولما رأى الخليفة أن لا بد من الخروج أراد أو لم يرد استأذن هولاكو بأن يحضر بين يديه فأذن له وخرج رابع صفر ومعه أولاده وأهله. فتقدم هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذي وشرع العساكر في نهب بغداد ودخل بنفسه إلى بغداد ليشاهد داخل الخليفة وتقدَّم بإحضار الخليفة فأحضروه ومثل بين يديه وقدم جواهر نفيسه ولآلىء ودوراً معبَّاة في أطباق ففرَّق هولاكو جميعها على الأمراء وعند المساء خرج إلى منزله وأمر الخليفة أن يفرز جميع النساء التي باشرهن هو وبنوه ويعزلهنَّ عن غيرهنَّ ففعل فكنَّ سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهنَّ ثلاثمائة خادم خُصيَ. وبقي النهب يعمل إلى سبعة أيام ثم رفعوا السيف وبطلوا السبي. وفي رابع عشر صفر رحَل هولاكو من بغداد وفي أول مرحلة قتل الخليفة المستعصم[٣] وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذ: وفوَّض عمارة بغداد إلى صاحب الديوان والوزير وابن درنوش. وأرسل بوقاتيمور إلى الحلَّة ليمتحن أهلها هل هم على الطاعة أم لا. فتوجَّه نحوها ورحل عنها إلى مدينة واسط وقتل بها خلقاً كثيراً أسبوعاً. ثم عاد إلى هولاكو وهو بمقام سياكوه.

وكان من الفضلاء المعتبرين في هذه السنين **القاضي الأكرم جمال الدين بن القفطي** مصنف كتاب تاريخ الحُكماء مولده بقفط من أعمال صعيد مصر سنة ثماني وستين وخمسمائة رحل به أبوه طفلاً وأسكنه القاهرة المعزّية وبها قرأ وكتب وشدا شيئاً من الأدب. ثم خرج إلى الشام فأقام بحلب وصحب بها الأمير المعروف بالميمون القصري. واجتمع في هذه المدة بجماعة من العلماء واستفاد

(١) الأركاونية: أتباع أركون ومعناه الدهقان العظيم وهي كلمة يونانية.

(٢) لعل الصواب الدانشمدية.

(٣) المستعصم أخر الخلفاء العباسيين كانت مدة خلافته نحو ستة عشرة سنة.

بمحاضرتهم وفقه بمناظرتهم. ثم لازم منزله بعد وفاة الأمير المذكور إلى أن ألزم بالخدمة في أمور الديوان في أيام الملك الظاهر فتولىّ ذلك وهو كاره للولاية متبرّم بها. فلما مات الملك الظاهر عاد فانقطع في منزله مستريحاً من معاناة الديوان مجتمع الخاطر على شأنه من المطالعة والفكرة منقبضاً عن الناس محباً للتفرد والخلوة لا يكاد يظهر لمخلوقٍ حتى قلّده الملك العزيز وزارته سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. فلم يزل في هذا المنصب مدة أيام الملك العزيز والملك الناصر ابنه حتى توفي ثالث عشر رمضان سنة ست وأربعين وستمائة.

ومن حكماء هذا الزمان **نجم الدين النخجواني** كان ذا يد قويَّة في الفضائل وعارضة عريضة في علوم الأوائل تفلسف ببلاده وسار في الآفاق وطوَّف ودخل الروم وولي المناصب الكبار ثم كره كدر الولاية ونصبها فارتحل إلى الشام وأقام بحلب منقطعاً في دار اتخذها لسكناه لا يمشي إلى مخلوق ولكن يُمشَى إليه إلى أن مات بها. وكان شديد الميل إلى مذهب التناسخ وله مؤاخذات على منطق الإشارات وشرحها أيضاً وتناول الأفضل الخونجي بالاستنقاص وزيَّف أقواله في كتاب الكشف فيما يتعلق بعكس النقيض والموضوع الخارجي والحقيق ومنعه انتاج الصغرى الممكنة في الشكل الأول وانعكاس السالبة الكلية الضرورية كنفسها إلى غير ذلك.

ومنهم **الحكيم ثاذري الأنطاكي اليعقوبي** النحلة أحكم اللغة السريانية واللاطينية بأنطاكية وشدا بها شيئاً من علوم الأوائل. ثم هاجر إلى الموصل وقرأ على كمال الدين بن يونس مصنفات الفارابي وابن سينا وحلّ أوقليذس والمجسطي. ثم عاد إلى أنطاكية ولم يُطل المكث بها لما رأى في نفسه من التقصير في التحصيل فعاد مرة ثانية إلى ابن يونس وانضج ما استتهأ من علمه وانحدر إلى بغداد واتقن علم الطب وقيَّد أوابده وتصيّد شوارده وقصد السلطان علاء الدين ليخدمه فاستغربه ولم يُقبل عليه فرحل إلى الأرمن وخدم قسطنطين أبا الملك حاتم ولم يستطب عشرتهم فسار مع رسول كان هناك اللامبرور ملك الفرنج فنال منه إفضالاً ووجد له به نوالاً وأقطعه بمدينة كما هي بأعمالها. فلما صلح حاله وكثر ماله اشتاق إلى بلده وأهله ولم يؤذن له بالتوجه فأقام إلى أن أمكنته الفرصة بخروج الملك في بعض غزواته إلى بلاد المغرب فضمَّ أطرافه وجمع أمواله وركب سفينة كان قد أعدَّها لهربه وسارَ في البحر مع مَن معه من خدمة يطلبون برّ عكا. فبينما هم سائرون ذهبت عليهم ريحٌ رمت بهم إلى مدينة كان الملك قد أرسى بها فلما أخبر ثاذري بذلك تناول شيئاً من سمّ كان معه ومات خجلاً لا وجلاً لأن الملك لم يكن يسمح بالهلاك مثله.

ومن الأطباء المشاهير في هذا الزمان **الحكيم مسعود البغدادي المعروف بابن القسّ** طبيب حاذق نبيل خدم الخليفة المستعصم واختصّ به وطبَّ حرمه وأولاده وخواصه وارتفعت منزلته لديه. ولما جرى ببغداد ما جرى انقطع عن الناس ولزم منزله إلى أن مات. وخلف ولده غرس

النعمة أبا نصر وكان أبو نصر فاضلاً عاقلاً ذا فنون خبيراً بأصول الهندسة فاكًا مشكلاتها وكان ضئيلاً مسقاماً لا يقطع استعمال ماء الشعير صيفاً وشتاء وكان غداؤه دوائياً نزراً ومات كهلاً.

ومنهم الحكيم **عيسى البغدادي المعروف بابن القسيس الحظيري** كان أبوه طبيباً فاضلاً يُقرأ عليه ويؤخذ منه. وكان حادّ المزاج يسرع إليه الغضب. جرى لي معه مفاوضة في أمر تقديم السريان الليل على النهار مستدلّين التوراة وهو قوله تعالى: وصار مساء وصار صباح يوماً واحداً. قلت: هذه الحجة عليهم لا لهم لأنها تنبىء عن تقدّم نهار آخرهُ مساء وتأخّر ليلٍ آخره صباح ليتمّ بمجموعها يوم واحد لأنّ الحاصل من المساء إلى الصباح إنما هو ليلة واحدة وهي نصف يوم لا يوم تام. فلم ينصفني في هذا ولا أجاب عنه بشيء أكثر من قوله: هذا مذهب أهل ملّتك فكيف يسعك تكذيبهم. فقلت: أنا تابع فيه لليونانيين وأقيم عذر السريانيين وهو أن شهورهم قمريّة والقمر إنما يرى استهلاله مساءً لا صباحاً فجعلوا مبادىء تواريخهم أوائل الليل ومثلهم العبرانيون والعرب لأن الليل مقدَّم على النهار في نفس الأمر. ومما يُستدلّ به على علوّ همّة الحكيم عيسى ابن القسيس أنه نسخ كتاب القانون بخطّة في شبيبته ثم خرجت النسخة عن ملكة بحكم شرعيّ وحصلت في خزانة المدرسة المستنصرية. فلما اسنَّ طلب النسخة وقابلها وصححها وأعادها إلى مكانها. فنسبه باغضوه إلى فضول ومحبُّوه إلى مثوية يتوخّاها. فقال: كلا الفريقين مخطىء وإنما فعلت ذلك لئلا يُزرَى عليَّ بعد موتي. عمَّر طويلاً ومات شيخاً كثيراً.

ومنهم **تقي الدين الراسي عيني**[1] المعروف بابن الخطّاب طبيب مشهور الذكر متقن لصناعة الطب علمها وعملها غاية الاتقان خدم السلطان غياث الدين وبعده ابنه عزّ الدين وصار له منزلة عظيمة منهما ورفعاه من حدّ الطب إلى المعاشرة والمسامرة وأقطعاه اقطاعات جزيلة وكان في خدمتهما بزيّ جميل وأمر صالح وغلمان وخدم وصادف من دولتهما كل ما سرّه.

ومنهم **شرف الدين بن الرحبي وأخوه جمال الدين الدمشقيّان**. أما شرف الدين فكان بارعاً بالجزء النظري من الطب له معرفة تامة به واطلاع على أصوله تصدَّر لإفادة هذا الشأن وأخذ عنه جماعة من الطلبة وكان قليل التعرّض لمباشرة المرضى. وسمعت وقت تحصيلي بدمشق أن له تعاليق وحواشي على القانون ولم أرها. وأما جمال الدين أخوه فكان له عناية تامة في الجزء العمليّ من الطبّ وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور في المعالجة. صحبتُه مدة أباشرُ معه المرضى بالبيمارستان النوري بدمشق وكان حسن الأخلاق لم أرَ في الجماعات أحسن منه زياً وصمتاً ونطقاً ومبسماً.

(١) رأس عيني إلى رأس العين وهي مدينة من مدن الجزيرة.

ومنهم بدر الدين المعروف بابن قاضي بعلبك كان فاضلاً خبيراً بالمباشرة والمعالجة جميل التحيُّل للبرء وصنَّف كتاباً لطيف الحجم سمَّاه (مُفرّح النفس) جمع فيه جملة ما يتعلَّق بالحواس الخمسة من المفرحات وأضاف إليه الأدوية المفردة القلبية ومركبات أيضاً حارَّة وباردة ومعتدلة للملوك والفقراء وأوساط الناس وأخذ فيه على الرئيس في جعله الكسفرة عديدة المفرحات.

ومنهم نفيس الدولة الدمشقي النصراني الملكي المعروف بابن طليب فسيأتي ذكره في جملة أطباء هولاكو إذ هو أكبرهم.

ومنهم الموفق يعقوب الدمشقيّ السامريّ كان طبيباً حاذقاً مصيباً في علاجه مستحضراً للشروح وكان ضنيناً بما يحسنه يشارط مَن قصده من سائر البلاد للاستفادة على أسماعه أي كتاب أراد قراءته دراهمَ معلومة. وهذه خساسة مباينة للأنفس الفاضلة.

ومن فضلاء هذا الزمان في علوم الأوائل وجميع الفضائل **نجم الدين الدمشقي المعروف بابن اللبودي** تولَّى: أمور الديوان وقلَّد الوزارة والغالب عليه الهندسة والعدد.

ومنهم عزّ الدين الضرير: كان من الأفاضل والأعيان المعدودين من حسنات الزمان. وله مشاركة حسنة في سائر الأنواع الفلسفية والآداب العربية. وكان قويّ الذكر والتخيُّل بحيث أنه كان يُقرأ عليه وهو مكفوف ستّ مقالات من كتاب أوقليذس وكان يحفظ الأشكال بحروفها ويتكلم في حلّها.

الدولة العاشرة
المنتَقلة مِن مُلوك العَرَب المسلِمين
إلى مُلوك المغُول

(هولاكو بن تولي خان)[1] ولما ملك هولاكو بغداد ورتَّب بها الشحاني والولاة أنفذ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إليه ابنه الملك الصالح اسماعيل ومعه جماعة من عسكره نجدةً له. فأظهر له هولاكو عبسة وقال: أنتم بعدُ في شكّ من أمرنا ومطلتم نفوسكم يوماً بعد يوم وقدَّمتم رجلاً وأخّرتم أخرى لتنظروا مَن الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفة وخُذلنا لكان مجيئكم إليه لا إلينا. قل لأبيك: لقد عجبنا منك تعجباً كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل واتخذت اليقين ظناً وقد لاح لك الصبح فلم تستصبح. فلما عاد الصالح إلى الموصل وبلَّغ أباه ما حمل من الرسالة الزاجرة أيقن بدر الدين إلى المنايا قد كشَّرت له عن أنيابها وذلَّت نفسه وهلع هلعاً شديداً وكاد يخسف بدره ويكسف نوره. فانتبه من غفلته وأخرج جميع ما في خزائنه من الأموال واللالىء والجواهر والمحرمات من الثياب وصادر ذوي الثروة من رعاياه وأخذ حتى حليّ حظاياه والدرر من حلق أولاده وسار إلى طاعة هولاكو بجبال همذان. فأحسن هولاكو قبوله واحترمه لكبر سنه ورقّ له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة واستأمن إليه وداعبه وقدَّمه إلى أن أصعده إليه على التخت وأذن له أن يضع بيده في أذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درَّتان يتيمتان وأقام في خدمته أياماً ثم عاد إلى الموصل مسروراً مبروراً بل مذعوراً مما شاهد من عظمة هولاكو وهيبته ودهائه.

وفيها توجه الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين إلى الملك الناصر صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام. فاستخف برأيه ولم يسمع مشورته بل سوَّفه بكلام وسرَّحه من عنده بالأمان. ولما وصل إلى ميافارقين مدينته طرد رشحاني المغول منها وصلب رجلاً قسيساً كان قد وصل إليه من خدمة قاان باليرالیغ والبوايز. وبينما هو كذلك أدركته عساكر المغول وأحاطت بمدينته وفي رأس العسكر يشموت بن هولاكو. وفي يوم

---

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٢ هلاكو بن طولي.

وليلة بنى المغول حول مدينته سوراً وحفروا خندقاً عميقاً ثم نصبوا عليها المنجنيقات وابتدأوا بالقتال وقاتلوا قتالاً شديداً من الجانبين. ولما رأى المغول أن المدينة لم يمكنهم أخذها بالقتال أبطلوا القتال وحاصروها ومنعوا الناس من الدخول إليها والخروج عنها.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة أرسل هولاكو إيلجية إلى الملك الناصر صاحب حلب برسالة يقول فيها: يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة وفتحناها بسيف الله تعالى وأحضرنا مالكها وسألناه مسئلتين فلم يجب لسؤالنا فلذلك استوجب منّا العذاب كما قال في قرآنكم أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. وصان المال. فآل الدهر به إلى ما آل. واستبدل النفوس النفيسة. بنقوشٍ معدنية خسيسة. وكان ذلك ظاهر قوله تعالى: وجدوا ما عملوا حاضراً. لأننا قد بغلنا بقوة الله الإرادة. ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة. ولا شك إن نحن جند الله في أرضه خلقنا وسلّطنا على من حلّ عليه غضبه. فليكن لكم في ما مضى معتبَر. وبما ذكرناه وقلناه مزدجر. فالحصون بين أيدينا لا تمنع. والعساكر للقائنا لا تضرّ ولا تنفع. ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع. فاتّعظوا بغيركم. وسلّموا إلينا أموركم. قبل أن ينكشف الغطا. ويحلّ عليكم الخطا. فنحن لا نرحم من شكا. ولا نرقّ لمن بكا. قد أخربنا البلاد. وافينا العباد. وأيتمنا الأولاد. وتركنا في الأرض الفساد. فعليكم بالهرب. وعلينا بالطلب. فما لكم من سيوفنا خلاص. ولا من سهامنا مناص. فخيولنا سوابق. وسهامنا خوارق. وسيوفنا صواعق. وعقولنا كالجبال. وعددنا كالرمال. فمن طلب منّا الأمان سلم.. ومن طلب الحرب ندم. فإن أنتم أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. وإن أنتم خالفتم أمرنا وفي غيكم تماديتم فلا تلوموا ولوموا أنفسكم. فالله عليكم يا ظالمين فهيئوا للبلايا جلباباً. وللرزايا أتراباً. فقد أعذر من أنذر. وأنصف من حذّر. لأنكم أكلتم الحرام وختتم بالإيمان. وأظهرتم البدع واستحسنتم الفسق بالصبيان. فأبشروا بالذلّ والهوان. فاليوم تجدون ما كنتم تعلمون. سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. فقد ثبت عندكم أننا كفرة. وثبت عندنا أنكم فجرة. وسلّطنا عليكم مَن بيده الأمور مقدَّرة. والأحكام مدبَّرة. فعزيزكم عندنا ذليل. وغنيّكم لدينا فقير. ونحن مالكون الأرض شرقاً وغرباً. وأصحاب الأموال نهباً وسلباً. وأخذنا كل سفينة غصباً. فميّزوا بعقولكم طرق الصواب قبل أن تضرم الكفرة نارها. وترمي بشرارها. فلا تبقي منكم باقية. وتبقى الأرض منكم خالية. فقد أيقظناكم. حين راسلناكم. فسارعوا إلينا بردّ الجواب بتّةً. قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً. وأنتم تعلمون. فطلبه ليحضر عندهُ. ولما شاور الأمراء لم يمكّنوه من المشي إلى هولاكو وبقي متحيراً خائفاً مذعوراً لم يدرِ ما يصنع. غير أنه استجار الله وسيّر ولده الملك العزيز وصحبته الأموال الكثيرة والهدايا والتحف. وبقي هناك من أوائل الشتاء إلى الربيع ثم عاد إلى أبيه قائلاً: قد قال ملك الأرض: نحن للملك الناصر طلبنا لا لولده فالآن أن

كان قلبه صحيحاً معنا يجيء إلينا وإلا فنحن نمشي إليه. فلما سمع الملك الناصر ذلك بقي متردداً في رأيه لأن الأمراء لم يمكّنوه من المشي إليه وهو فقد وقع عنده الخوف والجزع ولم يطمئن على القعود. ثم سيَّر هولاكو في طلب سلطان الروم عزّ الدين وأخيه ركن الدين فأطاعاه ومشيا إليه وأحسن قبولهما والتقاهما مرحّباً بهما فرحاناً وتقدَّم إليهما بأن عزّ الدين يتملَّك على قيسارية إلى تخوم أرمينية الكبرى وركن الدين يتملَّك من أقسرا وإلى ساحل البحر حدود الافرنج. ثم أنه بعد ذلك توجه إلى الشام وتوجَّها في خدمته إلى قريب الفرات وعادا إلى بلادهما مسرورين مغبوطين.

وفي هذه السنة[١] توفي السلطان الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ صاحب الموصل في عشرين يوماً مضت من شهر تموز وتولّى ولده الملك الصالح اسماعيل الموصل وولده علاء الدين سنجار وولده سيف الدين الجزيرة.

وفي سنة ثماني وخمسين وستمائة دخل هولاكو إيلخان الشام ومعه من العساكر أربعمائة ألف ونزل بنفسه على حرَّان وتسلمها بالأمان وكذلك الرها ولم يدنُ لأحدٍ فيهما سوء. وأما أهل سروج فإنهم أهملوا أمر المغول فقُتلوا عن أقصاهم. وتقدم هولاكو فنصب جسراً على الفرات قريباً من مدينة ملطية وآخر عند قلعة الروم وآخر عند قرقيساء وعبرت العساكر جملتها وقتلوا عند منبج مقتلة عظيمة. ثم تفرَّقت العساكر على القلاع والمدن. ونفر قليل من العسكر طلب حلب فخرج إليهم الملك المعظم ابن صلاح الدين الكبير فالتقاهم وانكسر قدَّام المغول ودخول المدينة منهزماً. وطرفٌ منهم وصل إلى المعرَّة وخربوها. وتسلَّموا حماة بالأمان وحمص أيضاً. فلما بلغ ذلك الملك الناصر أخذ أولاده ونساءه وجميع ما يعزّ عليه وتوجه منهزماً إلى بريَّة الكرَك والشوبك. وعندما وصلت المغول إلى دمشق خرج أعيانها إليهم وسلموها لهم بالأمان ولم يلحق بأحد منهم أذىً. وأما هولاكو فإنه بنفسه نزل على حلب وبنى عليها سيبا ونصب المنجنيقات واستضعف في سورها موضعاً عند باب العراق وأكثر القتال والزحف عليه. وفي أيام قلائل ملكوها ودخلوها يوم الأحد الثالث والعشرين من كانون الثاني من هذه السنة وقتل فيها أكثر من الذي قتل ببغداد. وبعد ذلك أخذوا القلعة في أسرع ما يكون وقتاً. ثم إن هولاكو رحل عنها وأحاط بقلعة الحارِم[٢] واختار أن يسلموها إليه ويؤمّنهم على أنفسهم فلم يطمئنوا إلى قوله وإنما طلبوا منه رجلاً مسلماً يحلف لهم ويكون صاحب شريعة يُطمأن إليه حيث يحلف لهم بالطلاق والمصحف أن لا يدنو لأحد منهم

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٣، ثم هلك سنة سبع وخمسين وولي ابنه ركن الدين إسماعيل ويلقب الصالح.

(٢) حَارِم: حصن وكورة واسعة تجاه أنطاكية. وهي الآن من أعمال حلب، معجم البلدان ح ٢ ص ٢٣٧.

سوء وينزلوا ويسلّموا إليهم القلعة. فسألهم هولاكو: مَن تريدون أن يحلف لكم. قالوا: **فخر الدين الوالي بقلعة حلب** فإنه رجل صادق مؤمن خيّر. (فتقدَّم هولاكو إليه فدخل إليهم وحلف لهم على جميع ما يُريدون) فحينئذٍ فتحوا الأبواب ونزل الناس خلائق كثيرة وتسلَّم المغول القلعة (ثم إن هولاكو تقدم بقتل فخر الدين الوالي أولاً ثم بقتل جميع من كان في القلعة من الصغار والكبار الرجال منهم والنساء حتى الطفل الغير في المهد). ورحل هولاكو من هناك عائداً إلى البلاد الشرقية. ورتَّب في الشام أميراً كبيراً يسمَّى كتبوغا[١] ومعه عشرة آلاف فارس من العسكر. ولما وصل إلى تلّ باشر وصلت العساكر التي حاصرت ميَّافارقين ومعهم الأشرف صاحبها وأنهوا أنهم أخذوها وقتلوا كل من فيها ولم يتخلَّف فيها إلاّ أنفار قليلة لأنهم هلكوا جوعاً وماتوا. ولولا ذلك لم يتمكن المغول من أخذها. وقتل الأشرف صاحبها وبعد ذلك ندم هولاكو على قتله. ثم إنه ولَّى عليها رجلاً أميراً من أمراء الأشرف يسمَّى عبد الله. ولما وصل هولاكو قريب ماردين سيَّر يطلب صاحب ماردين إليه. فأبى ولم ينزل إليه. بل سيَّر ولده مظفَّر الدين لأنه كان في خدمة هولاكو هو والملك الصالح ابن السلطان بدر الدين لما كان بالشام. قال له هولاكو: تصعد إلى أبيك وتقول له ينزل إلينا ولا يعصي وإن عصى لم يصب خيراً. ولما صعد إلى أبيه وخاطبه لم يقنع بأنه لم يسمع مشورته بل قيَّده وحبسه عنده. فعند ذلك أحاطت المغول بماردين وابتدأوا بالقتال ولولا أن وقع فيها الوباء والموت ومات السلطان وأكثر أهلها لما أخذوها لا في سنتين ولا في ثلاثة. ولما مات السلطان نزل ابنه الملك المظفر وسلَّم إليهم القلعة والخزائن والأموال. وتحقق عند ملك الأرض هولاكو ما جرى عليه من أبيه فلأجل ذلك أكرمه وأحسن إليه وملَّكه موضع أبيه. وكتبوغا كبير عسكر المغول الذي نزل بالشام لم يزل يستفحص عن أخبار الملك الناصر المنهزم في البراري حتى عرف موضعه وسيَّر عليه بعض العسكر فلزموه وسيَّروه إلى هولاكو. ولما مثل بين يديه فرح به ووعده بكل خير وجميل وأنه يُعيده إلى ملكه وهو يومئذٍ نازل بجبال الطاق. فبينما هم في ذلك وصل خبر أن قوتوز[٢] التركماني الذي تولَّى مصر لما بلغه أن هولاكو رجع إلى المشرق وكتبوغا بعشرة آلاف فارس في الشام استضعفه وجمع عسكراً كثيراً وخرج التقى به وكسره وقتله واستأسر أولاده وكان ذلك في السابع والعشرين من رمضان من سنة ثماني وخمسين وستمائة. فغضب هولاكو لذلك وتقدَّم بقتل الملك الناصر وقتل أخيه الملك الظاهر وجميع من معهم. ولم يخلص منهم غير محيي الدين المغربيّ بسبب أنه كان يقول إنني رجل أعرف

(١) في تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٦١٤، كيبنا من أمراء التتر.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٤، قطز.

بعلم السماء والكواكب والتنجيم ولي كلام أقوله لملك الأرض. قال محيي الدين المذكور لما اجتمعنا به في مدينة مراغة: إنني لما قلت لهم هذا الكلام أخذوني وأحضروني بين يدي هولاكو فتقدَّم أن يسلِّموني إلى خواجا نصير الدين. وحكى لنا صورة ما جرى للملك الناصر قال: كنت في خدمته يوم الأربعاء عشرين شوّال وهو يسألني عن مولده إذ وصل أمير من المغول ومعه نحو خمسين فارساً. فخرج الملك الناصر من الخيمة والتقاه وعرض عليه النزول. فامتنع قائلاً: إن هولاكو سيَّرني ويقول: هذا اليوم لنا فرحة وقد عملنا دعوة وحضر الأمراء كلّهم فتحضر أنت وأخوك وأولادك للأمر الذي لك عندنا. فجمع الملك الناصر جماعته مقاربةً عشرين نفراً وركبوا وساروا صحبة ذلك الأمير. وبعد ساعة وصل أيضاً عشرون فارساً آخر وقالوا: يحضر الجماعة كلهم ولا يبقى في الخيم غير الفراشين والمماليك الصغار والطباخين والغلمان. وباقي الجماعة الخيَّالة والكتَّاب يحضرون في الدعوة. (قال) فأخذونا إلى مواضع أودية عميقة بين حجارة عالية ونزلنا عن الخيل فاحتاط كل واحد منهم بواحد منَّا وكتفونا. فلما عاينت ذلك بقيت أقول بصوت عالٍ: إنني رجل منجِّم وأعرف بحركات الكواكب ومعي كلام أقوله في خدمة السلطان ملك الأرض. فأخذوني وأقعدوني وراءهم مع جملة أتباعهم وشرعوا بقتل الجماعة ولم يخلص منهم غير ولدَي الملك الناصر فاستأسروهما. ثم ركبوا وعادوا إلى البيوت التي للملك الناصر ونهبوها وقتلوا باقي الجماعة التي تخلَّفت هناك. ثم عرضوا الأمر على هولاكو وأنا صرت في خدمة خواجا نصير الدين في الرصد بمراغة وابنا الملك الناصر في خدمته.

(جلوس قوبلاي قاان على كرسي المملكة): فمن هذا التاريخ بعض ملوك الخطا تمرَّد وعصى على المغول لكونه قويّ البأس متمكناً في أمره كثير العساكر يحكم على أربعمائة مدينة. وأوجب ذلك أن مونككا قاان بنفسه تهيَّر لملتقى هذا المتمرّد فترك أخاه الصغير وهو اريغبوكا مكانه واستصحب أخاه قوبلاي ودخل إلى بلاد الصين. وأول الملتقى اتفق أن أصابه نشابة ومات. فأخذ أخوه قوبلاي العساكر وخرج من بلاد الخطا. ثم وصل إلى خان باليق وأقام هناك. واتفق عظماؤه والأكثرون من المغول أن يكون هو موضع أخيه قاان. وأما الأخ الصغير وهو اريغبوكا فقال: إنه عند توجُّه قاان إلى الخطا سلّم إليه الملك فهو الأولى أن يكون موضع أخيه بمقتضى الياسا الذي لهم. وحصلت المنازعة والمقاومة بين الأخين لأجل ذلك مدّة سبع عشرة سنة إلى أن عجز الأخ الصغير وبطل عزمهُ وقوي أمر قوبلاي قاان وظهر منه العدل الحسن والدراية والتدبير والكفاية. وأنه كان يحبّ الحكماء والعلماء والمتديّنين من سائر المذاهب والأمم. وقيل عنه إنه كان قليل المباشرة للنساء بل باعتدال ومتوسط التدبير بالشهوات والشراب واللذّات واللهو ولم يتناول من اللحوم إلاّ ألطفها بخلاف باقي الطوائف من المغول.

وأما قوتوز التركماني صاحب مصر بعدما كسر كتبوغا وتمكّن من الشام أقام الشحاني والنوّاب في حلب ودمشق وسائر بلاد الشام وعاد إلى ديار مصر بحيث أن هناك يجمع العساكر ويشتدّ ويقوى على ملتقى المغول. ولما وصل قريباً من غزّة نهض عليه بيبرز[1] المعروف بالبندقدار الصغير وهو مملوك البندقدار الكبير وقتله وأخذ جماعة ودخل إلى مصر وتسلمها وتمكّن وقوي ولقّبوه ركن الدين الملك الظاهر واشتدّ بأسه وتسلّط على جميع المدن والقلاع التي على ساحل البحر للإفرنج. وفي سنة تسع وخمسين وستمائة عاد دخل المغول إلى الشام وفي رأس العسكر أمير يسمّى كوكالكي ودخلوا إلى قريب حمص ونهبوا وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً وعادوا إلى حلب وكان قد انهزم جميع أهل القرايا إلى حلب فتقدّم كوكالكي أن يخرج أهل القرايا والمدن إلى ظاهر البلد وينعزل أهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدّونهم ويسيّرون كل قوم إلى مكانهم ووطنهم. وتسلّمهم المغول كأنهم يسيّرونهم إلى ضياعهم وعندما يبعدون يقولون: أنتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمتهم من قدّامنا. فقتلوهم عن أقصاهم ولم يفلت منهم غير أهل حلب بحيث إنهم لم ينتقلوا عن حلب. وعاد المغول خرجوا من الشام ثم عاد المصريُّون تملكوا الشام.

وفيها هرب علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى مصر. ولما أقام هناك مدّة يسيرة كتب إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل صاحب الموصل يعرّفه قوّة البندقدار وعظمته وأشار عليه بترك الموصل وقصده خدمة البندقدار بحيث أنه إذا استولى البندقدار على قهر المغول وأخذ البلاد منهم يكون له اليد البيضاء عنده ويملكه مع الموصل بلاداً أخرى من المشرق. ولما وصل الكتاب إلى الملك الصالح ووقف عليه وضعه تحت طراحته وكان عنده في ذلك الوقت من الأمراء شمس الدين محمد بن يونس الباعشيقي من جملة أمراء أبيه النوّاب ببلد نينوى. فغافله وأخذ الكتاب من تحت الطرّاحة وخرج من عنده ولم يلبث حتى وصل إلى قريته باعشيقا. بعد ذلك مدّ يده ليأخذ الكتاب فلم يجده فوقع عنده أن شمس الدين بن يونس قد أخذ الكتاب وصار عنده القلق العظيم لأجل ذلك وسيَّر القصّاد في الحال في طلبه وقد عزم على قتله. وعندما وصل المماليك إليه أشغلهم بالأكل والشرب وقال لهم: إن هذه الليلة كلوا واشربوا وعند الصباح نركب إلى خدمة السلطان. وأوصى غلمانه فأكثروا عليهم الشراب وأسكروهم وناموا. فأخذ شمس الدين بن يونس أولاده وما يعزّ عليه وركب من أول الليل وتوجه يقصد اربل وكان له مشورة مع الرؤساء النصارى بناحية برطلي فعبر عليهم وعرّفهم أن الملك الصالح قد عزم على قتل جميع أكابر النصارى ببلد نينوى وأنه بعد ذلك يتوجه إلى الشام. وكان قد حصل لهم الشعور بذلك من قبل

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٤٢٩، بيبرس البذقداري.

فصدقوه وتهيَّروا هم وما يعزّ عليهم من أولادهم. وشاع الخبر في جميع النصارى ببلد نينوى فكل من أمكنه العبور إلى إربل سارع بالعبور فعبر أكثر أهل البلد من النصارى وكان ذلك ليلة يوم الخميس. أما المماليك الذين كانوا قد وصلوا إلى شمس الدين بن يونس فلما أصبحوا وصحوا من سكرهم فلم يجدوه فظنّوا أنه قد سبقهم بالدخول إلى الموصل إلى الملك الصالح. ولما دخلوا وعرَّفوا الملك الصالح بما جرى وقع في الجزع والخوف وقال: لا نأمن أن ابن يونس يمشي يعرّف بالقضية المغول ويجب علينا العساكر ويجيء. فتهيَّر هو وجماعة من الأمراء والأولاد وأخذوا ما يقدرون عليه مما يمكنهم حمله وخرج من المدينة يوم الجمعة ثاني يوم عبور ابن يونس والنصارى إلى إربل صلّى الجمعة وخرج متوجهاً إلى الشام وبطلت عزيمته أنه يخرج هو والعسكر إلى بلد نينوى ويُلزم أكابر النصارى ويأخذ أموالهم ويقتلهم ثم يمشي إلى الشام. ثم إنه لما خرج من الموصل وقع الخلاف بين أمرائه فمنهم من تبعه ومنهم من عاد إلى الموصل. والذين عادوا إلى الموصل كان كبيرهم الأمير علم الدين سنجر. فلما وصلوا إلى الموصل وكانت زوجة الملك الصالح تركان الخوارزميَّة في المدينة لم تتوجه معه ولا تبعته وكان في الموصل شحنة اسمه ياسان فاتفقوا هم وأتباعهم وغلّقوا أبواب الموصل في وجوههم ولم يمكنوهم من الدخول. فنزلوا خارج المدينة وشرعوا يقاتلون أياماً يسيرة. فعند ذلك كان في المدينة رجل اسمه محيي الدين بن زبلاق من كتّاب الإنشاء الذين كانوا للسلطان بدر الدين فاتفق هو وجماعة من أهل المدينة وخامروا على تركان خاتون وعلى الشحاني وفتحوا الأبواب. ولما دخل علم الدين وجماعته هرب الشحنة ياسان وتركان وأتباعهم وتحصنوا في قلعة الموصل. وثار أهل الموصل على النصارى من الأعوام ونهبوهم وقتلوا كل من وقع بأيديهم وسلم من دخل في دين الإسلام. وأما أكراد الجبال فكان قد قرَّر معهم الملك الصالح أن يتهيَّروا ويجمعوا جموعهم وينزلوا إلى نينوى. ويوم السبت ثاني الجمعة التي خرج الملك الصالح من المدينة نزلوا إلى بلد نينوى ونهبوا النصارى المتخلّفين وسبوا وقتلوا. وبينما هم كذلك وذلك في أيام يسيرة من أيار تلك السنة وقع الخبر أن عسكر المغول قد أقبل من صوب الجزيرة فخرج الأمير علم الدين سنجر وجماعته من الموصل واجتمع إليه أمراء الأكراد. فلما صادف العسكر قاتلوهم وقاتلوه. وكان في رأس العسكر تورين شحنة الموصل فأحاطوا بعلم الدين سنجر وجميع من معه وقتلوهم عن أقصاهم ولم يفلت منهم إلاّ الطويل العمر. بعد ذلك بقي أمر بلد الموصل والموصل مدَّة مديدة في حيرة. وعند أواخر الصيف تواترت الأخبار بوصول عساكر المغول. وقريب من كانون الأول وصل العسكر وأحاط بالموصل وفي رأس العسكر أمير كبير اسمه سمدغو محبّ للنصارى. وبينما هم قد نزلوا على الموصل وصل الخبر برجوع الملك الصالح من الشام. ولما سمع المغول ذلك تأخروا عن المدينة إلى حين ما دخل إليها ثم عاد المغول أحاطوا بها

وبنوا السيبا حولها في ليلة واحدة وابتدأوا بالقتال من داخل ومن خارج وكان ذلك من كانون الأول إلى الربيع وقلّ القوت على أهل المدينة. وسيَّر الأمير سمدغو يخدع الملك الصالح ويعده بالمواعيد الحسنة وبطل القتال وقعدوا قعوداً. وكان في وسط هذه المدّة المذكورة وصل عسكر من الشام ومقدّمهم أمير اسمه برلوا نجدة للملك الصالح الذي وعد به. فسارع المغول والتقوه عند سنجار وأحاطوا بهم وقتلوهم جميعهم وكسبوا ما معهم من الخيل والسلاح وغير ذلك. بعد ذاك لما صار الأمير سمدغو يخاطب الملك الصالح ويطايبه انخدع وفتح أبواب المدينة وخرج إليهم بالمطربين والأغاني والمساخرة بين يديه. وحينما مثل بين يدي سمدغو احتاط المغول به ودخل العسكر الموصل وسبوا ونهبوا وقتلوا مدَّة ثمانية أيام وقُتل فيها عالم لا يُحصي عددهم إلا الله تعالى. وبعد ذلك قرَّر الأمير سمدغو في الموصل حاكاً الأمير شمس الدين بن يونس ورحل عنها. وكان قد قتل ولد الملك الصالح علاء الملك صبي حدث أسقوه خمراً كثيراً ثم شدّوه وقطعوه وترين في المدينة عند القلعة وصحبوا الملك الصالح إلى هولاكو وقُتل هناك.

وفي سنة **إحدى وستين وستمائة** شخصٌ اسمه زكي الأربلي منادٍ في سوق البهائم قد كان من أجناد الموصل سعى في الأمير شمس الدين بن يونس وقال إنه قد جمع الأموال والجواهر من خزائن بيت بدر الدين. وذكر عنه أنه سقاه سماً ليموت وأنه استعان بحكيم نصراني اسمه الموفق النصيبي حتى داواه. ولما سألوا لابن يونس ذلك أنكره فضربوه أشدّ ضرب ليقرّ. وبينما هم في ذلك وقع من ثيابه ورقة فيها آية من القرآن. فالساعي فيه وهو الزكي الأربلي قال إنها سحر لأجل المغول. فرسم بقتله. وتولّى الموصل الزكي الأربلي موضعه.

وفي سنة أربع وستين وستمائة توفي[1] هولاكو وكان حكيماً حليماً ذا فهم ومعرفة يحبّ الحكماء والعلماء. وبعده بقليل اندرجت طقز خاتون زوجته وكانت أيضاً عظيمة في رأيها وخبرتها.

(أباقا ايلخان)[2]: بعد ذلك اجتمعت الأولاد والأمراء والخواتين واتفقوا على أن أباقا ابن هولاكو يقعد على كرسي المملكة لأن عنده العقل والكفاية والعلم والدراية. ولما جلس وتمكن كان سعيداً منصوراً في جميع حركاته وسكناته محبوباً من جميع الخلق. وكان قد سيَّر هولاكو طلبَ ابنة ملك القسطنطينية خطبها لنفسه. فلما أخذها الرسل وخرجوا بها ووصلوا إلى القيساريَّة بلغهم الخبر بموت هولاكو ولم تتمكن من الرجوع إلى بلادها فوصلت إليه ودخل عليها. وفيها وصل

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٥، هلك هولاكو سنة اثنتين وستين لعشر سنين من ولايته العراق.
(٢) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٥، أبغا ابن هولاكو.

اليرليغ من أباقا إلى بغداد إن علاء الدين صاحب الديوان يكون حاكماً مطلقاً لا يكون فوق يده يد. وكان شحنة بغداد قرابوغا ونائبه اسحق الأرمنيّ يرومان أذيّته فانكفأا عنه وصارا يتحيّلان له بأذًى فحصّلا شخصاً اعرابياً وعلّماه أن يقول عنه إنه سيّر جاء به من البادية بحيث يكون له دليلاً عندما يريد أن يأخذ ماله وأولاده وما يتعلّق به ويمشي إلى الشام. وأوثقا مع البدويّ هذا الكلام. حينئذٍ سيّرا احتاطا بدار صاحب الديوان والبدويّ يحملانه إلى الأردو. وعندما ضُرب البدوي وقُرّر أقرّ أن اسحاق الأرمني علّمه ذلك فقُتل البدوّي واسحاق.

وفيها سيّر البندقدار صاحب مصر إلى حاتم ملك الأرمن بحيث يدخل في طاعته ويحمل الجزية ويمكّن الناس من مشترى الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد من بلده وهم أيضاً يخرجون إلى الشام ويتاجرون ويبيعون ويشترون. وملك الأرمن خوفاً من المغول لم يجب إلى ذلك. فلم يتأخر البندقدار عن إنقاذ العسكر والكرب إلى بلد الأرمن. وحاتم الذي هو ملك الأرمن لما تحقق ذلك خرج إلى بلد الروم يطلب النجدة من أمير المغول هناك يسمّى نفجي. فقال له: نحن بلا أمر السلطان أباقا لا يمكن أن نفعل ذلك. وهجم المصريون على بلد الأرمن. ولما لم يكن ملكهم حاضراً اجتمعت إخوته وأولاده وأمراؤه وجمعوا أتباعهم وخرجوا ليمنعوا المصريّين من الدخول إلى البلد. ولما التقوهم عند موضع يقال له حجر سروند انكسرت الأرمن واستؤسر ولد الملك حاتم وقُتل ولده توروس وانهزم الأمراء والعسكر. ونهبوا وأخربوا بيعة سيس الكبيرة وكان الخراب العظيم في سيس وأياس وأقاموا هناك مدّة عشرين يوماً ينهبون ويحرقون ويسبون. وبعد خروجهم من البلد وصل الملك حاتم وقد صحب معه عسكراً من المغول والروم فما وجدوا أحداً بل البلد خراباً واشتغلوا بالأكل والشرب ومدّوا أيديهم وجمعوا جميع ما كان قد تخلّف من المصريّين تموه هم والملك مشتغل بالهمّ والغمّ على ما جرى على ولديه وأصحابه وبلده. وكانت المضرّة منهم أشدّ وأصعب. وأما حاتم ملك الأرمن فإنه شرع يخاطب البندقدار في خلاص ولده ويعده بالأموال والمدن والقلاع إلى غير ذلك. فجاوبه: إن نحن ما لنا رغبة في الأموال والمدن وغيرها. وإنما لنا شخص صديق أسير عند المغول يسمّى سنقر الأشقر تخلّصه وسيّره وتأخذ ولدك. ففعل ذلك وخلّص ولده. وذلك أنه في سنة ثماني وستين وستمائة قصد الملك حاتم خدمة ملك الأرض أباقا وبكى لديه وطلب منه سنقر الأشقر ليخلّص به ولده. فرحمه ورقّ لبكائه وقال له: تمشي إلى بلدك تستريح ونحن نطلب هذا سنقر من أيّ مكان هو فيه ونسيّره إليك. فعاد حاتم من خدمة أباقا. وكان أمير من أمرائه سبقه إلى بلده في مهم له فاجتاز به بروانة فاستشار به أنه يريد يخطب لنفسه ابنة الملك حاتم فأجابه بأن الملك حاتم واصل عقيبنا إليكم فأنتم التقوة وأحسنوا إليه وهو يجيبكم إلى ذلك ولما وصل الملك حاتم إلى بروانة وقد جمع بروانة أكابره والتقاه أحسن ملتقى وأكرمه وقدّم له تقدمات نفيسة إلى أن خجل الملك حاتم بحيث لم يعلم ما الذي أوجب هذا الإسراف في خدمته. فلما أظهر بروانة ما في قلبه أجابه بالسمع والطاعة وأظهر له الفرح

والبشاشة والغبطة وقرّر معه أنه لا يمكن التغريس قبل خلاص أخي البنت فإذا خُلّص نفعل ذلك إن شاء الله تعالى. وفي سنة تسع وستين وستمائة وصل سنقر الأشقر من بلاد سمرقند إلى الملك حاتم وهو سيَّره إلى البندقدار مكرّماً وأوهبه وأعطاه. ثم أن البندقدار سير له ولده أيضاً بحرمة عظيمة وخيالة كثيرة وفي هذه السنة حاصر البندقدار مدينة أنطاكية وأخذها وقتل فيها وسبى وأحرق كنائسها المشهورة في العالم. وفيها توجه الملك حاتم إلى أباقا وشكر ودعا له على خلاص ولده من الأسر واستقال من السلطنة وطلب أن يكون ولده موضعه وأنه شيخ عاجز. فقال له: إنه إذا حضر عندنا نحن نملّكه. فتوجّه إلى بلده وسيَّر ولده إلى عبودية أباقا.

وفي سنة سبعين وستمائة في شهر نيسان تزلزلت الأرض في بلاد الأرمن وخربت قلاع كثيرة ومات فيها مائة ألف نفر من الناس غير الدوابّ. وفي سنة خمس وسبعين وستمائة نزل أباقا إلى بغداد ليشتّي بها وصار غلاء عظيم ومجاعة وعزّت الأسعار.

وفي هذا التاريخ توفي خواجا نصير الدين الطوسي الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغة حكيم عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة. واجتمع إليه في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين. وكان تحت حكمه جميع الأوقاف في جميع البلاد التي تحت حكم المغول. وله تصانيف كثيرة منطقيّات وطبيعيّات وإلآهيّات وأوقليدس ومجسطي. وله كتاب أخلاق فارسيّ في غاية ما يكون من الحسن جمع فيه جميع نصوص أفلاطون وأرسطو في الحكمة العمليّة. وكان يقوّي آراء المتقدّمين ويحلّ شكوك المتأخرين والمؤاخذات التي قد أوردوا في مصنفاتهم. وكان من الفضلاء في زمانه نجم الدين القزوينيّ منطقيّ عظيم صاحب كتاب العين. ومؤيّد الدين العرضيّ وفخر الدين المراغيّ وقطب الدين الشيرازيّ ومحيي الدين المغربيّ. ومن الأطباء المشهورين فخر الدين الأخلاطيّ وتقيّ الدين الحشائشيّ. واشتهر هذا في عمل الترياق شهرة عظيمة وإن لم يكن من الأطباء المشتغلين المشهورين وبسفاهته استظهر على باقي الأطباء في هذا الزمان. ومنهم نفيس الدين بن طُلَيب الدمشقيّ وولدَه صفيّ الدين النصرانيّ الملكيّ.

وفي هذا التاريخ وهو سنة خمس وسبعين وستمائة وهي سنة سبع وثمانين وخمسمائة وألف للاسكندر عزم بندقدار أن يدخل بنفسه إلى بلد الروم لأن كان عنده أقوام قد هربوا من بلد الروم الذين هربوا إلى الشام قد قوّوا عزمه على ذلك. ولما أحسَّ الملك لاون ابن ملك الأرمن سيَّر إلى أمراء المغول الذين في بلد الروم وعرَّفهم ذلك وحذَّرهم. وأما بروانة فإنه بوجهين كان يكذّب ملك الأرمن في هذا قولهُ الأول أنه كان يختار ورود البندقدار إذ له معه وعد. والثاني لأنه كان يبغض ملك الأرمن وكان يختار أن يزيّف قوله. ولما أن الأمراء المغول أهملوا الأمر إذ هاجمهم المصريون وهم سكارى فلم يلحق أحدهم أن يركب فرسه. وأن الياسا الذي لهم أنهم لا يهربون قبل أن يلتقوا العدوّ. ولما التقوا وقعت الكسرة فيهم وقتل جميع أكابر المغول أحدهم طوغو والآخر

توذان بهادر. وكان مع المغول ثلاثة آلاف كرج فوقفوا وبذلوا المجهود فقتل منهم ألفان وتخلف ألف واحد. وقُتل أيضاً من عسكر المصريّين خلق كثير. ولما حقَّق بروانة كسرة المغول هرب وتحصَّن في بعض القلاع. وأما البندقدار فإنه نزل عند القيسارية في موضع سمّي كيقوباد وبقي هناك خمسة عشر يوماً ودخل إلى القيسارية مرَّة واحدة ولم يدنُ منه لأحد من الرعايا شرٌّ ولا كلَّفهم شيئاً أصلاً وإنما جميع ما يحتاجون إليه كانوا يشترونه مشترّى. وكان يقول: إني ما جئت إلى ههنا لأخرب البلد لكن لأفكّ صاحبه من الأسر. وأما أباقا إيلخان فحين وصلت إليه الأخبار بذلك غضب غضباً شديداً وجمع العساكر وقصد بنفسه الروم. ولما عرف البندقدار أنه لا يمكنه مقاومته رحل عن بلد الروم وتوجه إلى الشام. ولما وصل أباقا إلى بلد الروم لم يجد أحداً من المصريّين وفي الحال نزل البروانة إليه ولم يُرِهِ أباقا شيئاً من الغضب وإنما أحسن إليه وأكرمه وأخذه صحبته إلى الطاق لما عاد حيث يستشيره كم يقدّر أن يكون في الروم عسكر يقاوم المصريّين. وعمل دعوة عظيمة وسقاه من لبن الخيل شيئاً كثيراً لأنه ما كان يشرب خمراً. وفيما هو قد خرج البروانة ليريق ماءه أشار أباقا إلى أناس من حوله ليقتلوه فقتلوه وقطعوه قطعاً قطعاً وكان ذلك في ثاني يوم من شهر آب لتلك السنة. وأما البندقدار فلما قرب من حمص أدركه أجله ومات يقولون أصابه في الحرب مع المغول نشابة في وركه ولم يمكن إخراج النصل منه وبقي أياماً كثيرة ولما أذن للجرائحي أن يخرجه وجاهد في إخراجه مع خروج النصل فارق الدنيا. وآخرون قالوا إن أناساً من جماعته سقوه في لبن الخيل سمّاً ولما أحسَّ عاد سقى لمن أسقاه منه فماتا إثناهما.

وفي سنة تسع وسبعين وستمائة لما قام الألفي ليتملك على الديار المصرية والشام لم يوافق في ذلك سنفر الأشقر[1]. ولما تمكن الألفي وقوي جانبه هرب منه سنقر الأشقر ووصل إلى الرحبة واتفق هو وأمير بدويّ اسمه عيسى بن مهنا وسيَّرا رسولاً إلى أباقا إيلخان يستدعيانه ليركب إلى الشام ويسلّما إليه البلاد الشامية والديار المصرية. ولما وصلت عساكر المغول إلى الشام خاف سنقر الأشقر مهم على نفسه ولم يلتق بهم بل هرب وتحصن في قلعة صهيون. فوصل المغول إلى حلب وأي موضع صادفوه خرَّبوه. وكان وصولهم إلى الشام في وقت الشتاء من سنة ثمانين وستمائة وكان مقدَّمهم قونغرتاي أخو أباقا الصغير وعاد المغول إلى البلاد. وفي سنة إحدى وثمانين وستمائة دخل المغول إلى الشام في خمسين ألفاً وفي رأسهم مونكاتمور الأخ الأصغر لأباقا وأخذوا معهم ملك الأرمن بعساكره. واجتمع عسكر الشام وفي رأسهم الألفي وسنقر الأشقر فإنهما اصطلحا في ذلك الوقت على محاربة المغول. والتقى العسكران بين حماة وحمص في يوم الخميس سلخ تشرين الأول لتلك السنة وقوي جانب المغول على جانب الشاميّين. ولما قاربوا لينتصروا

(١) أنظر تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٤٥٥.

عليهم نصرة ويهزموهم إذ خرج على المغول كمين العرب من بني تغلب من ميسرتهم فتوَهَّم المغول أن عساكر كثيرةً قد أحاطت بهم من قدَّامهم ومن خلفهم ولم يلحق الهرب أصحاب الميسرة مع أهل القلب. وأصحابُ الميمنة وفيهم ملك الأرمن مع خمسة آلاف كرج لم يشعروا بالكمين وإنما كسروا المصريّين الذين في مقابلتهم وساقوا خلفهم إلى باب مدينة حمص وقتلوا فيهم خلقاً كثيراً ولم يزالوا إلى أن وصل إليهم الخبر بهرب أصحابهم. فعند ذلك رجعوا وفي الرجعة صادفوا جماعة من عسكر المصريّين الذين ساقوا خلف أصحابهم الهاربين وعاد بينهم القتال وقُتل من الجانبين خلق كثير. ورجعوا وقد حملوا شيئاً كثيراً من الأموال والخيل والسلاح الذي نهبوا. ولما وصل مونكاتمور إلى الجزيرة وهو قد خرج يومئذ من الحمَّام عملوا سرّاً مع بعض الشرابداريَّة وسقوه سمّاً. ولما أحسَّ بتغيُّر مزاجه توجَّه نحو نصيبين وقضى نحبه. وأما أهل الجزيرة فإنهم لما شعروا بذلك أدركهم الخوف العظيم ولزموا للصفيّ القرقوبيّ وكتفوه وداروا به في أسواق الجزيرة ثم قتلوه.

وأما أباقا إيلخان فإنه توجه نحو بغداد ومنها إلى همذان. وفي يوم عيد النصارى الكبير لتلك السنة دخل إلى البيعة في تلك المدينة وعيَّد مع النصارى. ويوم الاثنين ثاني العيد عمل له شخص فارسي اسمه بهتام دعوة عظيمة في داره. وليلة الثلاثاء تغيَّر مزاجه وصار يرى خيالات في الهواء. ويوم الأربعاء وهو أوّل يوم من نيسان لتلك السنة وهو العشرون في ذي العقدة انتقل من هذا العالم[1]. ومونكاتمور انتقل يوم الأحد سادس عشر المحرَّم في بلد الجزيرة.

(السلطان أحمد)[2] ولما توفي أباقا إيلخان اجتمع الأولاد والأمراء وحصل الاتفاق بينهم أن أحمد بن هولاكو من قوتاي خاتون يصلح للتدبير والمملكة وأنه مستحقّ لهذا الملك وهو أولى به والطريق له بعد أباقا. ولما جلس على كرسي المملكة يوم الأحد الحادي والعشرين من حزيران لتلك السنة سنة إحدى وثمانين وستمائة وعنده الكفاية والدراية والكرم أخرج من الخزائن والأموال شيئاً كثيراً وقسم على الأولاد والأمراء والعساكر وأظهر الإحسان والشفقة إلى جميع المغول وإلى الأمم الباقية وخصوصاً إلى أكابر النصارى. وأرسل الرُسل إلى سلطان مصر بسبب الصُلح وكتب إليه رسالة هذه نسختها:

(رسالة أحمد)

بقوة الله تعالى بإقبال قاان فرمان أحمد. أما بعدُ فإنّ الله تعالى بسابق عنايته وبنور هدايته قد

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٦، هلك أبغا سنة إحدى وثمانين وستمائة.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٦ تكدار بن هولاكو ويسمى أحمد.

كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيّته والإعتراف بوحدانيّته. والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوّته. وحُسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في بريّته. فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين. وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين. إلى أن أفضى بعد أبينا الجيّد وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه. ما تحقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه. وجلا هذه المملكة علينا. وأهدى عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك وهو المجمع الذي ينقدح فيه آراء جميع الاخوان والإخوة والأولاد والأمراء الكبار ومقدّمي العساكر وزعماء البلاد واتفقت كلمتهم على أن ينفذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتهم وامتلأت القلوب رعباً لعظم صولتهم وشديد بطشهم إلى تلك الجهة بهمَّة تخضع لها شمّ الأطواد. وعزيمة تلين لها الصمّ الصلاد. ففكرنا فيما مُخِضت زبدة عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من إنشاء الخير العامّ. الذي يقوم بقوّته شعار الإسلام. وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلاّ ما يوجب حقن الدماء. وتسكين الدهماء. ويجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمن. ويستريح المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان. تعظيماً لأمر الله وشفقةً على خلق الله. فألهمنا الله إطفاء تلك النائرة. وتسكين الفتن الثائرة. وإعلام مَن أشار بذلك الرأي ما أرشدنا الله إليه من تقديم ما يُرجى به شفاء العالم من الأدواء. وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء. وأننا لا نحبّ المسارعة إلى هزّ النصال للنضال إلاّ بعد إيضاح المحجة. ولا نأذن لها إلاّ بعد تبين الحقّ وتركيب الحجّة. وقوّى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح. وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه الإصلاح. إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن فهو نِعم العون في أمور الدين. فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه. ونقمة على من أعرض عنه وعصاه. وأنفذنا أقضى القضاة قطب الدين والأتابك بهاء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرّفاهم طريقتنا. ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل سنّتنا. وبيَّنّا لهم أننا من الله على بصيرة وأن الإسلام يجبّ ما قبله. وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحقّ وأهله. ويشاهدون عظيم نِعَم الله على الكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان. ولا يُجرَمونها بالنظر إلى سالف الأحوال. وكل يوم هو في شان. فإن تطلَّعت نفوسهم إلى دليل يستحكم به دواعي الاعتماد. وحجَّة يثقون بها من بلوغ المراد. فليُنظر إلى ما قد ظهر من مآثرنا مما اشتهر خبره وعمَّ أثره فإنَّا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بأعلاء أعلام الدين وإظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً. وإقامة نواميس الشرع المحمّدي على قانون العدل الأحمديّ إجلالاً وتعظيماً. وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اخترع سيّئة واقترف. وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عمَّا سلف. وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد

والمدارس. وعمارة بقاع البرّ والرُبُط الدوارس. وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقها بشروط واقفها. ومنعنا أن يُلتمس شيء مما استحُدث عليها وأن لا يغيّر أحد شيئاً مما قُرّر أولاً فيها. وأمرنا بتعظيم أمر الحجّ وتجهيز وفدها وتأسيس سبيلها وتسيير قوافلها. وأطلقنا سبيل التجار والمتردّدين إلى البلاد وليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم. وحرمنا على العساكر والشحاني في الأطراف التعرّض لهم في مصادرهم ومواردهم. وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زيّ الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك فلم نرَ إهراق دمه صيانة لحرمة ما حرّمه الله تعالى وأنفذناه إليهم. ولا يخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين. فإن عساكرنا طال ما رأوهم في زيّ الفقراء والنسّاك وأهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا. ورُفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر أذننا به من فتح الطريق وتردُّد التجّار وغيرهم. فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها فلا يخفى عنهم أنها أخلاق جُبُلّيّة طبيعية وعن شوائب التكلُّف والتصنّع عريّة.

وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي النفرة التي كانت موجبة للمخالفة. فإنها إن كانت بطريق الدين. والذبّ عن حوذة المسلمين. فقد ظهر بفضل الله ويمن دولتنا النور المبين. وإن كان لما سبق من الأسباب. فمن يجري الآن طريق الصواب. فإن له عندنا الزُلفى وحسن مآب. وقد رفعنا الحجاب بفصل الخطاب وعرّفناكم ما عومنا عليه من نيّة خالصة لله تعالى وأتينا باستيفائها[١] وحرّمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها. ليرضى الله والرسول. وتلوح على صفائحها آثار الإقبال والقبول. وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمّة. وتنجلي بنور الائتلاف واللمّة ظلمة الاختلاف والغمّة[٢]. فيسكن في سابغ ظلّها البوادي والحواضر. وتقوى القلوب التي بلغت من الجهد إلى الحناجر. ويُعفى عن سائر الهفوات والجرائر. فإن وفّق الله تعالى سلطان مصر لما فيه صلاح العالم. وانتظام أمور بني آدم. فقد وجب عليه التمسّك بالعروة الوثقى. وسلوك الطريقة المثلى. بفتح أبواب الطاعة والاتحاد. وبذل الإخلاص بحيث تُعمر تلك الممالك والبلاد. وتسكن الفتن الثائرة. وتُغمد[٣] السيوف الباترة. تحلّ الكافّة أرض الهوينا وروض الهدون. وتخلص أرقاب المسلمين من أغلال الذلّ والهون. وإن غلب سوء الظنّ بما تفضّل به واهب الرحمة. ومُنع عن معرفة قدر هذه النعمة. شكرَ الله مساعينا وأبلى عذرنا وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً. والله الموفّق للرشاد والسداد. وهو المهيمن على جميع البلاد والعباد. وحسبنا الله وحده. وكُتب في أواسط **جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة** بمقام الطاق.

---

(١) لعل الصواب وأتينا باستثنافها وحرمنا على عساكرنا بخلافها.

(٢) الغمّة: الحزن الشديد.

(٣) تغمد السيوف: توضع نصلة السيف في مكانها.

ثم إن ملك مصر كتب إلى السلطان أحمد جواب هذه الرسالة: من سلطان مصر سيف الدين أبي مظفر قلاوون. أما بعد حمد الله الذي أوضح لنا نبأ الحق منهاجاً. وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً. والصلاة على سيّدنا ونبيّنا محمد الذي فضله على كل شيء نُحي أسّه وكل نبيّ ناجي. وعلى آله وصحبه صلاة تُثير ما دحي وتنير من داجي والرضى عن الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وسليل الخلفاء المهتدين. وابن عمّ سيّد المرسلين الخليفة الذي تتمسّك ببيعته أهل هذا الدين. أنه ورد الكتاب الكريم. الملتقى بالتكريم. والمشتمل على النيل العظيم. من دخوله في الدين. وخروجه عمَّن خالف من العشيرة والأقربين. ولما فُتح هذا الكتاب فاتحَ بهذا الخبر المعلم. والحديث الذي صحَّ عند أهل الإسلام إسلامه وأصحُّ الحديث ما روي عن مسلم. وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى في أن يثبته على ذلك بالقول والعمل الثابت. وأن ينبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبته في أحسن المنابت. وحصل التأمل للفضل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النيَّة في أوّل العمر وعنفوان الصبا والإقرار بالوحدانية. ودخوله في الملَّة المحمديَّة بالقول والعمل والنية. والحمد لله على أن شرح صدره للإسلام. وألهمه شريف هذا الإلهام. فحمدنا الله على أن يجعلنا من السابقين الأولين إلى هذا والمقال المقام. ويثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام. وأما إفضاءُ النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه. وإفاضة هذه المواهب العظيمة عليه. وتوقّله الأسرَّة التي طهَّرها إيمانه وأظهرها سلطانه فقد أورثه الله مَن اصطفاه من عباده. وصدق المبشرات له من كرامة أوليائه وعبَّاده. وأما حكاية اجتماع الأخوان والأولاد والأمراء الكبار في قوريلتاي الذي ينقدح فيه زند الآراء وأن كلمتهم اتفقت على ما سبق به حكم أخيه الكبير في انفاذ العساكر إلى هذا الجانب وأنه فكَّر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفاً لما في ضميره إذ قصده الصلاح ودأبه الإصلاح. وأنه أطفأ تلك النائرة. وسكَّن تلك الثائرة. فهذا فعل الملك التقيّ المُشفق على قومه. ومَن يفي الفكر في العواقب. بالرأي الثاقب. وإلاّ فلو تركوا آراءهم حتى يحملهم الهوى لكانت تكون هذه الكرَّة هي الكرَّة. لكن هو كمنْ خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى. ولم يوافق قول من ضلّ ولا فعلَ من غوى. وأما القول إنه لا يحبّ المسارعة للمقارعة إلاّ بعد إيضاح المحجَّة وتركيب الحجَّة. فانتظامه في سلك الإيمان صارت حجَّتنا وحجَّته المتركبة على من عدت طواغيه عن سلوك هذه المحجة مُسكتة. وأن الله سبحانه والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصر هذه الملَّة وجهادنا واجتهادنا إنما هو لله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول. فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول. وبارتفاع المنافرة. تحصل المناصرة. فالإيمان كالبنيان يُشدّ بعضه من بعض. ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان وجيران بجيران في كل أرض. وأما تركيب هذه الفوائد الجمَّة على إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عَبدُ

الرحمن أعاد الله من بركاته فلم يَرَ وليّ من قبل كرامة كهذه الكرامة. والرجاء ببركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة حتى تتمّ شرائط الإيمان. ويعود شمل الإسلام كأحسن ما كان. ولا ينكر بمن بكرامته ابتدأ هذا التمكن في الوجود. إن كل حقّ ببركته إلى مصابه[1] يعود. وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الدين والأتابك شهاب الدين الموثوق بنقلهما في إبداع رسائل هذه البلاغة. فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوال أحواله وخطرات خاطره ومناظرات منظره. ومن كل ما يُشكر ويُحمد. ويفيض حديثهما فيه عن مسند أحمد. وأما الإشارة إلى أن النفوس كانت تتطلع إلى إقامة دليل تُستحكم بسببه دواعي الأمر ومصادره من العدل والإحسان. بالقلب واللسان. والتقدّم بإصلاح الأوقاف فهذه صفات من يريد لملكه دواماً. فلما ملكَ عدلَ. ولم يلتفت إلى لوم مَن عدل على أنها لو كانت من الأفعال الحسنة. والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة. فهي واجبات كليَّة تؤدَّى وهي أكبر من أنه يأجُر أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أو له يدَّخر. وإنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطي ممالك وأقاليم وحصوناً. وأن يبذل في تشييد ملكه عن مصون. وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرّض إلى أحد بالأذى. وإصفاء موارد الواردي والصادرين من شوائب القذى. في حين بلغنا تقدّمه بذلك تقدَّمنا مثله أيضاً إلى سائر النَّواب بالرحبة والبيرة وحلب وعين تاب وتقدَّمنا إلى مقدّمي العساكر بأطراف تلك الممالك بمثل ذلك. وإذا اتخذ الأمان وانعقد الإيمان بختم هذه الأحكام ترتَّبت عليه جميع الحكَّام وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك ثم أطلق وإن بسبب من يتزيَّا من الجواسيس بزيّ الفقراء قُتلت جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن فهذا باب من تلك الأبواب كان فتحه. وزند منه كان قدحه. وكم متزيٍّ بالفقر من ذلك الجانب سيَّروه. وإلى الاطّلاع على الأمور سوَّروه. وظفر النوَّاب منهم بجماعة فرُفع عنهم السيف. ولم يكشف ما غطَّته خرقة الفقر بِلَمْ ولا كيف. وأما الإشارة إلى أن في اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم. وينتظم شمل بني آدم. فلا ريب لمن طرق باب الاتحاد ومن جنح السلم فما حاد ومن ثنى عنانه عن المكافحة. كمن مدَّ يد المصالحة للمصافحة. والصلح وإن كان سيّد الأحكام فلا بدَّ من أمور تُبنى عليها قواعده. ويُعلم من مدلولها فوائده. فإن الأمور المسطورة في كتابه كليَّاتٌ لأزمة يُفهم بها كل معنى ويُعلم أن يتهيأ صلح أو لَمْ. وَثَمَّ أمور لا بدَّ وأن يحكم في سلكها عقوداً لعهود تنظم قد يحملها لسان المشافهة التي إذا أفردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس. وأحرزتها صدور الرسل كأحسن ما تُحرزه سطور الطروس. وأما الاستشهاد بقوله تعالى ﴿وما كنَّا معذِّبين حتى نبعث رسولاً﴾ فما على السبق من الودّ بنسج ولا على السبيل بنهج بل الفضل لمن تقدَّم. في الدين حقوق تُرعى. وإفادات تُستدعى

(١) لعل الصواب إن كل حق ببركته إلى نصابه يعود.

وعند الانتهاء إلى جواب ما لعلَّه يجب عنه الجواب من فصول الكتاب وسمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الملَّة والدين. وانتظام عقده بسلك المؤمنين. وما بسطه من عدلٍ وإحسان. وسيرة مشكورة يكلُّ[١] عن وصفها اللسان. فقد أنزل الله على رسوله في حقّ مَن أمتنَّ بإسلامه **«قُل لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان»**. ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطايا ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء. فإن حصلَت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل. فالجواب أن تَمَّ أموراً متى حصلت عليها الموافقة. تَمت المصادقة. ورأى الله تعالى والناس كيف يكون مصافينا. وإدلال معارفينا عند تصافينا وكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة. وما تمَّ أمر الدين المحمديّ واستحكم في صدور الإسلام إلاّ بمظاهرة أصحابه. فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد. وحسن الوداد. وجميل الاعتقاد. وكبْت الأعداء والأضداد. والاستناد إلى مَن يشتدّ به الأزر عن الاستناد. فقد فهمَ المراد. ومن المشافهة إذا كانت عزيمتنا غير ممتدَّة إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنقاذ المفترين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب لو كفَّ كفَّ العدوان من هنالك. وخلا للملوك المسلمين ما لهم من ممالك. سكنت الدهماء. وحُقنت الدماء. وما حقّه أن ينهى عن خُلق ويأتي بمثله. ولا يأمر بشيء أو ينسى فعله. وقونغرتاي بالروم الآن وهي بلاد في أيديكم. وخراجها يجبي إليكم. قد سفك فيها الدماء وقتل وسبى وهتك وباع الأحرار. وأبى إلاّ التمادي على ذلك الأضرار. ومن المشافهة أنه حصل التصميم على أن يبطل هذه الإغارات. ولا يفتر عن هذه الأثارات. فيعيّن مكاناً يكون فيه اللقاء. ويعطي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك الآن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعَين مرَّة ومرَّة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم. وخاف أن لا يعاودها فيغادره مصرع ذلك اليوم. ووقت اللقاء علمه عند الله لا يقدَّر. وما النصر إلاّ من عند الله لمن أقدر لا لمن قدَّر. وما نحن ممن ينتظر فلتة. ولا له إلى غير ذلك لفتة. وما أمر ساعة النصر إلاّ كالساعة التي لا تأتي إلاّ بغتة. والله الموفّق لما فيه صلاح هذه الأمّة. والقادر على إتمام كل خير ونعمة. إن شاء الله تعالى. كُتب في مستهلّ شهر رمضان المعظم سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وفي هذا التاريخ نُقل إلى السلطان أحمد أن أخاه قونغرتاي له كلام مع أرغون[٢] ابن أباقا وأنهم يريدون قتله فخاف وسارع إلى قونغرتاي وقتله. ولما بلغ الخبر إلى أرغون بقتل عمّه حزن لذلك وصعب عليه وأظهر تغيير قلبه على أحمد. فلما شعر أحمد بتغيير قلب أرغون عليه سيَّر

(١) يكلّ عن وصفها اللسان: يعجز عن وصفها اللسان.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٦ (أرغو بن أبغا).

عسكراً عظيماً وكبيرهم أمير من المغول اسمه الينا خ فتوجهوا إليه وهو بخراسان. فلما وصل العسكر إليه انهزم أرغون من قدّامه. فأهمل الينا خ أمره واشتغل بالأكل والشرب والسكر. وفي بعض الليالي هجم أرغون على عسكر الينا خ وبعض العسكر معه. ولما سمع السلطان أحمد بذلك غضب وانزعج عظيماً ثم سيَّر إلى جميع البلاد وجمع العساكر العظيمة وقصد أرغون. فلما رأى أرغون أنه عاجز عن مقاومته صعد إلى حصن هناك ومعه ثلاثمائة نفر من الفرسان البهادورية أتباعه وتحصَّن هناك من غير أن يحبس نفسه في مكان لكنه منتقل من موضع إلى موضع لأنه كان يفكر بقوله: كل محاصَر مأخوذ ولم تطعه نفسه بالرجوع إلى طاعة السلطان أحمد. فبينما هو في هذه الأفكار وأميراً واحداً من أمراء أبيه أباقا كان محبوباً عند والده اسمه بوغا تقدَّم إلى السلطان أحمد قائلاً له: إن أعطيتني عهداً بأن لا تؤذي أرغون ولا يدَّنيه السوء فإني أمضي إليه وأحضره بين يديك. فسمع كلامه واستصوب مشورته ووقع الاتفاق على هذا. وحينئذ صعد بوغا في الحال إلى أرغون وخاطبه وجاء به إلى أحمد وفرح السلطان أحمد بذلك وعمل الدعوات والأفراح ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث تغيَّر قلب السلطان أحمد على أرغون وجالت الأفكار في خاطره طالباً قتله. فدعى الأمير الينا خ وجماعة أخرى معه ووكل على أرغون وأوصاهم على الاحتياط به لئلاّ يهرب وأنه متوجّه إلى بلاد أذربيجان إلى أمّه قوتاي خاتون وأمرهم أن يصحبوه إليه. ولما جاء الليل عزم على الرحيل وكشف سرَّه إلى بعض الأكابر حيث يقول: إن لم أهلك أرغون وسائر الأولاد لم أسترح ولا تنتظم السلطنة لي. وعند الصباح رحل وأوصى أن يصحبوا إليه أرغون قليلاً قليلاً. فأما الأمير بوغا فلما تحقَّق هذا الأمر وعرف ما في ضمير أحمد وما تبعه وأبطأ معتاقاً إلى الليل. وفي الليل دار على جميع الأولاد وعرَّفهم ضمير أحمد وما قد عوَّل عليه أن يفعله بهم. فأخذتهم الغيرة ونهضوا في تلك الليلة بأجمعهم وقصدوا أرغون مكانَ كل موكل عليه وأخرجوه وألبسوه السلاح وأركبوه الفرس وركبوا جميعهم في خدمته إلى الموضع الذي كان فيه الينا خ وهجموا عليه ودخلوا قتلوه وقتلوا معه جميع الأكابر أصحابه في الخيمة ونادوا في العسكر أنَّ أبناء الملوك قد قتلوا الينا خ وأصحابه فكل من هو في موضع يلزم مكانه ولا يتحرّك ولا يخف. وعند الصباح سيَّروا في طلب عسكر أرغون أحضروهم وركبوا في جمع عظيم وساقوا في أعقاب أحمد وأدركوه عند أمّه فلزموه وكتفوه واستحفظوا به ونهبوا الأردو الذي له جميعها. ولما وصل أرغون وجماعة الأولاد اتفقوا على أن يملكوا عليهم أرغون ويكون الملك له موضع والده أباقا وأحمد ينعزل لأنه ما يصلح أن يدبّرهم. وانتهت سلطنة أحمد[1] إلى هذه الحالة وذلك يوم الأربعاء حادي عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٦، وكانوا ينقمون عليه إسلامه فثاروا عليه وقتلوا نائبه ثم قتلوه سنة إثنتين وثمانين وبعثو إلى أرغو بن أبغا بطاعتهم.

(أرغون[١] ايلخان) ولما جلس أرغون على كرسي المملكة اتَّفق الأكثرون من أمراء المغول وأكابرهم أن يقتلوا أحمد. فكان يقول أرغون: لا أوافق على قتله بل أمّ قونغرتاي وأولادها هم يعرفون به والذي يختارون أن يفعلوا به فليفعلوا. حينئذ بقي تحت التوكّل أياماً وبعد ذلك قتله أولاد قونغرتاي وانتقموا منه وأخذوا دم والدهم. وكان ذلك يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة. ثم أن أرغون لما استقام له الأمر رتَّب كل واحد من الأولاد في راس عسكر من عساكر مملكته. ثم قيل لأرغون أن صاحب الديوان هو قتل أباقا والدك بسمٍّ سقاه. ولما كان يسير يطلبه من السلطان أحمد فما كان يسمح له به ولا كان يسلّمه إليه. فتحقق أرغون أن أحمد اختار موت والده. فلما استقرَّ أرغون في الملك هرب شمس الدين صاحب الديوان إلى الجبال التي في الأهواز واحتمى بطائفة من الأكراد يسمَّون باللور وكان كبيرهم شخص اسمه يوسف شاه. ولما وصل إلى طاعة أرغون قبله قبولاً حسناً وأكرمه لأنه قبل عليه أن يلزم صاحب الديوان ويحمله إلى عبوديته. وفعل ذلك ولزمه وحمله إلى أرغون. ولما قدم قدَّم أموالاً كثيرة نحو مائة تومانٍ من ذهب. ثم أنهم عرضوا عليه أن يشتري نفسه بحيث لا يُهرَق دمه فطلب المهلة ليبيع أملاكه وما تخلَّف له ويقرض ويوصل ذلك. حينئذٍ حصَّل بطريق القرض من أصحابه وأهله وأنسبائه وأحبائه وأصدقائه قريباً من أربعين تومانا آخر من الذهب وقال: هذا الذي قد حصل ولا يمكن أن يحصل غيره فأنتم الذي تختارون فعله فافعلوه. فبرز الأمر من الملك أرغون بقتله وقُتل يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان لهذه السنة وافق ذلك سابع شهر تشرين الأول سنة ستّ وتسعين وخمسمائة وألف للاسكندر. وكانت هذه آخرة مثل ذلك الرجل العظيم الهيوب الحكيم الذي كانت الدولة بأسرها معلقة بخنصره. وكان عنده العقل والخبرة وكان كاملاً بجميع السياسات والتدابير والتواضع الحسن. ويقولون عنه أنه ما سبقه أحد بالسلام بل هو كان يبتدىء مَن تقدَّم إليه.

(١) في تاريخ ابن خلدون ح ٥ ص ٦١٦ (أرغو بن أبغا).

الفهرس

ترجمة ابن العبري ٣

خطبة الكتاب ٧

الدولة الأولى: للأولياء قبل الدخول إلى أرض الميعاد ٩

الدولة الثانية: المنتقلة من الأولياء إلى القضاة قضاة بني إسرائيل ٢٤

الدولة الثالثة: المنتقلة من قضاة بني إسرائيل إلى ملوكهم ٢٩

الدولة الرابعة: المنتقلة من ملوك بني إسرائيل إلى ملوك الكلدانيين ٤٢

الدولة الخامسة: المنتقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك الفرس ٤٦

الدولة السادسة: المنتقلة من ملوك الفرس المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين .. ٥٣

الدولة السابعة: المنتقلة من اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الإفرنج ٥٩

الدولة الثامنة: المنتقلة من ملوك الإفرنج إلى ملوك اليونانيين المتنصرين ٨٠

الدولة التاسعة: المنتقلة من ملوك اليونانيين المتنصّرين إلى ملوك العرب المسلمين ... ٨٣

الدولة العاشرة: المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول ٢٤١